الأصابع الخفية

التوظيف الإعلامي السياسي لشخصية الجاسوس

الكتاب : الأصابع الخفية.. التوظيف الإعلامي السياسي لشخصية الجاسوس
الكاتب : د. خالد محمد غازي
الطبعة : **2018**



الناشر : وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575
فاكس : 35878373
http://www.apatop.com   E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

محمد غازي ، د. خالد
الأصابع الخفية.. التوظيف الإعلامي السياسي لشخصية الجاسوس
خالد محمد غازي – الجيزة: وكالة الصحافة العربية، **2010**.
تدمك : **978 -977-446-162-4**
1– دكتوراه في الصحافة الإلكترونية
أ – العنوان **229** رقم الإيداع / **5215/ 2010**

د. خالد محمد غازي

الأصابع الخفية

التوظيف الإعلامي السياسي لشخصية الجاسوس





مقدمة

في خفاء وسرية وتكتم بالغ الحذر، تعمل الجاسوسية منذ قديم الأزل، ولا يزال عملها رئيسيا ومؤثرا في صناعة الأحداث بجميع أشكالها وباختلاف ميادينها، وتبدو الجاسوسية – لمن يقوم بدراستها – نشاطا ضروريا لبقاء الدول والتنظيمات وحتى الشركات التجارية، غير قابل للانفصال عن آليات اتخاذ القرار.

وتعود الظاهرة في تاريخها إلى العصور القديمة، حيث ترافقت مع تطوّر الحياة الإنسانية من حالة البداوة إلى الحالة الحضرية، واشتدت مع بدء الحروب والغزوات الأولى؛ فالأقدمون كانوا يعتمدون عليها في حروبهم وغزواتهم، وكانوا يستعملون الحمام الزاجل لتحقيقه.

وقد تطوّرت أساليب التجسس مع تطوّر العلم والتكنولوجيا، وباتت تشمل استعمال الأقمار الاصطناعية والتنصت عبر الهواتف بشتى أنواعها، وفي أية بقعة من بقاع الأرض، الأمر الذي خفف من استخدام العناصر البشرية.

إلا أنه من الثابت في الوقت الحاضر أن للتجسس أهمية كبرى ودوراً كبيراً على صعيد الدول والحكومات والمنظمات والمؤسسات والأشخاص، في حالتي الحرب أو السلم على السواء.

والجاسوسية: هي علم له قواعده، وأصوله التي يجب إرشاد الجواسيس إليها؛ ليتمكنوا من إنجاز وأداء مهامهم كما تتطلبها الغاية التي يسعون إليها.

ويعد جمع المعلومات هو القيمة الأساسية التي يبني عليها دور أجهزة المخابرات في جميع أنحاء العالم، وفي ضوء قيمتها المعرفية يتم اتخاذ القرارات

الاستراتيجية؛ خاصة السياسية والعسكرية، فهذا "ستانفيلد تيرنر"– المدير السابق لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية – يقول: "الحصول على المعلومات بالنسبة لبلد مثل أمريكا مهم للغاية، فالولايات المتحدة دولة ذات نشاط عالمي، فهي تحاول التواجد في كل بقعة من العالم".

وتظل مشكلة إيجاد الفرد الملائم للعمل كجاسوس، مشكلة دائمة لجميع أجهزة المخابرات، فهي تتطلب أفراداً ذوي مواصفات خاصة، فالوصول إلى فرد يتمتع بالذكاء والجرأة والكتمان أمر بالغ الصعوبة والتعقيد، فماذا لو أضفنا لتلك الصفات أن يكون متعلماً تعليماً جيداً ومتفوقاً دراسياً، قادراً على الإحاطة العلمية السريعة بالمعلومة وتحليلها، فهذا هو ما يحتاجه عالم اليوم. عالم الأقوياء والأذكياء والموهوبين.

وقد أدت ثورة المعلومات لتغيير الدور الذي كان الجواسيس والعاملون في مكافحة الجاسوسية يقومون به في الماضي، فيما يتعلق بجمع المعلومات وتوصيلها وتحليلها.

فانتشار استخدام الإنترنت أدى إلى تغيير طريقة جمع المعلومات بشكل جذري، وقد لاحظ سيرمان كيئت، من جهاز المخابرات الأمريكية الـ"سي. آي. إيه"، أن الإنترنت قد وفر ما يقارب الـ **90%** من المعلومات التي كان الجواسيس يبحثون عنها قبل خمسين عامًا؛ فأصبحت شبكة الإنترنت ينبوع المعلومات، الذي تعتمد عليه القوى الكبرى لتفعيل قطاعاتها الاقتصادية، ومن أهم الوسائل لجمع هذه المعلومات وتحليلها: توافر أجهزة ذات سرعة عالية، وشبكات متطورة لتبادل المعلومات بسرعة، وأجهزة عملاقة ومتطورة لتحليل هذه المعلومات والاستفادة منها وتوظيفها.

ومن الأدوار والوظائف المتعددة التي تلعبها الجاسوسية: استثمار الإعلام فيما يعرف بالتسويق السياسي، وهو ـ كمصطلح سياسي وبناء معرفي ـ حديث نسبياً، ومثار جدل وخلاف، حيث إنه ظهر كمفهوم جديد في العقدين الأخرين من القرن العشرين.

ويرتكز التسويق السياسي على تطبيق مفاهيم وأساليب التسويق التجاري، من قبل الكيانات السياسية أو اللاعبين السياسيين، من أجل تحقيق أهدافهم، وهو في رأي أرون أوكاس "**aron ocass**" "تحليل وتخطيط وتنفيذ وتحكم في البرامج السياسية، بما يضمن بناء علاقات ذات منفعة متبادلة بين كيان سياسي ما والمواطنين".

إننا يجب علينا النظر إلى التسويق السياسي كمفهوم ومصطلح ووسائل؛ من واقع ارتباطه بالعملية الاتصالية، فلا تسويق بدون وسائل اتصال، لأنه يعني تخطيط وتحليل وتنفيذ برامج سياسية عن طريق وسائل اتصال جماهيرية، تهدف لمنفعة كيانات سياسية أو مرشحين للعب أدوار في التأثير الجماهيري، وهذا يعد فحوى التسويق السياسي. الذي يتم عبر سياسة الاتصال السياسي داخلياً وخارجياً.

ونموذج التسويق السياسي هو مزيج ودائرة تبدأ بالمؤسسة السياسية ثم تعود إليها، فالنموذج يبدأ بالمؤسسة السياسية في توصيل فكرة أو ممارسة أو قضية معينة إلى المنتج السياسي ثم تذهب إلى وسائل الاتصال المختلفة، بعد ذلك تكون جاهزة إلى السوق السياسية المتمثلة في الجمهور، لتعود في رجع الصدى إلى المؤسسة السياسة مرة أخرى.

إن المرء ليصاب بالدهشة والذهول، حين يطالع أسماء الذين تورطوا مع المخابرات من كبار المفكرين والإعلاميين، وقد كان معظمهم على علم بما يقومون به. وأقلهم تورطوا غفلة.

في كل يوم، بل في كل ساعة يتأكد أن الإعلام صناعة خطيرة، يجرى من خلاله تضليل الرأي العام في العالم عن حقيقة ما يجري من جرائم هنا وهناك، ويجرى تعليب الأخبار كما تُعلّب المواد الغذائيّة، وتُضاف إليها النكهات التي توهم بصدقها وواقعيّتها.

وعلينا أن نضرب مثالا بأشهر وكالات الانباء العالمية، التي منها: الأسوشيتد برس، واليونايتد برس، ورويتر، وفرانس برس، وهي وكالات أنباء غربيّة، فنجد أنه من المفارقات العجيبة أن حدثاً يجرى في بلد عربيّ، ينقله بلد عربيّ آخر مجاور له عن وكالة الأنباء الفرنسيّة ـ على سبيل المثال، ويُذاع وتتناقله وكالات الأنباء والإذاعات، قبل أن يبادر البلد نفسه بإعلان بيان رسمي بالخبر! والسؤال: من أين جاءت وكالة الأنباء بذلك الخبر وبثته؟ بطبيعة الحال عن طريق عيون ومخبرين لها في "دهاليز" مقرات الرئاسة والممالك والوزارات في هذا البلد أو ذاك.

إن نسبة كبيرة جداً من معلومات أجهزة الاستخبارت في العالم، تؤخذ مما ينشر في الصحف ووسائل الإعلام وما يتداوله الناس في مجالسهم؛ حيث يتم إخضاعها للتحليل والاستنتاج، وهذا بدوره يقودنا إلى حجم الاختراق الذي يعانيه الإعلام؛ وأنه ليس من مهمة الجواسيس جمع المعلومات فقط، ففي كثير من الأحيان تكون مهمتهم نشر المعلومات على شكل شائعات أو على شكل معلومات منسوبة إلى مصادر غير معلنة، بهدف زعزعة الاستقرار وخلق حالة من البلبلة في البلاد، أو بهدف إخضاع ثوابتها للنقاش والجدل.

استمع لتشرشل كيف يبرر الكذب والخيانة في مبدئهم وطريقة عيشهم: "الحقيقة ثمينة، وللمحافظة عليها لا بد أن نسيّجها بسياج من الأكاذيب"!

وها هو الروائي العالمي جورج أورويل يسأل: "كيف تستطيع أن تنشئ مصنعًا للأكاذيب، وأنت (جنتلمان) مهذب نظيف بعيد عن الشبهة؟ ويجيب: "إن الروايات عندما تُرَدّدُ نفسَ الشيء بشكل متواتر فإن الكذب يمرّ في التاريخ ويصبح حقيقة".

إن التضليل الإعلامي، يصنع الرأي العام ويقلب الحقائق، ويزور التاريخ، ويقلب المفاهيم، فيصوّر البطولة خيانة، والخيانة عملاً وطنياً، وتحت وطأة الظروف فإن الناس العاديين يهتفون للخيانة كما كانوا يهتفون للإخلاص والشهادة.

المؤلف

الأصابع الخفية.. صناعة الإعلام والتسويق السياسي

قال نابليون بونابرت: "إن جاسوسا واحدا في المكان المناسب خير من عشرين ألف جندي في الميدان".. ويستدرك أحد الخبراء في عالم المخابرات بشرط "أن يتم اختياره وتدريبه جيدا".

(1)

التجسس: تعريفه اللغوي: الجَسُّ: هو اللَّمْسُ باليد.. والمَجَسَّةُ: الموضع الذي تقع عليه يده إِذا جَسَّه. وجَسَّ الشخصَ بعينه: أي تمعن وحدق فيه ليسْتَبِينَه.. وجَسَّ الخَبَرَ وتَجَسَّسه: بحث عنه وفحَصَ.

وفي الحديث النبوي: (لا تَجَسَّسُوا)، أي خُذوا ما ظَهَرَ ودَعُوا ما سَتَرَ الله عزَّ وجل. والتَّجَسُّسُ، بالجيم: التفتيش عن بواطن الأُمور، وأَكثر ما يقال في الشر.
والجاسُوسُ: صاحب سِرِّ الشَّر.. وقيل: التَّجَسُّسُ، بالجيم، أَن يطلبه لغيره، وبالحاء، أَن يطلبه لنفسه، وقيل بالجيم: البحث عن العورات، وبالحاء الاستماع، وقيل: معناهما واحد في طلب معرفة الأَخبار.. والجاسُوسُ: هو العَيْنُ؛ أي يتَجَسَّسُ الأَخبار ثم يأْتي بها.

ويبدو أنه من العسير وضع تعريف جامع شامل للتجسس؛ بسبب تعدد أفعال التجسس واختلافها، مما يحول دون وضعها جميعاً في قالب واحد، إذ تشكل كل حالة جريمة خاصة ومميزة عن سواها.

كما أن غالبية التشريعات لم تضع تعريفاً للتجسس، بل اقتصرت على تحديد الأفعال الجرمية التي تعتبر جريمة من جرائم التجسس.

ومن المتعارف عليه بين شعوب العالم بمختلف ثقافاتهم؛ أن الجاسوس هو الشخص الذي يعمل في الخفاء أو تحت شعار كاذب ليحصل على معلومات مفيدة للعدو، ويعمل في وقت الحرب والسلم، ويحصل على معلومات متنوعة لتعزيز جبهة الدولة التي يتجسس لحسابها، وفي حالة نشوب حرب جديدة ليحصل على معلومات عن تطور الأسلحة الحربية في الدول الأخرى، وما وصلت إليه من تكنولوجيا حديثة، ومن أجل تقوية الصراع القائم بين الدول على القواعد الاستراتيجية والسيطرة على مناطق النفوذ، والاستفادة من الاضطرابات السياسية في بقاع العالم.

أما على صعيد التشريعات الدولية، فقد عرّفت المادة 29 من اتفاقية لاهاي عام 1907 الجاسوس، بأنه ذلك الذي يقوم بممارسات في الخفاء أو عن طريق الخداع أو التنكر، بهدف البحث أو الحصول على معلومات من دولة بغرض نقلها أو إيصالها إلى دولة أخرى عدوة. كما عرفت المادة 46 من بروتوكول 1977 الملحق باتفاقية جنيف عام 1949 الجاسوس بأنه ذلك الذي يجمع أو يحاول جمع معلومات ذات قيمة عسكرية، في الخفاء أو باستعمال الغش والخداع. وبالرغم من عدم الاتفاق على تعريف موحد للتجسس، فالمتفق عليه هو اعتبار التجسس من الجرائم المخلة بأمن الدولة الخارجي.

وعقاب جاسوس الحرب هو الإعدام.. أما عقاب الجاسوس في السلم فهو السجن لمدة معينة.

أما الجاسوس المزدوج: فهو الذي يعمل لحساب دولتين في وقت واحد (جاسوس بوجهين)، وهو أخطر أنواع الجواسيس فلا يمكن أن ينجح في هذه المهمة إلا شخص يتسم بالذكاء والمكر الشديد؛ حتى يستطيع أن يكسب ثقة الطرفين ويخدع كلا منهما في الوقت ذاته؛ وغالباً ما تكون حياة الجاسوس المزدوج رهن لأي خطأ بسيط يقع فيه دون قصد، لكن ما يحققه من مكاسب كبيرة من هذه اللعبة الخطرة يجعله لا يبالى حتى بالمغامرة التي ثمنها حياته في سبيل معلومة؛ ليحصّل بها أموالا من الدولتين.. مثال على الجاسوس المزدوج (جورج بليك)، حيث كان دبلوماسياً إنجليزياً وعميلاً للمخابرات الإنجليزية في ألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية، لكنه في الوقت ذاته كان شيوعياً يتجسس لحساب روسيا.

والجواسيس الذين يجندون للتجسس تكون لديهم عدة أسباب منها:

- وضعهم تحت الأمر الواقع من قبل مخابرات عدوهم، وتهديدهم بكشف أعمال سبق أن ارتكبوها والتي اطلعت عليها المخابرات بطريقتها الخاصة؛ وإن كُشف أمرها لبلدهم سينالون عقابا.
- حبهم للثراء وحياة الليل والبذخ، والليالى الحمراء التي تتيحها لهم الجاسوسية.

– حاجتهم الملحة إلى المال بسبب الفقر أو ضعف الذات، واستسهال الحصول على المال.

– معارضتهم لحكوماتهم أو السلطة السياسية الحاكمة أو معارضتهم لمذهب ديني أو طائفي في وطنهم.

ويجمع المتخصصون في تحليل الشخصية، على أن الجاسوس تتوافر فيه عدة سمات هي:

– أن تكون روحه المعنوية عالية، وأن يتحلى بالذكاء وحسن البديهة والتصرف؛ وأن يكون نشيطاً للقيام بالأعمال التي تتطلب الجرأة.

– أن يتصف بقوة الذاكرة وتسجيل المعلومات في رأسه، دون أن ينسى، ويحب المغامرة ويعرف كيف يناقش الآراء.. وتتوافر له القدرة على مسايرة غيره من الناس وأن يعمل كفرد في فريق عمل، وأن يفهم نقاط الضعف، والحماقة في الآخرين مع تخلصه هو نفسه من نقاط الضعف والحماقة، وأن يكون قادراً على إعداد التقارير بمهارة ودقة، ويسر، وأن يقدر قيمة ملاحظاته.

– أن يعرف كيف يوجد في غيره روح التعاون، وأن يكون قادراً على تنظيم وإدارة وقيادة الآخرين، وأن يكون راغباً في تحمل المسؤولية.

– أن تتوافر له القدرة العملية في المسائل التي تحتاج إلى المهارة المهنية.

– أن يكون متزن العاطفة، أي لا تهزه المؤثرات العاطفية، وأن تتوافر له الطاقة والاحتمال تحت الظروف المجهدة وأن يكون صبوراً هادئ الطبع وموفور الصحة.

– أن يكون دقيقاً في عمله، صائب الرأي دقيق الحكم، يعرف كيف يعقل لسانه ويغلق فمه، أميناً على الأسرار.

– أن يكون قادراً على التضليل والخداع عندما يكون هذا الخداع أو التضليل، ضرورة ملحة.

يقول "آلين دالاس" في كتاب "حرفة المخابرات": بعض المؤهلات التي يجب أن تتوفر في ضابط المخابرات أو الجاسوس الناجح، هي:

– يجب أن يكون قادراً على أن يعمل مع الآخرين تحت ظروف شاقة، وأن يتعلم كيف يميز بين الحقيقة والخيال.

– أن يكون لديه حب استطلاع، وأن يكون قادراً على التفرقة بين ما هو ضروري وما هو غير ضروري.

– أن يكون على قدر كبير من البراعة والتفنن، ويجب أن ينتبه إلى التفاصيل وأن يتعلم متى يلزم الصمت.

– أن يكون قادراً على أن يعبر عن الأفكار بوضوح واختصار وبطريقة مشوقة، وأن يكون متفهماً لوجهات النظر الأخرى وطرق التفكير الأخرى.

– ألا يغالي في طموحه أو قلقه، من حيث الجزاء الشخصي على شكل شهرة أو ثروة، فهذه لن يحصل عليها في عمل المخابرات.

– أن يبذل جهده في الحصول على المعرفة سواء في مجال الفنون والعلوم الاجتماعية، خاصة في علم التاريخ والجغرافيا.

– يجب أن يكون على وعي سياسي، يجمع بين مواهب الثقافة، والإدراك؛ وأن يكون مرناً في التفكير، فإن ضيق الأفق لا يخلق من الشخص رجل مخابرات ناجحاً.

– أن يكون قادراً على الموازنة بين الجرأة وإجرءات الأمن.. وأن يكون على دراية بالعوامل السيكولوجية التي تحدد سلوك الإنسان كفرد في المجتمع، وأن تكون لديه حنكة الابتكار وأن يمارس هوايات تساعده على قتل الملل الذي يعتريه نتيجة تعقيدات وأسلوب عمله.

– أن يكون ملماً بلغة أجنبية، خاصة لغة المنطقة التي يعمل بها.

ومن أهم الأعمال التي يمتهنها الجواسيس للاندماج في المجتمع:

– الانتقال إلى البلد المطلوب التجسس فيه، والتظاهر بممارسة مهنة معينة يحتاج إليها أبناء ذلك البلد.

– فتح مكاتب تجارية بالتعاون مع أفراد البلاد التي يعيشون فيها.

- عرض رؤوس الأموال لتأسيس شركات، وتنفيذ مشاريع عمرانية بالتعاون مع أبناء البلد.
- المشاركة في الصحف ودور النشر.
- شراء فنادق جاهزة أو إنشائها بنفس الطريقة.
- يضاف إلى ذلك الملحقون الثقافيون والعسكريون والتجاريون في السفارات، الذين يعمدون إلى جمع معلومات من مختلف المصادر وأن بعضهم يجند من أبناء البلاد لمدهم بالمعلومات مقابل بعض المال.

تتعدد أنواع التجسس وتتشابك في مجالات كثيرة، من أهمها:

1- **التجسس العسكري**: وقد كان من أول أنواع التجسس وأخطرها، فكل دولة تسعى للحصول على المعلومات العسكرية الضرورية عن الدول المعادية والصديقة على حد سواء؛ وهذا النوع يهدف إلى معرفة أسرار الدول الأخرى المتعلقة بالجيوش والأجهزة العسكرية والخطط الحربية والأسلحة والصواريخ والذخائر والقنابل الذرية والتجهيزات والمواقع العديدة والعدة العسكرية.

وقد أعطت العديد من الدول هذا النوع من التجسس رعاية مميزة من خلال رصد الأموال، وإنشاء دوائر ومكاتب مختصة بشؤون التجسس، وتدريبهم، وتنظيم شبكاتهم بصورة علمية دقيقة. ولا يقتصر ذلك التجسس على زمن الحرب؛ بل ينشط أيضاً في زمن السلم تحسباً للحرب وتوخياً لتحقيق المخططات العسكرية. وقد قال أحد العلماء: "إن الحروب هي من صنع الجواسيس والجواسيس المضادين".

2- **التجسس الاقتصادي**: لم تعد الحروب تقتصر على النواحي العسكرية، بل تخطتها إلى الشؤون الاقتصادية؛ ويهدف هذا النوع من التجسس إلى الوقوف على المقدرات الاقتصادية للدول الأخرى العدوة والصديقة، لمعرفة مواردها وثرواتها ووضعها المالى والنقدي ومستوى تجارتها وصناعتها وزراعتها وطرق استثماراتها.

3- التجسس العلمي: تمارس الدول - خصوصاً الدول العظمى - هذا النوع؛ بهدف الاطلاع على الأسرار العلمية وسرقتها، أو بهدف اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمواجهتها. ويهتم ذلك بالكشف عن الأبحاث والدراسات والاختراعات العلمية على الصعد كافة: العسكرية والصناعية، وغيرها.

4- التجسس السياسي: لا يقل خطورة عن أنواع التجسس الأخرى، وهو يرمي إلى مراقبة أوضاع وأسرار سياسات الدول الأخرى، سواء على الصعيد الداخلي أو على الصعيد الخارجي. ويتم التجسس السياسي من خلال رصد تحركات ونشاطات ومواقف القادة والزعماء والحكام والأحزاب والمنظمات السياسية والأمنية. وهو يهدف إلى التحكم في سيادة الدول واتجاهاتها، أو إلى اغتيال بعض السياسيين أو إلى زرع بذور الفتنة، أو تحطيم الأنظمة السياسية المعادية.

5- التجسس الدبلوماسي: ويمارسه أفراد البعثات الدبلوماسية، ويتمثل في جمع المعلومات بطريقة غير قانونية دون أن يخفي القائمون به صفتهم الدبلوماسية، مما يميزه عن صور التجسس الأخرى، ويصنف ضمن التجسس زمن السلم؛ ويذخر تاريخ العلاقات بين الدول بالمشاكل والنزاعات الناجمة عن التجسس الدبلوماسي. ومن الأمثلة على ذلك: النزاع الذي وقع بين كندا وكوبا عام 1978 ، نتيجة قيام كندا بطرد مبعوث دبلوماسي وقنصلين كوبيين لقيامهم بالتجسس ضد المعارضة الأنجولية في كندا؛ وقيام الحكومة السوفييتية سنة 1964 باعتقال دبلوماسيين غربيين تورطوا في عملية تجسس داخل الاتحاد السوفييتي السابق بجمع معلومات سرية؛ خاصة بالدفاع وقواعد الرادار والمطارات والأنفاق والجسور، بواسطة آلات تصوير متطورة ومجهزة بتقنية عالية.

وقد أثبت التاريخ أن المبعوثين الدبلوماسيين كثيراً ما يمارسون التجسس نظراً لوضعهم القانوني الخاص، وللعلاقة الوثيقة بين الوظائف الدبلوماسية والتجسس، ولتمتعهم بالحصانات والامتيازات الدبلوماسية المكرسة باتفاقية فيينا للعلاقات الدبلوماسية لعام 1961.

لكن قيام المبعوثين الدبلوماسيين بخرق مبادئ ونصوص الاتفاقية المذكورة من خلال التجسس يشكل عملاً خارجاً عن نطاق الوظائف الدبلوماسية، وتعسفاً في استعمال الامتيازات والحصانات، لذلك فهو يعتبر عملاً غير مشروع؛ لكن من غير الممكن من الناحية الإجرائية ملاحقة المبعوث الدبلوماسي قضائياً ومعاقبته؛ لأنه يتمتع بحصانة قضائية مطلقة؛ وفقاً للمادة 31 من اتفاقية فيينا لعام 1961.. وهذا ما يفسر قيام أغلبية الدول بطرد المبعوثين الدبلوماسيين عند تورطهم في عمليات تجسس. ومن الأمثلة على ذلك: قيام الحكومة البريطانية بطرد 105 مبعوثين سوفييتيين عام 1971، و25 عام 1985.. وقيام الحكومة البوليفية بطرد 49 مبعوثاً سوفييتياً عام 1972، وكذلك طرد حكومة الولايات المتحدة الأمريكية 100 مبعوث سوفييتي عام 1986، و50 عام 2001، وقد تلجأ بعض الدول إلى طلب تخفيض عدد أفراد البعثة الدبلوماسية، أو التنازل عن حصانة المبعوث، أو قطع العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين المضيفة والموفدة، أو اعتبار المبعوث شخصاً غير مرغوب فيه فتجبر دولته على سحبه وفقاً لاتفاقية فيينا لعام 1961.

ويعد جمع المعلومات هو القيمة الأساسية التي تبني عليه أجهزة المخابرات في جميع أنحاء العالم، وفي ضوء هذه المعلومات يتم اتخاذ القرارات الاستراتيجية؛ خاصة السياسية والعسكرية، فهذا "ستانفيلد تيرنر"، المدير السابق لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، يقول: "الحصول على المعلومات بالنسبة لبلد مثل أمريكا مهم للغاية فالولايات المتحدة دولة ذات نشاط عالمي، فهي تحاول التواجد في كل بقعة من العالم".

ولم تعد الجاسوسية التقليدية كافية لتحقيق الهدف السياسي أوالاستراتيجي، فتم استحداث ما يسمى بالجاسوسية المقننة، حيث يتم استخدام التمويل الأجنبي من أجل الإنفاق على أجندات ومشروعات تحددها الجهات المانحة وتعمل على تحقيق هدف جمع المعلومات، وذلك بقصد أو غير قصد من المتلقي.

ويفسر "تيرنر" أسباب لجوء الدول الرأسمالية لسياسة التمويل الأجنبي في جمع المعلومات، حيث يقول إن: "الدول العظمى والمنظمات الدولية المانحة للمساعدات أصبحت تعتمد على المنظمات غير الربحية نتيجة لما تملكه تلك المنظمات من معلومات وإحصائيات مهمة ودقيقة وحديثة عن الأوضاع في الدول التي تعمل فيها والتي يصعب على الدول والمنظمات المانحة الحصول عليها بطرقها الاستخبارية وقنواتها الرسمية والدبلوماسية المباشرة، نتيجة لعدم وجودها أصلا أو لصعوبة الحصول عليها لعدم تنظيمها بطريقة منظمة أولسريتها، كما هو الحال في كثير من دول العالم الثالث".

وهذا يفسر الاهتمام غير العادي من الجهات المانحة، بإجراء أكبر كم من الأبحاث الميدانية في المجتمعات العربية بجميع طبقاتها والإنفاق السخي على تلك الأبحاث التي يلمس المطلع عليها خطرها على الأمن القومي العربي والإسلامي، فضلاً عن مخالفتها لجميع الأعراف العلمية والقانونية المرتبطة بجمع البيانات وإجراء الأبحاث.

وفي هذا الصدد يقول "محمد حسنين هيكل": "أنا غير راض أساساً على التمويل الخارجي للأبحاث، فالمثل الإنجليزي يقول: "الرجل الذي يدفع للزمار هو الذي يقرر النغمة التي يعزفها الزمار".

ويضيف هيكل: "عندما لا يكون لنا رأي في توجيه هذا التمويل للأبحاث ولا نعلم لمن تقدم نتائج هذه الأبحاث، وفي غياب مفهوم شامل يعطيني كل الصورة وبدون رقابة أو توجيه يدخل التمويل للسيطرة على عقل المجتمع ووجدانه، فعندما يكون أحد الأبحاث يمول من "السى. آي. إيه" أو "المركز الأكاديمي الإسرائيلي"، فهل يعقل أن يكون ذلك طبيعيا؟ وهل يمكن أن نفصل بين موضوع البحث ومن سيستفيد منه؟ فعندما نجد أن مائة مليون دولار من المعونة الأمريكية لمصر مرصودة للأبحاث، فلابد أن أسأل: ما المطلوب؟".

(2)

ومن أهم السياسات التي تستخدمها الجاسوسية – في رأي د. حمدي عبد العظيم في كتابه "الجاسوسية الاقتصادية":

أولاً: **سياسة التطويق**: وبموجب هذه السياسة يتم تطويق الطرف الآخر، وإحكام الحصار عليه، وحصره في نطاق جغرافي أو إنتاجي معين، ولا يسمح له بتعديه إلى أماكن جغرافية معينة، أو إلى مجالات إنتاجية أخرى.

وتستخدم عدة أساليب لتحقيق هذا الهدف، أهمها: الإقناع والإرغام والتصيد، حيث تقوم سياسة التطويق على انتهاز وقوع حدث معين وتعبئة الرأي العام ضده، وتحويل الغضب من هذا الحادث العارض إلى كراهية دائمة، وانتهاز هذه الكراهية لضرب الخصم فكراً وعقيدة، وتجريمه، وتشتيت جهوده، وتحويل أصدقائه إلى أعداء، ومن ثم إرغامه على الركوع والتسليم والاستسلام.. ويقوم هذا الدور على عدة خطوات أهمها:

الخطوة الأولي: إغراء الطرف الآخر بالقيام بالتصرف الأحمق الذي يعبئ ضده جميع الأطراف، ويصوره بالشكل المخيف الذي يهدد كل شيء غال ونفيس تحرص عليه الأطراف الأخرى.

الخطوة الثانية: إثارة الشكوك والبلبلة حول إمكانيات وقدرات الطرف الآخر، وما يملكه من وسائل القوة وأدواتها السرية والعلنية مما يدفعه إلى إظهار ما يلي:

(**أ**)– ما يخفيه من أدوات ووسائل القوة التي غالبا ما تكون مخيفة ومدمرة.

(**ب**)– رغباته وأهدافه الدقيقة التي يسعى إلى تحقيقها، تحت شعور واهم بغطرسة القوة وإرهاب الآخرين.

(**ج**)– جنونه واستهتاره وعدم احترامه للقيم والأعراف، وأن ما قام به من تصرفات ليس إلا مقدمة لتيار أشد منها. وبناء على هذه الخطوة يشيع الخوف في كل المحيطين به، ويحدث لديهم رعب منه.

الخطوة الثالثة: بناء حاجز من التربص والحذر والخوف من هذا الطرف، يتم تحويله إلى سور نفسي ومادي يحيط بالطرف الآخر يعزله "isolating" عن الآخرين، ويمنع تعامله معهم.

الخطوة الرابعة: تفجير الوضع الداخلي للطرف الآخر، عن طريق إرغام أصحاب المصالح في التعامل مع العالم الخارجي على معارضته واللجوء إلى تدبير المؤامرات للقضاء عليه.
الخطوة الخامسة: تحريك قوى المعارضة الداخلية والخارجية للإطاحة بقيادات الطرف الآخر المناوئة لنا، وتقريب قيادات موالية لنا تحقق مصالحنا وترعى أهدافنا بدقة، وتشرف على تحقيق هذه الأهداف والمصالح. وتحتاج سياسة الحصار إلى وجود "طابور خامس"، أو بمعنى آخر إلى وجود عناصر مخلصة لنا مزروعة بشكل خفي لدى الطرف الآخر، حتى تساعد على توليد قوى الغضب والقلق والتوتر الداخلي وتصعيدها.

ثانياً: سياسة التفريغ الذاتي: وأهم المجالات التي يتم بها تفريغ الطرف الآخر ذاتيا:
- **العلماء والباحثون**: حيث يتم استقطابهم للعمل بالخارج بدلا من إسهامهم في البنية الداخلية، ومن خلال جميع وسائل الترغيب والإغواء، أو وسائل التهديد والإرهاب الإداري والفكري إذا لم تجد معهم الوسيلتان السابقتان، يتم تصفيتهم جسدياً، وذلك لحرمان الطرف الآخر من جهودهم العلمية والبحثية والاستفادة منها.
الأموال والطاقات الإنتاجية المتاحة: حيث يتم توجيهها إلى مجالات غير منتجة بالشكل الذي يفقد عملية الإنتاج مضمونها، ويلتهم الفائض ويحوله إلى عجز دائم ومزمن.

ثالثا: سياسة التدمير الذاتي: حيث يتم دفع الطرف الآخر تدريجياً إلى أن يدمر نفسه بذاته، تتم مساعدته بالطبع على ذلك عن طريق تشجيع الحروب والصراعات بين فئات وعناصر المجتمع وزيادة الفواصل بينهم، وإزكاء عناصر التناحر والتطاحن بين هؤلاء الأفراد بعضهم البعض، وبالتالي إهدار الأمن الاجتماعي الشائع بينهم، وإشاعة الخوف والرعب بين جنبات كل فئات المجتمع بحيث يتوجس كل منهم خيفة من الآخر، واستخدام أساليب

التردي المنظم "orgnized badness" التي تتولى تدمير الطاقات والقدرات الخاصة بالكيان الإداري المعادي: ومحاربة العلماء وأصحاب العقول الذكية، خاصة من يتوافر لديهم الحس الوطني أو الإحساس العميق بالمسؤولية، والحرص على قيم الشرف والنزاهة، وعزلهم عن السلطة واتخاذ القرار، لما يمثلونه من مخاطر وخطورة على مخطط التقويض.

كذلك توسيع نطاق التآكل القيمي والأخلاقي من خلال عدم الاهتمام بعناصر الجودة والنوع والكيف. كذلك تشجيع التسيب والانحراف وسوء استعمال واستخدام وتخريب وسائل العمل، وتدمير أدوات الإنتاج بإيجاد تنظيمات مخربة تقوم بذلك، تتولى تفكيك خطوط الإنتاج الحديثة الصالحة، وبيعها على أنها خردة غير صالحة.

رابعاً: سياسة التغريب والتغييب عن الواقع: وتقوم هذه السياسة على تشويه الرموز الوطنية وتجريمها وتحويلها من رموز إيجابية إلى صور ممسوخة باهتة، تتحول تدريجياً إلى مجرمة.

وتبدأ تصفية الحسابات مع الموتى من الرموز الوطنية ذات الدور الوطني، وإحلال رموز أخرى محلها تكون بمثابة البديل، من الأحياء الذين لا يشكلون خطراً على الإطلاق، بل صوراً ممسوخة باهتة لا لون فيها ولا حياة، وتقوم تلك السياسة على بث الشائعات وإيجاد القناعات غير السلمية، وزرعها داخل بنيان المجتمع والنسق العقائدي له، وتستخدم سياسات التغريب والتغييب مجموعة من الأدوات الرئيسية أهمها:

سياسات الانسلاخ عن الواقع العملي: وتقوم هذه السياسة على استخدام الأحلام التي لا يمكن أن تتحقق لعدم توافر إمكانيات تحقيقها، وبالتالي إيجاد فجوة يائسة وإحباط عنيف يدفع الأفراد للهروب من الواقع إلى أحلام اليقظة، والتي تتيحها لهم عمليات خداع الذات، إضافة إلى إفقاد الإنسان الوطني مقومات وجذور انتمائه إلى أرضه التي نشأ عليها، وفي الوقت نفسه إيجاد حاجز بين مصالحه الذاتية ومصلحة الوطن الذي ينتمي إليه، وإيجاد المصلحة القوية بين مصالحه الذاتية ومصلحة الأجنبي الدخيل، الذي ينسب نفسه إليه وإلى ثقافته.

وتساعد الجاليات الأجنبية والنوادي الخاصة بالأقليات على ذلك، والهدف الحقيقي لتلك السياسة هو التلاعب بذاكرة الشعوب. حتى تنسى الأمم من هي في الماضي.. وماذا تفعل في الحاضر؟.. وإلى أين تتجه نحو المستقبل؟.. ويتحول كل شيء إلى ضباب كثيف وظلام دامس. وغيبوبة تجعل الأمة أسيرة اللحظة التي تعيشها.. وتجعل من حركتها مجرد رد فعل انعكاسي للأحداث اللحظية التي تمر بها، وتصبح حركتها دوائر تضيق شيئا فشيئا حتى تتطابق وتصل إلى المركز، فتصبح الحركة سكونا أو مجرد أنفاس لاهثة للحركة في نفس المكان كالمريض الذي يشرف على الموت.

– **سياسات الاستقطاب الحضاري والفكري**: وتقوم هذه السياسات على إعلاء الفكر الغريب وتمجيده بشكل كامل، والحط من شأن الفكر الوطني ومن المفكرين الوطنيين وتشبيههم بمخلوقات وضيعة متخلفة، وتجريحهم وتصويرهم على أنهم مجموعة من الشواذ أو المتخلفين عقلياً أو المنحلين أخلاقياً، والبحث عن ماض مختلق وأكاذيب ملفقة مدسوسة.

– **سياسة الربط بالتعبية**: إن العالم يتطور وتتوالى لديه الاكتشافات التي تضيف جديداً إلى الحزم التكنولوجية القائمة، ومن هنا تقوي هذه الحزم وتزداد وتترابط أجزاؤها بعضها البعض، بزيادة درجة الاعتمادية المتبادلة بينها وبين بعضها البعض، ومن هنا تقوم الدول الكبرى والشركات متعددة الجنسية باستخدام "الحزم التكنولوجية" كسياسات لإحكام قبضتها على الدول الصغرى والمتخلفة، إلا أن التبعية ليست مقتصرة على التبعية التكنولوجية، بل إنها تمتد لتشمل جميع المجالات الأخرى: أي الاقتصاد، والثقافة، والسياسة، والاجتماع .. إلخ.

(3)

السرية والتضليل في العمل الجاسوسي، هما عنصران أساسيان ملازمان لأصحاب تلك المهنة منذ أيامها الأولي. فلا عجب أن يقوم الرئيس الأمريكي الأسبق ترومان عام

1946 بتنظيم حفـل تنكـري بوليسـي، للإعـلان عـن تأسـيس المخـابرات الأمريكيـة، فالتجسس على أسرار الآخرين ما هو إلا مجموعة من الحيل الخبيثة والطرق الخفية للحصول على المعلومات.

لكـن ضـرورات المهمـة تتطلـب أحيانـاً أن ينفـذ أصـحاب تلـك المهنـة عمليـات قتـل واغتيال للحصول على المعلومات المطلوبة. وهذا ما يجعلهم في نظر السواد الأعظم رجال مهنـة خطـيرة . فمنـذ الخمسـينيات وحـتى يومنـا الحاضـر، بـذلت المخـابرات الأمريكيـة والسوفييتية جهوداً كبيرة لإقناع بلديهما بضرورة الإبقاء على النشاط الجاسوسي ودعمه بجميع الوسائل مادام العدو موجودًا على الجبهة المقابلة. تبعاً لذلك عمل المسؤولون في الـ"cia" والـ ("kgb" وهي المخابرات السوفييتية)، كل ما بوسعهم لإظهار الإنجازات التي حققتها عملياتهم الجاسوسية، والدور الفعال الذي لعبته تشكيلاتهم التنظيمية والإدارية المستحدثة. وبنظرة تاريخية نكتشف أن الإعلام والسيطرة عليه، كانا من المفردات الأساسية للعبة الصراع المخابراتي بين الولايات الأمريكية والاتحاد السوفييتي (سابقاً).

ففي عام 1953، رقي الرئيس أيزنهاور آلن دالس إلى رتبة مدير عام في الـ "cia" في إدارته الجديدة . ودالس بدأ عمله المخابراتي في الحرب العالمية الأولى، وانضم في الحرب الثانية إلى مكتب الخدمات الاستراتيجية . والذي عرف بولعه في تنفيذ عمليات دقيقة وذكية إلى حد جعل أصدقائه يصفونه بالفيل الأبيض، وهو الفيل المعروف بذاكرته القوية وذكائه الحاد.

وفي أول خطوة عملية لكبح جماح التوسع الشيوعي، أسس دالس، بالتعاون مع مديرية التخطيط "راديو الحرية" و"راديو أوروبا الحرة" الذي كان يبث برامجه من ألمانيا الغربية، والذي كان يكلف الـ"cia"، مبلغ 30 مليون دولار سنوياً - دفع قسم منها للإذاعيين والمثقفين الألمان الشرقيين الذين عملوا موظفين في الراديو المذكور - كما حرص دالس على بث برامج دينية نفذتها الـ "cia" سابقاً. وقد وصلت المصاريف العامة لمديرية التخطيط آنذاك إلى 82 مليون دولار. في هذا الإطار أيضاً، صرفت الـ"cia" مبلغ مليون

دولار لتأسيس "مجلس الحرية المدنية"، و300 ألف دولار للمساهمة في تأسيس مركز الدراسات العالمية في ولاية ماسا تشوستس الأمريكية، وهذه مبالغ طائلة جداً في وقتها.

وتظل مشكلة إيجاد الفرد الملائم للعمل كجاسوس، مشكلة دائمة لجميع أجهزة المخابرات، فهي تتطلب أفراداً ذوي مواصفات خاصة، فالوصول إلى فرد يتمتع بالذكاء والجرأة والكتمان أمر بالغ الصعوبة والتعقيد، ما بالك لو أضفنا لتلك الصفات أن يكون متعلماً تعليماً جيداً ومتفوقاً دراسياً، قادراً على الإحاطة العلمية السريعة بالمعلومة وتحليلها، فهذا هو ما يحتاجه عالم اليوم. عالم الأقوياء والأذكياء والموهوبين.

إن رسالة قصيرة أرسلها "ريتشارد سيرج" . وهو جاسوس ألماني عمل لحساب السوفييت، إبان الحرب العالمية الثانية في الياباز تضمنت بضع كلمات إلى روسيا تقول: "إن مصانع الملابس تنتج وتصنع ملابس صيفية للجنود، وأن أفراد الجيش الياباني يصرفون ملابس صيفية خفيفة، وأن مصانع الثلج في اليابان تعمل بكل طاقاتها وتتوسع في إنتاج الثلج".. وبهذه الرسالة القصيرة، وبضع الكلمات المقتضبة تغيرت الأحداث، حيث تأكد السوفييت أن اليابان لن تهاجم حدودهم كما كان معتقداً من قبل، وأن العمليات العسكرية اليابانية ستتجه إلى جنوب آسيا، حيث الجو شديد الحرارة والرطوبة، وبهذه المعلومات المستنتجة قام السوفييت بتوحيد جيشهم وتكتيله أمام ألمانيا النازية ليسجلوا أول انتصار لهم أمام جحافل الجيش الألماني الذي كان يعتمد على انقسام الجيش السوفييتي على جبهتين، إحداهما لمواجهة اليابان في الشرق والجنوب الشرقي والأخرى في الغرب لمواجهة ألمانيا. فالجاسوس قادر على إيجاد ثغرة ينفذ منها للمعلومة التي توظف لتحريك الأمور وصنع الأحداث ربما المذهلة.

وعن حرب المخابرات النفسية فيما بين مصر واسرائيل قبل حرب 1967، يقول جوردن توماس في كتابه "جواسيس جدعون": إن إدارة الحرب النفسية في الموساد كانت تعمل ليل نهار في إعداد الملفات حول القوات المصرية والطيارين والأطقم الأرضية. كانوا

يحللون مدى احترافهم، وكيفية حصولهم على مناصبهم. وعلاقاتهم الأسرية وأقاربهم.. وفي الليل كان مائير يعكف بنفسه على مطالعة هذه الملفات.. يبحث عن أي مصدر إضافي أو فرصة حتى لو كانت ضئيلة.. أما تعليقه فهو "لم تكن مهمتي ممتعة.. ولكن المخابرات عمل يجب أن يتم".

بدأت الحرب النفسية للموساد تظهر في خلق مشاكل عائلية للضباط المصريين، رسائل مجهولة تصل إلى بعض الأسر تحمل شكوكاً ضد رجلها الذي كان غائباً، وعادت النتائج لتؤكد أن الخطة النفسية نجحت.. واستطاعت تل أبيب إثارة المشاكل العائلية المختلفة في منازل بعض ضباط مصر.. وتابعت طلبات الإجازات التي انهالت ليعود الضباط لمنازلهم ليحلو أي أزمة أو مشكلة.

اتصالات ليلية تمت لزراعة الشك بين الأصدقاء.. أو لفضح أمر شخص ما.. كل ذلك القلق والتوتر في مصر كان مصدر سعادة عند مائير أميت رئيس جهاز الموساد الإسرائيلي . وقتها . في تل أبيب . ليس هذا فحسب بل استثمرت إسرائيل الإعلام الغربي، وعملت على تدمير الحالة النفسية للعرب في الستينيات، وأخذت تبث الدعاية الكاذبة عن الزعماء والرؤساء العرب، وعن قدرات إسرائيل العسكرية التي تمتلكها في مواجهة العرب.

فالعالم كله باتساعه وامتداده ليس إلا قرية صغيرة في عرف الجاسوسية.. قرية يحكمها، ويتحكم فيها بذكاء ودهاء أربع قوي هي:

(1) القوة الصانعة للقرار.
(2) القوة المتخذة للقرار.
(3) القوة المنفذة للقرار.
(4) القوة المستفيدة من صدور وتنفيذ القرار. يطرحها.

وبالتدخل والتأثير المزدوج والمتعدد، وإملاء الإدارة والسيطرة وتوجيه أى من هذه القوى يمكن التحكم فى هذا العالم، وهى مهمة الجاسوسية فهى تقوم بدور يؤثر فى تشكيل وصياغة وصنع القرار الاستراتيجى والإشراف على تنفيذه، ومراقبة أدائه.

(4)

أدت ثورة المعلومات لتغيير الدور، الذي كان الجواسيس والعاملون في مكافحة الجاسوسية يقومون به في الماضي، فيما يتعلق بجمع المعلومات "الأسرار" وتوصيلها وتحليلها؛ فقبل أكثر من ثلاثين عاما قامت أمريكا بإرسال قمر صناعي يسمح لها بمراقبة جميع الأحداث على الكرة الأرضية، وقد أدت التطورات التكنولوجية - خاصة مع تطور أجهزة الكمبيوتر - إلى رفع قدرة هذه الأقمار الصناعية بحيث أصبحت تقوم بعملها في جميع الأحوال والأوقات، وسوف يتم خلال السنوات القليلة المقبلة تطوير الطائرات صغيرة الحجم حتى تعمل عن طريق التحكم عن بعد، بدون حاجة لطيارين لجمع وكشف الإشارات في الأثير، بحيث تتمكن من جمع المعلومات التي تنقلها موجات الأثير مثل المكالمات الهاتفية غير أجهزة الموبايل والكمبيوتر ونقلها لتحليلها ودراستها.

إلا أن انتشار استخدام الإنترنت أدى إلى تغيير طريقة جمع المعلومات بشكل جذري، وقد لاحظ سيرمان كيئت من جهاز المخابرات الأمريكية "سي. آي. إيه" أن الإنترنت قد وفر ما يقارب الـ 90% من المعلومات التي كان الجواسيس يبحثون عنها قبل خمسين عامًا.

فأصبحت شبكة الإنترنت ينبوع المعلومات، الذي تعتمد عليه القوى الكبرى لتفعيل قطاعاتها الاقتصادية. ومن أهم الوسائل لجمع هذه المعلومات وتحليلها: توافر أجهزة ذات سرعة عالية، وشبكات متطورة لتبادل المعلومات بسرعة، وأجهزة عملاقة ومتطورة لتحليل هذه المعلومات والاستفادة منها وتوظيفها، كما أن أجهزة المخابرات الكبرى تقوم باختراق أجهزة الكمبيوتر وشبكات الكمبيوتر لتسجيل وتحليل المعلومات والأسرار الموجودة فيها،

لهذا فإن مبرمجي الكمبيوتر والمتخصصين في علوم الكمبيوتر سوف يشكلون أبرز عملاء المخابرات في المستقبل.

كذلك يمكن القول بأنه سوف تعمل ثورة المعلومات على تغيير تلك الطريقة التي كان يتم بها استدراج الناس للعمل في أجهزة المخابرات، ففي الماضي كانت أجهزة المعلومات تقضي الكثير من الوقت للبحث عن معلومات تفصيلية عن الشخص وأسراره الشخصية وحالته المالية ووضعه الوظيفي، وما إلى ذلك من تفاصيل.

ستؤدي ثورة المعلومات إلى تسهيل مسألة توصيل المعلومات التي يحصل عليها الجاسوس، وهو الجانب الذي كان يشكل خطورة على الجواسيس، إذ يلاحظ أن معظم الجواسيس الذين تم إلقاء القبض عليهم وقعوا في شراك أجهزة مكافحة التجسس وهم يقومون بتوصيل المعلومات وليس أثناء حصولهم عليها، أما بعد انتشار استخدام الإنترنت والبريد الإلكتروني، أصبحت مسألة توصيل المعلومات من أسهل جوانب العملية الجاسوسية، حيث من الصعوبة تقصي ومراقبة جميع الرسائل الإلكترونية مع سهولة تغيير عناوين الراسل والمستقبل للرسالة التي تتضمن معلومات سرية وخطيرة، كما أدى الإنترنت لتقليل الفترة الزمنية لإيصال المعلومات، حيث كان الجواسيس يحتاجون لأيام وأسابيع لإيصالها، أصبحت تصل في جزء من الثانية وباستخدام وسائل تقنية أكثر تطورا.

على سبيل المثال يطلق مصطلح "جاسوس الجواسيس" على "أيتشلون" وهو الاسم الذي يطلق على النظام الآلى لاعتراض والتقاط الاتصالات بجميع أنواعها، مثل: المكالمات التليفونية والفاكسات ورسائل البريد الإلكتروني وأية اتصالات مبنية على الإنترنت، ويعتقد البعض أن عمل أيتشلون يمتد ليشمل اعتراض والتقاط الاتصالات التي تتم بين الأقمار الصناعية.

وتعتمد المخابرات الأمريكية هذا النظام، وتتوزع مراكزه بين خمس دول هي الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا، وتقوده وكالة الأمن القومي الأمريكي

بالتعاون مع وكالات مخابرات البلدان الأخرى المشاركة فيه، ومنها مراكز قيادة الاتصالات الحكومية البريطانية ومركز قيادة الإشارات الدفاعي الإسترالي.

ويعمل هذا النظام – أيتشلون – بموجب اتفاقية "ykusa" التي وقعت عام 1947 عقب الحرب العالمية الثانية، بين الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، بهدف تطوير نظام تجسسي وتبادل معلوماتي بين الدول الموقعة على الاتفاقية، وانضمت إليه بقية البلدان التي شاركت فيها، ويقال إن له القدرة على التنصت على مليوني اتصال في الساعة أو 17.5 مليار اتصال في السنة، بينما يصل البعض بقدرته على التنصت إلى 3 مليارات اتصال يوميا ثم يوجه تلك الاتصالات بعد ترشيحها إلى وكالات المخابرات المعينية في الدول الأعضاء فيه.

كما أن هناك العديد من التقنيات التي تمكن أيتشلون من القيام بمهامه، وتمر بمراحل عدة تبدأ باعتراض المراسلات والتقاطها ثم مرحلة الترجمة ثم مرحلة التحليل، وبعد الكشف – منذ سنوات قليلة – عن وجود شبكة أيتشلون سارعت أوروبا باتهام الولايات المتحدة باستخدامه ضد المصالح الأوروبية وتحديدا فيما يختص بالجانب الاقتصادي، في إطار منافسة غير شريفة خاصة بعد اختفاء الذريعة التي من أجلها أنشئ النظام، وهي محاربة المد الشيوعي في فترة الحرب البادرة.

(5)

إن التسويق السياسي – كمصطلح سياسي وبناء معرفي – حديث نسبياً، هو مثار جدل وخلاف، حيث إنه ظهر كمفهوم جديد في العقدين الأخرين من القرن العشرين.

يدافع بعض كبار أساتذة التسويق أمثال كوتلر "kotler" عن مفهوم التسويق السياسي – لاعتقادهم بوجود تشابه كبير بين كل من الأنشطة السياسية والأنشطة التجارية – وهذا التشابه صحيح إلى حد ما، فالتسويق في كل منهما يتضمن طرح وعود بشيء ما، والسياسيون في الحملات السياسية يطرحون وعوداً عن طريق الاتصال بالجماهير.

إن ثمة اتفاقاً . في رأي د. راسم الجمال: التسويق السياسي والإعلام . على أن التسويق يعلب دوراً محورياً في كل المجتمعات، وأصبحنا نعيش حالة من التفكير الاستهلاكي والسلوك الاستهلاكي، وأصبحت العلاقات الاجتماعية يعبر عنها بلغة التسويق، وتقدر هوية الأفراد ومكانتهم الاجتماعية في ضوء امتلاكهم لسلع معينة. ومن هنا اكتسبت الأمور المادية معاني مهمة في المجتمع الاستهلاكي، وحولتها إلى رموز لهوية الفرد ومكانته، وهو ما سبقت الإشارة إليه.

وترى النظرية التقليدية للتسويق أن القيم عالية التفوق في السلعة هي التي تحدد قيمتها، وليس خبرة المستهلك في استهلاكها.

وتفترض هذه الرؤية أيضا أن ثمة انفصالاً بين القيمة المادية للسلعة والمعاني المرتبطة باستهلاكها، كما لو كان الأفراد يستهلكون السلع بطريقة سلبية، ولا يدركون قيمة ما يستهلكون بطريقة إيجابية.

وتركز تعريفات التسويق السياسي على تطبيق مفاهيم وأساليب التسويق السياسي من قبل الكيانات السياسية أو اللاعبين السياسيين، من أجل تحقيق أهدافهم.

أرون أوكاس "aron ocass" يعرف التسويق السياسي بأنه تحليل وتخطيط وتنفيذ والتحكم في البرامج السياسية، لضمان بناء العلاقات ذات المنفعة المتبادلة بين كيان سياسي ما والمواطنين.

وفي اعتقادنا أنه يجب النظر إلى التسويق السياسي كمفهوم ومصطلح ووسائل من واقع ارتباطه بالعملية الاتصالية، فلا تسويق بدون وسائل اتصال، لأنه يعني تخطيط وتحليل وتنفيذ برامج سياسية عن طريق وسائل اتصال جماهيرية، تهدف لمنفعة كيانات سياسية أو مرشحين مؤثرة جماهيرياً، هو فحوى التسويق السياسي. الذي يتم عبر سياسة الاتصال السياسي داخلياً وخارجياً.

ونموذج التسويق السياسي هو مزيج ودائرة تبدأ بالمؤسسة السياسية ثم تعود إليها، فالنموذج يبدأ بالمؤسسة السياسية في توصيل فكرة أو ممارسة أو قضية معينة إلى المنتج السياسي، ثم تذهب إلى وسائل الاتصال المختلفة، بعد ذلك تكون جاهزة إلى السوق السياسية المتمثلة بالجمهور لتعود في رجع الصدى أو التفاعلية إلى المؤسسة السياسة مرة أخرى.

ويعتمد التسويق السياسي على:

. معرفة الجمهور المستهدف، خاصة إذا كان التسويق على شكل رموز ودلالات.
- البعد السياسي (الأيديولوجي) في البلد الذي يتم فيه هذا النوع من التسويق.
- البعد الاجتماعي والثقافي.
- النظر إلى التيارات السياسية الأخرى.

ويرى خبراء في الإعلام أن التسويق السياسي هو خدعة للجماهير، فهو يجعلهم يعيشون في عالم من الصور الذهنية وليس في عالم الواقع، ويهدف إلى إعادة نظرهم في بناء قيم المجتمع، وعندما يكتشفون زيف الوعود والكلام الخادع يشعرون أنهم انساقوا وراء سراب. ويتعلق بعض هذه التكتيكات بالجانب التخطيطي للحملة، وبعضها الآخر بالجانب الاتصالي، ويتعلق بعضها الثالث بعملية تنفيذ الحملة.. وقد استعان باحثو التسويق السياسي بالتكتيكات المستخدمة في الجانب العسكري، مثل: تكتيك تشكيل الأحلاف العسكرية، وجمع المعلومات الاستخباراتية، وتقدير قوة ومواقف القوى المعادية، والحفاظ على الروح المعنوية، والعمل الهجومي، واستخدام عنصر المفاجأة، وغيرها من التكتيكات التي تحقق الهدف النهائي في الحملة. وبالمثل.. يستخدم المسوقون الاقتصاديون تكتيكات، مثل تجزئة السوق، والمستهدف، وتحديد كيفيه إدارة وقت الحملة، وتحديد الخطوط التفصيلية.

وفيما يلي عرض لبعض هذه التكتيكات، وكيفية تطبيقها في حملات التسويق السياسي، وذلك من كتاب د. خيرت عياد: التخطيط الاستراتيجي لحملات التسويق السياسى).

1- التمكين "positioning":

يشير التمكين إلى قيام المؤسسة السياسية بتحديد موضوعات الحملة بطريقة متكاملة فيما بينهما من جانب، ويجب أن تتواءم هذه الموضوعات مع توجهات المؤسسة السياسية وأفكارها، فالتناقض بين ما يطرح من أفكار وأيديولوجيات يمكن أن يمثل نقطة ضعف أساسية.

ويمكن أن يتحقق التمكين أيضاً بإيجاد روابط ثقافية مشتركة مع المستهدفين، من خلال التركيز على ارتباطه بهم تاريخياً واجتماعياً واقتصاديا، بمعنى أن تكون هويته السياسية والاجتماعية متشابهة مع رؤيتهم لذاتهم ولتطلعاتهم، وأن يتفق خطابه السياسي ويعبر مضمونه عن البيئة الرمزية التي يعيش فيها المواطن أويتطلع إليها.

2 . تكتيك الهجوم الجانبي "bypass attack":

ويعني القيام باستهداف مجموعات كانت مستبعدة أو متجاهلة قبل ذلك، مثل: طرح بعض الموضوعات البيئية لجذب الانتباه وتدعيم المهتمين بقضايا البيئة.

3 . الهجوم الشامل "encirclement attack":

حيث يتم توجيه الجهود التسويقية إلى كل المناطق لجذب اهتمامهم.

4. الهجوم الجزئي "partial attack":

ويعني بتوجيه الجهود التسويقية إلى قطاعات جغرافية معينة أو نوعية محددة المستهدفين، حتى لو كانت السلطة السياسية في الدولة.

5 . الهجوم المباشر "par tial attack":

ويعني توجه انتقاد مباشر للمنافسين خاصة هؤلاء الذين ينفقون على حملاتهم أموالاً كبيرة، فيتم التشكيك في مصدر هذه الأموال.

6 . الهجوم المضاد "counter -offensive":

ويأتي ضمن مرحلة رد الفعل في الحملة، ويتم التركيز فيه على الموالين والمؤيدين للأفكار والمعلومات التي يتم تسويقها.

7. تكتيك الدبلوماسية "diplomatic":

وهو تكتيك دفاعي يقوم من خلاله بالتعاون مع مؤسسات وجهات أخرى تتباين في المبادئ.

8 . تكتيك الهجوم الوقائي "pre–emptive defence":

وهو تكتيك دفاعي، لكنه يبدأ بالهجوم على المنافسين قبل التعرض للهجوم من قبلهم، مثل: استخدام الإعلان الهجومي لكشف عيوب ونواقص المعارضين.

9– الانسحاب التكتيكي "strategic withdrawal":

ويعني التخلي عن المؤيدين المترددين، والتركيز على الموالين الأساسين واسترضائهم، وإعادة طمأنتهم.

10– الرؤية الموحدة "one vision":

فيجب وجود رؤية موحدة تربط من يقوم بالترويج له بالقضايا التي يطرحها.

11– الحاجة إلى التغيير:

ويعني التركيز على فكرة التغيير، ورغبة الجماهير فيه، وأنه هو البديل القادر على إحداث هذا التغيير والتعبير عن طموحاتهم.

12 – التركيز على وسائل الإعلام:

على المرشح أن يسوق نفسه للصحفيين باعتبارهم قادة رأي يمكنهم التأثير، وفي هذا الإطار يمكن الاستفادة من الإنترنت في الاتصال بالإعلاميين، وتقديم الأخبار الفورية

واليومية لهم "briefing"، ولا يعني ذلك تطبيق كل هذه التكتيكات في آن واحد، وإنما استخدام التكتيكات التي تناسب البيئة السياسية والإعلامية وردود فعل المنافسين.

هذا عرض لمراحل نموذج التخطيط لحملات التسويق السياسي الشامل، الذي تتبناه المؤسسات والأحزاب السياسية في الديمقراطيات الغربية في ظل بيئة تنافسية، وبيئة إعلامية توفر فرصاً متساوية للمتنافسين، ولعله من الأهمية الإشارة إلى أن تطبيق هذا النموذج لحملات التسويق السياسي، يختلف من قطر لآخر وفقاً لعدة عوامل، منها:

1 – طبيعة النظام والبيئة السياسية في الدولة، والإجراءات المرتبطة بأي حملة دعائية سياسية.

2- طبيعة النظام الإعلامي، وما إذا كانت هناك وسائل إعلام خاصة أم وسائل حكومية فقط، وطبيعة القيود المفروضة على هذه الوسائل.

3 – حجم التمويل المتاح للمؤسسات السياسية، ومن ثم لحملات التسويق السياسي، فتنفيذ الحملة وفقاً للنموذج السابق يتطلب نفقات مرتفعة لدراسة السوق وإجراء البحوث والاستعانة بالخبراء.

4- طول فترة الحملة الإعلامية السياسية، التي تسمح بتنفيذ حملة متكاملة من عدمه.

(6)

وتوجد أربع إستراتيجيات للاتصال في التسويق الإعلامي السياسي . بحسب د. راسم الجمال (التسويق السياسي والإعلام) – نستعرضها بإيجاز:

أولاً: إستراتيجية الإعلام:

ويكون الاتصال – وفقا لهذه الإستراتيجية – في اتجاه واحد، من المؤسسة السياسية إلى الجمهور المستهدف، ويحمل أفكاراً ودلالات ذات معنى واحد، وغالبا ما تدور هذه

الأفكار في إطار أيديولوجي، حيث تقدم المعلومات إلى الجماهير بهدف دعم اتجاهاتهم ومساعدتهم في اتخاذ قراراتهم، أي أنها تستخدم في التوجه إلى الجمهور الواعي والمدرك، سياسة وأهداف الحزب أوالمرشح السياسي واستخدام مزيد من الرسائل.

ثانياً: إستراتيجية الإقناع:

وتجمع هذه الإستراتيجية بين الاتصال في اتجاه واحد، والمضمون الاتصالى الذي يعبر عن توجهات المؤسسة السياسية وتوجهات الجماهير المستهدفة أيضاً، ويحمل المضمون بالتالي أفكاراً وطروحات تعبر عن وجهة نظر الطرفين – وتستخدم هذه الإستراتيجية عند السعي إلى بناء ودعم العلاقات الاستراتيجية مع الجماهير الأساسية المنتمية للمؤسسة السياسية أو الحزبية، وعندما تسعى إلى إحداث تغيير مقصود في معارف واتجاهات وسلوكيات جمهور معين.. وتتطلب هذه الاستراتيجية أهدافاً واضحة ومحددة، ومزيجاً من الرسائل الإقناعية، وتستخدم في التوجه إلى الجمهور غير النشط أو الجمهور الكامن الذي لا يعبر عن نفسه.

ثالثاً: استراتيجية بناء الإجماع:

تجمع هذه الاستراتيجية بين الاتصال في اتجاهين: من المؤسسة السياسية أو حزب ما أو مرشح سياسي – مثلاً – إلى الجماهير المستهدفة، وبالعكس، والمضمون الاتصالى الذي يعبر عن رؤى المؤسسة السياسية أو الحزب أوالمرشح السياسي.

وتستخدم – في الغالب – لبناء علاقات استراتيجية مع البيئة الخارجية، وعندما يظهر تعارض بين أهداف هذه الجهات المسوقة ومصالح واتجاهات الجماهير، تسعى هذه الاستراتيجية إلى إيجاد أرضية مشتركة تحقق الحد الأدنى من التفاهم بين الجهات المسوقة

وجماهيرها، وتتوجه إلى الجماهير النشطة خاصة عندما تكون الجهات المسوقة بصدد إدخال تعديلات في أهدافها واستراتيجياتها السياسية.

رابعاً: استراتيجية الحوار:

وتجمع هذه الاستراتيجية بين الاتصال في اتجاهين، والمضمون الاتصالى الذي يعبر عن توجهات وآراء كل من المسوق والجماهير المستهدفة، ويحمل بالتالي آراء تعكس وجهات نظر الطرفين، أي أن المسوق السياسي يفتح وسائله الاتصالية على مصراعيها لتعبر جماهيره من خلالها عن آرائها وتوجهاتها ومقترحاتها، والهدف من ذلك إشراك الجماهير – ولو بصورة غير مباشرة – في صياغة أهداف واستراتيجيات وسياسات المسوق السياسي. ويكثر استخدام هذه الاستراتيجية في المناقشات، التي يجريها المسوقون السياسيون حول المشكلات والأزمات التي يمرون بها أو يتوقع حدوثها، وعادة ما تتوجه إلى الجمهور المدرك والنشط.

وعلى المستوى التكتيكي، يرتبط تنفيذ هذه الاستراتيجيات بنوعية الجمهور المستهدف في السوق السياسية (المستهلك السياسي المستهدف)، الذي يقسم في ضوء متغيرين أساسيين، هما: مستوى معرفته السياسية، ودرجة انغماسه في العملية السياسية، إلى أربعة أنواع هي:

1 . الجمهور النشط "active public":

وهو الجمهور الذي لديه معرفة سياسية مرتفعة، ومنغمس في الحياة السياسية، ويحرص على المشاركة السياسية. وهذا النوع من الجمهور يتسم بأنه معبر عن رأية، ومغامر: أي لديه الاستعداد للمشاركة في المظاهرات السياسية والإضرابات، أو مقاطعة الانتخابات، وغيرها من الأنشطة السياسية. وعلى الجانب الآخر، في مقدور هذا الجمهور التأثير في

سياسات وتوجهات السلطة السياسية، والتكتيك الأفضل للتعامل مع هذا الجمهور النشط، هو: الاعتراف به ودعم ولائه السياسي، والدخول معه في حوار لتعرف توجهاته.

2 . الجمهور المدرك أو الواعي "aware public":

وهو الجمهور الذي لديه معرفة جيدة بالتوجهات السياسية والحزبية في بلده، لكنه لا يشارك ولا يعطي صوته لحزب ما، وهذه الجماهير لديها معرفة جيدة بالشؤون العامة وبالحياة السياسية، وبالمنتجين السياسيين والعروض والمنتجات السياسية، لكنهم ليسوا مستهلكين لها، لأن دورهم في الغالب هو دور قادة الرأي. ويحاول الجمهور الواعي نقل معلوماته وآرائه للآخرين، ويحاولون الاتصال بالأحزاب إلا في ظروف معينة. والتكتيك الأفضل للتعامل مع هذا الجمهور هو تزويده بالمعلومات بشكل منتظم، وتشجيعه على القيام بدوره كمؤثر في الآخرين، والترحيب بآرائه وملاحظاته.

3 . الجمهور المستثار "arouseed public":

وهو الجمهور الذي لديه درجة محددة من المعرفة بالأهداف والاستراتيجيات السياسية والحزبية وتوجهاتها أدائها، لكن درجة انغماسه في العملية السياسية مرتفعة. ويضم هذا الجمهور شرائح كبيرة من الذين يعطون أصواتهم لأحزاب معينة. إن هذا الجمهور يبحث عن معلومات لزيادة معرفته وتقليل درجة عدم التيقن التي يشعر بها، لانغماسه في أنشطة سياسية بناء على معرفة قليلة، والتكتيك الأفضل للتعامل مع هذا الجمهور، هو: تحديد مصادر استثارته بتقديم معلومات تخاطب احتياجاته ورغباته وهمومه.

4. الجمهور غير النشط "inactive public":

وهو الجمهور الذي لديه درجة منخفضة من المعرفة السياسية، ودرجة منخفضة من الانغماس في العملية السياسية.. إما لعدم اهتمامه بالعملية السياسية أصلاً، وإما لاعتقاده بأن مخرجات العملية السياسية سوف يقررها الآخرون، سواء شاركوا في العملية السياسية أم لا. ولهذا الجمهور اهتماماته السياسية منخفضة، وبالتالي قد لا يطلع على المواد السياسية في وسائل الإعلام، ولا يطلع على الصحف الحزبية، وإذا اطلع عليها لا يمعن في برامج الأحزاب واستراتيجياتها وأدائها. التكتيك الأفضل للتعامل مع هذا الجمهور هو تقوية دوافعه لتوسيع معرفته السياسة وانغماسه في الحياة السياسية، وبيان تأثير نتائج العملية السياسية في مصالحه واهتماماته الشخصية، وخلق فرص أمامه. لطلب المعلومات متى أراد.

(7)

لابد للمرء من أن يصاب بالدهشة والذهول، حين يطالع أسماء الذين تورطوا مع المخابرات من كبار المفكرين والإعلاميين، وقد كان معظمهم على علم بما يقومون به. وأقلهم تورطوا غفلة.

فهناك الروائي المعروف جورج أورويل، صاحب رواية "مزرعة الحيوانات"، وهي رواية رمزية ينتقد فيها نظام الحكم الشيوعي، وكانت "السي. آي. إيه" هي التي تولت ترجمة هذه الرواية ونشرها على نطاق واسع في العالم كله الذي كانت علاقته عضوية مع المخابرات، فقد قدم لهم قائمة تضم 25 اسما من المثقفين والكتاب يشك في انتمائهم للشيوعية.

وهناك أيضا الفيلسوفي البريطاني ألفريد "جي . آير" وهو أحد مؤسسي مدرسة الوضعية المنطقية بكتابه المهم عن اللغة والتفكير، وقد تأثر به كثيرا وبكتابه المفكر الراحل د. زكي نجيب محمود الذي حكى ذلك في كتابه "خرافة الميتافزيقا"، وآير كان ضابطا بجهاز

المخابرات وكان بالغ التسلط والعجرفة وقد دعته جامعة عين شمس عام 1979 للمشاركة في مؤتمر "الفلسفة ورجل الشارع" الذي نظمته الجمعية الفلسفية الأفرواسيوية وكان ممثلها في مصر د. مراد وهبة أستاذ الفلسفة بكلية التربية بالجامعة آنذاك. كذلك الفيلسوف الوجودي الألماني "كارل ياسبرز"، وهو أحد رواد الفلسفة، وكان مثاليا في فلسفته وتبني الوجودية المؤقتة في مواجهة وجودية سارتر الملحدة أو العدمية، وكان من أنشط أعضاء منظمة الحرية الثقافية وقد تأثر به عدد كبير من الوجوديين العرب.

ولبعض الوقت كان هناك الفيلسوف البريطاني الأشهر في القرن العشرين برتراند رسل الذي كان رئيساً فخريا لمنظمة الحرية الثقافية في لندن، وتلقى مكافآت مالية، ولكنه انقلب عليهم عام 1957 . بعد أن تم إعدام روزنبرج وزوجته في الولايات المتحدة بتهمة تسريب معلومات نووية إلى الاتحاد السوفيتي، وقد اعترفا بذلك، وأنهما قاما بالتسريب حتى لا ينفرد بلد بالسلاح النووي فيصبح خطرا على السلام العالمي، وقد وجدا تعاطفا شديدا في أوروبا وفي الولايات المتحدة نفسها، ولم يتوقع أحد أن يتم إعدامهما، لكن الرئيس أيزنهاور صدق على الحكم. وحتى اللحظة الأخيرة كان آل روزنبرج مبتسمين ومقتنعين بما قاما به وتم دس ممرضة عليهما لتقترب كثيرا منهما، وتحصل على اعتراف منهما بأنهما كانا مخطئين واقتربت الممرضة من الزوجة خاصة، ولكن قبل أن تحقق مهمتها نفذ الحكم، وقد أغضب ذلك برتراندرسل فهاجم الولايات المتحدة وانتقد تنفيذ الإعدام في حوار صحفي. وأغضب ذلك المخابرات كثيرا فحاولوا تشويهه، لكن محاولات ابتزازه لم تنجح وكان اسمه وشهرته كحاصل على نوبل أقوى من أن يهزهما الهجوم عليه.

كما أن الباحث والمفكر الفلسطيني الأصل "إدوار سعيد" استطاع في كتابه "الاستشراق" الذي صدر عام 1978 أن يثبت أن معظم المستشرقين الكبار منذ القرن السابع عشر وحتى أوائل القرن العشرين كانوا يعملون لحساب الأجهزة الأمنية في بلدانهم أو البلدان الاستعمارية وتحديدا إنجلترا وفرنسا وهولندا والمانيا وغيرها.

وبالمثل فإن الباحثة الإنجليزية "سوندرز" أثبتت أن معظم وجوه الثقافة الغربية في النصف الثاني من القرن العشرين كانوا يتعاونون مع المخابرات الأمريكية أو البريطانية، ولم تكن تلك الأجهزة ديمقراطية بأي حال من الأحوال.

فقد كانت تأخذ المثقفين بالشبهات وبالنوايا فنرى مبدعا مثل "إرنست هيمنجواي" صاحب رواية "لمن تدق الأجراس" والذي خدم في المخابرات الحربية أثناء الحرب العالمية، كان جهاز الأمن الفيدرالى يشك في ولائه للوطن، وأن لديه ميولا يسارية، وظلوا يتابعونه لمدة 52 عاما حتى انتحاره، وكان يشعر بذلك ويدركه، وكلما شكا لأصدقائه والمقربين منه يتصورون أنه يتوهم الخطر واعتبروه مريضا نفسيا لكن شعوره كان صحيحا. وأسماء أخرى كثيرة من كبار المبدعين والمفكرين والمؤرخين، بل إن بعضهم كان يقول إن التعامل مع المخابرات شر لابد منه لحماية الديمقراطية من الأفكار الشيوعية.

وتؤكد الباحثة البريطانية "فرانسيس ستونر" في كتابها "الحرب الباردة الثقافية.. المخابرات المركزية الأمريكية وعالم الفنون والآداب" أن المثقف العربي كان غارقا في بنية السلطة داخل بلاده، ومن ثم فإن اتهام المثقف في البلاد النامية أو البلدان الشمولية بأنه وحده التابع للسلطة غير دقيق فليس وحده، ولكن أيضا المثقف الغربي فعلها ويفعلها. وهذا القول ليس لنريح أنفسنا أو لنصفق مهللين بأننا لسنا وحدنا أو أن نأخذ المسألة بمنطق واحدة بواحدة، فالمأساة أعمق بكثير وهي أن المثقف له دور لا يجب أن يتخلى عنه، وهو أن يعمل عقله وضميره أولا ولا يستسلم لقوانين السلطة سواء كانت في شكل رسمي، كما هي الحال في البلدان النامية أو في شكل أموال تدفع وفرص تمنح كما حدث في بلاد الغرب.

وفي حقبة الحرب الباردة غلبت المعايير والمصالح السياسية الجميع شرقا وغربا، وقد أصاب العرب الكثير من ذلك. يمكن مثلا أن تراجع قوائم الأعمال التي ترجمت في الخمسينيات والستينيات، ويمكن أن نتوقف أمام اليسار غير الشيوعي الذي منح الكثير من الفرص في العالم العربي كله، لأن الحرب الباردة أفرزت النفعية في الغرب الأمريكي والقهر في

الشرق، لكن ما يحسب للأمريكيين أن عدداً من صحفهم وصحفييهم رفضوا النفعية وأسقطوها. وتأسست عام 1963 مجلة "نيويورك لي ريفيو اوف بوكس"، ونجحت وكان نجاحها دليلا على أنه ليس كل المثقفين سعداء ولا يصدقون بمشروعية الحرب الباردة ولا يدورون في فلك الأجهزة الأمنية والمخابراته.

وأهمية هذا الكتاب أن هناك حربا تبدأ على الارهاب ومن المهم أن يتذكر المثقف في الغرب وفي الشرق دروس تلك الحرب حتى لا تتكرر في الحرب التي ينطلق نفيرها الآن.

كل يوم، بل في كل ساعة، يتأكد أن الإعلام صناعة خطيرة، يجرى من خلاله تضليل الرأي العام في العالم عن حقيقة ما يجري من جرائم هنا وهناك، ويجرى تعليب الأخبار كما تُعلّب المواد الغذائية، وتُضاف إليها النكهات التي توهم بصدقها وواقعيتها.

وعلينا أن نضرب مثلا بأشهر وكالات الانباء العالمية منها: الأسوشيتد برس، واليونايتد برس، ورويتر، وفرانس برس، وهي وكالات أنباء غربية. ومن المفارقات العجيبة أن حدثاً يجري في بلد عربي، ينقله بلد عربي آخر مجاور له عن وكالة الأنباء الفرنسية، مثلا، ويذاع وتتناقله وكالات الأنباء والإذاعات، قبل أن يبادر البلد نفسه بإعلان بيان رسمي بالخبر! والسؤال: من أين جاءت وكالة الأنباء بذلك الخبر وبثته.. بطبيعة الحال عن طريق عيون ومخبرين لها في دهاليز مقرات الرئاسة والممالك والوزارات في هذا البلد أوذاك.

ولم يعد سرا أن تدس خدمة "نيويورك تايمز" الصحفية – على سبيل المثال – توجهاتها المنحازة، والتي تعمل على التسويق السياسي بشكل سافر إلى الكيان العبري، الأمر الذي يضاعف من هبوط أسهمها في البورصة الإخبارية، خاصة أنها ترتكب من أجل الوصول إلى هذا الهدف أخطاء مهنية وانحياز سياسي.

أما التهديد الذي يلاحق الكثير من الصحف حول مصداقيتها، فهو الاعتماد على تلك الخدمة التي باتت تبعد القراء عن تناول مادة "نيويورك تايمز" المحشوة بالتسويق

السياسي المضلل والتدليس بالتحليلات الخاطئة التي يتم اكتشافها بأقل جهد وفي أسرع وقت. قدمت خدمة "نيويورك تايمز" إلى جريدة الشرق الأوسط مقالا نشرته الأخيرة على صفحة الكتب في عددها الصادر يوم 2001/5/19 لكاتب لم يذكر اسمه بعنوان "التجسس في عصر التكنولوجيا"، وفيه يحلل الكاتب المجهول خلاصة "جسد الأسرار" كتاب "جيمس بامفورد". تبرئة إسرائيل كان المرمى الوحيد الذي رغب صاحب المقال في إحراز أهداف بالجملة بداخله، متجاهلا كل شيء من رصده متسللا وحتى عدم التفاته لانتهاء الوقت الأصلي للمباراة التي فصل فيها القول منذ زمن.

استهل الكاتب مقاله بكشف "جيمس بامفورد" في كتابه السابق (القصر- اللغز) الستار عن وكالة "n.s.a" وهي المنظمة السرية التي أنشئت بأمر رئاسي أصدره الرئيس هاري ترورمان سنة 1952 بغرض التجسس الإلكتروني والتي ظلت –كمنظمة – غامضة تخفي نشاطها على الجميع في الولايات المتحدة، ليبدأ بعدها كاتب المقال في استعراض عضلاته التحليلية لكتاب بامفورد الثاني "جسد الأسرار" الذي أوضح خلاله المؤلف تفاصيل الجريمة التي ارتكبتها إسرائيل في حق أمريكا، حين قصفت عن عمد سفينة الاستطلاع الإلكتروني "ليبرتي" أمام الساحل الفلسطيني في الثامن من يونيو 1967، إضافة إلى رصد المؤلف لوكالة الأمن القومي منذ ميلادها وحتى اليوم.

اتهم كاتب المقال المؤلف بضعف روايته حول أكثر الأحداث مأساوية في تاريخ الوكالة، تلك المتعلقة بضرب السفينة "ليبرتي" قرب سيناء، وحمله خطيئة تصديقه لما أطلق عليه "نظرية المؤامرة"، التي كانت تشير إلى أن الإسرائيليين عمدوا إلى إخفاء جريمة قتل جماعي نفذها جنودهم ضد 400 من أسرى الحرب المصريين بمدينة العريش، وبالتالي فقد لجأت إسرائيل لضرب السفينة، لأنها تعلم أن "ليبرتي" سجلت معلومات حول تلك المذبحة، وأرجع كاتب المقال سبب التواءات تحليل بامفورد لهذ المسألة إلى كراهيته للدولة الإسرائيلية. اتهام بامفورد بمعادة السامية كان التهمة التقليدية لكاتب المقال التي لا بد أن يلصقها بمؤلف الكتاب ليمهد إلى أنه يحلل لكتاب أقل ما يوصف بأن مؤلفه يستحق أقصى عقاب.

عكف الكاتب المجهول بعد ذلك على التضليل الإعلامي، وهو يشكك بكاتب "جسد الأسرار" وصدق معلوماته ولم يستنكف القول بأن سفينة التجسس الإلكتروني تم إرسالها إلى جبهة القتال بغرض جمع معلومات حول أسلحة سوفيتية من الممكن إرسالها إلى مصر، وكأن إقدام مصر على تلقي أسلحة سوفييتية يعد خرقا لا يمكن قبوله، وجريمة أخلاقية غير مبررة، في نظر أمريكا، في مقابل بقاء الضوء الأخضر مضيئا أمام كل المساعدات (بأنواعها) التي تتدفق على إسرائيل.

محاكمة بامفورد كانت الخطوة التالية لمؤلف الكتاب، الذي طالبه بالشواهد الفعلية على جريمة إسرائيل الخاصة بإعدام 400 أسير مصرى. الحكم على المؤلف في البداية، كان هو قانون المحكمة التي أقامها كاتب المقال حين قال: "إن البرهان الذي قدمه بامفورد كان ضعيفا، ويعزز حكمه بأن صحافيا إسرائيليا اسمه غابي برون شاهد 150 أسيرا مصريا يجلسون مكومين على الأرض وأيديهم موثقة، أمروا بحفر قبورهم، ثم قامت الشرطة الإسرائيلية بإعدامهم، ثم يقول: "رأيت خمسة أسرى يقتلون بهذه الطريقة ليقر في النهاية بأنها جريمة حرب شنيعة بالفعل ولكن حجمها مختلف!".

أما الموضوعية التي غفل عنها كاتب المقال فهي تقتضي ذكر الدراسة التي كتبها واحد من ضباط السفينة ليبرتي اسمه "yamesm ennes"، ونشرت بمجلة "electronics defense" في عدد أكتوبر 1981 في عشر صفحات للتأكيد على كذب نظرية "الحادثة المأساوية" في مقابل صدق "نظرية المؤامرة". أما " anthony peerson" فأصدر كتابه "مؤامرة الصمت" الذي نشر عام 1978ويبين مدى تواطؤ الرئيس الأمريكي جونسون وطاقمه ومدى خضوعهم المهين للإدارة الإسرائيلية، خاصة عندما رفضت دفع تعويضات مالية لأسر ضحايا ليبرتي، فتبرع البيت الأبيض بتدبير المبلغ سرا، ليعلن أن إسرائيل هي التي دفعت.

والحق أن كاتب المقال وفق تماما في التأكيد على أن خدمة النيويورك تايمز تفاخر بفضيلتها التي تمارسها دائما بالتسويق لأكاذيب إسرائيلية بأي طريقة وفي كل مجال، حتى لو أدى بها ذلك إلى أن تتحول إلى خدمة فكاهية يضحك منها القراء أكثر مما يستفيدون منها.

(8)

إن النسبة الساحقة من مصادر معلومات أجهزة الاستخبارت في العالم، تؤخذ مما ينشر في الصحف ووسائل الإعلام ومما يتداوله الناس في مجالسهم؛ حيث يتم إخضاعها للتحليل والاستنتاج، وهذا بدوره يقودنا إلى حجم الاختراق الذي يعاني منه الإعلام.

وأنه ليس من مهمة الجواسيس جمع المعلومات فقط، ففي كثير من الأحيان تكون مهمة هؤلاء الجواسيس نشر المعلومات على شكل شائعات، أوعلى شكل معلومات منسوبة إلى مصادر غير معلنة، بهدف زعزعة الاستقرار وخلق حالة من البلبلة في البلاد، أو بهدف إخضاع ثوابتها للنقاش والجدل.

استمع لتشرشل كيف يبرر الكذب والخيانة في مبدئهم وطريقة عيشهم: "الحقيقة ثمينة، وللمحافظة عليها لا بد أن نسيجها بسياج من الأكاذيب"!

فها هو الروائي العالمي جورج أورويل يسأل: كيف تستطيع أن تنشئ مصنعًا للأكاذيب، وأنت (جنتلمان) مهذب نظيف بعيد عن الشبهة؟ ويجيب: "إن الروايات عندما تُرَدّدُ نفسَ الشيء بشكل متواتر فإن الكذب يمرّ في التاريخ ويصبح حقيقة".

إن التضليل الإعلامي، يصنع الرأي العام ويقلب الحقائق، ويزور التاريخ، ويقلب المفاهيم، فيصوّر البطولة خيانة، والخيانة عملاً وطنياً، وتحت وطأة الظروف فإن الناس العاديين يهتفون للخيانة كما لو كانوا يهتفون للإخلاص والشهادة.

وقد أدرك اليهود – خاصة – خطورة الإعلام في تسويق الحقائق المضللة التي يريدونها، فأحكموا سيطرتهم على أجهزة الإعلام المسموع والمرئي والمقروء، وكأن العالم قرية صغيرة مفتوحة، تلاشت فيها الجدران والسُّقف، وأصبحت أمريكا تقود أوسع عمليات تجسّس في العالم، حيث تتنصّت على كل ما يدور في الكرة الأرضية عبر مركز تنصّت إلكتروني تابع لوكالة الأمن القومي "nsa"، كما يتعاون جهاز الاستخبارات الأمريكي "c.i.a" مع جهاز الموساد الإسرائيلي في إطار عملية تجسّسية معقّدة، تعتمد على تفخيخ أجهزة الكمبيوتر المختلفة عن طريق برنامج يسمّى "وعد" "promise" يسمح باختراق بنوك المعلومات في العالم.. وزرعت الشركات العالمية برامج تجسّس في أجهزة الكمبيوتر، وأصبحت أجهزتنا في بيوتنا مفخّخة، ونحن نظن أننا بمأمن وسلام.

القسم الأول

الجاسوس.. طريق الخداع سري للغاية

توطئة

حين كتب الروائي الشهير جورج أورويل روايته الشهيرة المسماة "1984" تصور نظاماً شمولياً يتجسس ويراقب ويرصد كل صغيرة وكبيرة تحدث في العالم، هل كان يتصور "أورويل" أن مجرد فكرة في رواية من وحي التخيل، هي حقيقة مجسدة على أرض الواقع؟! . من المؤكد أن "أورويل" في روايته الرائعة لم يكن يتخيل هذا أبداً على أرض الواقع، ولم يكن يتخيل أن الفكرة التي تناولتها روايته هي مجرد الأساس لنظام التجسس العالمي، والذي بقي في الكتمان لسنوات إلى أن سقط القناع عنه.

حقاً.. إنها حكايات مثيرة، نعشق متابعتها حتى خاتمتها، نشاهد أشخاصاً يعدمون، وآخرين يهربون، وآخرين تساوم الحكومات من أجلهم أو من أجل إتمام الحبكة المسرحية.. وثائق سرية.. وأساليب للخداع مثيرة.. طرود ترمى في غابة صغيرة ليأخذها الأعداء.. مبالغ مالية ضخمة توضع بنفس الطريقة، ورقة مشفرة توضع في دورة مياه، ليتسلمها كاشف الأسرار.

ونبصر أيضاً حكومات صامته تفرغ شحنتها القانونية على جاسوس سابق، وتجند ساستها وإعلامها لخدمة توجهها.. والناس العاديون مبهورون بما يحدث.. يتساءلون.. لكن لا أحد يجيب إجابة تشفي العليل، وتوقف نزف التعجب!

ومن واقع عملي الصحفي والبحثي اطلعت على مئات ومئات من قصص وحكايات الجاسوسية، التي تستمد من الواقع المعاش أرضية لها، فالواقع في أحيان كثيرة يفوق الخيال، ويفوق مخيلة أعظم مؤلف.

ما المخبر أو العميل أو رجل الاستخبارات أو رجل المخابرات إلا جاسوس.. قد يكون الجاسوس ضابطاً في الجيش.. أو طبيباً أو صحفياً أو قبطاناً أو حارساً أو عاملاً في مقهى أو حارساً لسفارة.. وقد يكون الجاسوس رئيساً لدولة، لكنه عميل في نفس الوقت لجهة أجنبية خارج بلاده.. قد يكون الجاسوس مع بلده وضده في آنٍ واحد، جاسوساً مزدوجاً وقد يكون صابئاً أو يهودياً أو مسيحياً أو مسلماً أو بوذياً.. وقد يكون مؤمناً ورعاً.. قد يكون الجاسوس صديقك أو جارك أو رئيسك أوسكرتيرتك الحسناء.

إذن ليس شرطاً أن يكون الجاسوس من طبقة أو مهنة أو ديانة بعينها، كل هذا جعلني أسأل من هو الجاسوس؟ وكيف يتم استقطابه؟ وعلى أي أساس يتم اختياره واختباره؟!

وتساءلت: كيف أن الجاسوس أسهم في قيام دولة ـ إسرائيل ـ وقبل قيام الدولة كيف كانوا يعملون؟ وما هو دور النساء في هذه المهنة؟!

الفصل الأول

عودة إلى التاريخ

- الصيني "صن تسو" أول من درس الجاسوسية كرياضة ذهنية.
- أثريون يؤكدون أن الفراعنة أسسوا نظاما للتجسس منذ خمسة آلاف عام!
- قيام فكر التجسس انعكاس لفكرة الحرب ومفهومها.

التعريفات كثيرة، ومتعددة المستويات لكلمة جاسوس.. فإذا أخذنا التعريف اللغوي في اللغة العربية ، نجد أن كلمة "جس" بمعني "وطأ" فنقول: جس الأرض جساً أي وطئها، والجساس هو الأسد، لأنه يؤثر في الفريسة ببراثنه، ومنه جس وهو اسم صوت لزجر البعير. وجس الخبر أي بحث عنه وتفحصه، وتجسس الأمر أي تطلبه، كما أن التطلب من اللمس لما في اللمس من الطلب..

وقد جاء بمعنى الطلب في قوله تعالى: "وإنا لمسنا السماء، " الجن : 18" وقيل إن التجسس بالجيم يعني البحث عن العورات أو تتبع الظواهر، وقد ورد قوله تعالى "ولا تجسسوا"، "الحجرات: 21"، أي ولا تبحثوا عن عورات المسلمين وتستكشفوا عما ستره الله.

ورد في الحديث الشريف ذكره صراحة في معنى النهي عنه، حيث قال: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا" صحيح مسلم. وقد ذكرت معظم كتب الفقه الإسلامي الجاسوس بمعنى العين، وأن العين هو الجاسوس.

يقول علماء اللغة:

إن التجسس نابع من الجس، والجس هو اللمس باليد وموضعه المجسه، أي يجسه جساً وأجتسه أي مسه ولمسه، وجس الشخص بعينيه أي أخذ النظر إليه ليستبينه ويستثبته، وهو مجاز حيث إن الجس هو اللمس باليد باعتبار ما فيه من معنى الطلب باللمس، لأن من يطلب شيئا يجسه ويلمسه، واستعماله في غير اليد مجاز، ومنه قول الشاعر العربي:

وفتية كالذئاب الطلس قلت لهم إني أرى شبحا قد زال أو حالا
فأعصوصبوا ثم جسوه بأعينهم ثم اختفوه وقرن الشمس قد زالا

وقد ورد التعريف بالجاسوس في دائرة المعارف الإسلامية أنها كلمة تدل على المعنى المعروف، ترد متلازمة مع كلمة عين بمعنى الرقيب، ومن ثم فإنه لا يمكن في جميع الأحوال أن نميز بين الكلمتين، ولا يكاد المرء يستطيع أن يناقش إحداهما دون الرجوع إلى الأخرى، على أن الظاهر هو أنها تستعمل بصفة أخص للدلالة على العين الذي يرسل بين صفوف العدو.

كما ورد تعريف الجاسوس في القانون الدولي العام أنه الشخص الذي يعمل في خفية أو تحت ادعاء كاذب، في جمع أو محاولة جمع معلومات عن منطقة الأعمال الحربية لإحدى الدول المحاربة، بقصد إيصال هذه المعلومات لدولة العدو.. والجاسوسية في الاصطلاح القانوني هي العمل سراً وبادعاء كاذب، ليستولي شخص أو يحاول الاستيلاء على معلومات حيوية لغرض توصيلها للأعداء.

وهناك تسميات مشابهة لكلمة "جاسوس" في اللغات الأجنبية، فهي بالإنجليزية "سباي" وبالفرنسية "ايسبيون"، وبالإيطالية "سيبوني"، وبالإسبانية "ايسبيون"، وبالروسية "شبيون"، وبالألمانية "سبيون".. وفي اللغة العربية تستخدم كلمة "عميل" أو "مخبر" أو "فرد استخبارات".

ونصت اتفاقية لاهاي الدولية عام 1907 على محاكمة المتهم بالجاسوسية والحكم عليه بما في ذلك الحكم بالإعدام ولا يعد من ذلك الجواسيس الجنود الذين يقبض عليهم في مناطق الأعداء ما داموا لا يخفون شخصياتهم، ولو كانوا يحاولون الاستيلاء على معلومات، ولا المدنيون والجنود الذين يقبض عليهم، وهم يعملون في نقل التعليمات أو المراسلات أوالذين يهبطون بالمظلات.. هذا في زمن الحرب.

أما في زمن السلم، فيعد جاسوساً كل من يحاول الاستيلاء على معلومات خاصة بالقوات المسلحة أو وسائل الدفاع أو التحصينات أو المعدات العسكرية بقصد توصيلها إلى جهة معادية.

وليس هناك – على وجه اليقين – ما يؤكد من البادئ باستحداث أول نظام للجاسوسية في العالم، إذ إن أكثر المجموعات البشرية البدائية انغمست بطريقة ما في الجاسوسية.

ومع هذا فليس هناك شك في أن أول من درس مسألة الجاسوسية كرياضة ذهنية وحلل هذه الظاهرة وطورها وحولها إلى نظام متكامل، ثم سجل كل هذا في مرجع مكتوب كان صينيا يدعى "صن تسو"، كان هذا في عام 510 ق . م. ومن العجيب أن هذا الكتاب يعتبرونه أفضل المراجع التي صدرت للتنظير في موضوع الجاسوسية.

في حين يؤكد علماء في الآثار المصرية أن التجسس فن فرعوني قديم، حيث كان للمصريين القدماء نظام تجسس منذ خمسة آلاف عام وكانوا يعتبرونه فناً رفيعا ولونا من ألوان العلم الحربي يوظف ضد الأعداء. وفي كتابه عن وكالات الاستخبارات أكد الباحث الأمريكي "آلن دولز"، على أن الفراعنة قد عرفوا أشد النظم حداثة في قوة الدولة وأمن البلاد وحمايتهم لاكتشافاتهم وعلومهم المتقدمة آنذاك.

ولعل هذه الغايات هي التي أوعزت إلى الملك "تحتمس الثالث" فرعون مصر بتنظيم أول جهاز منظم للمخابرات عرفه العالم، فقد طال حصار جيشه لمدينة (يافا) ولم تستسلم! عبثا حاول فتح ثغرة في الأسوار.. وخطرت له فكرة إدخال فرقة من جنده إلى المدينة المحاصرة يشيعون فيها الفوضى والارتباك، ويفتحون ما يمكنهم من أبواب.. لكن كيف يدخل جنده؟ اهتدى إلى فكرة عجيبة شرحها لأحد ضباطه واسمه "توت" فأعد مائتين من الجنود داخل أكياس الدقيق، وشحنها على ظهر سفينة اتجهت بالجند وقائدهم إلى ميناء (يافا) التي حاصرتها الجيوش المصرية، وهناك تمكنوا من دخول المدينة وتسليمها إلى المحاصرين.. وبدأ منذ ذلك الوقت تنظيم إدارات المخابرات في مصر والعالم كله.

ويذكر المؤرخون أن سجلات قدماء المصريين تشير إلى قيامهم بأعمال عظيمة في مجال المخابرات، لكنها تعرضت للضعف في بعض العهود، كما حدث في عهد "منفتاح"

وإلا لما حدث رحيل اليهود من مصر في غفلة من فرعون. إلا أن "تحتمس الثالث" كان غير فخور بأنه رائد الجاسوسية، فكان يشعر دائماً بقدر من الضعة في التجسس والتلصص ولو على الأعداء، وكأنه كان يعتبره ترصداً في الظلام أو طعناً في الظهر، ولو كان ضد الأعداء، مما جعله يسجل بخط هيروغليفي واضح على جدران المعابد والآثار التي تركها، كل أعماله، من بناء المدن، ومخازن الغلال للشعب، وحروبه. أما إنشاء المخابرات فقد أمر بكتابته بخط ثانوي، وأخفاه تحت اسم (العلم السري)، مفضلاً أن يذكره التاريخ بمنجزاته العمرانية والحربية والإدارية، وما أداه من أجل رفاهية شعبه دون الإشارة إلى براعته في وضع أسس الجاسوسية.

ويؤكد أثريون أن النقوش قد دلت على أن الفراعنة كانوا يبثون العيون في داخل البلاد وخارجها. فكان حاجب الفرعون المقرب إليه يلقب "عينا ملك الوجه القبلي" و"أذنا ملك الوجه البحري"، مما يدل على أن هذا الحاجب كان في عاصمة الملك يتفقد للفرعون كل شيء بنفسه كما كان له متسمعون يأتون إليه بالأخبار عما يدور في الوجه البحري من أشياء خفية.. وقد دّلت ألواح تل العمارنة على أن فرعون كان يستخدم الجواسيس في كل بقاع المستعمرات المصرية وفلسطين وسوريا.. وكذلك في الممالك المتحالفة معه كما كان يستخدم أمراء المستعمرات أنفسهم جواسيس على بعضهم البعض، والمصريون القدماء كانت لهم إدارات مخابرات منظمة قبل عصر السيد المسيح بعدة قرون، بالرغم من أن تقصيراً في مخابراتهم المضادة جعل السير بازيل طومسون "رئيس مكافحة الجاسوسية في بريطانيا أثناء العشرينات"، يلاحظ أنه لو كان لفرعون موسى إدارة مخابرات قديرة لما حدث خروج اليهود من مصر.

ويؤكد أثريون أن سجلات قدماء المصريين قد حوت ما يفيد قيامهم بأعمال عظيمة في المخابرات قبل حادث طروادة بعدة قرون خلال حكم الأسرة الثانية عشرة (3600 - 3400 ق . م).

وعرف في اليونان القديمة ما يسمى بـ"الطابور الخامس الخاص"، وقد سار هذا الطابور من قبل السلطات الحاكمة اليونانية على قواعد ظلت تتبع في عالم الجاسوسية حتى القرن التاسع عشر، ومنها أن القيادات في الطابور الخامس لا يعرفون بعضهم البعض، ولا يسألون عن الخطط التي يكلفون بها بل عليهم فقط التنفيذ.

وقد حفلت ملحمة الإلياذة لشاعر اليونان الكبير "هوميروس" بالكثير من أعمال الجواسيس، فقد استمر القتال أمام أبواب طروادة قرابة عشر سنوات.. وكان قتالا ضاريا وسجالا بين اليونانيين والطرواديين، وسقط الآلاف من القتلى، وقد قاوم الطرواديون ببسالة محتمين بأسوار مدينتهم العالية والتي عجز اليونانيون عن تسلقها.. وإزاء هذا العجز ذهب "كالخاس" عراف الحملة إلى آلهته يستوحيها، ثم هرع إلى سادته قادة الجيش، فذكر لهم أنه مادام تمثال "مينرفا" المقدس موجوداً في طروادة فلن يفتحها على أهلها فاتح ولو عاونته الأرباب جميعاً فتنكر "أولسيوس" ومعه "ديوميديس" وانطلقا إلى الحصن واحتالا على حارس البوابه الكبرى ففتحها لهما، وذهبا إلى الهيكل وسرقا "البالاديوم" المقدس وعادا به وكل همهما أن تبطل نبؤه "كالخاس"، ومع ذلك توالت الأيام ولم تفتح طروادة. وحينئذ بدا لأوليسيوس أن يصطنع حيلة فصنع حصانا خشبيا واسعاً وعريضا يتسع له ولرفيقه ولاثنى عشر من خيرة رجاله بكامل أسلحتهم، وتظاهر باقي الجيش بأنهم ينسحبون على ظهر السفن وكأنهم يعودون إلى الوطن.

وفي ذلك الوقت نجح "سينون" في إقناع ملك طروادة وشعبها بإدخال الحصان إلى المدينة، وهي تحتفل بالنصر الزائف. وقد كانت قصة سينون مختلقة بمهارة ومحبوكة الأطراف وتدل على الحنكة والدهاء ومقنعة إلى الدرجة التي دفعت أهل المدينة إلى هدم الجدران لإدخال الحصان الذي كان حجمه لا يسمح بإدخاله من الأبواب.

وبعد أن مضي شطر من الليل أقبل الطرواديون على الحصان، فأدخلوه مدينتهم تذكاراً لهذه الحرب، وفي الهزيع الأخير من الليل حين هجعت كل طروادة فتح "سينون" الباب الخلفي للحصان فتسلل" أوليسيوس" ورجاله وأعطوا الإشارة للأسطول، لكي يهجم،

فهاجم واحتل المدينة العاتية وذبحوا جنودها النائمين وأشعلوا النار في دورها، وحين طلع الصباح كانت طروادة أكواماً من الأطلال كأن لم تكن بالأمس مدينة كبيرة آهلة بالحياة والسكان.

وفي إلياذة هوميروس أيضا كانت سرقة جياد روسوس عملاً مشروعاً في الحرب من أجل المعرفة، ثم سؤال الأسرى وإجبارهم على الاعتراف بما يعرفونه ومعرفة نوعية العلاقات التي تربط بين الملك "أجاممنون" والحكيم نستور ومحاربيه.

وفي الكتاب التاسع من إلياذة "فرجليوس" نري بعض الجنود الذين توكل لهم مهمة التسلل إلى مواقع العدو، ويذهب إلى هناك اثنان في مهمة انتحارية وهما "ينسوس" و"أوريال" اللذان يقبلان المهمة مهما كانت المخاطر التي يتعرضان لها، بدافع الواجب والإخلاص وينجحان في الدخول إلى اليونانيين، ولكن يتم اكتشاف أمرهما فيهربان عبر الغابة، ولكن يتم اصطيادها وقتلهما.

وقد وصف الشاعر هوميروس في عام 800 ق . م القتال الذي دار بين اليونانيين والطرواديين. وفي إحدى قصائدها الزاخرة بالبطولة وصف الشاعر موقف العدو الذي اتخذ لنفسه مأوى في مكان بعيد أمين فقال:

إحـم أيها المختال المفتري الشعر الجميل وقواد النساء هل تريد

أن تتسلح مرة لتجرب حظك في القتال؟! إن أقواسك وجميع سهامك لن تنفعك

فانطلاق السهم بيد الرجل الجبان العاجز لن يكون شديداً

وفي هذه القصيدة التي يذم فيها "هوميروس" الطرف الآخر صورة لما كان يقوم به المحاربون الأولون، حيث كانوا في كلا الجيشين اللذين يقفان وجهاً لوجه يتبادلون الشتائم حتى يؤثر كل طرف في الروح المعنوية لدى الطرف الآخر. وقد أكد الباحث الأمريكي "ألن دولز" أن الزعيم الصيني الراحل"ماوتسي تونج" كان من أشد المعجبين بما كتبه "صن تسو"، وأنه أوصى بأن يدرس فصلان من كتابه "فن الحرب" في المدارس العسكرية الصينية.

وفي هذا الكتاب قام "تسو" بتصنيف العملاء السريين، وأظهر كيفية التقاطهم وتدريبهم والتعامل معهم واختبارهم في الظروف الحربية الصعبة، وكيفية غش العدو "المخبر المدسوس" وكيفية التأثير سلباً على معنوياته، وذلك بإشاعة الأخبار الكاذبة، أي "الحرب النفسية" كما تسمى حالياً، وأوصى "تسو" في القتال الليلي باستعمال الطبول والنيران العالية بكثرة، وفي القتال النهاري تستعمل أعداد كبيرة من الأعلام؟ وبذلك ترعب عيون العدو وآذانه.

وقد ضمت الحكايات الصينية القديمة أسطورة عرفت باسم الممالك الثلاثة، وقد دونت فيما بعد في القرن الرابع عشر الميلادى، وتدور الأسطورة حول حرب المائة عام في الصين وكيف أن استراتيجية هذه الحرب كانت تقوم على العملاء السريين، وعلى مهارتهم في توصيل المعلومات من الطرف المحارب إلى الطرف الآخر.

وقد استطاع المنتصرون أن يحصلوا على أكبر قدر من المعلومات العسكرية، حتى تمكنوا من هزيمة خصومهم وفي الهند عرف أيضاً كتاب شفوي توارثته الأجيال منذ أمد بعيد يتضمن العديد من التقاليد المتبعة في إحضار المعلومات، ورصد حركات الخصوم والأعداء.

وجاء في كتب التراث الهندية أن الإله" براهما" قد أوصى أحد الحكماء بهذه المقولات "أرسل جواسيسك بأسرع مما تتحرك قدماك، ولا تدع نفسك تهلك لا من الأقربين لك أو من الأجانب، تجسس عليهم واعرفهم".

إن قيام فكر التجسس هو انعكاس لفكرة الحرب ومفهومها لدى المتحاربين، والحرب في الشريعة اليهودية هدف مقدس نابع من مفهوم ديني بأنهم شعب الله المختار الذي وعدهم فيه بأرض الميعاد منذ خروج موسى- عليه السلام – بهم من أرض مصر بعد الاستعباد.. فأباحوا القتل والذبح واستعباد سكان هذه الأرض.. فأتيحت كافة الوسائل للوصول لهذا الهدف، وهو ما يتجلى واضحاً من خلال النصوص التوراتية التي تكشف عن فكر الحرب لدى الشعب اليهودي.. ففي الأصحاح العشرين من سفر التثنية

من التوراة جاء ما نصه (حين تقترب من مدينة كي تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك بالتسخير ويستعبد، وإن لم تسالمك، بل عملت معك حرباً فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فأضرب جميع ذكورها بحد السيف.. وأما النساء والأطفال والبهائم، وكل ما في المدينة فتمنحها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تبقى منها نسمة بل تحرمها تحريماً، الحيثيين والأراميين والكنعانيين والفيرزيين والحويين واليبوسيين كما أمرك الرب إلهك".

وبالاقتراب من هذا النص التوراتي يتجلى بوضوح هدف الحرب ومراحلها، وهي محاولة الصلح في البداية، والذي على أساسه يتم استعباد ذلك الشعب وتسخيره.. أما إذا رفض الصلح، فتكون الحرب هي الحل، والتي تبدأ بالحصار، والذي تليه الحرب والقتال وقتل كل الذكور، واستباحة النساء والأطفال والبهائم وكل الممتلكات لتكون غنيمة.. من هذا النص يبدو جلياً الفكر اليهودي في مراحل الحرب التي تتطلب في البداية معرفة معلومات عن تلك المدينة وإرسال رسل للصلح أولا. كذلك الحصار الذي لا يتم إلا بمعرفة ظروف المدينة من كافة النواحي، وهو الدور الذي يلعبه الجاسوس اليهودي.

فالجاسوس هو مفتاح النصر للشعب اليهودي الذي يسخر كل إمكانياته في خدمة تنفيذ الشريعة اليهودية، وهو ما نراه جلياً في بعض نماذج الجواسيس في ذلك الوقت، الذين لعبوا دوراً هاماً في الحروب. ففي معركة مدين عام 1245 ق. م، كما جاء في الإصحاح السابع من سفر (القضاة) أن جدعون كان في موقف تكتيكي سيئ، إذ كان أهل مدين أكثر عددا منه وكانوا على وشك القضاء على قواته ولم تكن أساليب القتال العادية بقادرة على أن تحل المشكلة، ومن ثم فإن جدعون مستنداً إلى إلهام أعظم من أن يكون لدى قادة عصره تخير ثلاثمائة رجل، لتنفيذ عملية خداع يمكن أن تثير الاضطراب في صفوف العدو، حيث كان جدعون يعلم جيداً من تكتيكات عصره أن لكل مائة جندي يوصف جندي حاملا مشتعلا يضيء لهم الطريق بمشعله، فقام بتزويد الثلاثمائة رجل بالمشاعل والأبواق ليوهم العدو بوجود ثلاثين ألف رجل. ولما كانت هذه المشاعل لا يمكن أن تضاء آليا مثل

المصابيح الكهربائية الحديثة، فقد أخفى هؤلاء الجنود أنفسهم لكي يحققوا تأثير المفأجاة ووضعوا المصابيح مختفية داخل حواملها، وصفّ جدعون جنوده خفية حول معسكر العدو ليلا، ثم أطلق إشارة واحدة فأخرج الرجال كلهم المصابيح في وقت واحد، وبرزت الأنوار مبعثرة حول المعسكر وراح الجنود ينفخون في الأبواق بقوة كمن فقدوا عقولهم. وهب أهل مدين من نومهم مفزوعين وعمّ الاضطراب صفوفهم وقاتلوا بعضهم بعضا داخل معسكرهم، وأسرعوا بالفرار وفي أعقابهم الإسرائيليون يطاردونهم.

كما جاء في الإصحاح الثالث عشر من سفر (العدد) في التوراة.. "ثم كلم الرب موسي قائلا أرسل رجالاً، ليتجسسوا أرض كنعان التي أنا معطيها لبني إسرائيل، وأبعث من كل قبيلة رجلاً يكون حاكماً في موقعه، فبعث موسى اثني عشر رجلا يتجسسون أرض كنعان ورسم لهم الخطة وقال لهم اصعدوا من هنا إلى الجنوب واطلعوا إلى الجبل وانظروا الأرض ما هي؟ والشعب الساكن فيها أقوى هو أم ضعيف؟ وما هي المدن التي هو ساكن فيها؟ أمخيمات أم حصون؟ وكيف هي الأرض أسمينة أم هزيلة أفيها شجر أم لا؟ فصعدوا وتجسسوا وقد تضمنت طليعة هؤلاء الجواسيس أربعين يوما ثم أتوا موسى، وقالوا قد ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها وحقا إنها تفيض لبنا وعسلا وهذا ثمرها غير أن الشعب الساكن فيها معتز بنفسه والمدن حصينة وعظيمة جداً..".

وفي الإصحاح الثاني من سفر (يشوع) من التوراة قصة أول امرأة جاسوسة وهي امرأة ساقطة عاونت جاسوسين إسرائيليين في مهمتهما، وتروي التوراة القصة فتقول: "فأرسل يشوع بن نون من شطيم رجلين جاسوسين سرا قائلا انظرا الأرض وأريحا، فذهبا ودخلا بيت امرأة زانية اسمها "راحاب" واضطجعا هناك، فقيل لملك أريحا هوذا قد دخل إلى هنا الليلة رجلان من بني إسرائيل لكي يتجسسا الأرض كلها: "فأخذت المرأة الرجلين وخبأتهما وقالت نعم جاء إلى الرجلين ولست أعلم أين ذهبا، أسعوا سريعا وراءهما حتى تدركوهما.. أما هي فأطلقتهما على السطح وورائهما بين عيدان كتان لها منضدة على السطح، فسعى القوم وراءهما في طريق الأردن، وحالما خرج الذين سعوا وراءهما أغلقوا الباب ثم صعدت إليهما المرأة على السطح واستحلفتهما أن يعملا معها معروفاً كما صنعت

فيهما أن يبقيا على أبيها وأمها وأختها حين يفتحون البلاد ويستولون عليها، ثم أنزلتهما بحبل من على السطح، وما إن استقرا على الأرض حتى قالا لها أجمعي أهلك كلهم في بيتك وعلميه بالحبل الذي نزلنا به فمن منهم داخله فهو في حمايتنا ومن يبقي خارجه يظل دمه هدراً على ألا تفشي سرنا وعادا إلى يشوع بما يحملان من معلومات..".

لم تكن معركة السيد المسيح "عليه السلام" معركة أرضية أو مادية، فالحرب في المسيحية كانت ضد السلوكيات الخاطئة في الإنسان، وهي تحث على نبذ العنف وغرس قيم المحبة والتسامح بين بني البشر جميعا، فلم يأت المسيح ليخوض حربا أو ليصنع ملكاً أو يكتسب أرضاً.. وهو ما أكده بقوله "مملكتي ليست من هذا العالم" لهذا فإن الحس الجاسوسي بشكل عام ليس له مكان في الفكر المسيحي، فالمسيحية لم تدع للحرب وسفك الدماء وانتهاك المحرمات، بل على العكس فقد جاء الفكر المسيحي ليحرّم سفك الدماء وينبذ الحروب، ويترك الاهتمام بكل ما هو مادي أو أرضي، وليبحث عما بداخل الإنسان للسمو به بعيدا عن العنف، أيا كانت أشكاله والصبر على احتماله، وهو ما أكده السيد المسيح "عليه السلام" بقوله: "من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا"، وكذلك قوله "ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس الناس بل ليخلص"، و"أية مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا إلى شوارعها وقولوا حتى الغبار الذي لصق من مدينتكم ننفضه عنا".

لم يلجأ المسيح للقتال أو العنف في أصعب الظروف التي مرت به، وذلك حين هاجمه اليهود ليلا للقبض عليه ليأخذوه إلى رؤساء الكهنة كي يحاكموه.. فقال لأحد تلاميذه: "رد سيفك إلى مكانه.. أتظن أني لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي فيقدم لي أكثر من اثني عشر جيشاً من الملائكة".

ولم نجد في نصوص الإنجيل نصوصاً تحض على الحرب وما يستتبعها من وسائل كالتجسس مثلما وجدنا في النص التوراتي، وهو ما يعكس الاختلاف الجوهري بين الفكر

اليهودي والفكر المسيحي.. لهذا لم تكن الحروب التي خيضت تحت شعار الصليب تعبيراً عن جوهر الفكر المسيحي مثلما كانت الحرب لدى اليهود، فكان الصليب مجرد شعار تختبئ خلفه أطماع وأغراض استعمارية ، وتحقيق أهداف سياسية بالدرجة الأولى. لهذا فإن مفهوم التخابر ومايتبعه من أساليب مخابراتية لا ينبع عن فكر مسيحي بقدر ما يعبر عن فكر استعماري تحركه النزاعات الفردية والمصالح بعيدا عن الشعارات الدينية. وبهذا يتأكد لنا غياب الفكر المخابراتي والتجسسي الذي يخدم المسيحيين لغياب السبب الأصلي لوجوده، وهي الحرب وغياب فكرة الحرب من الفكر المسيحي بمفهومها الأرضي المعروف.

"والحرب في الفكر الإسلامي" وما يستتبعها من أساليب للتجسس لها مفهوم خاص، يحكمه النص القرآني الدستور الإلهي لدين الإسلام فقد أباح القتال لغرض أساسي وجوهري هو حماية الدين والعقيدة والدفاع عن النفس ضد أي اعتداء.. وهو ما نستطيع أن نلمسه في قوله تعالى "فليقاتل في سبيل الله الذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً وما لكم لاتقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً "(النساء: 74 . 75)، وكذلك في قوله تعالى: "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل" (النساء: 24).

فلم تكن الحرب في ذاتها هدفا سعى إليه الدين الإسلامي.. وإنما كانت وسيلة لايتم اللجوء إليها ولأساليبها إلا بهدف الحماية، سواء لجوهر العقيدة أوللإنسان المسلم بوجه عام وتأمين طريقة نشر الدعوة الإسلامية.. فلم تكن الحرب هي وسيلة نشر الإسلام، وإنما هي لحمايته وحماية من يتبعه من خصومه المحدقين به.. وقد حدد الإسلام الأغراض الأساسية للحرب في عدة نقاط أساسية هي:

1 – رد العدوان والدفاع عن النفس والأهل والمال والوطن والدين، فقد روى أبو داود والترمذي – عن سعد رضي الله عنه – قال سمعت رسول الله يقول: "من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد"، واشترط الإسلام أن يكون الدفاع ورد العدوان بمثل ما حصل من الاعتداء به "الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين} (البقرة : 491).

2 – تأمين حرية الدين والاعتقاد للمؤمنين الذين يحاول الكافرون أن يفتنوهم عن دينهم {وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين} (البقرة 193) .

3 – حماية الدعوة حتى تبلغ الناس ويتحدد موقفهم منها، فقد روى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنه قال.. قال رسول الله: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإن فعلوا عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله.

4 – تأديب ناكثي العهد من المعاهدين {وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة}(التوبة:12)

اتخذ الإسلام طريقا وسطاً بين اليهودية والمسيحية، فلم يتعامل بمفهوم الحرب كما في الفكر اليهودي ولا بمفهوم الفكر المسيحي، بل حاول أن يأخذ الأفضل في الجانبين.. فالحرب في الفكر الإسلامي هي لحماية العقيدة وتأمينها، ولم يقف موقف الفكر المسيحي والبعد عن كل ما هو أرضي، فالإسلام "دين ودنيا" لذا.. فكانت الحرب وسيلة وليست غاية. والحرب بهذا المفهوم لابد وأن تقوم على الخدعة.. والجاسوسية ما هي إلا إحدى وسائل الخداع.. يتم اللجوء إليها لخدمة الهدف الأسمى وهو حماية العقيدة، فلم يكن الرسول "يبحث عن الحرب بدليل مكوثه في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى دينه، وكان مضطهداً واحتمل وصبر، وكان يمر على أصحابه وهم يعذبون، فلا يزيد عن أن يقول لهم

صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة.. فلم يأذن له بالحرب إلا في السنة الثانية بعد الهجرة كما حاول الرسول "أن يدعو إلى سبيل الله بالحسنى بدليل الرسائل التي وجهها إلى الملوك في عهده يدعوهم فيها للإسلام أو البقاء على دينهم ودفع الجزية.. وليس طلب الجزية إلا دليل على خضوعهم، وكف الأذى والمشاركة في أعباء الدولة.. وحين اضطر إلى الحرب كان من الضروري أن يلجأ للخدعة، فلم تكن قوة المسلمين العددية أو العتاد الذي يملكونه يمكنهم من الصمود للقتال أمام ألوف المشركين، لذا فقد لعبت الجاسوسية والخدعة الحربية دوراً كبيراً في حماية العقيدة الإسلامية وحماية الدين الإسلامي بوجه عام.

الفصل الثاني

الجاسوس.. من الحمامة إلى الإنترنت

- الحمام الزاجل أول رسول لرسائل الجواسيس.
- الحبر السري ابتكره السوفيت وتم العمل به ابتداء من عام 1959.

هل يصلح أي شخص أن يكون جاسوساً ؟.. الإجابة بالطبع لا، فالجاسوس لابد وأن يتمتع بإمكانات خاصة تميزه عن الآخرين، فحواسه الخمس، كاميرات ومسجلات، لتدوين كل ما يسمعه ويلمسه ويشمه أيضا، تلك الحواس هي أدواته الرئيسية لتحقيق أهدافه.. ولكن هل تكفي تلك الحواس الخمس لتحقيق مهامه؟ الإجابة أيضا.. لا.

فلا تكفي تلك الملكات والحواس الشخصية للقيام بمهامه.. ومن هنا بات من الضروري أن تكون هناك وسائل مساعدة ابتكرها الإنسان، أو ساعدت التكنولوجيا الحديثة على وجودها وتسخيرها في خدمة الجميع، بداية من الحمامة إلى الإنترنت مروراً بوسائل أخرى كالكاميرات والمسجلات والأحبار السرية والشفرات ووسائل الاتصال المتطورة كالكمبيوتر والأقمار الصناعية.

فالإنسان منذ فجر التاريخ انتبه لبعض الحيوانات والطيور التي تمتلك حواس خاصة، فتم توظيفها لخدمة أغراض مختلفة سواء في السلم أو الحرب، فوقع اختياره بصفة أساسية على الحمام، لما يتمتع به من ذكاء، فاحتل الحمام الزاجل منزلة خاصة لدى هؤلاء الجواسيس البدائيين.. منذ آلاف السنين. ولعل اختياره للحمام الزاجل بصفة خاصة لذكائه المعروف وقوة بصره وذاكرته، التي تساعده على العودة إلى وطنه مهما كان بُعد المسافة التي يقطعها.. كما يتمتع ذلك النوع من الحمام بقدرته الكبيرة على الطيران لمسافات طويلة قد تصل إلى 1000 كيلو متر، لذلك فقد استخدم كأول ساعي بريد عرفه التاريخ بداية من عام 1200 ق.م لنقل الرسائل وأخبار الحروب والمعلومات بين الجيوش المتحاربة وقت الحرب، فاستخدمه جواسيس تلك الفترات الزمنية، لنقل الأخبار التي لا تحتمل الانتظار.. كما استخدمه الحكام والأمراء لنقل أوامرهم إلى الولاة في الأقاليم ومعرفة أخبارهم. وكان أول من استخدمه هم المصريون القدماء، فاستخدمه رمسيس الثالث "حاكم مصر" لتوصيل رسائله إلى الولاة في الأقاليم، تدعوهم للاحتفال بيوم جلوسه على العرش.. كما

استخدمه الإمبراطور الروماني "نيرون" ليرسل معه نتائج المباريات التي جرت في الأولمبياد في العاصمة الرومانية "روما"، كما وجدت وثيقة تاريخية تروي أن الإمبراطور الروماني "ديسمو كابروتوس" أصدر أوامره إلى ضباط جيشه لمواجهة جيش مارك أنطونيو، وكانت الأوامر قد وصلتهم بواسطة الحمام وعبر خطوط العدو.. ويذكر أيضا أن القائد "أنطونيو" قد وضع الفخاخ ونصب الشراك للإمساك بحمام الأعداء، للاستيلاء على ما يحمله بريدهم من رسائل ومعرفة أسرارهم.

ويذكر التاريخ أنه أثناء الحملة الصليبية التي قادها الملك لويس التاسع عشر ونزوله إلى بر دمياط بمصر عام 1249 أظلمت السماء فترة من الزمن، بسبب أسراب الحمام التي طيرها الأهالى لإنذار السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب بالخطر الذي يهدد مدينتهم.

ولم يتوقف الأمر في استخدام الحمام وبعض الطيور والحيوانات الأخرى لأغراض التجسس البحت، بل تطورت الأمور لاستخدامها في القتال أثناءالحرب العالمية الثانية لتوجيه القنابل كوسيلة دفاعية ضد الطائرات، كما استخدم طائر النورس للكشف عن الغواصات أثناء الحرب العالمية الأولى. كما عمل الروس على تدريب الكلاب لتفجير الدبابات.. بالإضافة لتدريب كلب البحر لقطع كابلات الألغام الأرضية.

ومع القفزات التكنولوجية في كل دقيقة تطورت تقنيات الجاسوس. لم تعد الحمامة هي الوسيلة.. بعد اختراع الهاتف والطائرات والشفرات والكاميرات الدقيقة والمعقدة، وصولاً إلى عهد الكمبيوتر والإنترنت والرسائل الإلكترونية.. فأصبحت تلك التقنيات الحديثة هي المعول الأساسي لتفوق جهاز الاستخبارات الذي يوظف الجاسوس.. فهذا الجهاز هو الذي يوفر لذلك الجاسوس التقنيات التي تساعده على تنفيذ مهامه دون أن يعرّض نفسه للخطر.. وكلما كانت التقنيات دقيقة وغير معروفة على مستوى العالم.. كلما تفوق جهاز الاستخبارات وتأكد من صعوبة سقوط جواسيسه الذين قام بتوزيعهم في المناطق المختلفة.

ومن الأدوات الأولية للتجسس.. "الحبر السري" والذي شاهدنا طريقة استعماله في الكثير من الأفلام والمسلسلات الخاصة بالتجسس.. والذي يرجع تاريخ اكتشافه والعمل به إلى عام 1959 عن طريق المخابرات السوفيتية. وقد تم اكتشافه بواسطة عميل الـkgb المعروف باسم "إيفان" الذي كان يعمل لفترة طويلة بالسفارة السوفيتية في لندن.. والذي أرسل بها إلى أستراليا لتأسيس شبكة مخابرات سوفيتية هناك، وشاءت الظروف أن يتعامل مع إحدى عميلات المخابرات الأسترالية في "ملبورن" التي كشفت النقاب لأول مرة عن تقنية جديدة استعملها "إيفان" في رسائله إليها، وهذه التقنية هي "حبر سري" تكتب بواسطته رسائل خفية لا تقرأ إلا بعد مسحها بمادة كيميائية معينة. وكان إيفان يكتب على الرسالة ذاتها رسائل عادية بالحبر العادي ورسائل سرية يطلب فيها تنفيذ عمليات خاصة أو لقاءات سرية بينه وبين عميلته المزدوجة في "ملبورن".

ومنذ اختراع "جراهام بل" للهاتف عام 1868 الذي يعد من أكثر الأدوات التكنولوجية انتشاراً في العالم.. نشطت أجهزة التجسس لاستخدام تلك التقنية الجديدة في تسهيل الحصول على المعلومات وتأمين وصولها.. كذلك ظهرت العديد من وسائل التنصت على تلك المحادثات.. فعرفت تقنيات حديثة كالميكروفون البلوري وأدوات الاستراق الراديوية.. تلك الأدوات التي كلما كانت صغيرة ودقيقة كلما كانت أكثر تميزاً، حيث يصعب اكتشافها، خاصة أن المحادثات الهاتفية من أهم المصادر للحصول على المعلومات، خاصة إذا تم التلصص على المحادثات الهاتفية لأهم المواقع القيادية أو مواقع اتخاذ القرار.

والأمثلة متعددة على أهمية التلصص عن طريق الهاتف.. وهو ما نجحت فيه المخابرات السوفيتية في مطلع عام 1964 حين زرعت أجهزة للتنصت على المحادثات الهاتفية بالسفارة الأمريكية في الاتحاد السوفيتي.. ليستمع الكريملن لأهم المحادثات والرسائل البالغة السرية، التي تم تبادلها بين السفارة في موسكو والإدارة في واشنطن خلال عشر سنوات.

كما نجح جهاز الموساد الإسرائيلي في اختراق الخطوط التليفونية الحساسة للحكومة الأمريكية، خصوصاً الخطوط الخاصة بالبيت الأبيض ووزارة الخارجية، وذلك عندما تم تكليف شركة "بيل أتلانتيك" عام 1997 بإنشاء شبكة تليفونات إلكترونية متقدمة تشمل الخطوط الحساسة لاتصالات الرئيس بمستشاريه وكبار موظفي الحكومة، وقد استعانت تلك الشركة بشركة إسرائيلية للاتصالات تدعي "أمدوكس".

وقد كشفت التحقيقات التي أجريت بعد اكتشاف اختراق الموساد لها، أن الشركة الإسرائيلية تمتلك وحدة اتصال إلكتروني من نوع (ت – 1) تمكّن من التنصت على المكالمات ونقلها مباشرة إلى قيادة الموساد في إسرائيل.

وكما استخدمت التقنيات الحديثة في التجسس على المحادثات الهاتفية وكل المحادثات التي تتم بعيداً عن الهواتف، بحيث استخدمت أجهزة إرسال صغيرة توضع في الغرف والأماكن المطلوب التنصت عليها، بحيث يمكن تركيبها في الحوائط أو في قطع الأثاث أو في قلب سماعة الهاتف أو في أحد الكتب.

ومن الممكن أيضا وضعها في الزر الخاص بإضاءة المصباح الكهربائي أوحتى تحت منفضة السجائر، فالاستعمالات كثيرة وكلها ممكنة بسبب صغر حجم الجهاز ونوعه.. هناك أجهزة على شكل زر للجاكيت أو خاتم أو ساعة يد أو جسم دقيق يوضع في كعب الحذاء أو في القلم أو قداحة السجائر الصغيرة.. كذلك محاولة إنتاج أصغر أجهزة الاستشعار في العالم، التي تبلغ من الصغر حد إمكان وضع عشرة منها على الأصبع الصغيرة للإنسان.. هذه الأجهزة يمكنها مراقبة كل شيء بدءاً من الروائح الكيماوية إلى الصوت والصورة، والتي تنفذ حتى صوت وقع الأقدام على الأرض، بل وتنقل المعلومات مباشرة لاسلكياً دون حاجة إلى استرجاع جهاز الاستشعار فيما بعد، حتى أنه قيل أن بإمكان الـ c.i.a أن تزرع تلك الأجهزة على ظهور الصراصير وتطلقها على المباني التي تريد التجسس عليها.

كما نالت أجهزة استراق السمع تطوراً مذهلاً.. كذلك نالت وسائل التجسس التصويرية هي الأخرى قدراً هائلاً من الاهتمام المخابراتي، لنقل وتصوير ما لا يمكن وصفه بالكلام.. فالصورة لا شك أنها تلعب دوراً خطيراً في اللعبة المخابراتية، لذلك فقد تطورت آلات التصوير لإمكانية أخذ صور مجهرية بواسطة كاميرات خاصة، وفيها يتم تصغير الصور إلى نقطة مجهرية لا تشاهد بالعين المجردة.. ومنها "الميكروفيلم المنقط" وهو عبارة عن فيلم بحجم القوسين أوعلامة الترقيم:

يجرى تصويره بعد تصوير المعلومات أو الرسالة المطلوب تصغيرها إلى حجم نقاط ترسل إلى العميل الآخر على شكل النقاط العادية، ما الذى يجرى استعماله في تحرير وكتابة الرسائل. وبالمقابل يقوم العميل الثاني لدى استلامه الرسالة المنقطة بفك رموزها مستخدماً مجهراً خاصاً بذلك.. وكثيراً ما يتم إخفاء تلك النقاط تحت الطوابع أو تحت لاصق غلاف الرسائل.. وقد وصل حجم بعض الكاميرات إلى حجم ساعة اليد أو القداحة أو العدسة المكبرة أو حجم علبه الكبريت.

وفي سياق حديثنا لا يجب أن نغفل ما قامت به الشفرات السرية في عالم الجاسوسية، لاسيما بعد اكتشاف الأثير، فكثير من الشفرات السرية تم نقلها عبر الأثير وعن طريق أجهزة الترانزستور الصغير والأجهزة قصيرة الموجة.. وقد جرت العادة أن يتلقى عملاء الـkgb والـ cia وغيرهم من العملاء الآخرين أوامراهم من القيادات العليا بواسطة أرقام مشفرة يجرى تثبيتها بواسطة الموجات الإذاعية القصيرة.. ويقوم هؤلاء العملاء بعد سماع الأرقام بحل رموزها بواسطة دفتر رموز يدعى "الدفتر الدائم"، وهو مجموعة من وريقات صغيرة يمكن إخفاؤها في علبه السجائر إذا لزم الأمر.

أحدثت الثورة التكنولوجية التي شهدها العالم في نصف القرن الماضي في جميع المجالات إفراز تقنيات.. كانت في وقت من الأوقات أحلاماً أو أضغاث أحلام.. فعرفنا الطائرات الاستكشافية التي تستخدم في التصوير الاستطلاعي، والذي يتم استخدامه بواسطة الطائرة الملقبة بحمامة عصرية، والتي تتميز بصغر حجمها بحيث لا يلتقطها رادار أو تراها العين المجردة، كما يستحيل إيجادها بعد أن تهبط إلى الأرض، بالإضافة إلى الطائرات

الموجهة دون طيار التي تستخدمها الدول للتجسس على دول أخرى، بدون وجود طيار يتعرض للخطر، تلك الطائرات تحمل كاميرات لمراقبة خطوط الجبهة، وقد استخدم جهاز الاستخبارات الإسرائيلي تلك النوعية من الطائرات خلال حرب الاستنزاف يبث لتحديد المواقع الحيوية، وبالفعل نجح الإسرائيليون في تدمير جسر نجع حمادي ومنشآت الكهرباء في مصر، بسبب تلك المعلومات الدقيقة.

ليت الأمر وقف عند حد استخدام الطائرات ذات التقنية الحديثة في التجسس، وإنما تطور الأمر لتسخير الفضاء بأكمله واستغلاله للتجسس على العالم كله، بواسطة الأقمار الصناعية التي سخرت بالدرجة الأولى لمصلحة دول بعينها، وهي الدول الغنية التي تمتلك تلك التكنولوجيا، وتستطيع دفع تكاليفها الباهظة وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ، التي انتبهت مبكراً لأهمية أبحاث الفضاء منذ منتصف الخمسينات، حيث بدأت فكرة إنشاء أول قمر صناعي أمريكي.. وقد اهتم رؤساء الولايات المتحدة بأهمية تلك الأقمار في تزويدهم بالمعلومات، فقاموا بتسخير كافة الإمكانيات المادية والبشرية لتصنيع أول قمر صناعي وهو ما تم بالفعل.. وبدأ عصر آخر من التجسس تستخدم فيه إمكانيات وتقنيات هائلة، لتحقيق أهداف ومصالح قد تكون لدولة أو لصالح عدة دول مختلفة، وتأتي أهمية الأقمار الصناعية من قدرتها على التقاط صور من ارتفاعات شاهقة بمنتهي الدقة.. وكذلك قدرتها على مراقبة كافة الأحداث على الكرة الأرضية، وعمل مسح شامل على كل ما يحدث، وهو الأمر الذي يصعب استيعابه من خلالها.. وقد استخدمت تلك الأقمار استخدامات مختلفة سواء لأهداف سياسية أو أهداف تجارية.

وقد نشرت مؤخراً بعض الصور لمدينتي القاهرة وواشنطن في بعض الصحف، وقد التقطت تلك الصور من خلال القمر الصناعي "ايكونوس" الذي يراقب الأرض بوضوح، وقد أخذت الصورة من ارتفاع 68 كيلو متراً. وتتمتع تلك الصورة بقوة وضوح تصل إلى متر واحد لدرجة أن محلل الصورة المبتدئ بإمكانه التمييز بين السيارة والمدرعة !!

ومع انتهاء الحرب الباردة ووصول صورة المعلومات إلى مرحلة متقدمة عبر فاقت كل التوقعات.. انتهت حروب لتنشأ نوعية أخرى من الحروب هي الحروب الاقتصادية، التي يتم خلالها استخدام تقنيات التجسس لأغراض تجارية بحتة، ومعرفة أسرار عن عقود تجارية معينة تقوم بها بعض الدول مع الأخرى، كما فعلت الولايات المتحدة الأمريكية وتجسسها على العقود التجارية لدول الاتحاد الأوروبي ونجاحها في اقتناص عقود أجنبية كانت ستمنح لشركات بريطانية.

وفي الوقت الحالي يتم دراسة إمكانية استخدام أقمار التجسس تجارياً، حيث يمكن الاستفادة منها في العديد من المجالات، منها على سبيل المثال يمكن لأصحاب المزارع البعيدة مراقبة مزارعهم عن طريق كاميرات التصوير المرئي المتحرك. ويمكن استخدام تلك الصورة في أغراض عملية لتحديد مستويات المياه وأمراض النباتات.. أما عن التكلفة فلن تتعدى ألف دولار أمريكي، وبإمكان المرء أن يختار موقعاً ما لم يتم التقاط صورة لحسابه ويتلقاها عبر الإنترنت.

ومع التطور المذهل لأجهزة الكمبيوتر بما يحمله من تقنيات حديثة، خاصة بعد دخول شبكة الإنترنت بما فيها من إمكانيات هائلة تساعد على نقل الرسائل والحصول على المعلومات من خلالها.. أصبح الكمبيوتر والإنترنت هما السلاح الأساسي للجاسوس.. لذا فإن جاسوس القرن الواحد والعشرين ليس شخصاً عادياً، بل هو في الغالب سيكون من متخصصي الكمبيوتر البارعين في أدق تقنياته مع التطور المذهل للثورة المعلوماتية التي وفرت ما يقرب من 90% من المعلومات التي كان الجواسيس يبحثون عنها من قبل خمسين عاماً، أصبحت تلك الشبكة هي ينبوع المعلومات التي تعتمد عليه القوى الكبرى بجواسيسها لتفعيل قطاعاتها الاقتصادية.

اختصر الكمبيوتر الوقت والجهد الذي كان يبذل في الحصول على المعلومة الأثير، كذلك استخدمت تقنيات مختلفة للتنصت، لتسجيل وتوصيلها، فوفر طريقة آمنة لنقل الرسائل عن طريق البريد الإلكتروني أو عن طريق المحادثة من خلال مواقع الدردشة بكل

صورها.. فمن هنا أصبح الجاسوس في مأمن من إمكانيه تعقبه والإيقاع به، الذي كان يتم غالباً أثناء توصيله للمعلومات التي حصل عليها، لذا بات من الصعب تقصي ومراقبة كافة الرسائل البريدية، خصوصاً مع سهولة تغيير عناوين المرسل والمستقبل لرسالة تتضمن معلومات سرية وخطيرة.

ونظراً للتقدم الهائل الذي أحدثته الطفرة المعلوماتية وشبكة الإنترنت من خطورة، بات من الضروري البحث عن وسائل للتجسس على تلك الشبكة لتكون سلاحاً ذي حدين.. أولاً للإيقاع بالجواسيس، ثانياً للتجسس على الآخرين، لذا فقد نشطت الشركات والمؤسسات في الدول المتقدمة الكبرى، في البحث عن وسائل وبرامج وتقنيات بإمكانها مواءمة الثورة المعلوماتية والحصول على المعلومات، من خلالها، بل وتوظيفها لخدمة أغراضها الاستخبارية.. تم ابتكار برامج متطورة لاختراق أجهزة الكمبيوتر وشبكتها، لتسهيل الحصول على المعلومات وتحليلها والاستفادة منها، والأمثلة لتلك البرامج مختلفة ومتطورة منها ما قام به جهاز cia، حيث طور بعض البرامج لترجمة جميع اللغات التي على وجه الأرض إلى الإنجليزية دون أخطاء.. كذلك تطوير برنامج يعمل مثل الشفاط الضخم الذي يسحب نسخاً من كل أنواع المعلومات الموجودة على الشبكة بما فيها الحوارات، التي تتم في غرف الدردشة ومجموعات النقاش، وجميع المواقع على اختلافها ولقاطات الفيديو والبرامج الصوتية وتحويلها إلى ملفات يمكن البحث فيها بسهولة.

لم يعد التلصص على شبكة الإنترنت هو الشغل الشاغل للجواسيس فقط، فقد أتيحت الفرصة لدخول هواة ومراهقين شغلهم الشاغل هو اختراق المواقع الصعبة أو أشد المواقع حصانة كالمواقع السيادية ومواقع الجيش.. فكثيراً ما نقرأ أخباراً عن نجاح عدد من الهواة أو المراهقين في اختراق مواقع الجيش الأمريكي أو اقتحام برامج الفضاء.. وهي البرامج التي من المفترض أن تكون في غاية السرية، كما حدث في عام 1997 حين استطاع أحد هؤلاء المتلصصين الاتصال مباشرة بمكوك الفضاء "أطلانطس".

كذلك ما حدث من تعطيل لرقم النجدة الأمريكي 911 عن طريق دخول خط التليفون وعمل اتصالات أتوماتيكية سببت تعطيل الرقم بالكمبيوتر.

وفي عام 1998 استطاع ثلاثة من المراهقين اختراق أجهزة كمبيوتر بالغة الحساسية، خاصة بالقوات الجوية والبحرية الأمريكية دون أن يتمكن أحد من معرفة هويتهم.. كما تم رصد عدة محاولات قامت بها دولة أجنبية لاختراق أنظمة خاصة بالحكومة الأمريكية، وطبقاً للإحصائيات فهناك 13 دولة أجنبية تمارس لعبه الاقتحام ضد الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد ساعدت المصالح المشتركة بين بعض الدول في تطوير برامج للتجسس تعمل لصالحها.. ومن أبرز تلك الأنظمة، نظام تنصت إلكتروني عإلى التطوير يحمل اسم "إيكيلون"، وهو جزء من نظام تجسس مشترك بين الولايات المتحدة وبريطانيا، بحيث يغطي هذا النظام الكرة الأرضية بالكامل، وهو قادر على التقاط المكالمات الهاتفية ورسائل الفاكس والبريد الإلكتروني، وكل ما يبث عبر الأقمار الصناعية، كما أن النظام مزود بفلاتر تمكنه من النفاذ وتسجيل كافة الاتصالات المتعلقة بالجوانب الأمنية والعسكرية والتجارية.

في السطور السابقة تحدثنا عن أحد التقنيات التي تساعد الجاسوس على تنفيذ مهامه.. ولم نتحدث عن الإنسان ذاته حين يكون هو الوسيلة المساعدة للتجسس أو لتنفيذ عمليات سرية أو استخبارية.. وهي تلك الطريقة التي ساعدت على استخدام الإنسان كأداة.. عن طريق وسيلة للتحكم في عقله وتفكيره والتأثير على جميع حواسه.. مستخدمين بذلك العديد من الطرق، منها أجهزة كشف الكذب والعقاقير المخدرة.. بالإضافة للتنويم المغناطيسي.

من أكثر الوسائل شيوعاً جهاز كشف الكذب وقد استخدمته كل من الـ kgb، والـ cia يستخدم هذا الجهاز لمعرفة مصداقية المتهمين بالخيانة والتجسس لصالح الأعداء، والجهاز يعمل على مراقبة الوظائف الحيوية بالجسم ومراقبة التغيير في ضغط الدم وحرارة الجسم ونسبة التعرق الجسدي الذي يحدث كرد فعل بيولوجي على الشعور بالخوف من نتائج الكذب. كما حاول كل من السوفيت والأمريكان استعمال أدوات كيميائية، خاصة

للسيطرة على القوى البشرية، مثل الدواء الذي أنتجته المختبرات الطبية الأمريكية وأطلقت عليه اسم "العصفور الأزرق" كذلك الدواء الذي أطلق عليه "مكولترا".. وقد كشفت وكالة المخابرات الأمريكية من البحث في هذا المجال، وتم توفير كل الاعتمادات المالية والبشرية لخدمة ذلك المشروع المخابراتي للسيطرة على عقول البشر.

وعلى جانب آخر قامت الـ cia بعمل اختبارات عديدة للسيطرة على العقول، مستخدمة بعض المرضى العقليين للسيطرة على عقولهم من خلال غسل أدمغتهم، وتم استخدام أدوية "تورازين، نمبوتال، سيكونال، فيرونال، فزغان"، بالإضافة لرسالة صوتية تم بثها بواسطة آلة تسجيل صغيرة وضعت تحت وسادة المرضى، أثناء غيبوتهم التي دامت 30 يوماً بسبب استعمال الأدوية المذكورة.

ولم تتوقف المحاولات التي قام بها رجال المخابرات محاولين تسخير العلم الحديث واكتشافاته في السيطرة على العقل البشرى وتطويعه لخدمة الأغراض السياسية أيا كانت النتيجة.. وكما استخدمت العقاقير المختلفة لمحاولة السيطرة على العقل ،كذلك استخدم التنويم المغناطيسي.. تلك الطريقة التي استخدمت في بعض الأحيان كأحسن وسيلة لاستحضار أدق الأسرار عن طريق التحكم العقلي، بطريقة الإيحاء عن طريق المنوم المغناطيسي.

وقد حاولت وكالة المخابرات الأمريكية استخدام التنويم المغناطيسي للحصول على العديد من المعلومات أو تنفيذ الأوامر بدون إرادة أثناء الحرب الباردة.. ولقد أثار التنويم المغناطيسي فضول أول عالم نفسي في وكالة المخابرات الأمريكية وهو "كوريس آلان" والذي قرأ كل ما كتب في هذا المجال، فبدأ تجاربه في استخدام التنويم في غواية النساء، حتى أنه أقنع امرأة تحت مظلة التنويم المغناطيسي بأنه زوجها.. فكتب "آلان" تقاريره لمرؤوسيه عن أهمية التنويم المغناطيسي، وبدأ استخدامه وتطبيقه أولا على السكرتيرات صغار السن في وكالة المخابرات.. وكان يقوم بتنويمهن بهدف تنفيذ ما يطلبه منهن أيا كان، فاستطاع أن يحرض بعضهن على سرقة بعض الملفات الهامة وقيامهن بتسليمها لبعض الغرباء، بل وجعل

البعض يحرقن الملفات، حتى أنه جعل إحداهن تذهب لغرفة نوم أحد الغرباء وهي تحت تأثير النوم العميق.

وأكدت التجارب المتعددة أن الأفراد الذين يكونون تحت التنويم المغناطيسي يمكن استمالتهم وابتزازهم من قبل المخابرات.. وغالباً ما يستخدم جهاز المخابرات السكرتيرات وغيرهن من الحسان في أعمال التجسس، وجميعهن على أتم الاستعداد لتقديم أى خدمات بغرض جمع المعلومات المطلوبة. وقد كشفت عدة تقارير دولية وكتب ومذكرات هامة عن محاولة تطبيق المخابرات الأمريكية لتقنية التنويم المغناطيسي كوسيلة لبرمجة القتلة أوإرسال رسائل سرية للغاية تنسى بمجرد استلامها، ومن أهم تلك الكتب.. "المتحكمون في العقل" لسشيلفن وابتون، وعملية التحكم في العقل، بواسطة لبوارت.. وقد ثبتت إمكانية إقناع الأشخاص تحت تأثير التنويم المغناطيسي بالقيام بالجرائم أو أي سلوك يتعارض مع أخلاقهم ومعتقداتهم.. وفي إحدى التجارب قام خبير التنويم المغناطيسي بعملية تنويم لإحدي السكرتيرات، وطلب منها الاستمرار في حالة النوم حتى يأمرها، ثم قام في نفس الوقت بتنويم سكرتيرة ثانية، وأوحي لها بأنها لا يجب أن تتردد في القيام بعملية قتل، وترك مسدسا بالقرب منها، فما كان من هذه إلا أن أخذت المسدس وأطلقت النار على صديقتها النائمة مغناطيسيا، وحينما أيقظها المنوم من غيبوبتها كانت قد أصيبت بحالة من فقدان الذاكرة، وأنكرت أنها قتلت أحداً.

وبالبحث عن أسباب تفوق جهاز الاستخبارات الإسرائيلية نجد أن التقنيات المستخدمة للتجسس هي أهم العوامل المساعدة لتفوق هذا الجهاز على أجهزة الاستخبارات العالمية.. ولعل مساندة الحكومة الأمريكية ومد جهاز الموساد الإسرائيلي بأحدث ما توصل إليه العلم من معدات مثل أجهزة التنصت والتتبع وآلات التصوير عن بعد.

والعديد من أحدث الأجهزة الالكترونية الدقيقة لها دور كبير في ذلك، حتى أن رئيس المخابرات الإسرائيلية "هارئيل" اعترف بأنه لم يكن يتصور وجودها. وقام جهاز

الاستخبارات الإسرائيلي بإنشاء نصب تذكاري يضم أهم وسائل التجسس التي لعبت دوراً هاما في تاريخ الاستخبارات الإسرائيلية، ومن أهم تلك المقتنيات جهاز إرسال موجود في قاعدة مكواه، وميكروفون في غلاية للقهوة، وحبر خفي في زجاجة عطر، وجهاز التسجيل الذي سجل سراً محادثة هامة بين العاهل الأردني الراحل الملك حسين والرئيس المصري جمال عبد الناصر، محادثة كانت نذيراً بحرب الأيام الستة، ذلك جهاز اللاسلكي البلوري الذي استخدمه ماكس ببنت وموشية مرزوق لإدارة أنجح شبكات الموساد في مصر قبل أن يقبض عليهما ويموتا في السجون المصرية.

مع التطور المذهل في كافة المجالات.. لم تعد الوسائل الحديثة للتجسس حكرا خاصا على الجواسيس السياسيين، فهناك أغراض أخرى للتجسس ليست سياسية، فقد تستخدم تلك التقنيات لمراقبة العمال أو الموظفين في الشركات الكبرى أو يستخدم زوج لمراقبة زوجته أو عشيقته أو حتى لملاحظة سلوك الخادمة مع الأطفال أو تستخدم لمراقبة بعض التليفونات.. كما يمكن استخدام جهاز كشف الكذب في بعض المؤسسات الكبرى للوقوف على مدى مصداقية وأمانة العاملين بتلك المؤسسات.. وهذا الأمر ساعد على نشوء أسواق ومحال لتوريد تلك النوعية من الأجهزة، ويطلق على تلك المحال.. متجر التجسس spyshop وهي التي انتشرت في الآونة الأخيرة في كثير من المدن الغربية.

الفصل الثالث

ستة آلاف عام من التجسس

- وصيه "موسى" إلى شعبه في سيناء أول وثيقة تجسس في التاريخ
- الفاتنة راحاب تساعد اليهود في تقويض ملك الكنعانيين

إذا كانت أجهزة التخابر والتجسس أنشأتها الأمم للدفاع عن كيانها ومواجهة الأخطار المجهولة المحدقة بها، فإن اليهودي يمارس التجسس تعبيراً عن وجوده وإثباتا لذاته وتفوقه، ولعقيدته الثابتة أنه يتفوق على سائر البشر أجمعين، وأنه قد فضله الله عليهم. من هذه الزاوية فإن التجسس على الآخرين الذين هم من الأمميين (الجويم) – بالمصطلح اليهودي – هدف يحقق له هذا التفوق، ويجعله بما يتوافر لديه من معلومات في هذا الموقع الذي لا يمكن أن يدانيه أي إنس.

ولم يكن هناك أعداء أو أصدقاء مهما بلغت درجة صداقتهم لليهود، محصنين من التجسس عليهم ولصالح غيرهم. وليس أدل على ذلك من واقعة الجاسوس الإسرائيلي "بولارد" الذي نقل معلومات عسكرية من أمريكا صديقة إسرائيل الأولى، ومن وراء ظهر أمريكا التي تجمعها اتفاقية تبادل معلومات بين مخابراتها ومخابرات إسرائيل.. بل إن اليهود تجسسوا على أنفسهم، وقدموا معلومات وتساوموا مع "هتلر" ضد شعبهم، وللخوف من هذه الفضيحة خطفوا "ايخمان" وأعدموه حتى يموت السر معه على حبل المشنقة الذي يكشف بشاعة وأنانية قوم لا يتورعون عن بيع – حتى أنفسهم – لشيطان النازية الكرية.

قدم اليهود خدماتهم طوعاً وبدون إكراه لمن يطلب، في قليل من الأحيان وفي أغلب الأحيان كانوا هم الذين يبادرون، فيعرضون خدماتهم ومواهبهم وقدراتهم على الحكام من كل لون وصوب، طامعين في القبول والحصول على المكانة والحظوة. وقد فعلوا ذلك مع الفرس والرومان والإغريق، ثم مع الثوار في بريطانيا وروسيا وفرنسا ولدى الألمان والإنجليز والأتراك من كان يدفع لهم أجراً أويحقق لهم منفعة وخدمه آنية أو مستقبلية. واليهودي يمارس التجسس بشكل عادي وتلقائي، لأنه كامن في دمه، وفي تراثه. لقد جمعت قوانين الحرب في التوراة في سفر التثنية، وهي تحدد أسلوب التعامل مع الأعداء والاستيلاء على مدنهم، مزوداً بقوة إلهية جبارة تعضد بني إسرائيل وتحميهم وتضفي الشرعية على همجيتهم..

"إذا خرجت للحرب على عدوك ورأيت خيلاً ومراكباً وقوماً أكثر منك فلا تخف منهم، لأن معك الرب إلهك الذي أصعدك من أرض مصر" (تثنية20: 1).

ثم يقول "أنتم قربتم اليوم من الحرب على أعدائكم، لا تضعف قلوبكم لا تخافوا ولا ترتعدوا ولا ترهب وجوههم، لأن الرب إلهكم سائر معكم لكي يحارب عنكم أعداءكم ليخلصكم" (تثنية 20: 3، 4)، وتحدد الأصحاحات 32 (الآيات 9 : 41) والأصحاح 42 (الآية 5) قوانين الاحتراز التي ينبغي على اليهود اتباعها كشريعة مقدسة وكمصدر وحي.. وقد طبق يشوع بن نون التقاليد العسكرية التي أرسى دعائمها في مذابح أريحا، وأصبحت تحظى بالقدسية، وتنفذ كما لو كانت طقساً من الطقوس الدينية. ففي الأصحاح الثاني من سفر يشوع العدد الأول: "فأرسل يشوع بن نون من شطيم رجلين جاسوسين سراً قائلاً: اذهبا وانظرا لأرض أريحا". وبعد أن تمكن يشوع من دخول المدينة "حرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم بحد السيف.. وقال يشوع للرجلين اللذين تجسسا الأرض: أدخلا بيت المرأة الزانية وأخرجا من هناك المرأة وكل ما لها كما حلفتما لها، فدخل الغلامان الجاسوسان وأخرجا راحاب وأباها وأمها وإخوتها وكل ما مالها وأخرجا كل عشائرها وتركاهم خارج محلة إسرائيل وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها "(يشوع 6: 12 - 42).

وعندما دخل يشوع إلى "عاي" تكررت نفس مشاهد "أريحا" ولما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان عاي في حقل في البرية، حيث لحقوهم وسقطوا جميعا بحد السيف حتى فنوا، ورجع جميع إسرائيل إلى عاي وضربوها بحد السيف، فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفاً جميع أهل عاي (لاحظ نمط الإبادة للسكان الأصليين) وأحرق يشوع عاي، وجعلها تلاً أبدياً خراباً إلى هذا اليوم" (يشوع 8: 42 - 82).. وهكذا فعل يشوع مع لنبة ولخيش وملك حارز وعجلون وحبرون ودبير، وكل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها.. وتبدو أساليب وأدوات التجسس لها جذور.

وفي التوراة نماذج قديمة متعددة للرموز أو الشفرة التي كانت مستعملة في تلك الفترة، منها الأحرف والأرقام العبرية والرومانية اللتان كانتا تكتبان بالأبجدية العبرية فكان يتم اختيار البدائل أو الرموز من بين الحروف التسعه الأولى للألف باء العبرية، ويتم التعامل معها بطريقة حسابية ليصبح الناتج عشرة.. كما اعتبرت البراعة في حل رموز الشفرة تراثاً دينياً، يعتز به اليهود ويتوارثونه جيلاً بعد آخر،.. إما بدافع الإجلال أو بدافع مواجهة والاضطهادات التي تعرضوا لها عبر العصور. ولذلك احتل اليهود معظم المناصب الهامة للجاسوسية والعمل السري في شتى أنحاء العالم، ففي بريطانيا معقل الجاسوسية شجع البيورتانيون، برئاسة كرومويل، الهجرة اليهودية إلى بريطانيا وكان جون ثورلو – رئيس جهاز المخابرات في تلك الفترة – أول من قدر اليهود كعملاء ممتازين للعمل معه لصالح بريطانيا.

وقد أقام التاجر اليهودي حيئذ "انتوينوفيدنا نذيزكانرفايل" شبكة للجاسوسية تعمل لصالح "كرومويل"، وقام بتوزيع أعضائها في جميع أنحاء العالم، بينما كان يهودي آخر يسمى "سيمون دوكاسيرس" يقوم بالتجسس ونقل أخبار التطورات السياسية الحاصلة في أمريكا اللاتينية ومنطقة الكاريبي. وبفضل جهود ومعلومات عميل يهودي يعمل في جامايكا استطاع الأميرال "بليك" التغلب على الأسطول الإسباني في تيلناريف. وفي القرن التاسع عشر في ألمانيا وروسيا القيصرية كان الاعتماد بشكل رئيسي على اليهود في مجال الاستخبارات. ورغم أن معظم اليهود العاملين ضمن هذا النطاق، برزوا في هذا المجال، وأخلصوا لحكوماتهم في ألمانيا وبريطانيا وفرنسا، إلا أن بعضهم برع في العمل كعميل مزدوج، خاصة في روسيا القيصرية إبان الثورة البلشفية، حيث كان البعض منهم يعمل لصالح مخابرات القيصر، وفي نفس الوقت يعمل لحساب الثوار.. ومن أشهر الأمثلة قضية الجاسوس اليهودي المزدوج "ايفنو آزيف" الذي ثبتت إدانته بعد قيام الثورة بنحو عشرة أعوام.

ونتيجة لكثرة عمل اليهودي في مجال التجسس على مدى العصور وتنوع الأماكن، فقد خلص "ريتشارد ديكون" في كتابه عن جهاز الاستخبارات الإسرائيلي إلى أن بعض صفات عملاء الاستخبارات اليهود المستخدمين في نطاق الجاسوسية العالمية هي صفات عامة تدخل في إطار المواهب الطبيعية لليهود كالحياد والقسوة وحدة الملاحظة والاعتناء بالتفاصيل الصغيرة.. وما يستخلصه ريتشارد ديكون عن حقائق وخصائص الجاسوسية العالمية لدى اليهود أنها تتفق مع تفسيراتنا في اعتبار التجسس خاصية فطرية عند اليهودي، وليست مهارات مكتسبة، حيث إن اليهودي يرى أنه متفوق على الآخرين.. وأيضاً لاحتقاره لهم واعتبار العالم كله ما هو إلا مخلوقات دونه، لكشف مواهب اليهودي وإظهار عبقريته وتفوقه وأثرته بهذه الحياة التي خلقت له بما فيها من ناس ودول وجماعات وخلق هو لها ليكون السيد المطاع. لقد حمل اليهود هذا اللواء، وقد سجل المؤرخون، وروت الكتب المقدسة هذا وإذا تصفحنا "العهد القديم"– التوراة – لوجدنا العديد من حوادث نقل المعلومات واستغلالها، وأولاها ما جاء في "سفر العدد" من التوراة وتقول: "عندما خرج موسى بالإسرائيليين من مصر، ثم توقف بهم في منطقة مجدبة، وكان (يهوا – أي اللّه) قد ناداه وأمره بأن يبعث المبعوثين، فاختار النبي موسى بنفسه أولئك المبعوثين بمعدل رجل واحد من كل قبيلة شريطة أن يكون من البارزين فيها ومن قادتها.. وزودهم بتعليمات كثيرة ودقيقة ومنها قوله: "اصعدوا إلى الجنوب وارتقوا الجبل، ثم انظروا إلى ماهية الأرض، وإلى الذي يقطنها، فهل هو قوى أم ضعيف؟ أقليل أم كثير؟ والأرض هل هي جيدة المحصول أم رديئة؟ وسكنى القوم هل هي مخيمات أم حصون؟ وهل توجد أشجار، أم أنها – أي الأرض – جرداء؟ وإذا استطعتم فآتوا إلى بشيء من ثمارها ".. فلو تعمقنا فيما أوردته هذه التوصية من موسى إلى مبعوثيه لوجدنا أنه لا يمكن لأي رئيس ضليع في الجاسيوسية الحديثة أن يصدر إلى جواسيسه من التعليمات ما يفوق التعليمات التي أصدرها موسى حوالى عام 1400ق.م، وإن كان الأمر يتطلب – بطبيعة الحال – شيئاً من التعديل والتبديل، مما يتناسب مع الظروف وتطور الحضارات.

إن تعليمات "موسى" لمبعوثيه أحاطت بالأمور الجوهرية في مهمة، أي جاسوس، هذا إلى جانب تنظيمه عملية الجواسيس كان يدل على ذكاء وحنكة لاسيما وأنه لم يبعث

بشخص واحد، وإنما بعدة أشخاص، فمن المعروف أن المعلومات التي تأتي من عدة مصادر تفوق في القيمة والقوة والدقة ما يأتي به مصدر واحد.. وغادر هؤلاء الجواسيس مراكزهم وانطلقوا إلى أرض كنعان، ولما عادوا منها أخبروا موسى بأنها أرض يتدفق منها اللبن والشهد، وسكانها من العمالقة الجبابرة.. وظل موسى وقومه أربعين سنة ما بين تردد وإقدام واستعداد لمهاجمة أرض كنعان.. وأخيراً تغلبت رغبة الحصول على اللبن والشهد على التردد والخوف، فهاجم شعب بني إسرائيل أرض كنعان، ويعود الفضل في ذلك إلى جاسوسين معينين هما: "كالب" و"يشوع" .. وهكذا دخل بنو إسرائيل فلسطين.. وقد يتساءل المرء عن معالم المخطط التجسسي سواء أكان قديماً أم حديثاً فنجد الجاسوسية الإسرائيلية قامت على أسس أساسية هي: المتاجرة بالجنس والدعارة وأساليب الاغراء المختلفة لهما وأيضاً بالمال والخديعة والتدليس.

أولى قصص الجاسوسية اليهودية في تاريخ بني إسرائيل كانت قصة العاهرة "راحاب" المعروفة باسم "عاهرة أريحا"، وقد ساهمت هذه العاهرة إلى حد بعيد في تقويض دعائم ملك الكنعانيين، وتم لها ذلك حينما أرسل الزعيم الإسرائيلي "يوشع" بجاسوسين إلى أريحا (قاعدة ملك الكنعانيين) وأقاما بدار راحاب.. وساور الشك ملك أريحا بوجود جاسوسين لديها، فسارعت وأخفتهما تحت كومة من الكتان فوق سطح دارها، ثم ساعدتهما على تسلق سور المدينة، ليعودا إلى مركزيهما في المنطقة اليهودية.

ويحدثنا التاريخ عن "دليلة" أول جاسوسة استخدمت محاسنها لإغواء "شمشون"، وكان ما فعلته دليلة هذا يعتبر انتصاراً للجاذبية الجنسية تلك التي خضع لسلطانها شمشون أقوي الأقوياء.. وظلت تطلق سهام تلك الجاذبية حتى صرعت ذلك الجبار، فأنبأها بسر قوته، فأبلغت بدورها أعداءه – أبناء قومها اليهود – وأدركوه نائماً وعمدوا إلى قص شعره – سر قوته – ثم اقتادوه مهاناً ذليلاً.. وكانت أجرة دليلة على ذلك إحدى عشر ألف قطعة من الفضة، وكان هذا المبلغ يعتبر مبلغاً باهظاً إذا ما قورن بالمكافأة التي تقاضاها

يهوذا الأسخريوطي – وكان من تلامذة المسيح عليه السلام ثم خانه – من كهنة بني إسرائيل لقاء تسليمه المسيح إليهم.

وإذا راجعنا "التوراة" لوجدنا الأمثلة كثيرة عن الجاسوسية وأساليبها، تلك الأساليب التي ما يزال بعضها يستخدم في عصرنا الحالي، فعندما كان النبي داود – ملك إسرائيل – وجيشه في خطر بعث إليه الجاسوس "يوناثان" بشارات ضوئية على شكل أسهم أطلقت باتجاهات اتفق عليها مسبقاً.. واستخدم داود أيضاً أثناء نزاعه مع "أبشالوم" جاسوساً سرياً يدعى "خوشاي" تسلل إلى معسكر العدو، وأخذ يبعث بمعلومات إلى داود.

ويحدثنا التاريخ أن ملك الفرس "قورش" استثمر اليهود كعنصر فعال في تذليل العقبات أمام جيشه الغازي للمنطقة، وبالأحرى استخدمهم كعملاء مهرة لمراقبة أحوال العدو ونقل المعلومات إليه، ومن ثم بذر بذور التفرقة في كل أرض يحلون بها. وأدرك أنه بمقدوره عن طريق هؤلاء المأجورين المحترفين أن يحتل مصر وتخضع لسلطانه سائر بلاد الشام.. وجاء جواسيس إسرائيل يعرضون خدماتهم وفنهم على الإسكندر المقدوني في عام 320ق.م فاستخدمهم في توطيد الأمن بمنطقة الشرق الأدنى، وجعل منهم "الطابور الخامس" ليقوم بمهمته في تسميم الأفكار وإحداث القلاقل والفتن، والقيام بأعمال التخريب والقتل ونشر الذعر في البلاد التي يستوطن بها، وتهييئ جو مناسب أمام الدولة التي بعثتهم لحسابها كطابور خامس.

وكسب جواسيس إسرائيل عطف كليوباترا، وأقنعوها بضرورة اعتمادها على خدماتهم وخبرتهم، وخاصة فيما يتعلق بشؤون سورية الجنوبية وفلسطين، وكذلك لتوطيد دعائم حكمها في مصر، فاتخذت منهم ركائز لخلق المشاكل الداخلية في وجه الدولة السلوقية، كما جعلت منهم داخل مملكتها قوة تستعين بها على كل من تحدثه نفسه لمناوأة حكمها.

وفي العصر الحديث كان لليهود دور كبير في الأحداث الكبرى في أوروبا والعالم، ففي عام1907 اكتشفت السلطات التركية التي كانت تسيطر على فلسطين في ذلك

الوقت، شبكة تعمل لمصلحة البريطانيين، وكانت هذه الشبكة تمارس عملها في المستعمرات اليهودية التي كانت قد أنشأتها في فلسطين، وتم اعتقال ثلاثة من أفراد هذه العصابة، وكانوا من يهود أوروبا الشرقية وأطلقوا على حركتهم اسم "بيلو" وقد تم نقلهم خارج البلاد.. وفي عام 1914 تم تكوين أقوى عصابة جاسوسية صهيونية تضم 40 رجلاً بقيادة "هارون اهرونسون" وابنته سارة، وكان مقر هذه العصابة "زمارين" التي تعرف باسم "زخرون يعقوب"، ووكرها السري في "عتليت" (وهي قلعة أثرية مهجورة على ساحل البحر)، وكانت هذه العصابة تقوم بجمع المعلومات عن قوات تركيا وألمانيا، وتنتظر في ليال معينة وصول غواصة بريطانية إلى ساحل "عتليت" تتلقى منها المعلومات، ثم نقل بعض أفراد العصابة إلى القاهرة، ليقدموا معلوماتهم ثم تعيدهم إلى حيث كانوا، وقد ساعد على نجاح عمل هذه العصابة الوضع المتفكك الذي كان سائداً في المنطقة العربية. وقد قامت "سارة اهرونسون" زعيمة العصابة مستغلة ما تملك من جمال وجرأة بالتنقل إلى دمشق، لتصبح فيما بعد صديقة لكبار قادة الأتراك، وبينهم جمال باشا، وواصلت تلك العصابة عملها حتى كشف أمرها واعتقل أفرادها، وأطلق على هذه العصابة اسم "نيلي"، واستمرت في عملها حتى عام 1917.

ومن العمليات الخطيرة التي أسهمت فيها عصابة " نيلي" بمساعدة "وايزمان"، سرقة أسرار غاز الخردل وبعض الأسلحة الألمانية ونقلها إلى بريطانيا.

وفي الحرب العالمية الثانية قام الجواسيس اليهود بقيادة "موشى ديان" (وزير الحرب الصهيوني - عام 1967 بعد ذلك)، بمساعدة الحلفاء في الدخول لأراضي سوريا والشام، كما لعب اليهود بعد نهاية الحرب دوراً آخر، هو التجسس على القوى العظمى (الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية) لصالح الغرب والتجسس على الغرب لصالح السوفيت، فنقل "بيريز" - الذي أصبح زعيما لحزب العمل من عام 1963 إلى 1997 - أسرار المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي بقيادة "خروتشوف" والوثيقة السرية للمؤتمر التي أدانت ستالين، كما نقل علماء الذره اليهود أسرار القنبلة النووية والهيدروجية إلى السوفيت في بداية الخمسينيات.

الفصل الرابع

النكسة الكبرى للجيوش العربية

- من الوكالة اليهودية إلى الدولة الصهيونية.
- المخابرات الصهيونية ودورها في إنشاء دولة إسرائيل.
- اغتيال رئيس الاستخبارات الصهيونية لأنه أبدى ميولاً للتفاهم مع العرب.

هناك وحدة وتواصل بين كل من اليهودي وعالم الجاسوسية الغامض، دعمتها عقيدة وأيدلوجية ثابتة بأن اليهود هم شعب الله المختار.. وواقع عاش فيه اليهود في أحياء منغلقة منعزلة ومنبوذة في غالب الأحيان، فكانت هذه الأحياء (الجيتو) غامضة في عالمها.. وقد دفع اليهود الكثير من أرواحهم وأموالهم نتيجة تشكك الشعوب في عالمهم الغامض، لكن هذه الشعوب كانت أكثر تسامحاً مع اليهود دفعت من دمائها وثرواتها الكثير جداً، نتيجة تلاعب اليهود بهم وبمصائرهم.

واليهودي الذي يتجسس لا يبغض الآخرين ويحتقرهم فحسب، ولكنه في الوقت نفسه يخشى من قوتهم وبأسهم وكثرتهم، ولذلك فإن تعاليه واعتباره أنه المميز عقلاً وديناً وسلوكاً، جعله لا يتجاهل الغرباء ولا يتحاشاهم، لكنه ينفذ إلى دهاليزهم، ويكشف أسرارهم ويحطم قادتهم وزعماءهم ويخضعهم سراً لإرادته وإن تظاهر علنا بالذلة والمسكنة.

وكما كانت الجاسوسية ملازمة منذ بداية نشوئهم كجماعات ترحال ترعى الغنم في الصحراء، وتبحث عن أماكن الزرع والكلأ.. لم يختلف التاريخ الحديث لليهود عن قديمهم، فقصتهم مع فلسطين تظهر كيف كانت أجهزة التجسس اليهودية ذات أهمية منذ بداية المشروع الصهيوني في فلسطين، وأنهم اهتموا بالتجسس كأحد أهم العناصر الضرورية، التي لا يمكن لهم الاستغناء عنها في تأسيس مشروعهم الاستيطاني. بدأت قصص التجسس اليهودي مع نشأة الوكالة اليهودية، وهي التنظيم الذي أخذ على عاتقه مهمة تأسيس الدولة في فلسطين، مهما كانت الصعوبات. ومن أجل هذا الهدف تجسس اليهود على العرب والأتراك والإنجليز.. كما عملوا لصالح الإنجليز تارة وضد الأتراك والألمان تارة أخرى، وقدموا المعلومات والخدمات للأطراف المتنازعة في الحرب العالمية الأولي والثانية.. وقدموا كل ما يفيد في ناحية قضيتهم وبغض النظر عن النتائج المستقبلية. وانتشرت شبكات التجسس الصهيونية في مصر وسورية ولبنان والأردن وتركيا وفلسطين وغيرها

لخدمة أهداف الوكالة اليهودية، وما تفرع عنها من منظمات عسكرية أخذت على عاتقها مهمة تنفيذ أهداف المشروع الصهيوني بالقوة والاغتصاب.

والشيء المهم هو أن شبكات التجسس التي أنشأتها الوكالة اليهودية كانت عالمية،و ليست مقتصرة على فلسطين، فالوكالة اليهودية، وإن كانت وضعت نصب اهتمامها إنشاء دولة لليهود في فلسطين، إلا أنها لم تنس أن هذه الدولة هي جزء من هدف أكبر لليهود، وهو السيطرة على العالم وإخضاعه لرغبات اليهود واطماعهم، لذلك أنشأت فروعها وشبكاتها التجسسية في باريس وروما وبرلين ولندن وزيورخ وفيينا وموسكو.. وغيرها.

ومن الطبيعي أن تحتل شبكات التجسس وجمع المعلومات المكان المرموق في المخطط الصهيوني العالمي.. ولم يكن مستغرباً أن يصبح للصهيونية – منذ قيامها كفكرة – أجهزة استخبارات.. ونؤكد استناداً لمراجع تاريخية وسياسية كثيرة أن الحركة الصهيونية التي بشر بها هرتزل، ودعا إليها في مؤتمر (بازل) عمدت إلى إنشاء شبكات تجسس نشرتها في أنحاء العالم خاصة في فلسطين، مستترة بمختلف الهويات والشعارات والأهداف، وهي من أهم هذه الشبكات التي تم كشف النقاب عنها.

وعندما تولى بن جوريون منصب رئاسة الوكالة اليهودية، عمد إلى تطوير جهاز الاستخبارات في الوكالة اليهودية عندما أوجد لأعماله، عدة أقسام كان لها أكبر الأثر في سرعة تنفيذ الأهداف الصهيونية، والنجاح في تحقيق الخطط الموضوعة ومواجهة المشكلات الطارئة، مما جعل اليهود بعد ذلك يعتبرون أن ابن جوريون هو مؤسس دولة إسرائيل الحقيقي. وهذه الأقسام هي:

– القسم العامل في المجال العربي:

اختص هذا القسم بالقضايا التجسسية المتعلقة بأمور فلسطين خاصة والمواطنين العرب عامة.. وعين "موشى شاريت" رئيسا له، حيث أصبح المرجع الأعلى لجمع

المعلومات التي تنقلها إليه عناصر لها اتصال مباشر بالعرب، بالإضافة إلى وجود جهاز كبير يضم العدد الوافر من الجواسيس ذوي الاختصاص في الحرب النفسية والمعلوماتية.

- القسم السياسي:

أوجد هذا القسم لمهمة جمع المعلومات السياسية في المجالين الداخلي والدولي، وأسندت رئاسته إلى الصهيونية "روبين شيلوخ".

-القسم العسكري: .

أوجد هذا القسم للقيام بأعمال التجسس على البريطانيين، وعلى اليهود الشرقيين والعرب.. وأسندت رئاسته إلى "إيسار باري" ويتبع منظمة "الهاجاناة" وله السلطة الواسعة في المجال العسكري والتدريب، بداخل جميع المستعمرات اليهودية.

وتابعت استخبارات الوكالة اليهودية أعمالها بأقسامها الثلاثة، لترسيخ أقدام اليهود في فلسطين، ومحاربة مقاومي هذا الهدف من بريطانيين وعرب، بالإضافة إلى جلب الأسلحة سراً من أوروبا، وتوزيعها على المستعمرات، مع تسهيل دخول المهاجرين اليهود الوافدين من أوروبا والبلدان العربية خلسة إلى أرض فلسطين.. وعندما أعلنت الحرب العالمية الثانية عام 1940، اشترك هذا الجهاز بجميع أقسامه الثلاث، وإمكانياته إلى جانب الحلفاء.. فهبط من عناصره "رجالاً وفتيات" في أوروبا النازية بهدف الاتصال باليهود هناك، ومن ثم تحريضهم على العمل ضد ألمانيا الهتلرية.

أما في منطقتي الشرق الأدنى والأوسط، فنجد أن الوكالة اليهودية قد بعثت بجواسيسها بالاتفاق مع الاستخبارات البريطانية للقيام بعمليات سرية في العراق، وكان على رأسهم "دافيد زازييل" وهو إرهابي صهيوني وكان جاسوسا لبريطانيا في العراق. كان من أبرز معاونيه في العراق انتروسيريني ممثل مؤسسة للإنشاء والفتاة مالكة ردخا. وبالنسبة لزازييل

فإنه قتل أثناء غارة ألمانية على القوات البريطانية قرب بغداد ودفن في معسكر الحبانية، ثم نقل جثمانه إلى قبرص وفي عام 1961 نقل إلى إسرائيل، وفي سوريا كان هناك فريق وكالة المخابرات التابع للوكالة بقيادة "بيجال الون"، بينما تسلل فريق آخر إلى سورية عن طريق لبنان بقيادة موشي ديان.. في عام 1939 ألقي القبض على موشى ديان وحكم عليه بالسجن 15 عاماً لانتمائه لمنظمة الهاجاناة الصهيونية، ولكن في عام 1941 أنقذت المخابرات الحربية البريطانية "ديان" من السجن مقابل صفقة عمل بموجبها كعميل لها في الأراضي السورية واللبنانية، حيث تسلل إلى هذه الأراضي ومعه 50 من الهاجاناة متخفين في زي عربي قدموا معلومات مهمة، سهلت من مهمة القوات البريطانية في غزو سوريا، الذي تم في أعقاب نهاية هذه الجولة.

وفي مصر عملت الجاسوسة الخطيرة يولندا هارمز، وهي يهودية ولدت في مصر وعاشت فيها وكانت تتجسس لحساب الوكالة اليهودية تحت ستار العمل كمراسلة لوكالة أنباء ما وراء البحار. وبعد عام 1948 ألحقت بالعمل في مركز الوكالة اليهودية في باريس، وهو أحد مراكز التجسس اليهودي العالمي، وظلت هناك حتى 1952 "عمل في إفريقيا الضابط اليهودي و"السوري الأصل" بنيامين تاجر وفي إيران كان للوكالة جواسيسها من اليهود الإيرانيين المحليين.

وبنيامين تاجر من مواليد دمشق وهو ابن الحاخام السابق للطائفة اليهودية في سوريا بعد تخرجه في الكلية العسكرية بحمص عام 1934 وعمله في اللاذقية، هرب في عام 1940 إلى فلسطين، وانضم إلى القوات الديغولية بإيعازمن الوكالة اليهودية، حيث ألحق في قسم التجسس الفرنسي، في شمال إفريقيا وقتل أثناء عملية عبور النورماندي.. وكانت الوكالة اليهودية تمد جميع هؤلاء الجواسيس بالمال عن طريق بنك زلخة وفروعه المنتشرة – وقتئذٍ – في جميع العواصم العربية.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية حمل جهاز الاستخبارات اليهودية في الوكالة اليهودية عبء مهمتين:

1- تأمين قيام "الدولة اليهودية"، وجلب اليهود من خارج فلسطين، وتهريب الأسلحة.

2- القيام بعمليات إرهابية ضد العرب وضد البريطانيين داخل البلاد، وكان من أبرز العمليات التي جرت على يد هذا الجهاز السري اليهودي، هي:

ا- تأمين وصول السفينة "أكسو دوس" الوافدة من أوروبا وعلى ظهرها عدة آلاف من المهاجرين اليهود.

ب- اغتيال اللورد موين - الوزير البريطاني المقيم في القاهرة - من قبل الجاسوسين "إلياهوبت حكيم" و"إلياهو سوري"، في حي الزمالك بالقاهرة في يوم 6 نوفمبر 1944 تصعيداً لحركة الإرهاب الصهيوني، وبالأحرى الضغط على سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين.. وكذلك الضغط على المواطنين العرب توصلا لإقامة الوطن القومي اليهودي.

ج- تهريب الأسلحة بشكل واسع، تمهيداً لقيام "الدولة اليهودية".

ويعترف بن "جوريون، صراحة بفعالية جهاز الاستخبارات ، حينما تمكن من تهريب السلاح إلى فلسطين، حيث يقول بتقرير رسمي له ما يلي: "أسبغ شرف إنقاذ الموقف - أي عام1948- على ثلاثة زعماء من جهاز الخدمة السرية الإسرائيلية هم: أهور إفريل، يهوذا أرازي، يعقوب ميرودور، فهؤلاء نجحوا في جمع تبرعات لا يستهان بها من الشعب الأمريكي وجنوب إفريقيا والنمسا وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا، وقد استخدموا هذه التبرعات في رشوة كبار الموظفين، فمهدوا الطريق لتهريب كميات هائلة من الأسلحة والذخائر إلى يهود فلسطين".. أما أول هؤلاء العملاء وهو "أهود إفريل" فهو من أقطاب حزب الماباي وتلميذ بن جوريون، وقد برز في عمليات تهريب الأسلحة بالطائرات من تشيكوسلوفاكيا إلى فلسطين، إبان معارك عام 1948 بين العرب واليهود، ثم اضطر للهرب بعد انكشاف أمره وثبوت اشتراكه في مؤامرة صهيونية مع جورج سلانسكي وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا الذي حكم عليه بالسجن المؤبد، وفيما بعد عمل في السلك الدبلوماسي بعد إنشاء إسرائيل".

وثاني العملاء "يهوذا أرازي" يعتبر من أقطاب الجهاز السري لحزب الماباي وممن قاموا بأعمال سرية خطيرة، ومكافأة له على خدماته عين بالسلك الدبلوماسي، وكان قد

قام بتهريب المهاجرين من الشباب القادرين على حمل السلاح إلى إسرائيل، إذ هرب – وقتئذ – 170 ألف مهاجر سنة 1948.. كما هرب أيضاً 230 ألف مهاجر عام 1950/1949.

وثالث العملاء هو: "يعقوب ميرودور".. وهو إرهابي خطير ومؤسس منظمة "الأربون"، وقد قاد عمليات الإرهاب ضد البريطانيين في فلسطين، واعتقل ورحل إلى سجن القاهرة عام 1940 وشغل منصب نائب رئيس حزب حيروت ووزير الحربية في حزب حيروت، وانتخب نائباً في الكنيست وهو من أصحاب فكرة إنشاء ميناء إيلات، والمحافظة على السيطرة على خليج العقبة، واعتبره بن جوريون من عوامل نصر إسرائيل على العرب في حروب 1948.

ويضيف "بن جوريون" في كتابه "التاريخ الرسمي لجيش إسرائيل" حول موضوع الاستخبارات اليهودية فيقول: "... لولا جهاز الخدمة السرية الإسرائيلية الذي تملكه الصهيونية في العالم لكنا قد خسرنا حرب الاستقلال ضد العرب عام 1948، حيث تمكن هذا الجهاز خلال فترة الهدنة الأولى أن يؤمن لنا كل ما يلزمنا من متطوعين وأسلحة وطائرات للمعارك المنتظرة".

وخلال حرب (1948- 1949) ظهر مردود فعالية ونشاط أعمال جواسيس الاستخبارات اليهودية ضد العرب بعمليات تجسسية، كان من أبرز هذه العمليات عملية "الأوبرا الإيطالية" وعملية "دليلة" اليوغسلافية والجاسوس "كارلسون" في القاهرة.. وكان لهذه العمليات الثلاث أهمية خاصة في ميادين القتال، حيث لعبت دوراً هاماً لصالح العصابات الصهيونية.

جدير بنا أن نذكر عملية "الأوبرا الإيطالية" وهي إحدى العمليات السرية التي نفذها جواسيس إسرائيليون وصلوا إلى منطقة "ابنين" في إيطاليا باعتبارهم تجاراً وضباطاً أمريكيين.. وبمساعدة الصهيونيين المحليين اشتروا مصنعاً ينتج الذخائر للجيش المصري، وعندما تمت صفقات معه كانت العبوات عبارة عن برادة الحديد بدلاً من البارود.. وكثيراً

ما انفجرت الطلقات داخل البنادق والمدافع وارتدت إلى الجنود المصريين، والعملية الثانية التي كانت في إيطاليا ايضاً بين شمشون، السوري، ودليلة اليهودية هي قصة لعبت الدور الأول فيها جاسوسة يهودية ذات سحر وجمال، اتخذت من ضابط كفر بعروبة فلسطين مطية لها لمساعدة الصهيونيين.

وقد كان الجيش العربي السوري قد استنفذ جميع ذخيرته، كانت كل رصاصة أو قنبلة تطلق لا تعوض.. وكانت خزانة الجيش قد منيت بخسائر فادحة من جراء إغراق اليهود لباخرتين من بواخر الأسلحة المصدرة إلى سورية.. وكان الرأي العام العربي يتساءل عن توقف عمليات الجيش السوري الحربية، وأخيراً أعلنت الهدنة، واستقر الرأي بدمشق على إيفاد بعثة عسكرية إلى دول أوروبا لجس النبض ومحاولة شراء الأسلحة ومرافقة البواخر التي تنقلها.. وكان من نصيب "المقدم ف،م" عقد عدة صفقات في ايطاليا.. وإلى جانب الصفقات المعقودة عقدت أواصر المحبة ما بين "الضابط" وبين "دليلة يهودية" في روما جاءت من قلب البلقان، وهي عميلة للاستخبارات اليهودية، لإنجاز مهمة ضد شحن الأسلحة إلى سورية.

يقول أصدقاء "الضابط": إن نقطة الضعف فيه هي قلبه، فقد كانت له صديقة في حلب قيل إنها من أم يهودية، وقيل إنها صديقة مؤسسة يهودية غنية.. وذهب إليها قبل سفره يستشيرها، فأرشدته الحسناء اللعوب إلى العناوين التي يجب أن يزورها في روما وميلانو.. وفي روما وفي أحد المنازل الأنيقة تبرز على المسرح قصة البطلة التي مثلت فصول المأساة وحاكت خيوطها.. لقد نسي "الضابط" المهمة التي جاء من أجلها.. وشهدت مدينة البندقية قصة غرام ساخنة.. وبدلاً من أن يزور "الضابط" مصانع السلاح، ومستودعات الجيش الإيطإلى.. زار مصايف إيطاليا ودور اللهو فيها.. وراحت روما تتحدث عن "شمشون" الذي جزت ضفائره دليلة إيطاليا.. ووصلت القصة إلى التجار السوريين في روما، وراحوا يتساءلون: من تكون؟ وما جنسيتها؟ وما هي ديانتها؟ وما مذهبها السياسي؟ كان الغموض يكتنف الفتاة وكانت الإجابات كلها تلتقي في نقطة

واحدة هي أن الفتاة يهودية من قلب البلقان. وجاءت معلومات أخرى تؤكد أنها تدعى "ألماس" يوغسلافية الأصل صهيونية النزعة تمتهن الصحافة للتجسس على البلاد العربية.. وأن "الضابط" يقيم في منزلها.. وجميع مراسلاته الرسمية ترسل إلى منزلها.. اجتمع كبار التجار السوريين بـ"الضابط" وحاولوا نصحه.. فوعد بقطع علاقته بالحسناء اليوغسلافية، لكنه لم يستطع، فكان يقابلها في الخفاء.. وطار التاجر السوري المقيم في روما "مأمون الحفار" إلى دمشق.. وقابل كبار المسئولين وشكا من سلوك الضابط، فأبرقت الدوائر الرسمية في دمشق بشحن السلاح.. وأن تشحن الأسلحة على عدة بواخر بدلاً من نقلها على باخرة واحدة، حتى لا ينسفها اليهود كما فعلوا من قبل.

لكن "الضابط" تمرد على أوامر دمشق.. ورفض حتى نصائح وزير مصر المفوض في روما.. وشحن الأسلحة والذخيرة على مركب شراعي، دون أن يؤمن على شحنها.. وأبحر المركب من ميلانو إلى الإسكندرية باتجاه الشاطئ السوري، ولسبب من الأسباب اتجه المركب إلى الشاطئ اليوناني.. وهناك فقد أثره تماماً.. لكن التحريات عنه دلت – فيما بعد – أن فريقاً من الصهيونيين الجواسيس استطاع أن يلحق بعض عناصره ضمن عناصر هذه الباخرة التي تنقل الأسلحة من إيطاليا إلى سورية.. وفي عرض البحر قابلت هذه السفينة أناساً ادعوا أنهم من الصيادين المنكوبين، مما حرك شفقة الربان – تحت ضغط الجواسيس اليهود – إلى إنقاذ هؤلاء الصيادين الذين سرعان ما تحولوا إلى قراصنة انضموا إلى زملائهم الجواسيس الأعضاء الموجودين في السفينة واستولوا عليها، وجروها إلى يافا وهي محملة بالأسلحة.

وصلت الأسلحة هذه إلى أيدي اليهود، فكانت الدعم الذي ساعد الهاجاناة على احتلال يافا، وتشريد أهلها العرب، رغم نضال أبنائها المستميت، وبسالة المتطوعين المسلمين للحفاظ على هذه المدينة العربية.. ولما عاد "الضابط" إلى دمشق.. استدعى وسئل عن الباخرة.. وعن أوراق الشحن.. وعن تفصيلات النقل.. فوعد بتقديم الوثائق بعد ساعة واحدة، لكنه بدلاً من أن يذهب إلى منزلة لإحضارها.. قصد مطار المزة المدني

ليستقل طائرة إلى القاهرة.. لكن الرقابة التي أقيمت حوله أعادته مخفوراً إلى دمشق بعد أن ثبت محاولته الهرب، ثم نقل إلى سجن المزة وقدم – فيما بعد – إلى المحاكمة..

وقد جاء في مرافعة ممثل الاتهام– وهي مرافعة دامت ثلاث ساعات – إن هذا الرجل الماثل أمامكم الذي يحمل رتبة (..) هو وحده الذي كفر بعروبة فلسطين وطعن قضيتها في الصميم بنذالة ودناءة.. إن الجريمة التي اقترفها هذا الرجل هي أفظع وأحط ما سطره التاريخ من أنواع الجرائم منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا.. لقد باع فلسطين وسبعين مليوناً من العرب و400 مليون من المسلمين في سبيل امرأة يهودية اتخذته مطية لمساعدة الصهيونيين، فانقاد لها ونفذ رغباتها ناسياً فلسطين الجريحة المهددة بالخطر وإخوانه في خطوط النار.. وقد طلب النائب العام الحكم على (الضابط) بالإعدام بتهمة الخيانة العظمى.

والقصة الثالثة لجاسوس أمريكي الجنسية، صهيوني العقيدة تنقل ما بين القاهرة والعواصم العربية وما بين الزعماء السياسين والقادة العسكريين العرب في خط الميدان، ليجمع المعلومات ويرسلها للصهاينة. كان "جون روي كارلسون" طموحاً ويحلم بالشهرة..كما يحلم بأن يتضاعف رصيده في البنك.. وأدركت عيون الاستخبارات الصهيونية هذه الناحية في نفس كارلسون، فألقت شباكها حوله وسرعان ما تحول هذا الذي يدعى أنه "صحفي" إلى جاسوس يعمل لحساب الاستخبارات الصهيونية.

عملية أخرى دارت أحداثها بين القاهرة، والقدس في 1948/3/2، حيث هبطت طائرة آتية من لندن في مطار ألماظة في القاهرة، ونزل منها شخص أرمني يحمل الجنسية الأمريكية.. ويجيد التحدث بست لغات ويحمل آلتي تصوير وكان مزوداً ببطاقة صحفية.. نزل في فندق "الكونتيننتال" حيث استأجر غرفة لمدة 29يوماً.. وادعى أنه صحفي مر بالقاهرة في طريقة إلى القدس، لموافاة الصحيفة التي يعمل بها بآخر الأنباء حول الحالة هناك.. وفي القاهرة بدأت نشاطات كارلسون الجاسوسية وهو أرمني الأصل ولد عام 1909 في مدينة "الكسندريوليس" باليونان، وهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية وتجنس

بالجنسية الأمريكية عام 1926 انتحل أسماء لا تمت إلى الأسماء الأرمنية بصلة، مستهدفاً عدم إثارة الشبهات حوله، وهو يقوم بأعمال الجاسوسية تحت ستار الصحافة.

وبعد نشوب الحرب العالمية الثانية استخدمته بعض المؤسسات الأمريكية للبحث والتنقيب عن الأوكار الشيوعية العاملة ضمن الولايات المتحدة.. وتكللت بعض مساعيه بشيء من النجاح، فأصدر فيما بعد كتاباً نال حظا كبيراً من النجاح، مما شجعه على إصدار كتاب آخر عام 1946 وكشف فيه النقاب عن بعض نواحي النشاط الشيوعي في هذه البلاد.

وكانت مهمة كارلسون الأولية، على ضوء مضمون الوثيقة رقم 5461 – ن.ج الاتصال بأكبر عدد من الزعماء الذين يصفهم في كتابه: بأنهم "الذين احتكروا الدفاع عن فلسطين مستعينين فى ذلك بجامعة الدول العربية ومخططاتها".. وأخذ يدرس الأوضاع عن كثب ويعد العدة للاجتماع بالأقطاب العرب سواء في القاهرة أو في دمشق أو في عمان.

وعندما أتم دراسة الأمور، غادر القاهرة متوجها إلى القدس على متن إحدى السيارات التي تنقل عدداً من المجاهدين المصريين عن طريق غزة.. وكان هدفه الأول والرئيسي هو التجسس وجمع المعلومات عن القوات العربية، ومكث كارلسون في القدس خلال الفوضى التي عمت فلسطين قبل إعلان إنهاء الانتداب البريطاني، وكان يتنقل ما بين الأحياء العربية والأحياء اليهودية تحت ستار "الصحافة"، فيتم له نقل الأخبار والصور عن مواقع المجاهدين وعددهم ومعداتهم.

وفي صباح 1948/5/14 وقبل انتهاء الانتداب بأربعة عشر ساعة ونصف غادر المندوب السامي البريطاني مدينة القدس.. وكان ذلك إيذاناً بوقوع الاشتباكات بين العصابات الإسرائيلية وبين المجاهدين.. ولم يكن كارلسون متأهباً للهجوم الذي شنته القوات اليهودية في جميع القطاعات الاستراتيجية في فلسطين وخاصة في القدس.. ورغم كل المحاولات التي قام بها كارلسون للوصول إلى مواقع المجاهدين حول القدس، فقد فشل، فالقوات الإسرائيلية احتلت المدينة الجديدة خارج السور، وظل خلال الأيام الأولى للمعارك

في الشقة اليهودية، وكان همه الوحيد إيجاد طريق للتسلل إلى مواقع المجاهدين، لأن مهمته التجسسية لم تكن قد انتهت بعد.. فأخذ يفتش عن أنجح الوسائل ليكون في المناطق التي يحاصرها المجاهدون العرب، فطلب من الجهات اليهودية المختصة مساعدته.

وفي مبني الوكالة اليهودية وتحت إشراف ضابط يهودي اسمه "ولتر" وضعت خطة تسلل كارلسون إلى المواقع العربية.. وبسيارة من سيارت الهاجاناة نقل كارلسون إلى مركز قيادة إحدى الفرق اليهودية المتمركزة في جهة "دير أبو طور" الذي لا يبعد إلا قليلاً عن مدينة القدس وعن قرية "سلوان"، ومن هناك تسلل تحت جنح الظلام، وسلك الطريق المؤدية إلى "سلوان"، وأثناء ذلك قبض عليه أحد الحراس العرب واقتاده أمام قائد الموقع الضابط المصري النقيب "زكي" الذي اقتنع بأن كارلسون كان أسيراً لدى القوات اليهودية وأنه تمكن أخيراً من الفرار ليلجأ إلى "أصدقائه العرب".

بعد أن تواجد كارلسون في محيط المجاهدين كان أول اجتماع له مع عبدالله التل القائد الأردني ويقول كارلسون، إن مقابلته مع "التل" كانت موفقة إذ سمح له باللقاء مع المجاهدين والقوات الأردنية لمتابعة أعماله الصحفية وإرسال الأخبار عن سير القتال. ويطري كارلسون على "التل" ويكيل له الكثير من المديح والتبجح.. وما إن خلا الجو لكارلسون حتى أخذ ينتقل بكل حرية من عاصمة عربية إلى أخرى. في هذه الفترة كان كارلسون ينتحل اسم "ارتومارماريان" ويحمل بطاقة لجريدة "المصري" القاهرية، فقابل كلاً من: كلوب باشا في عمان، والحاج أمين الحسيني ومعروف الدواليبي في دمشق.. وفوزي القاوقجي والصحفي اللبناني كامل المروة في بيروت، وأخذ من كل واحد أحاديث وصوراً، وكان حديثه مع السيد معروف الدواليبي عن كيفية تهريب الحاج أمين الحسيني من باريس.. وغادر كارلسون بيروت إلى قبرص ومنها توجه إلى أمريكا بعد أن تزود بجميع المعلومات.. وبعد أن أرسل جميع تقاريره إلى الجهات الإسرائيلية المختصة.

هـذه الأمثلـة تـدل علـى أهميـة الـدور الـذي لعبتـه أجهـزه التجسـس الصـهيوني قبـل1948 وأثنائهـا في دعـم إنشـاء الكيـان الصـهيوني، وتحقيـق الانتصـارات علـى الجيـوش العربية التي تفوقها عدداً وعدة، ولكن المعارك لا تحسم من خلال التفوق في الكم والكيف، ولكن أيضاً في الطريقـة الـتي تعمـل بهـا وفي الاستعدادات وتهيئة ميدان القتـال.. والأهـم مـن ذلك هـو تـوافر العمليات الضرورية والحيوية لسير المعـارك وتوجيههـا.. أشياء كثيرة لابـد أن نكتشفها مـن النكسات الكبرى، وإن لم نتعلم مـن نكسة العدوان الصهيوني علـى فلسطين واغتصابها – تحت سمع وبصر العالم العربي والإسلامي – فإنـه مـن الصـعب تحقيـق خطـوة واحدة إلى الأمام.

الفصل الخامس

قبل قيام دولة إسرائيل

– البيلو أول شبكة تجسس لخدمة الإنجليز قبل الدولة الإسرائيلية بـ43 عاماً.

– إنشاء أول جهاز مخابرات يسبق الدولة بـ27 عاماً والموساد بـ10 سنوات.

– المخابرات الإسرائيلية نشأت في رعاية البريطانيين ولخدمتهم ثم تمردت عليهم.

لا تختلف أجهزة المخابرات الإسرائيلية عن أي جهاز مخابرات آخر في الدول الشمولية، سوى في التفوق على هذه الأجهزة..سواء في القسوة وانتهاك القوانين – القطرية والدولية – أو في اعتبارها الجهاز الأكثر أهمية لبقاء النظام والوضع..

أجهزة المخابرات الإسرائيلية تمتلك هذا الدور الفائق الأهمية سواء في تأسيس الدولة واستمرارها.. ويعد تنظيم هذه الأجهزة وسريتها وضمان أمنها وقدرتها على الحركة والاستجابة السريعة عاملا مهماً في احتفاظ الكيان الإسرائيلي بعناصر وحدته الوهمية وعدم تفجر تناقضاته وأزماته الداخلية بشكل يؤدي إلى الانهيار..

مازالت تجربة النظم الاشتراكية، وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي ماثلة في الأذهان، حيث انهارت في أول أزمة كبرى تصادفها بعض أمم هذه الجمهوريات ولم تقدر على مواجهة المتغيرات الجديدة.. بعد سياسات البروسترويكا والعلانية لجورباتشوف. لقد قيل: "إن المخابرات الأمريكية لعبت دوراً هاماً منذ بدء عام 1985 في التجهيز لتحطيم الكتلة الشرقية، ولم تكن العوامل الداخلية هي الدافع الأكبر لهذا الانهيار".

والأمر المختلف هو أن المخابرات الإسرائيلية تدعم كيانها في ظل عدم وجود طرف آخر على استعداد للعمل بدأب وجهد منظم وهادف، لاختراق تلك الآلة وحصونها وشل فاعليتها، وبث عناصر الفرقة والتنافر في وحدة الكيان الهزيلة وإزاله أسس بيت العنكبوت الهشة، ليكرر ما حدث في الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية في عدد من السنوات.

وأجهزة المخابرات الصهيونية قبل عام 1948 نشأت مرتبطة بالوكالة اليهودية الأم، وكانت على علاقة بأجهزة تخابر أخرى أتاحت لها من خلال تقديم خدمات لجهاز المخابرات التابعة له إفساح المجال للعمل في خدمة الحركة الصهيونية.. ويمكن تتبع تاريخ أجهزة التجسس في هذه الحركة منذ بداية القرن العشرين في عدة مراحل.

المرحلة الأولى:

وكانت هذه المرحلة تعبر عن علاقة المخابرات الصهيونية مع إحدى الدول الكبرى، التي تدعم وجودها في بداية القرن العشرين. تركز المخطط الصهيوني على تقديم العون للقوات البريطانية والتمهيد لغزو الحلفاء لفلسطين واسقاط الإمبراطورية العثمانية، وقد أنشئت منظمة "بيلو" السرية عام 1904 من مجموعة من المهاجرين اليهود من أوربا الشرقية، بهدف إمداد بريطانيا بالمعلومات عن أوضاع السلطات العثمانية ونشاط الفلسطينيين، إلا أن هذه المحاولة فشلت عندما اكتشفت السلطات العثمانية هذه المنظمة في عام 1907.

المرحلة الثانية:

ولا تختلف عن الأولى سوى في اتساعها وتطور عملها واشتمالها على مواقع وبلدان أكبر في المنطقة العربية – قبيل وأثناء الحرب العالمية الأولى – على إثر اكتشاف "بيلو". وفي عام 1914 أنشئت منظمة سرية جديدة باسم "نيلي" اختصاراً للأحرف الأولى من عبارة في العهد القديم معناها "فصيح إسرائيل لا يكذب" بقيادة "أهرون أهرونوس". وقد استطاعت "نيلي" إقامة اتصال مع المخابرات البريطانية في المنطقة ونشر شبكات تجسسها في مختلف أنحاء فلسطين، وتصاعدت أعمالها عندما تم تعيين "أهرونوسون" مستشاراً للقائد العثماني جمال باشا – بناء على تزكية من القنصل الأمريكي آنذاك. ساهم ذلك مساهمة فعالة في حسم معركة جنوب فلسطين لصالح الحلفاء (1916) عن طريق المعلومات التي زودتهم بها منطمة نيلي حول استعدادت الجيش العثماني ومواقعه في غزوة بئر السبع، إلا أن السلطات العثمانية اكتشفت نشاط "نيلي" أيضاً، وقامت بتصفيتها عام 1917.

المرحلة الثالثة:

كان انتهاء الحرب العالمية الأولى إيذاناً بمرحلة جديدة، فقد كانت نتائج الحرب مشجعة. في عام 1917 صدر وعد بلفور بإنشاء وطن قومي لليهود..كما أن العالم العربي الذي كان تحت حكم الرجل المريض (تركيا) قد توزع تحت الانتدابات الأوروبية البريطانية (في العراق والأردن وفلسطين ومصر) والفرنسية (في سوريا ولبنان) والإيطالية (ليبيا) لتبدأ المرحلة الثالثة: وبعد الحرب العالمية الأولى أخذت المخابرات بعداً أكثر تطوراً بعد أن أصبحت مستقلة عن العلاقة ببريطانيا أو غيرها. وفي عام 1920 تألفت الوكالة اليهودية وأنشأت فروعها في القدس ولندن ونيويورك وچنيف والقاهرة وباريس وبرلين، وأنشئ لها قسم خاص هو "المكتب السياسي" الذي تولاه الكولونيل "كيسي" وكان جاسوساً بريطانياً يهودياً. قام كيسي بتنظيم شبكة الجاسوسية اليهودية مستغلاً فرصة حماس اليهود، لإنشاء الوطن القومي وجند منهم أعداداً كبيرة. راحت فروع الشبكة تتستر وراء هيئات مختلفة، فبعضها كان عبارة عن نوادٍ رياضية تأخذ الطابع العادي، أو منظمات عالمية، والبعض الآخر كان على شكل جمعيات خيرية، وأشهر الأسماء التي كانت تتستر وراءها هي "نوادي المكابي" "وهي أيضاً منتديات رياضية بعيدة عن الشبهات، وكان الاسم الرسمي لهذه الشبكة هو "الهاجاناة"، أي الدافع، وكانت تتشكل من ثلاثة أقسام:

1- قسم وحدات (الهاجاناة) العسكرية للقتال.
2- قسم وحدات (البالماخ) لأعمال التخريب والكوماندوز.
3- قسم وحدات (الشاي) أي خدمة الاستخبارات.

ومع اتساع حجم الهاجاناة بعد انضمام آلاف من الشباب تفجرت الصراعات الداخلية، وبدأت تنقسم إلى مجموعات صغيرة، لتعارض التيارات الفكرية السائدة، والتي أدت إلى انتهاء قيادة الكولونيل "كيسي" وانتخاب "حاييم أولوزروف".. عام 1930 وقد كان يميل إلى الوفاق مع العرب.. وما كاد أولوزروف يتسلم عمله ويعرب عن آرائه

حتى قتل على شاطئ البحر المتوسط في تل أبيب، ووجه الاتهام إلى إحدى الحركات التي انفصلت عن الهاجاناة وهي حركة "ارجون تسفادي ليومي"، أي "المنظمة العسكرية القومية".. واعتقل ثلاثة من أعضاء هذه الحركة، وقدموا للمحاكمة وحكم عليهم بالسجن خمس عشرة سنة.

بعد موت "اورلوزروف" تولى بن جوريون منصب رئيس الوكالة اليهودية، وقام بتوزيع أدوار الاستخبارات على عدة هيئات، منها الهيئة التي تعمل في المجال العربي برئاسة "موشي شاريت" وكانت تصل إليه جميع المعلومات التي نقلها إليه أشخاص على اتصال وثيق بالعرب.. لقد كان لديه جهاز كبير من الجواسيس المتخصصين في الحرب النفسية، وقد وزعهم على العالم العربي، وجعل كل واحد منهم يقيم في مدينة أو منطقة. وكان أقدر هؤلاء الأشخاص هو "إلياهوإيشتين" الذي أصبح اسمه فيما بعد "الياهوايلات"، وقد تولى بعد قيام الدولة الإسرائيلية منصب سفير إسرائيل في لندن وفي واشنطن. كان "إيلات" متخصصاً في شؤون الأقليات التي منها الدروز والأكراد، كما كانت الوكالة اليهودية تتضمن عدا القسم العربي قسمين آخرين لأعمال الاستخبارات وهما:

1- القسم السياسي برئاسة "روبين شسلوح"، وكان يجمع المعلومات السياسية في المجال الداخلي والدولي.

2- القسم العسكري، أي خدمة مخابرات الأمن الذي يسمى "شاي" ومهمته الأولي هي التجسس على اليهود وعلى البريطانيين وكان ينفذ العمليات المبرمجة. وكان يرأس هذا القسم "ايسارباري" أو "برونسويك" التابع لقيادة منظمة "الهاجاناه" من ناحية الأفراد، أما رئيسه فكان مسؤولاً فقط أمام رئيس الوكالة اليهودية بصورة مباشرة، لذلك كان هذا القسم يشكل سلطة على الجيش وعلى ضباطه، وكان يقوم بمجابهة المنظمات العسكرية المتمردة مثل "أورجون"، ومنظمة ليجي "شتيرن".

قسم الشاي (أو وحدة الاستخبارات) نشأ قبيل وأثناء الحرب العالمية الثانية): مع تطور عمل المكتب السياسي، وترؤس"بن جوريون" للوكالة اليهودية، يعتبر قسم الشاي أول جهاز مخابرات متخصص، حيث بدأ من1937 برئاسة "موشي شاريت"، مستغلاً أغطية مثل المنظمات العالمية والجمعيات الخيرية والنوادي الرياضية.

ومع بداية الأعمال العدائية التي مهدت لقيام الحرب العالمية الثانية عام 1938، سنحت لهذا الجهاز فرصة نادرة عندما عين الرائد "تشارلز أوردوينجت" ضابطاً لاستخبارات القوات البريطانية في المنطقة، وقد أعلن هذا الضابط ولاءه للصهيونية وأطلع "شاي" على كافة مخططات القوات البريطانية ومدهم بمعلومات ثمينة عن الثوار الفلسطينين حصل عليها من خلال عمله، ونتيجة لذلك غيرت "الهاجاناة" تكتيكها العسكري واتبعت تكتيك (اضرب بسلاح عدوك وفي منطقته). وفي عام 1940 أيضاً، نتيجة للاضطرابات التي عمت فلسطين بين عامي 1936 – 1939 افتتحت دائرة عربية كلفت بتأسيس أرشيف معلومات يتعلق بالتركيب الاجتماعي للمدن والقرى الفلسطينية، ومدى اشتراك كل منها في أحداث هذه الفترة وجمع معلومات وتفاصيل عن الشخصيات والزعامات القطرية والمحلية. كما تابع "الشاي" الضغط لزيادة الهجرة اليهودية إلى اسرائيل وتهيئة وسائل تهريبهم عند اقتضاء الضرورة، والحصول على السلاح، وإرساله إلى المستعمرات في فلسطين.

لم يكن "الشاي" جهاز المخابرات الوحيد، بل كان يستعين بأجهزة مخابرات خاصة بالعصابات الصهيونية الإرهابية التي تطورت أيضاً، ففي عام 1942 أعاد "يعقوب فينارسكي" قائد المنظمة العسكرية الوطنية "ايتل" تنظيم حركته، وأنشأ أربع وحدات سرية أهمها قسم التجسس والمعلومات – الذي نفذ مذبحة دير ياسين – كما أنشأت منظمة الأرجون "زفائي ليؤمي" جهاز "الفرقة السوداء"، وهو الاسم الكودي لمخابراتها التي نشطت في إقامة شبكة واسعة من اليهود المقيمين في الدول العربية، وفي تنفيذ عمليات تخريب إرهابية في القرى الفلسطينية.. كذلك استمر نشاط جهاز مخابرات "الشين يود" التابع "للهاجاناة"، وأسندت إليه مهمات استثنائية، أهمها توجيه إذاعة الوكالة اليهودية السرية،

لتشن حرباً نفسية ضد العرب، وأيضاً تدريب المهاجرين على صناعة المتفجرات والقيام بعمليات إرهابية.

بعض الباحثين المتخصصين يرجعون إعادة تنظيم الهاجاناة إلى تاريخ سابق، ويرون أنه في أوائل عام 1940 أعيد تنظيم جهاز الاستخبارات بعد موجة احتجاز لعناصر "الهاجاناة" على يد القوات البريطانية، التي صممت على إنهاء هذه المنظمة. وفي يونيو من نفس العام ذاته أفاد أحد عملاء "زوفين زاسلاني"، ضابط الاتصال اليهودي في حيفا، بأن المباحث البريطانية بدأت بالاهتمام في تنبيه "الهاجاناة" وتنظيمها، وأنها تراقب نشاطات صيادي الأسماك اليهود الذين وصلوا إلى البلاد بصورة غير شرعية. وأنشأت قيادة "الهاجاناة" قسماً لمكافحة التجسس يعمل كجهاز أمن داخلي، لكشف اليهود المتعاملين مع السلطات البريطانية ولمراقبة الجناح المنشق (الأرجون)، وتولي شاؤول ميروف المسؤولية الكاملة عن الجهاز وأشرف على تنظيمه دافيد شاليتل، وهو ضابط سابق في الفرقة الأجنبية الفرنسية وتاجر معروف بـ"تشافازتي"، وتم إنشاء قسم للشؤون العربية بإشراف "عزرانين" أحد اليهود من سكان يافا وكان ذا علاقات قوية بالعرب مع أنه لم يعمل لصالح "الهاجاناة" بشكل رسمي، واحتفظ بوضع مستقل ، وكانت معظم نشاطات "الهاجاناة" الاستخبارية عام 1940، 1941 موجهة ضد اليهود الذين يتعاملون مع البريطانيين.

كذلك أجريت تحريات واسعة حول المجرمين والنساء اليهوديات، اللواتي أقمن علاقات وثيقة مع سلطات الانتداب، وأنشئ كذلك قسم خاص لمراقبة اليهود الشيوعيين، ثم وضع حوالى 200 شخص تحت المراقبة. ومع أنه ثبت عدم صحة العديد من التهم والشبهات، فقد تعرض البعض للضرب والتحذيرات القاسية، ولكن في الحالات الهامة أي عندما تكشف المباحث البريطانية مخابئ أسلحة لـ"الهاجاناة" أو توقف بعضهم تفيد قيادة مكافحة التجسس القيادة الوطنية عن الوضع وتطلب تنفيذ حكم الموت. ويخجل التاريخ الرسمي لـ"الهاجاناة" من ذكر الأرقام، لكنه يذكر صراحة أنه تم إعدام العديد من المخبرين والخونة في تلك الفترة، وبذلت جهودا كثيرة لمراقبة المنشقين الصهاينة، خصوصاً عندما

حاول (الأرجون) معرفة مخازن الأسلحة، وكان يستخدم خططاً ويمارس ألاعيب عديدة لإحداث انشقاقات داخل "الهاجاناة".

أما جهاز المخابرات الخارجية الإسرائيلية الموساد، فيعود إنشاؤه – لدى غالبية الباحثين – إلى ما بعد قيام دولة إسرائيل، إلا أن هناك من يذهب إلى تاريخ أبعد لإنشاء (الموساد: لو علياه بيت) وهو عام 1937 ويقف وراء فكرة إنشائه "ألياهوغو لومب" و"شاؤول افيكور" وهما مهاجران يهوديان متحمسان.. وكان الموساد قد أنشئ كجيش سري تابع لـ"الهاجاناة"، وتركز عمله في تنظيم الهجرة غير الرسمية لفلسطين، وتهريب الأسلحة، ثم توسعت مهامه لتشمل جميع أنواع أعمال التجسس خارج نطاق حدود فلسطين، إضافة إلى أعمال مكافحة الجاسوسية المضادة ومعاقبة اليهود الخارجين على رغبة "الهاجاناة"، وقد حصل الموساد على شهرة واسعة في هذه المجالات ووصلت أعماله فيها – حسب رأي الصهاينة – إلى درجة الامتياز بفضل جهود سابروين وبن جوريون وأشكول، إضافة إلى البعض الآخر.. الذي كان منضماً إما في جهاز الاستخبارات البريطاني.. وإما في مدرسة الجاسوسية البريطانية لغرض التدريب مثل موشي ديان وأبا إيبان.

وقد بدأ الموساد يأخذ شكله التنظيمي كجهاز مصغر ومتقدم للاستخبارات عام1942 حيث تم تسجيل 40 عضواً وعضوة في دورات تدريبية، خاصة بالمسائل الاستخبارية، وذلك في مدرسة للتدريب الزراعي في "ميكفاه" بفلسطين، وشملت الدورة إلى جانب أمور أخرى قراءة الخرائط وحل رموز الشفرة والرمي وتدبير طرق ووسائل الهرب.

وفي يونيو 1940 اقترح ميروف على قيادة "الهاجاناة" وعلى "موشي شاريت" إنشاء هيئة معلومات مشتركة على صعيد البلاد عرفت بالعبرية (شاي)، وفي سبتمبر دخل هذا الاقتراح حيز التنفيذ، وأصبح قسم مكافحة التجسس أحد الأقسام الثلاثة للهيئة الجديدة، وفي مارس 1942 حل إسرائيل زافلودروفسكي المعروف باسم أمير مكان شالتيل وعين رئيساً لـ"الشاي" وهكذا توحدت أخيراً مختلف أقسام الاستخبارات التابعة لـ"الهاجاناة" تحت سقف واحد في تل أبيب.

وقد أنشئ في هذه الفترة ضمن جهاز (الشاي) القسم البريطاني الذي لم يكتف بالتجسس لصالح بريطانيا فقط، وإنما كانت مهمته نقل المعلومات الكاذبة عن نشاط الصهاينة إلى البريطانيين للتشويش على السلطات في فلسطين المحتلة.

المرحلة الرابعة:

وتعكس هذه المرحلة الصراع بين العصابات الصهيونية استعداداً لإنشاء الكيان، ففي سنة 1947، نشب صراع بين أجهزة المخابرات المختلفة، وبدأت في تصفية بعضها البعض بالتعاون مع بريطانيا في بعض الأحيان – مثل اتفاق الهاجاناة – والقيادة البريطانية على تصفية منظمة (مقاتلي حرية إسرائيل ليجي)، واستمر هذا الصراع بعد إعلان الهدنة الأولى في 11يونيو 1948.

وعلى إثر اغتيال الكونت برنادوت (من قبل منظمة شتيرن) استغل بن جوريون الفرصة وأصدر أمره لمخابرات "الهاجاناة"و"البالملخ" بتصفية المنظمات السرية بالأخرى، وقد تم ذلك بالفعل، وكان لقدرة "الهاجاناة" وقوتها هي وتنظيم "الشاي" التابع لها، الأثر في أن تبقى مع بقية المنظمات الأخرى القوية.

المرحلة الخامسة:

بدأت هذه المرحلة بعد عام 1948 عقب إعلان الدولة العبرية واستيلاء "الهاجاناة" على السلطة ثم الاتفاق على حل معظم التشكيلات السابقة، وتشكيل جهاز مركزي للاستخبارات. وقد قام بن جوريون بانتخاب معظم عناصر هذا الجهاز من "الهاجاناة" ليتأكد من تسلمهم للمناصب القيادية، ولكنه استفاد أيضاً من العناصر الممتازة الموجودة في التنظيمات الأخرى، لذلك نلاحظ أن جهازه ضم أكفأ الخبرات الموجودة، إضافة إلى العديد ممن تعاون معهم خارج فلسطين، ويشكل هؤلاء مجاميع متنوعة من

الحرف والمؤهلات كالمتخصصين في مجال تزوير الوثائق والهويات أو في مجال الاتصالات والجواسيس وعناصر الاستخبارات الأخرى، كالعلماء اليهود في الخارج. وقد عقدت في 3يونيو 1948 الجلسة الأولى الخاصة بتشكيل جهاز الاستخبارات بتنظيمه الجديد، في مقر قيادة مصلحة المعلومات في شارع يهودا 85.

وتقرر في الاجتماع أن يتفرع الجهاز إلى ثلاث دوائر متخصصة:

1-الاستخبارات العسكرية، ويترأسها المقدم "أيسر بئيري" ومقره في جادة القدس بيافا.
2- الدائرة السياسية في وزارة الخارجية، ويترأسها بوريس غوربال ومقرها مبني الخارجية في هيكتريا، ومهمتها الحصول على المعلومات من السفارات في الخارج.
وقد دمج الموساد ضمن هذه الدائرة في تلك الفترة المبكرة من عمر إسرائيل.
3- الأمن الداخلي "الشين بيت" ويترأسها "أيسرهارئيل"، وتشمل مهمته ملاحظة الجواسيس وحفظ الأمن الداخلي.

ولكن هذا التشكيل لم يحرز تقدماً جديا، بل تورط في سلسلة من الأخطاء والقضايا الجانبية، فقرر "بن جوريون" على أثر ذلك دمج الدائرة السياسية بوزارة الخارجية، وإنشاء جهاز متخصص للتجسس والمهمات الخاصة (1951) إلا أن التشكيل الجديد أيضاً لم يستطع تفادي أخطاء التشكيل الأول أيضاً، وبعد هذين التشكيلين مر الجهاز بعدة تطورات في أعوام 1953 و1960 و 1972.

وتشهد هذه المرحلة عدداً من التقلبات في تنظيم وإدارة أجهزة المخابرات، ففي عام 1953 صدر أول تنظيم رسمي للاستخبارات بناء على قرار رئيس الوزراء "بن جوريون"، يقضي بإعادة تنظيم الجهاز والتنسيق بين جميع فروعه، وتعيين رئيس لهذه اللجنة يكون مسؤولاً أمام رئيس الوزراء مباشرة، وأنيطت رئاسة أول لجنة تنسيق "لا يسر هارئيل" وتتفرع

عن هذه اللجنة خمسة إدارات هي: الموساد، والأمان، والقسم الخاص بوزارة الخارجية والمهمات الخاصة والتحقيقات بوزارة الشرطة، "الأمن الداخلي". وبالإضافة إلى ذلك فقد شكل "بن جوريون" جهاز مخابرات خاصة به من الأفراد المحيطين به، مهمته تختص بتأمين سيطرة الحزب.

ولم يستمر تشكيل هذا الجهاز (الجهاز الثالث) مدة طويلة، إذا استغله "بن جوريون" لخدمة مصالحه الحزبية وإقصاء أعدائه الشخصيين، وبالرغم من أن هذا الجهاز في عهد "ايسر هارئيل" كان زاخراً بالعمليات الناجحة، إلا أنه فشل في التعرف والتنبؤ بحصول صفقة السلاح السوفيتي لمصر، كما اتسم بصراع حاد على السلطة داخل أجهزة الاستخبارات والأمن، ويتميز التشكيل بأنه أدخل تقنية التجسس الحديثة لأول مرة، إذ تولى "يوفال نيئمان" وهو بروفسور في الفيزياء كان يعمل مدرساً في جامعة تل أبيب، رئاسة الاستخبارات العسكرية بعد إقصاء "بنيامين جبيلي" إثر فضيحة "لافون" الشهيرة.

وفي عام 1960 ولتلافي صراعات (الجهاز الثالث) لم يجد "بن جوريون" بدا من إعادة تشكيلة، فتم التشكيل (الرابع) برئاسة الجنرال "مئير عميت" الذي تولى منصب رئيس اللجنة العليا للاستخبارات الصهيونية، وقد اتسم عهد "عميت" بالمسئولية الجدية، والانسجام التام بين مختلف إدارات الجهاز. وأهم الإنجازات التي حققها هي عمليات الزرع داخل المؤسسات العربية والتحضير لحرب 1967، قبل أن يستقيل في عام 1968.. وفي نفس العام بعد استقالة "عميت" خلفه "زاقي زامير" الذي اهتم بشكل خاص بالمعلومات الواردة من خلال النشاط الإلكتروني، والتصوير الجوي، والتنسيق مع أجهزة المخابرات الغربية. وتولى الجهاز برئاسة زامير وضع مخططات لمكافحة الخلايا السرية التابعة للمقاومة الفلسطينية داخل المناطق المحتلة وحدث ذلك عام 1972، ونتيجة لتصاعد عمليات المقارمة خارج الحدود أجرت "جولدا مائير" رئيسة الوزراء آنذاك التشكيل (السادس) باستحداث منصب جديد هو منصب مستشار رئيسة الحكومة للمهمات الخاصة ، وأسندته إلى العميد "أهارون ياريف"، وأعطته صلاحية الرقابة على إدارات الجهاز الخامس.

وقد سخر هذا التشكيل جهوده للتصدي لعمليات المقاومة الفلسطينية في الداخل والخارج وملاحقة قيادتها ومراكزها.. وقد شهد هذا التشكيل منافسة شديدة بين فروع الجهاز سببت ارتباكاً وتبعثراً في إدارته، مما جعل الجهاز في وضع لا يقارن بوضعة أثناء الإعداد لحرب 1967.

وجاءت نتائج حرب أكتوبر 1973 لتلقي مسئولية التقصير والهزيمة على كاهل الجهاز، مما جعله يواجه هجوماً عنيفاً على كافة المستويات في داخل إسرائيل وخارجها. ونتيجة لذلك دعت مائير في 1973/12/19 إلى إنشاء لجنة الأمن القومي في إسرائيل وكانت تابعة لرئاسة الحكومة، وتشمل رؤساء دوائر الجهاز، وتضم أشخاصا ذوي خبرة يشتركون في اتخاذ القرارات حول مختلف الأمور، وعلى إثر ذلك أجرت "مائير" عدة تغييرات في كوادر الجهاز الرئيسية. ومن أشهر قادة الاستخبارات الإسرائيلية "إيسر هارئيل" أول رئيس للموساد وأول رئيس للجنة التنسيق العليا.. ومن أشهر العمليات التي أشرف عليها عملية "ايخمان"، وعملية "وسيل شيرماجز" وعملية العلماء الألمان في مصر وفضيحة "لافون"، وقد أشرف على زرع "تايلي كوهين" في سورية، ولوتز الألماني في القاهرة، واختطاف طائرة الميج 21 من العراق بواسطة (حلمي روقة) والتحضير للمعلومات التي مهدت لحرب 1967 و"زافي زامير"، قد أشرف على سرقة زوارق شيربورج من فرنسا، وسرقة تصميم طائرة الميراج من سويسرا ، "أهارون ياريف"، اختير مديراً للمخابرات العسكرية في يناير (كانون الثاني) 1961 وبقي فيها حتى أكتوبر (تشرين أول) 1972، عندما عين مستشاراً خاصاً لرئيسة الوزراء. وفي عام 1972 بدأ مسلسل عمليات التصفيات الجسدية لزعماء فلسطين وهي المرحلة التي استمرت في الثمانينات، وحتى التسعينات قبل مؤتمر مدريد في نوفمبر 1991 وذهب ضحية لها عدد كبير من قادة الثورة الفلسطينية، وكوادرها في أوروبا أو في مقار إقامتهم في بيروت وتونس.

وكانت كل هذه التطورات تعكس رغبة القيادة الصهيونية في اكتشاف الوسيلة التنظيمية والإدارة الفعالة، لأداء أجهزة التجسس دورها بفعالية وأداء عال.

الفصل السادس

أجهزة الاستخبارات.. كيف تعمل؟!

- رئيس الموساد مجهول الاسم ويحضر اجتماعات مجلس الوزراء والكنيست.

- البحوث العلمية تدخل أقسام الموساد كأثر من فواجع حرب أكتوبر 73.

- "المنتقمون" فرقة للقتل والتدمير في البلاد العربية و"الوحدة 131" مهمتها التخريب.

لا يزال الدور الذي تلعبه أجهزة وأدوات التجسس الصهيوني هو العامل الأكثر أهمية في استمرار الكيان ومواجهته لأزماته وعثراته.. وسوف تظل تلك المكانة والأهمية قائمة باستمرار بقاء الكيان الإسرائيلي، لما له من صفات تحمل الكثير من المتناقضات بين عناصره وأجزائه، والتي يمكن أن تتنافر وتدخل في دائرة صراع مرير وقاسٍ وأشد دموية.

وهذا الكيان وجوده مرتبط بقدرته على ضبط إيقاع التناقضات وحماية الثغرات والحدود المتنافرة من الهجوم الخارجي أو التفاعل الداخلي وقدرته على التنبوء باحتمالات التطور على ساحة الصراع الخارجي، أو الانهيار والانفجار الداخلي ووضع الخطط والأساليب السريعة، والعاجلة للمواجهة من العوامل المهمة والضرورية، وبدونها يمكن أن يكون هناك حديث آخر.

وما زال الكثيرون يذكرون الزلزال الذي هز إسرائيل في 6 أكتوبر 1973 عندما فاجأت الجيوش العربية في مصر وسوريا جيش الاحتلال الإسرائيلي بعملية عسكرية واسعة، وأقصى الضربات الموجعة التي أفزعت الإسرائيليين، هذا الزلزال هو "المفاجأة" التي حطمت الكثير من أسطورة جهاز الاستخبارات الإسرائيلية فأنزلته من عليائه.. بعد أن فشل في تقدير أهمية التحركات العسكرية على الجبهتين المصرية والسورية، والتنبوء بنوايا المصريين والسوريين بشكل صحيح، وهو صميم عمل المخابرات وجوهر تميزها عن سائر القطاعات العسكرية.. وكان لهذا الفشل – كما كان في النكسات التي تعرضت لها إسرائيل على يد الفدائيين الفلسطينين في عدد من الدول وفي داخل إسرائيل ذاتها – أن بدأت أجهزة التخابر في تغيير وظائفها وأدواتها، وهي إحدى السمات المميزة للنشاط التجسسي والمخابراتي الإسرائيلي، الذي يعتمد النظرة البراجماتية النفعية، التي تمكنه من إعادة تجديد وتغيير نفسه ووظائفه بدون قيود عقائدية أو مذهبية أو ركون للماضي ليس هناك من شيء

مقدس أو ظيفة أو نظام حتى لهؤلاء الأشخاص الذين أدوا وظيفة ما في الماضي ذات أهمية لا تقدر، فتغييرها أوتجديدها شيء عادي إذا ما رأت القيادات.

إن عامل التغيير والتعديل والتبديل في الأشخاص هو الأساس في منظمات وأجهزة التجسس، بينما تركت مهمة الاستقرار قائمة من خلال وحدة فكر العقيدة التخابرية الصهيونية والقيادة الواحدة التي ترجع إلى شخصين، الأول رئيس الوزراء الإسرائيلي، والثاني هو رئيس جهاز المخابرات الصهيونية "الموساد"، الذي يتصل مباشرة برئيس الوزراء. والأساس الذي يحكم وجود الأشخاص أو يحدد بقاء الأجهزة والأدوات هو نجاحها في تحقيقها لأهدافها الكلية، أو التوقع بأن يمكن لها أن تنجح في التغلب على المواقف الطارئة والجديدة، وهي تعكس الروح المادية الصرفة بشكلها الفج أحيانا. وهي الروح التي تهيمن على كل أنشطة الحياة في إسرائيل لأول جهاز مخابرات إسرائيلي. وكان قد بدأ أول اجتماعات في 3 يونيو 1948 في مقر قيادة مصلحة المعلومات. أصدر التشكيل الثاني للجهاز في إبريل 1951، إثر إقالة "إيسر بئيري" وقد قرر رئيس الوزراء "بن جوريون" ومجلس الوزراء إعادة تنظيم البنية الاساسية لأجهزة المخابرات، والأمن الإسرائيلية تنظيماً شاملاً، بعد أن دق ناقوس الخطر بسبب جو عدم الثقة السائد بين الأجهزة المتعددة. وعمل بن جوريون على دمج الدائرة السياسية التابعة لوزارة الخارجية، وأنشأ جهازاً رسمياً متخصصاً بالمؤسسة المركزية للاستخبارات (الموساد) بشكله الحديث، وعهد برئاسته إلى "راؤبين شلواح".. كما أسندت إدارة الاستخبارات العسكرية إلى "حاييم هرتزوج"، واستمر "أيسر هائيل" في منصبه كرئيس للأمن الداخلي "الشين بيت".

وتعددت دوائر الاستخبارات بعد ذلك، وشكت من عدم الاستقرار وحدة المنافسة فيما بينها حتى عام 1953، حيث صدر أول تنظيم رسمي للاستخبارات الإسرائيلية، بناء على قرار من بن جوريون، يقضي بإعادة تنظيم الجهاز، إضافة إلى إنشاء لجنة تنسيق تضم جميع وحداته، ونبع ذلك من رغبة بن جوريون في المحافظة على التنسيق والوحدة بين وحدات الجهاز المختلفة، فتم تعيين "أيسر هارئيل"، "أيسر الصغير" رئيساً للموساد مع

احتفاظه برئاسة (الشين بيت). وتجمع لجنة التنسيق "اللجنة العليا لرؤساء الاستخبارات" خمس إدارات تمثل الوحدات المختلفة لجهاز الاستخبارات الإسرائيلي، وهذه الوحدات هي:

1 – المؤسسة المركزية لاستخبارات الأمن (الموساد): وتقرر أن تكون المصدر الرئيسي لجمع المعلومات في الخارج، وأن تكون خاضعة مباشرة لرئيس الحكومة ووزير الدفاع.

2 – المؤسسة العسكرية (أجاف مودين): وتسمى دائرة الاستخبارات في القيادة العامة، وتكون خاضعة لرئيس الأركان ووزير الدفاع، ويتركز عملها في عدة مجالات، أهمها تحضير الدراسات والتقارير في المجال العسكري والاستراتيجي والاستخباري. وعهد إلى مديرية الاستخبارات القيام بجمع المعلومات، عن التكوين العسكري للعدو العربي، وجمع المواد المطبوعة التي تتطرق إلى موضوعات عسكرية. ووظيفة هذه الدائرة تشبه إلى حد بعيد وظيفة خدمات الأمن في المجالات المدنية.

3 – خدمات الأمن العامة لوزارة الداخلية (الشين بيت): ومهمتها الإشراف على الأمن الداخلي في الدولة والبحث عن الحركات السرية، واكتشافها والقضاء عليها والقيام بمكافحة التجسس، وبتعقب مصادر التجسس المحتملة، كما أنيطت بها مهمة منع النشاطات المعادية داخل الدولة، وتقرر أن تكون تبعيتها المباشرة لوزير الدفاع.

4– فرع المهمات الخاصة في الشرطة: وقد شكلت لغرض إتمام الجانب العلمي في نشاطات خدمات الأمن العام، ومعظم واجبات هذا الفرع هي تقديم المساعدة إلى خدمات الأمن وإبعاد الأجانب غير المرغوب فيهم عن البلاد ومراقبة الأجانب الذين يزورون البلاد، ويرتبط هذا الفرع بشرطة إسرائيل ويتبع المفتش العام ووزير الشرطة.

5 – قسم الأبحاث في وزارة الخارجية: وكان عمله ينحصر في التجسس وفي جمع المعلومات الواردة وتحليلها، خاصة التي ترد من البعثات الدبلوماسية في الخارج وموظفي وزارة الخارجية.

وقد نجح "أيسر الصغير" في التنسيق بين وحدات جهاز الاستخبارات الإسرائيلي المختلفة أيما نجاح رغم حدة المنافسة، التي تميزت بها فترة رئاسته للجنة التنسيق، وخاصة بين وحدتي الموساد وأمان. وقد ترك "أيسر" بصمات واضحة على سير عمل الموساد من النواحي الإدارية والتنظيمية وعلى مستوى تحمل المسؤولية يفيد تميز هذا المجال حتى الآن.

وتعد "الموساد" أهم منظمات المخابرات الصهيونية، وتتبع مباشرة رئيس الوزراء ووزير الدفاع والموساد الذي يُسمى "ها موساد ليئوم" (مؤسسة التنسيق) مسؤول عن جمع المعلومات الخارجية والعمل السياسي لاتخاذ القرارات ومكافحة الدور التحرري العربي، وحتى تقوم هذه المؤسسة بعملها في مهمة جمع المعلومات الإيجابية النافعة، فإن هدفها الأساسي هو أن تقوم بالعمليات عن طريق عملائها ضد الدول العربية وممثليها الرسميين ومؤسساتها في العالم أجمع، وخاصة في أوروبا الغربية وأمريكا، حيث تتصادم مصالح العرب القومية مع المصالح الإسرائيلية.

وتعتبر المعلومات الخاصة بالمنطقة العربية خط الدفاع الأول، إذ إنها تعطي لها القيمة القصوى في الأهمية.. ويضم الموساد في تنظيمه الحديث الحالى خمسة فروع هي:

1- وزارة خارجية سرية تقيم علاقات غير دبلوماسية مع دول عديدة.

2- فرع الشؤون العربية الذي يهتم بإرسال عملاء إلى الدول العربية المجاورة.

3 - فرع الأبحاث الذي يجمع المعلومات ويحللها، ويقارنها مع المعلومات المتوافرة لدى دولة ثالثة.

4 - فرع المهام الخاصة الذي يتولى إرسال مجموعات اغتيال إلى إحدى الجهات السرية في عمليات تصفية، ويتعامل هذا الفرع مع كبرى الشركات الإسرائيلية، مثل كور للبناء والعال للطيران وزيم للخطوط البحرية.

5 - فرع الاتصال الذي يتولى الاتصال مع المخابرات الصديقة، وهو ذو صلات مع مجموعات غير رسمية مثل حزب القوات اللبنانية (العميلة لإسرائيل). وتتبع هذه الدائرة

وحدة خاصة بالعمل السيكولوجي أو شخصية الأشخاص، الذي يخشى منهم على التجمع الصهيوني، مستخدمين بذلك طرقاً عديدة.

ويستهدف الموساد معرفة إمكانيات الدول العربية ونياتها تجاه التجمع الصهيوني، وعلاقاتها مع كل الدول الأخرى، وتجمع المعلومات العسكرية خاصة عن الجيوش العربية.. تنظيمها معنوياتها تسليحها ومعداتها، أي كل المعلومات التي تفيد عند حدوث جولة أخرى من القتال، وترصد النشاط التجاري العربي، وخاصة في مجال مشتريات الأسلحة.. كما تهتم بمعرفة شخصيات وقادة الدول العربية وسياساتهم الداخلية والعربية، وما يتعلق منها بمناطق القوة الحيوية مثل إفريقيا.

يقوم الموساد كذلك بجمع المعلومات عن السياسة السرية للدول الغربية، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية وقراراتها على المستويين الداخلي والخارجي، وكل ما يتعلق بموقفها من التجمع الصهيوني، وجمع المعلومات العلمية عن صفقات الأسلحة لمصلحة جيش الدفاع الإسرائيلي والعمل على جمع المعلومات، لاستخدامها في إسكات الجماعات المعادية لإسرائيل في الغرب.

وفي أثناء الحرب الباردة تركزت أهداف الجهاز في تحديد السياسة الحكومية السوفيتية تجاه إسرائيل، ومشكلة هجرة اليهود وتجنيد الأشخاص من ذوي المناصب العليا في البيروقراطيات السوفيتية والإدارية الشرقية، تحركهم النوازع المالية أو الانتماءات الصهيونية. كذلك من أهداف الموساد ملاحقة المصالح العربية في أوروبا وأمريكا ومحاولة الاتصال بأشخاص عرب في جميع الحقول الاقتصادية والعسكرية والسياسية، للعمل معهم أو الاتصال بالجهات غير العربية لإقناعهم بعدم التعاون مع العرب، وجمع المعلومات السرية في مناطق عديدة مثل إفريقيا وأمريكا اللاتينية. وتعتبر الأمم المتحدة هدفاً مهماً للاختراق، ويتسلل العملاء إلى دوائرها، نظراً لأهمية المنظمة الدولية في التبادل الدولي، وفي إقرار الحلول الخاصة بالصراع العربي – الصهيوني.

ويتراوح عدد العاملين في الموساد ما بين 1500 إلى 2000 شخص بينهم ضباط، كما تعمل محطات خارج المناطق العربية في الشرق بشكل عام تحت ستار دبلوماسي داخل السفارات والقنصليات الإسرائيلية، ويأتي الكثير من الإسرائيليين إلى الأقطار العربية التي ولدوا فيها، هم للعيان كالعرب من حيث التقاليد ولغة الحوار، ويعتمد كذلك على الجاليات والمنظمات اليهودية في الخارج لتجنيد العملاء والجواسيس، ولجمع المعلومات العامة.

وتشتمل دورة الموساد التدريبية على منهج أساسي للعمليات للمجندين الجدد والدرجات الدنيا من الموظفين، وكذلك على منهج العمليات الميدانية. ويلحق كل الضباط الجدد بالمنهج الأول لمدة أربعة أشهر قبل أن يتسلموا وظائفهم، وتستغرق الدورة التدريبية كلها حوالى عامين، ويضم الفصل الواحد اثنتي عشرة مادة، ويتم هضم التدريب في تل أبيب.. أما الذين يقومون بالتدريس في هذه الدورات فهم إما مدرسون دائمون وإما ضباط للمخابرات وإما مسئولون في الإدارة العامة أو الرئاسة. وينبغي على كل الضباط الذين أمضوا نصف المدة في خدمة الأجهزة الاشتراك في الدراسات المتقدمة، التي تعقد كل ثلاثة أشهر حول الشئون الدولية والأهداف الإسرائيلية والتقنيات الحديثة في العمليات التجسسية.. ويرسل بعض الضباط الصغار للدراسة في الجامعات بالخارج ممن يلاحظ ضعفهم في اللغات الأجنبية أو لدراسة تخصصات بعينها.

وتعتبر دراسات هؤلاء الضباط في حد ذاتها غطاء ممتازاً للعمليات الخارجية ذات الطابع السري. وأحد الأهداف الرئيسية لأجهزة الاستخبارات، والأمن أن يجيد كل ضابط من ضباطها اللغة العربية بطلاقة، لذا تقام دورة لغوية لمدة تسعة أشهر من كل عام، وترسل وزارة الخارجية اثنين من موظفيها إلى كل دورة، ويحصل الضباط على نفس الدورة. وللحصول على المزيد من التدريب يتم تكليف هؤلاء الضباط بالعمل في الأراضي العربية المحتلة لمدة عامين، لتحسين مهاراتهم في اللغة العربية قبل تسلمهم مهمات أخرى في الخارج.

وتتكون الموساد من عدة دوائر لكل منها وظيفتها ودورها المحدد وهي:

1) الإدارة العامة: تقع في أطراف تل أبيب بين عدد من شركات الاستثمار والتأمين وبها 100 موظف، وبها المكاتب التالية: - مكتب المدير، وبه بعض المساعدين وسكرتارية خاصة بالمدير. ويتم تعيين مدير الموساد عن طريق رئيس الوزراء مباشرة، ويظل اسمه سراً لحين تغييره أو استبداله أو إعفائه، وهو ممنوع من الإدلاء بأي تصريحات أو نفي التهم الموجهة إلى جهازه، وهو يشارك أحيانا في بعض الجلسات الوزارية أو جلسات الكنيست.

- سكرتارية المدير.
- المستشارون.

2) قسم التخطيط للعمليات والتنسيق ومهمته الإدارة والتطوير ووضع الخطط المستقبلية وتنسيق عمل الشبكات، ووضع احتياجات خطط جمع المعلومات وتطويرها، ورئيس هذا القسم هو نائب رئيس الموساد.

3) قسم جمع المعلومات أكبر وحدات هذا الجهاز، وتجمع المعلومات من المصادر السرية ويتم تصنيف وكتابة تقارير المصادر السرية وإعدادها للاستخدام وتصنيف المعلومات.

4) قسم العمل السياسي والخارجي (الارتباط) وهو مسؤول عن الاتصالات بالدول الأجنبية التي لها علاقات مع إسرائيل، ومكاتبه الخارجية موجودة تحت غطاء السفارة، وتشتمل على كثير من المندوبين والصحفيين والمراسلين.

5) قسم الإعداد والتدريب، لتدريب الأعضاء والعاملين على الأجهزة التكنولوجية والمعلومات.

6) قسم المهام الإدارية، وهو خاص بترتيب وتوظيف العاملين وترقياتهم، واختيارهم ويضم فروع التحركات والتحقيقات والأمن وأيضا فرع الشؤون المالية.

7) قسم البحوث، يقوم بإعداد بحوث لتطوير العمل، ومكافحة التجسس والاختراق والأمن، وقد كان اختراق هذا القسم أحد نتائج حرب أكتوبر 1973.

8) قسم التكنولوجيا، وهو خاص بكل الأجهزة العلمية، التي تحتاجها الموساد والدولة.

9) قسم العلاقات للتنسيق مع الأجهزة المخابراتية الأخرى.

10) قسم العلاقات التكنيكية والفنية، ويضم ضباطاً محترفين في القتل والتخريب وإخفاء الجريمة والملاحقة، وهم منتقون من داخل الجيش. وللتنسيق بين أجهزة المخابرات الإسرائيلية (الموساد)، أمان، الشين بيت، والخارجية، أنشئت هيئة للتنسيق بين جميع أجهزة وعمليات التخابر في إسرائيل، تُسمى "لجنة رؤساء الأجهزة" (قاعدات) أو لجنة الأمن القومي، وتشمل أجهزة المخابرات الخمسة: وتتكون من مدير الموساد ومدير الشين بت ومدير أمان ومدير عام وزارة الخارجية، ومدير عام التحقيقات، إضافة إلى مستشار رئيس الحكومة للمخابرات.

أما "موساد ليتافكيريم ميوشاديم" (جهاز المخابرات السرية) المعروف باسم "الموساد" فمسئوليته هي العمليات الخارجية، وهو يتبع مجلس الوزراء مباشرة، وجهاز "شيروت كلالى" المعروف لدى الناس باسم "الشين بيت" "مكافحة الجاسوسية والأمن الداخلي" فهو المسؤول عن الأمن، ويتبع وزير الداخلية مباشرة. ثم هناك "أجاف مودين" (المخابرات العسكرية) وهو الجهاز المسؤول أساسا عن التجسس العسكري الاستراتيجي واتصالات المخابرات، وهو تحت إمرة رئيس أركان "قوات جيش الدفاع الإسرائيلي". وتزود وزارة الخارجية أجهزة الأمن والمخابرات الإسرائيلية وتساعدها في مجال البحوث والتخطيط السياسي. كذلك تساعد وزارة الداخلية "الشرطة " في التحقيقات والحفاظ على أمن الحدود.

والمجالات التي من اختصاص "فاعدات":

أولاً: الدول العربية: قدراتها وإمكانياتها، وما تضمره تجاه إسرائيل، علاقاتها الخارجية مع القوى الكبرى، مؤسساتها الرسمية وممثلوها في العالم أجمع، زعماؤها، سياستها تجاه الدول العربية الأخرى، المعنويات، الاستعدادت العسكرية ونظام معاركها.

ثانياً: جمع المعلومات عن السياسة الأمريكية وقراراتها السرية، لو كان هناك، معلومات تخص إسرائيل.

ثالثاً: جمع المعلومات العملية عن الولايات المتحدة الأمريكية والدول المتقدمة الأخرى.

رابعاً: تحديد سياسة حكومات الدول التالية تجاه إسرائيل: الصين واليابان وآسيا ودول أوروبا الشرقية، ومشكلة الهجرة اليهودية من هذه المناطق.

خامساً: المراقبة الوثيقة للنشاط المعادي للصهيونية في كل أنحاء العالم.

سادساً: جمع المعلومات السياسية والاقتصادية في مناطق العالم الأخرى التي تهم إسرائيل، مثل إفريقيا.

وتبذل أجهزة المخابرات والأمن الصهيونية جهوداً خاصة، لمناوأة الدعاية العربية، ولتحييد النشاط المعادي للصهيونية وخلال السنوات الأخيرة كرس الصهاينة معظم نشاط عملياتهم لمواجهة الثورة الفلسطينية والانتفاضة.. ويعترف التشريع الصهيوني بأجهزة المخابرات الخارجية والأمنية الداخلية، وإن كان ذلك ليس محددا في ميثاق خاص. مما أنه تخول الحكومة بإدارة شؤون الأمن والمخابرات، ما دام ليس لأى جهة مسؤولة أخرى سلطة العمل في هذا المجال، بأي قانون آخر وقد بذلت محاولات عديدة طوال السنوات الماضية، بواسطة مسؤولين داخل الحكومة وفي الأجهزة الأمنية ذاتها، لإقرار قانون يحدد وضعية أجهزة الأمن والمخابرات الخارجية وعملياتها التي تقوم بها، لكن شيئاً لم يتحقق أبداً، نتيجة هذه الجهود.

وعلى العكس من ذلك، فإن هناك تحديداً أكثر من القانون لوضع "الأمن الداخلي" فإجراءات الدفاع (الطوارئ) لعام1945، والتي وضعت خلال الانتداب البريطاني، والقانون العسكري الصادر في 31 يوليو لعام 1957، وهو القانون

الإسرائيلي المماثل "لقانون الوثائق السرية البريطانية"، كلها تتناول "الأمن الداخلي". ولقد أعطت قوانين الطوارئ لعام 1945، الإدارة العسكرية سلطة اعتقال كل العناصر "المشاغبة" وطردها، وإعلان أماكن معينة "كمناطق مغلقة". ومعنى هذا مطالبة السكان المحليين بحمل إذن سفر للانتقال إلى هذه الأماكن، وبينما كانت القوانين تنطبق أصلاً على اليهود والعرب في فلسطين، فإنها تستخدم إلى حد كبير الآن لمراقبة السكان العرب في إسرائيل.

وقد انتقل تنفيذ هذه الإجراءات والقوانين من "الجيش" إلى " الشرطة" منذ عام 1966، لذلك تذكر التقارير أن أجهزة "الأمن الداخلي" قد كبرت من نشاط عملائها للقيام بهذه المسؤولية وتتراوح عقوبات القوانين الإسرائيلية القاسية عن الخيانة أو مساعدة "العدو"، ما بين عقوبة الموت أو السجن مدى الحياة، إلى السجن لمدة ثلاث إلى خمس عشرة سنة بتهمة التجسس، أوالاتصال بعملاء أجانب، أو المساعدة، أو التحريض على ارتكاب جريمة ضد أمن الدولة، أو الكشف عن معلومات غير مسموح بكشفها.. وتتكون "فاعدات" الهيئة المركزية لأجهزة المخابرات والأمن الصهيونية ووظيفتها الأولى تنسيق كل أنشطة الأمن والمخابرات، في الداخل والخارج من: مدير "الموساد" – مدير "المخابرات العسكرية" – مدير "الشين بيت" (الشاباك) حالياً – المفتش العام للبوليس – المدير العام لوزارة الخارجية – مستشاري رئيس الوزراء للشئون السياسية، والعسكرية، والمخابرات، والإرهاب.

وغالبا ما يشارك رئيس "قسم المهمات الخاصة" التابع لإدارة التحقيقات بالشرطة في اجتماعات "فاعدات" وأحيانا يحل محل المفتش العام للبوليس.. وتعقد اجتماعات "فاعدات" مرة كل أسبوعين، وقد يتطلب الأمر أكثر من ذلك. وعلى كل مدير في هذه الاجتماعات، أن يقدم ملخصاً حول النقاط الأساسية لنشاط جهازه في الأسبوعين المنصرمين.

ويرأس مدير "الموساد" اجتماعات "فاعدات"، وهو بهذا يصبح مسؤولاً مباشراً أمام رئيس الوزراء. وأعضاء "فاعدات" متساوون ظاهرياً في وضعهم. ولقب "ميمون" الذي يشير إلى مدير الموساد كرئيس للجلسات، الهدف منه إعطاء مفهوم سمو مكانه على آخرين متساوين.

ويرى البعض أن مدير المخابرات العسكرية الإسرائيلية يعادل موقعه موقع مدير الموساد، وينبع هذا التطور من اعتماد العدو الصهيوني على الاستعدادات العسكرية.

ورغم أن الجاسوسية الإسرائيلية لم تبلغ حدود التنظيم الدقيق،كمثيلاتها في دول العالم الكبرى، إلا أن الجواسيس الإسرائيليين لهم نشاط ملحوظ في العالم العربي بصورة خاصة.. ويعتبر كل إسرائيلى أن التجسس على الدول العربية من أولى واجباته نحو "أرض الميعاد"، وتوصلا لتنفيذ المآرب، فقد عمدت المخابرات هناك إلى تجنيد العديد من الخونة والعملاء والجواسيس، لاستقصاء المعلومات، والوقوف على أسرار القوات المسلحة العربية وخططها، وبالأحرى تحديد نقاط الضعف في نفس كل عربي، لتستغل لأغراض الجاسوسية والدعاية الصهيونية، إلى جانب الوقوف على أسرار السياسة العربية الداخلية والخارجية.

ويمكن تحديد الجواسيس العاملين لحساب إسرائيل طبقا للتقسيم التالي:

القسم الأول: الجواسيس العاديون، ويجرى انتقاؤهم من عناصر (الفلاحين) أوالمواطنين العاديين أي الذين يخدمون المخابرات لقاء مبالغ متواضعة.

القسم الثاني: وتلعب عناصره دوراً مزدوجاً، فهم إمّا عملاء سريون لأجهزة أخرى، أو من اليهود المواطنين في الدول العربية.. أو من العملاء المحترفين لأعمال التجسس أو تهريب المخدرات.. والغرض من استخدامهم أن يقدموا إلى الاستخبارات الإسرائيلية المعلومات لقاء رواتب شهرية محددة، وتكون أحياناً باهظة.

القسم الثالث: وهو قسم الشخصيات التي تتناسب مراكزها مع اتصالاتها. وتتألف كل شبكة من شبكات التجسس الإسرائيلي، من مجموعة حلقات يختلف تعدادها باختلاف المخطط الموكول إليها تنفيذه.. عدد الرؤساء والمرؤوسين إذ يؤلفون – حسب أهمية عمل كل منهم – هرماً قمته أحد رجال السلك الدبلوماسي السياسي الإسرائيلي الرسميين، ويتلوه مندوبون، من فئة الجواسيس المحترفين – يتسللون سراً وبأسماء لا تبعث الريبة إلى إحدى

الدول العربية لقضاء فترة – قد تطول أو تقصر – ثم يعودون بعد تمكنهم من شراء ضمائر بعض العملاء لينضموا إليهم، كما يحضرون الأنظمة الخاصة لتنظيم اجتماعات الجواسيس، وتوزيع الاختصاصات المقرونة بتوضيح الأهداف التي تريدها تل أبيب من وراء تلك الزيارة.. وكيفية التخابر والاتّصال.

وكل شبكة من شبكات التجسس الإسرائيلي – إن وجدت في إحدى الدول العربية – تتصل مباشرة بـ"رئيس مقيم" أو بـ"مكتب" سواء في إسطنبول، أو في قبرص، أو في روما.. وهذه المكاتب أو المراكز متصلة بدورها بمكتب القيادة في جنيف، سويسرا، حيث تتركز قيادة عمليات التجسس الإسرائيلي لمنطقة الشرق الأوسط.. المتصلة رأساً بتل أبيب، وهذه القيادة تستتر عادة وراء شركات تجارية غير مشبوهة وذات مركز مالى محترم.

وهذه الشبكات تعمل إمّا بشكل "حلقة موحدة" في بلد ما، أو تكون عدة حلقات منفصلة كل واحدة عن الأخرى تماماً، حتى إذا ما كشف أمر إحداها ظلت الثانية غير معروفة ولا يمكن الوصول إليها. فحينما تضع المخابرات العربية يدها على شبكة تجسس إسرائيلية، وتصبح لديها شفرتها السرية، وتحيط بجميع نشاطاتها غير المنظورة – وهذا ما حدث مراراً – فذلك يعني أن الاتصال ما بين شبكة الجواسيس الإسرائيليين وبين جهاز المخابرات الإسرائيلية قد ينقطع لفترة طويلة. وتكون عملية كشف الشبكة وما لديها من أجهزة ووسائل بمثابة ضربة قاصمة تصيب المخابرات الإسرائيلية وتشل نشاطها لفترة – قد تطول أوتقصر – لاسيما بعد أن تدرك هذه الأجهزة أن ما جمعته من معلومات بعث بها جواسيسها كان مزيفاً، وأمدتهم به المخابرات بمثابة (الطعم) الذي تليه (السنارة).

وفي قاعدة هرم الشبكة يأتي العملاء بالمعلومات المطلوبة، متنقلة من مرؤوس إلى رئيس، حتى تستقر لدى الرئيس الأعلى – المقيم – وهذا يحملها إلى تل أبيب في الحقيبة الدبلوماسية.. وحول المعلومات التي تصل إلى الإدارة المركزية للمخابرات الإسرائيلية يقوم بدراستها وتمحيصها إخصائيون، وتجرى مقارنتها مع المعلومات الأخرى التي تكون قد وردت مسبقاً، وتدقق.. ومن ثم يستبعد كل خبر غير مجدٍ، ثم يخطط على ضوء التقرير النهائي عمليات العدوان المقبلة.. ويجرى تمويل شبكة ما في سبيل تأمين وتنفيذ المهمات عن طريقين:

– استغلال بعض أصحاب الأعمال الذين لهم صلات تجارية بالخارج عن طريق القبض – في البلد العربي – بالعملة الوطنية، والدفع بالخارج بالعملات الأجنبية.

– الاتفاق مع عميل ما يقدّم بالعملة المحلية ما يريد أن يبعث به إلى الخارج، عن طريق أحد المصارف، أو المصادر التجارية أو أقرباء له مقيمين في الخارج، حيث يتولون المهمة بدلاً عنه.

ومن أبرز أقسام المخابرات الإسرائيلية القسم الخاص الموجه ضد الدول العربية: ويعتبر من أهم أقسام – أو فروع – المخابرات الإسرائيلية؛ بسبب فاعليته ضد الدول العربية. فمن المعروف في الفن العسكري والسياسي، أن المعلومات تلعب دورها الفعال في ميادين السياسة والاقتصاد والعمليات العسكرية، سواء في زمن السلم أو في زمن الحرب.. فالمعلومات المستقاة من قبل دوائر المخابرات، هي أهم ما يعتمد عليه واضعو المخططات السياسية والقادة العسكريون في كل دولة.. تلك الخطط التي تكفل وتؤمن المفاجأة والنصر على العدو في المجالين الحربي والسياسي.. وأن توفر هذه المعلومات المؤكدة صحتها، وورودها في الوقت المناسب، وبالقدر الكافي قبل بداية الالتحام.. كل ذلك يسمح للدولة بوضع الخطط الكفيلة بإحراز النصر والتغلب على الخصم.

وقياساً على ذلك، فإسرائيل – وهي عدوة العرب – لا يمكن لها أن تخطط لأي معركة، أو القيام بأي اشتباك، أو تحقيق أي نصر إلاّ إذا تجمعت لديها كل المعلومات المطلوبة عن الدول العربية عامة، والدول العربية المجاورة لها خاصة.. ويمكننا القول إن إسرائيل منذ قيامها في المنطقة عملت جاهدة على جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن كافة الدول العربية. وقد انتهج هذا القسم مناهج عديدة وطبق وسائل مختلفة لتحقيق هذا الهدف.. ويؤكد الإستراتيجيون ومتتبعو الأحداث أن العدوان الإسرائيلي في يونيو 1967 اعتمد قبل كل شيء على المعلومات التي جمعتها أقسام مخابراته والأسرار الحربية التي تسربت من البلاد العربية عن طريق العملاء، ومؤيديها في السفارات الأجنبية الغربية، الأمر الذي هيأ للقوات الإسرائيلية أن يضع قادتها الخطة الكاملة لهذا العدوان.. تلك الخطة التي حققها عنصر المفاجأة.

وقد لا تهدف عمليات التجسس الإسرائيلي إلى الحصول فقط على المعلومات العسكرية لما لها من اتصال مباشر بالعمليات القتالية، بل أيضاً قدرة الدولة التموينية، والاحتياطي العام والمخزون السلمي والحالة الاقتصادية العامة للدولة، والجبهة الداخلية ومدى صمودها وتماسكها، وقدرة الدولة ومدى استعدادها لظروف الحرب.. لهذا نجد أن نشاط هذا القسم من التجسس ضد الدول العربية، توصلاً للحصول على كل هذه المعلومات الخاصة بالدول العربية المجاورة، لا يفتر سواء وقت السلم أو خلال العمليات العسكرية العدوانية. لذلك يعتبر هذا – الفرع – من أهم أقسام المخابرات الإسرائيلية.. ولهذا القسم فروع في كل عواصم الدول الأوروبية.. بيد أن أهمها وأخطرها هما الفرعان اللذان كانا في موسكو وبراغ، قبل قطع العلاقات الدبلوماسية بين كل من الاتحاد السوفيتي وتشيكوسلوفاكيا وبين إسرائيل، بسبب عدوانها على الدول العربية عام 1967. كانت المخابرات العربية قد كشفت النقاب عن هذه الفروع فحددت مراكزها وأسماء رؤسائها.. في تلك الفترة وهم كالتالي:

– رودي برونشتين (ألمانيا الغربية).

– جوزيف جيديون (فرنسا).

– شموئيل بن تينور (سفير إسرائيل في سويسرا).

– دافيد كنج (أمستردام – هولندا).

– بار يهوذا ميخائيل (روما – إيطاليا).

– ويساعده الكولونيل زفي آلون الملحق العسكري الإسرائيلي في روما).

– "غابي راجان" الاسم المستعار للرجل المركزي للاستخبارات الإسرائيلية في فرنسا. وقد يكون ستولز "يهودي هولندي" الذي يدير مركز باريس ويساعده شخص يدعى كمال يازجي الذي يتكلم اللغة العربية باللهجة الفلسطينية.. ونجد إسكندر حركاوي (ممثل الوكالة اليهودية في باريس) يدعم نشاطات هذا المركز.

ويعتبر مكتب شركة العال للطيران الإسرائيلي في روما الذي يديره "يدر هوفر" ضابط مخابرات في جيش إسرائيل، المركز الرئيسي للمخابرات الإسرائيلية في إيطاليا الذي

يوجه نشاطاته ضد العرب، ورغم كل ذلك، فهذا القسم بالذات تلقي الهزائم المتتالية على يد المخابرات العربية في لبنان والأردن والعراق وسوريا ومصر.

قسم السيكويولوجيا العربية في إسرائيل: وتعتمد الاستخبارات الإسرائيلية – على تقارير المختصين بالسيكولوجيا العربية في إسرائيل، لما لها من دور فعال في التوصل إلى استنتاجاتها الصائبة حول التصرفات وردود الفعل العربية المتوقعة، حيث إن إخفاق الاستخبارات، من هذه الناحية، يعني بالنسبة لها حدوث فشل للخطة العامة إلى درجة لا ينفع معها، حتى استخدام الميراج بمهارة للإغارة على الطيران العربي، ولا استخدام السنتوريون ببراعة لشق الطريق إلى القدس والقنطرة في وقت قياسي.

ويهتم هذا القسم – أيضاً – بدراسة التيارات الفكرية المعاصرة في العالم العربي، والاختبار الفعلى للنفسية العربية، من أجل اختيار الأهداف التي عليها سيشن الجهاز الدعائي الصهيوني حملاته النفسية، هذا القسم له علاقة مباشرة بالمؤسسة العسكرية الإسرائيلية، إذ هو يكتب تقارير خاصة لكبار الضباط، ولا تنشر هذه التقارير، وهي لا تتضمن طبعاً الخطط العسكرية، وإنما هي خلاصات دراسته ومتابعته للفكر العربي في كافة تطوراته، على أساس أنه لا توجد شعبة استخبارات في العالم تقوم بعملها في فراغ فكري ودون توجيه وإرشاد من علماء النفس والاجتماع.

فرع رصد محطات الإذاعة العربية: ويعتبر هذا الفرع امتداداً للأجهزة السرية في دول الغرب وتابعاً لها.. وكان يرأسه السفير السابق وصديق "دافيد بن جوريون" "تيودور كوليك" (الذي أصبح فيما بعد عمدة القدس المحتلة). ويقدم هذا الفرع كل ما يحصل عليه من معلومات إلى مخابرات الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وألمانيا الغربية، وهو بالوقت نفسه المسؤول عن محطات الإذاعة الأمريكية المقامة في إسرائيل، للإصغاء إلى المحطات العربية وتسجيل كل ما يذاع عنها.

فرع التغلغل في أجهزة أمن الدول المستقلة: ويختص هذا الفرع بالتغلغل في أجهزة الأمن والمخابرات في الدول المستقلة حديثاً، وخاصة الدول الإفريقية المتطورة. ويشرف هذا الفرع على أجهزة المخابرات والأمن في بعض الدول الإفريقية وله نشاطات عدة في هذه الدول، ومما يذكر أنه كان المسؤول عن اختطاف وحجز وزير خارجية غينيا.. وبالوقت نفسه يشرف على أجهزة المخابرات والأمن في بورما وفيتنام الجنوبية سابقاً وتايلاند وتايوان.. وهذا الإشراف هيأ لهذا الفرع الجو المناسب لمحاربة الدول العربية عن طريق تشويه سمعتها في تلك الدول الناشئة.

فرع: "الجدعونيون": ويطلق هذا الفرع على عناصره وعملائه اسم: "المنتقمون".. وهو الجهاز الخاص الموكل بتنفيذ عمليات الخطف والقتل والتهديد.. ومما يذكر أنه كان المسؤول الأول عن حوادث القنابل المعلبة التي أرسلت إلى العلماء الألمان الموجودين في مصر، كما أنه هو المسؤول عن اختطاف الدكتور "هانز كروج" الذي اختفى من ميونيخ في شهر سبتمبر 1962.. وعملية محاولة اختطاف الدكتور "هانز كليواشتر". وفي نفس الوقت تقوم عناصر من هذا الفرع من حين لآخر بنسف المعابد اليهودية في أوروبا أورسم الصليب المعقوف على جدرانها كجزء من خطة لإرهاب المعادين للصهيونية، استدراراً لعطف الرأي العام الغربي، وبالأحرى للضغط على الحكومات الغربية لمنح إسرائيل المزيد من المعونات.

فرع "برايشا": هو فرع خاص تابع للمخابرات الإسرائيلية، هدفه إيقاظ كوامن الأحقاد ضد الألمان النازيين القدامى، والعمل على استمرار تحقيق الهدف، كي يستمر الضغط الصهيوني على ألمانيا الغربية.. وعناصره من أشد الصهيونيين تعصباً وحقداً، وهم يكرسون حياتهم ليل نهار لاعتقال واختطاف كبار النازيين الذين يرى فيهم أفراد هذا الفرع أنهم المسئولون عن إبادة اليهود.

هذا إلى جانب مهمة أخرى لهذا الفرع، وهي اختطاف أصدقاء العرب من الألمان واتهامهم بالنازية وإلصاق مختلف جرائم الحرب بهم، وفي حال تعذر ذلك يتم قتلهم بشتى

الوسائل. وأحياناً يطلقون على عناصر هذا الفرع عناصر فرقة الموت، لكنها ليست مجرد فرقة بوليسية دولية تطارد مجرمي الحرب.. وإنما هي بمثابة منظمة للانتقام من أعداء الشعب اليهودي الصهيوني مستعينة بعملاء من الرجال والنساء منتشرين في كافة عواصم الدول الأوروبية.. والعمليات الإرهابية الإسرائيلية التي تتم عن طريق "فرقة الموت"، تقوم على أساس الخطف والاغتيال أو إرسال الألغام والمواد المتفجرة داخل طرود بريدية.. ووضع القنابل والمتفجرات في الطائرات لنسفها.

وقد برزت هذه الأعمال في قضية الخبراء الألمان المتعاقدين مع مصر .. وكذلك اغتيال العالم الكبير والخبير في صناعة الصواريخ "كروج" .. والتسبب إلى إصابة سكرتيرته "بيلتر" بإحدى عينيها حينما كانت تفض رسالة متفجرة. وسبق أن أرسلت متفجرات داخل طرد بريدي بريء المظهر إلى أحد المقيمين في دمشق وتسبب انفجارها، في فقد هذا الألماني بصره.. علماً بأن هذه الفرقة بالذات هي التي كانت وراء اعتقال واختطاف إيخمان من الأرجنتين الذي كان مسؤولاً مباشراً عن عمليات تصفية اليهود "الهولوكوست" بأمر مباشر من هتلر، وكان رئيساً لقسم اليهود في جهاز أمن ألمانيا النازية والرئيس الأول عن معسكر أوشفيتز أكبر معسكر لاعتقال اليهود.

كذلك اختطاف الكولونيل السابق في الجيش الألماني – النازي "جوزيف ميتجل" الذي كان خلال الحكم النازي طبيب معسكر الاعتقال في "شوتيز"

ويعد "شمعون ويترنتال" أحد أبرز قادة هذه الفرقة، الذي كان وراء اعتقال وإعدام أكثر من (852) جنرالاً وضابطاً ألمانياً نازياً من ألمانيا الغربية.. وشمعون هذا جاسوس موهوب بالفطرة، ويجيد التحدث باثني عشر لغة، وقد اتخذ لنفسه مركزاً رئيسياً في أوروبا بمدينة فينا (النمسا) في بناء يطل على ميدان "دورد تيستراس" الواقع في وسط العاصمة النمساوية.. ومن هذا المكتب تتم عادة الاتصالات بالشفرة مع تل أبيب، ومع بقية مراكز هذه الفرقة سواء في ألمانيا الغربية أو بقية الدول.

مكتب الخديعة الإعلامية: وهو مؤسسة استخبارية خاصة في دائرة اليهود المضطهدين، مهمتها الإشراف على العملاء العاملين في حقل التخريبات، وترويج الإشاعات الكاذبة.. ويرأس هذه المؤسسة جاسوس ذو خبرة كبيرة يعمل باتصال وثيق مع إدارتين في وزارة الدفاع الإسرائيلية، وهما "قسم الحرب النفسية" و"قسم المهام الخاصة".. ومهامه الأولى لا تحتاج إلى شرح وتفسير.. أما الثانية فإنها تتولى تحضير وتنفيذ العمليات التخريبية من قبل عناصر الوحدة 131 السرية.

وتلعب عقيدة المخابرات الصهيونية دوراً مهما في تجنيد اليهود سواء في إسرائيل أو خارجها والمتجنسين بجنسيات غير إسرائيلية، كما تلعب نفس الدور مع بعض المتعاطفين مع قضية اليهود، والذين تأسوا كثيراً للفظائع التي ارتكبتها النازية في أوروبا ضد اليهود، مما يسهل مهمة تجنيدهم وتوظيفهم، لخدمة الأهداف الصهيونية.

وعقيدة المخابرات الصهيونية ترتكز على مقومات استطاعت أن تغرسها، وترتكز على أن إسرائيل في حالة حرب دائمة مع الدول العربية، حتى تحقق أهدافها بالكامل.. كما أنها نقطة ارتكاز ليهود العالم. وهي أن الرب وعدهم بأرض الميعاد، وأن تأسيس هذه الدولة هو مسؤولية توراتية واجبة على كل يهودي في أي بقعة من العالم، وأن ولاء اليهودي مهما كانت جنسيته يجب أن يكون للوطن الأم "إسرائيل"، وتحقيق استقرار الدولة وازدهارها هو الخطوة الأولى لعودة ملكوت "إسرائيل" طبقاً للوعد الإلهي. وفي سبيل هذا الاستقرار والازدهار، وعلى طريق بناء ملكوت إسرائيل تبدأ عمليات التجنيد الطوعية والاختيارية في إسرائيل وفي أوروبا وأمريكا وآسيا وغيرها، وهي غير عمليات القسر والإرغام أو الترغيب سواء بالخوف أو الجنس أو المال. تجندهم المخابرات الإسرائيلية لأنها بحاجة إليهم بحكم موقعهم أو دورهم أو ما يضطلعون به من مهام أو يحوزونه من معلومات، ولكن من غير اليهود أو غير المتعاطفين مع حقهم وقد ساعدت الظروف التي مرت بها الجاليات اليهودية في مختلف أنحاء العالم خاصة اضطهادهم العنصري، في تلقين أطفالهم العقيدة الدينية والسياسية، واستخدمت الحركة الصهيونية أساليب مختلفة لإبقاء جذوة هذه العقيدة

مشتعلة، فهي تحرص على أن تذكر يهود العالم والرأي العام العالمي دائماً وبكل الطرق، بحق اليهود في العودة إلى أرض الميعاد.

إن هيكل الاستخبارات الصهيونية، يشبه إلى حد كبير هيكل الاستخبارات في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد تم بناء هذا الهيكل عبر سلسلة طويلة من التطورات التي لحقت به منذ نشأته، وتتميز نشأة الجهاز بأنها سابقة لنشوء "الكيان الإسرائيلي" التوسعي في فلسطين المحتلة.

ويرجع تاريخه إلى انعقاد أول مؤتمر للحركة الصهيونية في بازل عام 1879 الذي تم فيه وضع مخططات الحركة وأسس التنفيذ، التي ينبغي على الصهيونية اتباعها للوصول إلى أهدافها، والتي تحددت على أساسها الهياكل التنظيمية للحركة الصهيونية. في البداية أنشئت المنظمة الصهيونية العالمية ثم أنشئت شركة يهودية لشراء الأراضي، فتطورت وحملت فيما بعد اسم "الوكالة اليهودية"، واعتمدت هذه المؤسسات على تشكيلات سرية (خلايا، ودوائر معلومات) لتنفيذ برامجها وفق الطبيعة التآمرية المكتسبة عن رسالة (التوارة) التي اعتمدتها بروتوكولات حكماء صهيون دستورا لأرض الميعاد.

إن مراحل إنشاء هذه التشكيلات كانت في بداية القرن العشرين، حيث تركز المخطط الصهيوني على تقديم العون للقوات البريطانية، والتمهيد لغزو الحلفاء لفلسطين وإسقاط الإمبراطورية العثمانية، وكما سبق فإن السلطات العثمانية اكتشفت هذه الشبكة في سنة 1907 ونفت أفرادها خارج البلاد.

وأثرت في هذا الجهاز عوامل أهمها:

- الموقع الإستراتيجي والجغرافي لـ(إسرائيل) بين ملتقي القارات الثلاث القديمة وسط دائرة عربية محكمة، بين قارتي آسيا وإفريقيا يحرمها من المواصلات البرية والحيوية عبر الأراضي والأجواء العربية، بالإضافة إلى إغلاق قناة السويس نهائياً في وجهها، في ذلك الوقت نستطيع أن نقدر مدى الاهتمام بطريق خليج العقبة وميناء "إيلات" ليكون لها مخرجا إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي وهنا تكمن الصعوبة أمام "إسرائيل" واتصالها بالخارج.

– قيام "إسرائيل" في قلب الأمة العربية وموقعها بالنسبة للشرق الأوسط، جعلها قاعدة مناسبة للاستعمار، وجسرا على البحر يربط بين آسيا وإفريقيا، ومع ازدهار وتطور القومية العربية وتزايد الدول المتحررة يوماً بعد يوم في آسيا وإفريقيا نستطيع أن نقدر أهمية الدور "الإسرائيلي" بالنسبة للأطماع الاستعمارية كمركز للتهديد والتسرب واستغلال موارد المنطقة.

لذلك تحاول الدول الاستعمارية استغلالها اقتصاديا واعتبارها مركزاً اقتصادياً نامياً وسط بيئة "عربية نامية"، لكن التطور الاقتصادي العربي وسياسة المقاطعة الاقتصادية التي اتبعتها الدول العربية قلل من تلك الأهمية، وجعل "إسرائيل" تحاول أن تتخطى هذا الحصار العربي، كي تمارس وجودها داخل مجموعة من الدول العربية.

الفصل السابع

تجنيد العميل

- العميل العربي أسود وغير العربي أبيض والضابط كاتسا.
- باريس وروما محطتا تدريب الجواسيس الأجانب ووضع تدريبي خاص للعملاء.
- المال والجنس والكفر بالمعتقد لتجنيد العملاء من كل لون.

إن اتساع وتعدد وظائف الاستخبارات الإسرائيلية الاستراتيجية، لخدمة الأهداف الإسرائيلية، يجعل منها قوة من نوع خاص، تحتاج إلى جواسيس وعملاء يساعدون على تحقيق هذه الغايات، في كل وقت وحين، كما يجعل من الضروري تنوع أشكال هؤلاء العملاء، فلا يكفي أن يكون هناك "الكاتسا" الإسرائيلي، بل يحتاج إلى عرب (دروز ومسيحيين ومسلمين) في الأراضي المحتلة، وخارجها..

كما يحتاج إلى فروع وخلايا في كل البلاد العربية، خاصة الساحلية، وهو ما يجعل التدريب عنصراً مهماً جداً لتحقيق هذا، وتحظى وسائل تجنيد العملاء بأهمية خاصة.

ويبلغ عدد عملاء إسرائيل في الداخل والخارج أكثر من 35 ألف عميل، منهم 20 ألفا عاملون والباقون ساكنون، لكنهم جاهزون، لحين صدور أوامر لهم بالتحرك. ويظل العميل النائم الساكن على حاله عدة سنوات، حتى لا يثير الريبة، والعميل الحر أو المتحرك يوالي بمتابعاته وتقاريره الدورية مركز الاتصال به بالمعلومات الجيوبولتيكية والعسكرية والاقتصادية والشائعات.. وكل ما يثير التساؤل إلى مركز الاتصال الدائم له.

هناك عملاء استراتيجيون لا يهتمون إلا بالتقارير التي تنبئ عن حالة استراتيجية ما، كطبيب في مستشفى يلاحظ تخزين كميات كبيرة من الأدوية والأمصال وأكياس الدم، خاصة لو كان المستشفى على مقربة من مواقع عسكرية، أو عامل في ميناء يلاحظ زياده التحركات في حاويات الإمدادات والنقل، أو قاطن في موقع استراتيجي، يلاحظ تنقلات وتحركات سريعة لناقلات الجنود وقطع الأسلحة الثقيلة.. وغيرها من الظواهر التي تنبئ بالاستعداد للحرب.

أما العملاء "النائمون" فيستفاد منهم في التسلل إلى مواقع حساسة عسكريا وسياسيا وثقافياً، ولأنه "نائم" بدون أيه اتصالات بالمركز الإسرائيلي، فيساعده ذلك على عدم إثارة الشكوك حوله، وإذا ما تمت مراقبته يكون أفضل في فترة الكمون، لأن نتيجه المراقبة ستكون لصالحه ولتبرئة ساحته من أي علاقات مشبوهة، وبعد هذه الفترة يمكن له التسلل للمواقع المهمة، والقيام بدور مؤثر أكثر من الدور الذي يلعبه العميل أو الجاسوس الحي، الذي يوالى بالتقارير اليومية أو الأسبوعية.

وبالطبع العميل النائم له وظائف أخرى إذا تسلل إلى مواقع سياسية، ويكون الوضع أخطر في حالة التسلل لمواقع عسكرية.

وبعد أن يرسخ العميل النائم وجوده يمكن أن يتم فتح الاتصال به، لتلقي التكليفات وإرساله المعلومات أولا بأول لجهة الاتصال.. ويعتبر ضابط الموساد في الخارج (كاتسا) بينما يطلق على عميل من جنسية غير عربية "أبيض"، أما العربي (مسلم – مسيحي – درزي) فهو عميل "أسود".. دائماً يخضع للمساءلة ويتصرف ضباط الموساد إزاءه بكثير من الشك. وعند حدوث خلل أو مشكلة أو شك في علاقة ما بين العميل وجهاز مخابرات آخر، يجب محاكمة العميل الأبيض، أما العميل العربي فيترك التصرف في شأنه للضابط المسؤول عنه، إما بالتخلص منه أو بالاستغناء عنه.

وينطبق هذا الأمر على العميل الذي تنتهي مهمته ويصبح بدون وظيفة، فيمكن أن يتصرف الضابط بشأنه على حسب تقديره الخاص الشخصي.

وهناك ثلاث حلقات منفصلة لتدريب ضباط المخابرات الإسرائيلية وأفرادها سواء في داخل إسرائيل أو خارجها، أما العملاء منهم فلهم وضع التدريب الخاص، معظم عناصر شبكات التجسس، هم من اليهود المتحمسين للفكرة الصهيونية، وحلم إنشاء الوطن القومي اليهودي الأكبر في فلسطين، فبعد انتقاء العناصر المتوفرة فيها الشروط، تبدأ الدورة التدريبية في مركز للمخابرات في يافا ومدتها ما بين الأربعة أشهر والستة، حيث يتم التدريب على:

- أعمال التجسس وجمع المعلومات.
- كيفية استعمال المتفجرات وتطبيق عمليات النسف والحرق.
- استعمال التصوير السري.
- مسح الأراضي (الطوبغرافيا).
- معرفة المركبات الكيماوية التي من الممكن الإفادة منها في عمليات التجسس وكيفية استعمالها.

وهناك فئة أخرى من المرشحين والمجندين خارج إسرائيل، يحالون إلى مركز تدريب خاص في باريس، حيث يجرى تدريبهم أربعة أشهر على:
- كتابة الشفرة وحل رموزها.
- إرسال واستقبال الموجات اللاسلكية القصيرة.
- التصوير الجوي.

ثم يعاد تدريب من يتخرج منهم لمدة ثلاثة أشهر في روما، حيث يدربون على:
- الكتابة بالحبر السري.
- أعمال الإرسال والاستقبال اللاسلكي خلال حالتي الطوارئ والحرب.
- كيفية التعرف على الأجهزة الحربية من برية وجوية وبحرية، وتحديد قدرة تسلحها وطاقتها.

أما "العميل" فتتولى أمره المخابرات، لأجل تدريبه على أحدث الطرق للحصول على المعلومات وكيفية جمعها دون أن يلفت الأنظار إليه، أو يثير الشك حوله، وإنشاء علاقات وصداقات مع مواطنين يتوسم فيهم المساعدة دون أن يعرفوا العمل المسند إليه.

والجديد في التخابر الإسرائيلي هو نظام الاتصال الخاص بالعملاء، الذي يسمح بسرية أكبر للاتصال وقدرة على التغيير والتدمير في حالة اكتشاف الشفره الخاصة به. يتبين لنا من دراسة عدد واف من حالات التجسس.. أن المخابرات الإسرائيلية تعتمد على

تطبيق قاعدة واحدة في أسلوبها، وإن اختلفت مظاهرها من حيث الشكل والتطبيق، لكنها من حيث الأساس تعود إلى تلك القاعدة.. ولعل أبرز حادثة تجسس إسرائيلي في البلاد العربية تلك التي افتضح أمرها في مصر، وكان من عناصرها الهولندي اليهودي "موريس جود سوارد" والعميلان "سامي نافع" و"فؤاد محرم"، حيث كان يتم الاتصال عن طريق خط ينطلق من إدارة الجاسوسية بالمخابرات الإسرائيلية في تل أبيب، متجهاً إلى روما في إيطاليا، حيث يقيم بصورة دائمة ضابط العمليات التجسسية بمنطقة الشرق الأوسط، وهو برتبة ضابط ويشغل منصباً دبلوماسياً في سفارة إسرائيل بروما.. وهو "بار يهوذا ميخائيل"، وكان دائم التنقل بين مدن إيطاليا وغربي أوروبا، وينتحل جنسيات عديدة موثِقة بجوازات سفر مزورة طبعاً.. ومن روما يباشر "بار يهوذا ميخائيل" الاتصال بـ"المندوب الرئيسي" (القاهرة).. علماً بأن المندوب هذا ترتبط به عدة شبكات لكل منها مندوب رئيسي خاص بها، والأخيران يتصلان بدورهما بالعملاء والمندوبين المحليين.. ولم تكد السلطات المصرية تلقي القبض على "مويس جود سوارد" عام 1958 حتى تكشفت لها خيوط تلك الشبكة التي كان يديرها مويس، وهو الجاسوس العريق .. وحينما وقف أمام المحققين في القاهرة أدلى بكل ما لديه من معلومات أنارت السبل أمام السلطات كما صورت الصفة الملازمة لكل خطة تجسسية..كل ذلك بوضوح لا إبهام فيه ولا غموض.

وعلى ضوء تلك الاعترافات – المقرونة بالأدلة – يمكن لنا تحديد نشاط وكيان جهاز الاتصال الذي أدارت به مخابرات إسرائيل إحدى عمليات التجسس الخطرة في مصر.

كانت اتصالات المندوبين الرئيسيين بعملائهم وبالمندوبين المحليين تتم بطرق مختلفة لا تختلف عن غيرها من الطرق المتبعة مع جميع شبكات التجسس، أبرزها: الاتصال المباشر بالمندوب:

(وكان في هذه الشبكة فؤاد محرم)، والمندوب هذا يقوم بأعمال التجسس بنفسه.. والاتصال غير مباشر: ويتم عن طريق ما يسمى بالعرف التجسسي "صندوق البريد الميت". وتوضيحاً لصفة هذا الصندوق نقول: إنه عبارة عن صندوق بريد عادي يقع عليه الاختيار، ويتفق مع صاحبه أن يسلم المندوب كل رسالة تأتي باسمه معنونة باسم ورقم الصندوق، وحينما يتسلم المندوب الرسالة أو الرسائل يسلمها بدوره إلى شخص يعطيه كلمة السر أو يسمح له بفتح الصندوق بمفتاح خاص لديه.. كذلك الاتصال عن طريق صندوق البريد الحي، وذلك بأن يكون صاحب الصندوق مندوباً، ويسمح باستخدام صندوقه في تلقي رسائل باسم مندوب آخر.

أيضاً الاتصال عن طريق "موصل عازل": وهذا الاتصال يقوم به المندوب الرئيسي.. "والموصل العازل" هذا عبارة عن واسطة اتصال فقط ولا يقوم بأي عمل آخر، سوى إرسال (مندوب) وقع الاختيار عليه – بعد التأكد من كفاءته – إلى حيث يتلقاه مندوبو مخابرات إسرائيل ويقومون بالاتصال به مباشرة وتدريبه ليصبح مسخراً لأعمالهم.. أي أن الموصل العازل، تنتهي مهمته بالنسبة للشبكة حينما يتمكن (المندوب) من الالتقاء بالعميل المرشح "للخدمة"، وترك بقية المهمة على عائق ذلك المندوب وبقية رجال المخابرات الإسرائيلية.

وعندما نناقش مثلاً كيف كان جواسيس إسرائيل في مصر يبعثون بتقاريرهم إلى "بار يهوذا ميخائيل" وهو في روما؟ نجد أن هناك طريقة إسرائيلية خاصة.

من المعروف أن أجهزة المخابرات في العالم تستخدم عناصرها رموزاً سرية يطلق عليها اسم "الشفرة"، بينما المخابرات الإسرائيلية تخصص جاسوساً يعمل لحسابها بشفرة معينة.. ويجرى الاتفاق على استخدام "رواية" ما، أو قصة متداولة مع كل جاسوس كأساس للإشارات الرمزية المتبادلة بينه وبين المخابرات، ويتم التفاهم على استخدام تلك الشفرة بكل كتمان وسرية.. وعندما تتسرب هذه الاصطلاحات إلى الجهات التي يهمها أمر كشفها والإلمام بها، تسارع المخابرات الإسرائيلية إلى تبديلها خوفاً من تسرب الأسرار.

هذا في الحالة العادية أما في حالات الطوارئ، أو العمليات العسكرية، فهناك رموز اصطلاحية تزود المخابرات بها العملاء الموثوقين، ليبعثوا بتقاريرهم وفق الشفرة المعينة لمثل هذه الحالات.. وفي حال انتهاء حالة الحرب أو الطوارئ يتلقى الجاسوس الرموز الجديدة، لمعاودة الاتصال مجدداً، هذا إذا لم يكشف أمره ويلقى حتفه إما شنقاً أو رمياً بالرصاص. وإلى جانب تجديد رموز الاتصال تحدد المخابرات الإسرائيلية نوعية الحبر السري الواجب، ميزات خاصة تؤكد أن مسطر الرسالة هو العميل نفسه المسلم إليه الحبر.. ويرتكز نشاط الاتصال للمخابرات في عملية التجسس على نقطتين مهمتين:

طريقة الاتصال اللاسلكي:

ويتم ما بين تل أبيب وبين الجواسيس.. علماً بأن تل أبيب تطلب منهم تبديل الموجات اللاسلكية، المستخدمة في حالات الطوارئ، لئلا ينكشف أمر الرسائل المتبادلة.. والمخابرات الإسرائيلية تزود كل عميل بمفكرة صغيرة بها شرح مفصل لكيفية الاتصال اللاسلكي وطريقته وأوقاته في الأحوال العادية، وحالة الطوارئ والموجات التي يتم الاتصال عليها والشفرة الخاصة بالاتصال اللاسلكي، وطريقة حلها.

طريقة الشفرة السرية:

وتشمل كيفية استخدام الرموز والاصطلاحات وأسلوب حلها، وتبديلها عند حدوث حالات مفاجئة.

والأساليب التي تلجأ إليها المخابرات الإسرائيلية في الوصول إلى تجنيد عملائها كثيرة ومتنوعة، ولكنها تعتمد على نظرية مألوفة.

إن مراكز المخابرات بكافة فروعها وأجهزتها الرئيسية والثانوية شأنها كشأن كافة أجهزة المخابرات الأخرى الأجنبية، تتخذ من النظرية القائلة إن في أعماق كل إنسان نقطة

ضعف، ولكل إنسان ثمن يدفع من أجل السيطرة عليه، إذا تأكد لها أنه يأتي بالفائدة المرجوة.. يختلف إنسان عن آخر من ناحية نقاط الضعف، فقد تكون هي الحاجة والفقر أو النساء أو الحقد نحو نظام لا يتلاءم مع طموح ومتطلبات ذلك الإنسان.

من هذا المنطلق تبحث إسرائيل عن عملاء تدسهم في المجالات العالمية وخاصة في الدول العربية.. فإذا ألمت بهذا الإنسان ضائقة مالية عجز عن التخلص من ورطتها، تصدى له من يزيل غمامة تلك الضائقة.. وإذا كان من ذوي الاهتمام بالليالى الحمراء والنساء وجد من يؤمن له ذلك.. وإذا كان عاطلاً عن العمل في بلده، ويبحث عن مورد يعتاش منه، فهناك من يغريه بعقود عمل وهمية، يعتقد فيها أنها خيط الأمل وقارب النجاة.. ومن الملاحظ أن العميل لا يكتشف نفسه أنه أصبح عميلاً في بداية تجنيده، وإنما يكتشف ذلك بعد انغماسه في حمأة العمالة.. ويلمس أنه ليس بمقدوره أن يتملص من خيوط الشبكة التي أطبقت عليه مادام أن هناك من عرف ويعرف الكثير عنه فيعمل كالآلة الصماء، دون وعي أو إدراك.

ولا ننسى أن العديد من العملاء ما عرفوا أنفسهم أنهم عملاء لإسرائيل، إلا بعد أن واجهتهم الحقائق التي تدينهم. ويؤيد كل ذلك، لو أننا تتبعنا مراحل قضايا التجسس منذ بدايتها حتى نهايتها لوجدناها لا تختلف الواحدة عن الأخرى إلا من ناحية تنوع الأشخاص.. أما من جهة القاعدة، فهي لا تزال تعتمد على النواحي النفسية للشخص المرشح ليكون جاسوساً.

ومختلف أجهزة المخابرات العربية تؤمن بقوة أخلاق المواطنين العرب الشرفاء ومتانة أعصابهم.. وقوة إيمانهم وحرصهم على سلامة بلدهم وأهلهم، وحتى عرضهم وشرفهم، أمام تلك المغريات الدنيئة التي تعمد إلى إغرائهم.

فمن خلال اعترافات – فؤاد محرم فهمي ولوتز الألماني وزوجته كلارا وجان ليون توماس ومحمد أحمد حسن وكرابيت يعقوبيان وكاتي باوولف وفتحي رزق.. وكلهم جواسيس

قبض عليهم، خلال فترات زمنية متفرقة في مصر.. نجد حقائق هامة عن عملية اصطياد الجواسيس وتجنيدهم سواء أكانت في شوارع أوحانات روما وباريس أو في ميونيخ، حيث يستخدم صائد الجواسيس كل سلاح: المال.. النساء.. القمار.. إثارة الفضائح الأخلاقية، التأثير، ولكل صيد "الطعم" الذي يلقى إليه.. والشبكة التي تضيق عليه الخناق. وينتشر صائدو الجواسيس – العاملون لحساب المخابرات الإسرائيلية – ومعظمهم من سبقت له الخدمة في هذه الأجهزة، أو ربما كان من بين ضباطها، لكنهم جميعاً يتمتعون بصفة واحدة هي: أن لكل واحد منهم أنف كلب الصيد، أي أنه يشم الطريدة، ويحدد مكانها قبل أن يقترب منها وأذنه جهاز رادار حساس، وذكاؤه على مستوى عال. فتارة يبدو أحدهم وعليه وقار العلماء، وحرص رجل الأعمال.. أوالإنسان الاجتماعي الذي يغشى الحفلات وكأنه جزء من حلقة، منها سخي اليد لأقصي درجات الكرم، يحب الأناقة لدرجة البذخ.. وأخيراً يتقن اللغة العربية وكأنه أحد أبنائها.

فهذه المؤهلات تؤمن للصياد أن يعرف مكامن الضعف في الفريسة والطريدة.. تلك الفريسة التي قد تكون على شفا هاوية إفلاس، يحطم مكانتها الاجتماعية.. تلك الطريدة التي قد تكون مصابة بانحراف جنسي، وتحاشت أن يفتضح أمرها إلى أن كشفه ذلك الصائد بحسن نية – كما يتظاهر – ويعلن أنه على استعداد لتلافي ما حدث وتغطية ما قد يفتضح بأساليب خاصة يتقنها.

على سبيل المثال الجاسوس الطيار المصري فؤاد محرم الذي خان بلاده وعمل لصالح أعدائها، كان شاباً مغروراً بنفسه مفتوناً بشبابه.. من نقطة الضعف تم التسلل إلى كيانه.. أصبح إنساناً حقيراً أمام تيار ملذاته التي كانت تؤمنها له موظفات في المخابرات الإسرائيلية، منهن راقصات في ملاهي أوروبا.. أو مضيفات في بعض شركات الطيران.. أو عاملات في الفنادق.. والجاسوس الألماني لوتز، كان قد اتخذ تدريب الخيول مهنة له، فعاش في جو أرستقراطي في بلاد لا ينتمي إليها.. وتدريب الخيول مهنة تتطلب من صاحبها أن يكون مجازفاً.. مغامراً.. يتحدى كل شيء.. ويتطلع إلى كل شيء.

من هذه الزاوية انطلق صائد الجواسيس – المدعو جوردون – ليعرض على "لوتز" عملاً مثيراً، يمكن صاحبه من السفر والطواف، بكل أنحاء العالم وذلك عن طريق شخص سماه "رودي".. وكان هذا العرض هو حلم لوتز الذي اكتشفه صائد الجواسيس "جوردون" وكان عرضاً مثيراً يستحق اهتمام كل واحد من الثلاثة.

دارت أكواب الخمر وكانت فاتحة الحديث حول أصول تدريب الخيول.. وسلالاتها.. والصالح منها.. إلى آخر ما هنالك من أقوال حول هذا الموضوع، ولما أخذت الخمرة مأخذها من أعصاب لوتز وسيطرت على حواسه أحاديث الخيول انتقل الحديث إلى تحديد المهمة التي سيوكل أمرها إليه، وهي وضع متفجرات ضمن طرود بريدية أو خاصة ترسل إلى الخبراء الألمان في مصر.. وطاشت أحلام لوتز، حينما واجهته المخابرات العربية بالأمر، وبالأدلة الثابتة الملموسة، فانهارت أعصابه، واعترف بكل شيء.

والجاسوس المفلس جان ليون توماس– يهودي من أصل مصري – كان في ألمانيا الغربية عام 1956 يبحث عن عمل يقتات من مورده، فعبثاً كانت محاولاته.. وكعادة المفلسين، جلس في مقهى يتردد عليه أفراد من الجالية العربية هناك، فلقيه شخص ادعى أنه من تونس.. لمس متاعبه المادية، فتطوع اختياراً لإيجاد عمل له يدر عليه ربحاً نسبته خمسة بالمائة خمسة من أصل المتاجرة عدا أجور ومصاريف الانتقال، ولم يتطرق الحديث عن مصر.. ولا عن السياسة.. وافترقا على أمل اللقاء.. وبدأت المرحلة الثانية.. والتقيا أخيراً.

وكان الاجتماع الثنائي في دار ذلك "التونسي" الذي سلم "توماس" رسالة يجيز له الحصول على مبلغ (750) دولاراً، ثم فاتحه صراحة بالموضوع بأنه يود موافاته بما يعرفه عن الحالة الراهنة في مصر.. وهكذا أصبح توماس"المفلس"، جاسوساً أوفد دون أن يدرك مراحل الهاوية التي انحدر إليها ودون أن يدرك أن المخابرات العربية كانت له بالمرصاد.

وعن طريق "جان توماس" جند أيضاً الجاسوس "محمد أحمد حسن"، وكان هذا يعمل كاتباً في مركز تدريب مدفعية الميدان بالقاهرة لقاء (150) جنيه. ولم يكن ذلك بالعامل الرئيسي وإنما كانت الخمر.. والنساء هما العامل الأكبر في تجنيده. ومن أقوال "نعيمو" أحد شهود الإثبات في قضية التجسس..لم يكن معي نقوداً عندما وصلت جنوة في 1961/1/10.. ففكرت بأخذ أول باخرة من جنوة إلى مصر.. واضطررت لذلك أن أعمل في الميناء لأجل توفير أجرة السفر.. ولم يكن معي حتى ولا سيجارة.

وفي يوم من أواخر شهر فبراير وصلت باخرة مصرية إلى "جنوة"، فقلت: "أروح أسلم على أصحابي" وأنا ذاهب قابلني شخص في الطريق.. وحدثني بالعربي وقال لي.. "أنا عربي، واسمي أحمد خليفة!".. وتعارفنا فأعلمته أنني بدون عمل، فوعدني بإيجاد عمل محترم.. وفي شركة محترمة.. ولما اطمأن لي تكلم معي بصراحة أكثر.. فقال إنه يعمل في "منظمة حلف الأطلنطي"، وهي بحاجة إلى جهاز يعمل على مراقبة الأحوال في الشرق الأوسط.

وقال لي محدثي: "العمل كثير.. والمال كثير.. والمهم أن تعمل بإخلاص. ويختم "نعيمو" أقواله: "هكذا عرفت أن مهمتي هي التجسس على مصر، على بلدي لحساب إسرائيل، ولكنني سايرتهم، وأبلغت الجهات المختصة بالأمر".

ومن أقوال أحد العملاء لحساب إسرائيل: "سامي نافع" نستخلص أنه حينما كان في روما، قابل شخصاً ادعى أنه مصري ويدعى "عصام محمود"، وأنه يعمل في منظمة لمقاومة الحرب، والحد من عمليات التسلح، ويطلب منه أن يوافيه بمعلومات عن الاقتصاد والقوات المسلحة المصرية.. وهنا يجب أن نتوقف قليلاً لنقول، إن نافعاً كثيراً ما ردد تنديده بالنظم الاشتراكية، مما خلق المجال الحيوي لإلقاء الشبكة حوله.

هذه لمحة وجيزة عن جواسيس انحدروا إلى الهاوية.. كان مصيرهم أمام القضاء.

جواسيس من أسرى الحرب

وفي ملفات المخابرات العربية العديد من الحوادث التي تؤكد لجوء المخابرات الإسرائيلية إلى الوسائل اللاأخلاقية، للضغط على الأسرى العرب، ليتحولوا إلى عملاء لحسابهم.. فلا تترك أى وسيلة مادية أو معنوية لتحويل، نفوس أولئك الأسرى عن حبهم لبلدهم وثقافتهم في خدمة أرض العروبة، وبالأحرى جعلهم رأس حربة موجهة إلى صدور أهلهم ومواطنيهم.. وتتم عملية اختيار من سيكون جاسوساً لإسرائيل من بين أسرى الحرب بعد أن يمر "المرشح" بعدة اختبارات نفسية شديدة.. فمثلاً: "تطلق النيران على مجموعات الأسرى دفعة واحدة ودون سابق إنذار.. قتل أحد الأسرى أمام الجميع لإرهابهم.. فتح النار على الأسرى من خلف ظهورهم".

وهناك طرق أخرى كالابتزاز الجنسي، إحضار الأسير إلى مكتب من مكاتب المخابرات، بحجة استجوابه، فيطلب منه أن يخلع ملابسه بكاملها أمام المحققين، ثم يترك في الغرفة ومعه فتاة عارية.. ثم.. ومن فتحات سرية يلتقطون له صوراً بمختلف الأوضاع.. وأخيراً تعرض هذه الصورة عليه، ويهدد بأنها ستكون في متناول زوجته أو خطيبته أو أهله.. أو الابتزاز السياسي، ويساق الأسير إلى غرفة التحقيق ويبدأ ضابط المخابرات بمحاورته واستفزازه، حتى يضطره إلى شتم بلده العربي.. وشتم من فيها.. بينما أجهزة التسجيل تدون كل كلمة يتفوه بها الأسير.. وبعد عمليه نزع أقوال المحقق من شريط التسجيل يعرض ذلك على الأسير، ويهدد بأن هذا الشريط سوف يرسل إلى بلده ويسلم إلى قيادة جيشه عن طريق الصليب الأحمر.

وثمة طرق أخرى تلجأ إليها المخابرات لجعل أسرى الحرب يعملون لحسابها، فقد دلت التحقيقات على أن الدوائر الإسرائيلية بعد أن تختار من بين الأسرى ما تريده تلجأ إلى العمليات التالية، تطبقها بالتسلسل بحق الأسير: عملية (غسل المخ).
– التنويم المغناطيسي والإيحاء النفساني.

- استخدام الأمصال والعقاقير الطبية (حقن الصدق).
- استخدام جهاز كشف الكذب.
- التعذيب الجسماني.

وهي الحالة الأخيرة لتجنيد الأسير الذي وقع عليه الاختيار، حيث يسجن الأسير في زنزانة ضيقة وتسلط عليه الأنوار الكهربائية القوية ليل نهار، وترسل إلى جسمه موجات من الهواء الساخن تارة والبارد تارة أخرى.. ويبقى على هذه الحالة وهو عارٍ تماماً لفترة مدتها 60 يوماً، بينما صوت المذياع لا يتوقف عن بث الدعاية المسمومة والنصائح الموجهة إليه، كي يستسلم للأمر الواقع، ويرضخ لما يطلب منه للانضمام إلى ما يسمى - في عرف المخابرات - بـ"منظمة السلام"، ويعني ذلك انضمامه تحت لواء الصهيونية والتبشير في سبيل مخابراتها، مع التأكيد بأن حالته سوف تكون أحسن بكثير، في حال رضوخه لما يطلب منه، ويحصل على ما يناله العضو في هذه المنظمة من مزايا ومنح أثناء مدة أسره.. وإذا أصر الأسير على عدم الانصياع، يقاد إلى "غرفة العمليات" حيث يجرى إدخال خرطوم من المطاط في جهازه البولي وينتهي في وعاء، ويعاد الأسير إلى زنزانته، حيث يمنع عنه الماء فلا يوجد أمامه سوى بوله يشرب منه، وتستمر هذه العملية عدة أيام.

فإذا لم يأت ذلك بنتيجة، فهناك أسلوب آخر فيه توضع القيود في يدي ورجلي الأسير بشكل يمنعه من استخدام أطرافه، وتعصب عيناه بعصابة سوداء.. ثم ينقل إلى السجن الانفرادي يحيط به الظلام والصمت لمدة أسبوع، ينقل بعدها إلى غرفة التحقيق لسؤاله عما إذا كان مُصراً على عدم الالتحاق بـ "منظمة السلام".. وبعد كل هذه العمليات تجرى تصفية وتصنيف الأسرى إلى مجموعات، فالمجموعة التي يُعتقد أنها أسهل انقياداً تتابع معها المحاولات.

وفي هذه المرحلة يعرض الأسير أمام عناصر أخصائيين في وسائل الإقناع والتأثير النفسي، فيعرضون عليه الانضمام إلى "المنظمة العاملة لأجل السلام".. ويخبرونه بأن هذه

المنظمة تدرك وضعه وترحب بانضمامه إليها، وتقدر مجهوده في سبيل تحقيق أهدافها، بما يدلي به من معلومات تفيد قضية "السلام في المنطقة".. فإذا انهارت مقاومة الأسير أمام ذلك، وأعلن أنه ينضم إلى تلك المنظمة، يحظى حينئذ ببعض الوسائل الترفيهية خلال وجوده في الأسر، ويترك إلى فترة من الزمن تليها مرحلة أخرى هي على وجه التحديد: خلق جاسوس عميل لحساب المخابرات الإسرائيلية، بتقديم المغريات للأسير كالمال والنساء والمعاملة الحسنة، والسهرات الصاخبة والطعام الجيد، وتنفيذ كل ما يطلبه – حتى لو كان من الممنوعات، وبهذا تنهار نفسيته، ويتم عقد صفقة (قبوله العملي لحساب المخابرات) فتغدق عليه الأموال فور موافقته هذه.. ويظل هكذا حتى يسلم إلى بلده على طريقة تبادل الأسرى.

جدير بالذكر أن المخابرات الإسرائيلية تحفظ لنفسها خط الرجعة، فتوحي إلى الأسير بأنه بمقدورها أن تمتد يدها إليه مهما كان مكان وجوده ووضعه في بلاده، هذا إلى جانب إسماعه من حين لآخر ما تم تسجيله من أقواله، وما أخذ له من صور في أوضاع أكثرها يكون مخلاً بالشرف والرجولة، أو قد يبعث إليه برسالة متفجرة تقضي عليه أو على أفراد من عائلته.

فكم من أسير – إنقاذاً لجسمه من التعذيب الوحشي، وتفادياً للفضيحة الأخلاقية – تظاهر بالتجاوب مع مطالب آسريه، وحين عودته إلى بلده سرد ما جري له.. وما تعرض إليه.. وما عرض عليه.. بينما ضعاف النفوس – وهم قلة – يقبلون العمل، وبالأحرى خيانة أمتهم.. ويكون مصيرهم أمام القضاء.. وفي حال تجاوب الأسير مع ما يطلب منه، وعندما يظهر استعداده للعمل لصالح المخابرات ،تبدأ مرحلة تدريبه على استخدام الأحبار السرية والاتصالات اللاسلكية واستعمال الرموز (الشفرة) والتدريب على الاغتيالات، وكيفية إطلاق الشائعات الكاذبة وخلق البلبلة في النفوس.

ولنأت على مثال لما أوردناه ..كشفت المخابرات المصرية أن الملازم الاحتياطي عبد الفتاح عبد العزيز عوض، هو بطل شبكة تجسس لحساب إسرائيل بعد عودته من الأسر إثر عدوان يونيو 1967.

وتؤكد التحقيقات أن الملازم عاد من إسرائيل بعد أن أجريت له عملية "غسل المخ" وأوهم بأنه في حال تعاونه معهم يكون قد خدم فكرة "السلام" بالمنطقة. ولاحقته أعين رجال المخابرات العامة العربية، فلمست خطورة تصرفاته واتصالاته المريبة، ومحاولته جمع المعلومات. وحينما جمع ما منها، وسطرها ضمن رسالة تمهيداً لإرسالها إلى من استخدمه كعميل كانت أيدي رجال المخابرات أسرع منه، وألقي القبض عليه، وأحيل إلى المحكمة، حيث قالت العدالة كلمتها بالحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة.

تجنيد الأطفال

وقد عمدت مخابرات إسرائيل إلى استغلال طراوة عود وفقر وتشرد بعض أبنائنا وأخوتنا من الصغار الذين فقدوا أباءهم وأمهاتهم ومساكنهم، فأخذت تلتقطهم من أرصفة مدن وقرى الضفة الغربية، لتوزع عليهم الأطعمة والحلوى، ومن ثم تضعهم تحت اختبار دقيق لمعرفة نسبة ذكاء كل واحد منهم. بادئ ذي بدء يدخل معاً كل اثنين أو أكثر إلى غرفة خاصة، وتقفل عليهم الأبواب لفترات متفاوتة، يخرجون بعدها، ليواجهوا جميعاً سؤالاً واحداً يلقى على كل منهم على انفراد: ماذا رأيت في الغرفة التي جلست فيها؟

ويصمت الطفل محاولاً تذكر ما رأى: طاولة وكرسيين وصورة معلقة على الحائط، أما الأشياء الأخرى فلا يتذكرها، لأنه لم يعتد ملاحظة أي مكان يدخله، وتعاد الكرة دون أن ينبه الطفل إلى أنه سيمثل مرة أخرى ليحكي عما رأى في الغرفة الجديدة، غير أنه يتذكر موقف الضعف الذي وقفه في المرة السابقة، فيحرث الغرفة بعينيه ويعرف كل محتوياتها، حتى الأوراق الملقاة على الأرض بإهمال ظاهر.

وبعد أن ينجح الطفل في تعداد كل ما رأى يوضع في أجواء نفسية خاصة، يعقبها التلاعب بعواطفه وأحاسيسه، خاصة إذا كان على أبواب مرحلة المراهقة، إذ يعمد إلى

تخصيص غرفة للنوم لكل اثنين معاً، تشاركهما فيها فتاة في بداية مرحلة النضج، تأكل معهما، تلاعبهما، وبين الفينة والأخرى تكشف عن أجزاء من جسدها لتوقظ فيهما الغرائز النائمة.

بعد مرور أيام معدودة تظهر الفتاة ميلاً لواحد وتهمل الآخر، فتخص الأثير لديها بعطف خاص وحب مكشوف في بعض الأحيان، لتثير حفيظة الآخر.. ثم لا تلبث أن تختفي من حياتهم، تاركة فراغاً يتصورانه كبيراً، وكراهية تمكنت من قلب كل منهما تجاه الآخر، فيما تكون عمليات التدريب على أساليب التجسس مستمرة، حتى إذا ما أتقنوا ما تلقوه على أيدي الخبراء، أطلقت لهم حرية التنقل في المدن والمستعمرات الإسرائيلية، ولكن تحت رقابة مشددة.

وأثناء جولاتهم وترددهم على دور السينما وأماكن اللهو، يلتقون أجمل الفتيات. ظاهرياً يكون اللقاء مصادفة، لكنه في الحقيقة ليس كذلك، فالتي تجد ميلاً نحو أحد هؤلاء الفتيان تعمل على لقائه مرات ومرات، تمنحه كل ما يريد حتى يحس أنه بات يملك بفضلها وبفضل الذين انتشلوه من محنته ما يعوضه عن فقد أبويه. أعطوه كل ما يطمح إليه من ثياب جديدة وطعام جيد ونزهات، تسلية ومسكن دافئ، ومال ينفقه كيفما يشاء، وأخيراً المرأة التي هو في أشد الحاجة إلى حبها وحنانها.

وهذه المرأة تقوم بإكمال ما بدأه الرجل، تربطه بها عاطفياً وجنسياً وتحركه في الاتجاه الذي تريده المخابرات، تطلب منه ما تريد، فيلبي طلباتها بحماس واندفاع وفي اعتقاد أنه يرضي بعمله هذه الفتاة التي باتت مثله الأعلى، والتي عوضته كل ما افتقده من حب وحنان.. حتى المخاطر يركبها "إرضاء" لعينيها، وليس أقلها قطع النهر إلى الضفة الشرقية من الأردن للبحث عن إجابات لأسئلة طرحتها.. أين تعسكر قوات الجيش الأردني؟ كم عدد قواعد الفدائيين؟ أين يجتمعون؟ من قادتهم؟ ما سلاحهم؟

بعض هؤلاء الفتيان أرسلوا إلى الضفة الشرقية للالحاق بمعسكرات الأشبال التابعة للمنظمات الفدائية، وقد نجحوا في ظروف معينة.. لكن أمرهم ما لبث أن اكتشف وعهد بهم إلى اختصاصيين في معالجة الانحراف، فهم أولا وأخيراً أبناؤنا والواجب يقتضي انتشالهم من أوحال الجاسوسية أكثر الأعمال قذارة وكانوا في غالبيتهم يستجيبون للعلاج.

وللمخابرات الإسرائيلية مخطط مدروس ومركز، ويقوم بالتعاون مع الفئات التي تسمى نفسها "العناصر الدينية"، بينما هي في الواقع عبارة عن بدع تغذيها الحركة الصهيونية وتشرف على توجيهها، لتكون في الواقع عميلة طيعة لحكام تل أبيب، وتأتمر بإمرتهم، مستترة بستار الدين والورع.. ما يؤكد كلامنا هو سيطرة اليهود – على جزء غير قليل من الكنيسة البروتستانتية في الولايات المتحدة، حيث لا توجد هناك روابط روحية تربطها مع بعضها، فتبقى سهلة المنال أمام المطامع الإسرائيلية، بعكس الكنائس الكاثوليكية المستمدة سلطتها وكيانها من السلطة العليا التي يمثلها البابا والمجمع المسكوني.

فضلا عما يعتقده الملايين من أتباع المذهب البروتستنتي من أنه سيأتي السيد "المسيح" الوارد ذكره في "العهد الجديد" من الكتاب المقدس – وهذا ما حدا بهؤلاء البسطاء التواقين إلى التعجيل بقدوم "المسيح المنتظر"، ذلك القدوم المشروط برجوع بني إسرائيل إلى فلسطين – أن يؤيدوا المشروع الصهيوني، بعودة اليهود إلى "أرض الميعاد".

وهناك بعض المنظمات الدينية المسيحية اسما واليهودية الصهيونية فعلاً، وأبرزها "شهود يهوه" وسواها من البدع المسيحية التي غذتها الصهيونية العالمية بالأموال، لإفساد الضمائر وانتهاك حرمة العقائد، وتسميم الأفكار بنشر التعاليم المشوهة، وتفسير العقائد المسيحية بالصورة التي تكفل تهيئة الجو لبذر التعاليم الشوهاء.

ولا يجب أن ننسى أن أتباع هذه المؤسسات لم يتورعوا عن التجسس لحساب إسرائيل على الأمة العربية. فبدعة "شهود يهوه" هي أخطر بدعة هدامة أوجدتها الصهيونية للقضاء على المسيحية والإسلام والمجتمع الإنساني. من يقارن خططها وأغراضها بالنسبة لخطط وأغراض الحركة الصهيونية العالمية لا يجد أي فارق بينهما.. وقد قال الحاخام "دراهما"

في كتابه "التناسق بين الكنيسة المسيحية والكنيسة اليهودية": "... إن جميع الجمعيات السرية موسومة بطابع واحد، إذ كلها تعمل، وتقوم على أساس السرية وحبك المكائد".. وهو الصفة المميزة لهذه الجمعيات، لذا فبدعة "شهود يهوه" هي حركة تجسسية نشأت قبل نشأة فكرة الصهيونية وتطبيقها بالشكل المنظم.. وذلك ببضعة عشر عاماً.

ولا يتورع "شهود يهوه" عن إظهار اندفاعهم نحو المبدأ الصهيوني اليهودي بكل جرأة ووضوح.. لاعتقادهم أنه يحق لليهود إقامة دولة ووطن قومي، ويؤيد ذلك ما يوردونه في نشراتهم وكتبهم حيث يباركون الحركة الصهيونية، بنشرهم ما تقوم به المؤسسات اليهودية في فلسطين من إصلاحات وعمران، لتشويق اليهود في العالم إلى الهجرة لفلسطين.. وهناك جمعيات أخرى مستترة بالمسيحية، وتغطي أغراضها الصهيونية بستار من التدين.. من أبرزها:

أ- جمعية التقارب المسيحي اليهودي:

وهي جمعية دينية أسسها اليهودي الأمريكي الصهيوني "رالف بنيي" في بيت لحم حوالى عام 1955، حيث تظاهر بأنه مبشر أمريكي منصرف إلى أعمال البر الإنساني.. وكان يساعده العميل التقليدي لليهود "توفيق قطان". وهذه الجمعية التي تزعم القيام بأعمال خيرية، هي في الواقع فرع من مؤسسة المؤتمر اليهودي - المسيحي، وهي أخطر مؤسسة صهيونية، مهمتها السيطرة على الرأي العام الأمريكي عن طريق التظاهر بإزلة التعصب بين اليهود والمسيحيين الأمريكيين في الولايات المتحدة الأمريكية في نفس الوقت الذي تقوم بأعمال التجسس لحساب اسرائيل، يتم هذا عن طريق إرسال العملاء على أنهم سياح أمريكان. اكتشفت أجهزة الأمن العربية أن "رالف بنيي" أو "بنيت" هو من أخطر ضباط المخابرات الإسرائيلية.

ب- اللجنة الأمريكية المسيحية لفلسطين:

أنشأ الصهيونيون هيئة لهم في الولايات المتحدة الأمريكية وأطلقوا عليها اسم "اللجنة الأمريكية المسيحية لفلسطين"، وهي في طليعة الهيئات الصهيونية التي تتغلغل في الأوساط الكنسية المسيحية، وتغطي أغراضها الصهيونية بستار من التدين.. وتقوم هذه الهيئة في كل عام بإيفاد عدد من الطلبة معظمهم من معاهد الدين المسيحية في رحلة استطلاعية إلى بلدان الشرق الأوسط، ويتولى المشرفون على هذه الهيئة تنظيم برامج الرحلات، حيث يقضي الطلبة يوماً أوأكثر في كل بلد عربي، ثم يقضون مدة طويلة في إسرائيل، حيث يحاطون بجو خاص يجعلهم يعودون من هذه الرحلة أو الرحلات، وقد أصبحوا "صهيونيين" عاملين نشطين.

ت– المخدرات في خدمة المخابرات الإسرائيلية:

خلال التحقيقات التي أجرتها الدوائر المختصة في مصر أو في لبنان مع الشبكات التجسسية العاملة لحساب إسرائيل، اكتشفت تلك الدوائر حقيقة رهيبة دلت على جزء مهم من المخطط التخريبي الإسرائيلي المقرون بالحقد على كل من هو غير يهودي، فإن لم يستطع التغلب عليه بواسطة المال والنساء والمغريات الأخرى، فهناك مخطط أبلغ مدى وأخطر نتائج، ذلك المخطط الذي يحطم أعصاب ومعنويات الشعب العربي، ليسهل تطبيق أبسط الأساليب، يريده جان استخدامه في المراسلات الواردة من كل عميل أو جاسوس، فلكل حبر سري لجعله شعباً مستسلماً، يخضع لأقل إشارة أو بادرة تأتيه من المصادر التي تمده بالسموم، التي تملكت حواسه ومشاعره. وقد زاد هذا العنصر من بعد إحلال السلام بين مصر وإسرائيل، حيث تبين أن كل المتهمين بقضايا تجسس لصالح إسرائيل بعد السلام كانوا يهربون ويتاجرون في المخدرات. وتتلخص معالم هذا المخطط في إغراق البلدان العربية بالمخدرات، على اختلاف أنواعها، وبالتالي تشويق أفراد الشعب على استعمالها، حتى تصبح لديهم عقدة الإدمان، وبالوقت نفسه تسهيل الحصول عليها عن طريق العصابات المحلية العالمية لحساب إسرائيل. وغالبية المعتقلين من شبكات التجسس الإسرائيلي اعترفوا

صراحة – سواء أمام المحققين أو أمام المحاكم – بأنهم درجوا منذ أن التحقوا بالمخابرات الإسرائيلية، يعملون بالإضافة إلى عملهم جواسيس – على نقل المواد المخدرة التي تنتجها المصانع الإسرائيلية في الأرض المحتلة خصيصا، لتهريبها إلى البلاد العربية عن طريق غزة ولبنان، ومنها إلى الدول العربية.

ويوضح المعتقلون – خلال اعترافاتهم – أن المخابرات الإسرائيلية كانت تزودهم بمقادير من السموم البيضاء مثل الهيروين الكوكايين والمورفين، والحشيش، دون أي مقابل، سوى أن يقوموا بتهريبها عبر الحدود وبيعها لعصابات التهريب والتصريف ويتقاضون هم الثمن.. وتهدف إسرائيل بإشاعة استعمال هذه السموم، لإيجاد انحلال نفسي في الكيان العربي يصرف الشباب العربي عن التفكير بما هو أعمق من اللذة الوقتية ويقضي على روح التوثب والمقاومة رويداً.. رويداً، ويزرع بذور الإدمان في نفس كل عربي.

وتأكيداً لما أوردناه، فقد جاء في إفادة العميل الإسرائيلي "عبد الكريم دقدوق" رئيس إحدى شبكات التجسس في لبنان أنه ".. تعّرف على ضابط إسرائيلي كان يتردد بصورة مستمرة على المناطق المحتلة والمتاخمة للحدود اللبنانية، ونشأت بين الاثنين علاقة صداقة ما لبثت أن توطدت وتحولت إلى موضوع عرض من قبل الضابط الإسرائيلي إلى "عبد الكريم"، ليقوم هذا بتصريف وتهريب المخدرات عبر الحدود، شريطة أن يتقاسما الأرباح.. ووافق "عبد الكريم" مدفوعاً بحاجته الملحة للمال، فأخذ يهرب من الحدود الإسرائيلية – اللبنانية إلى بيروت، حيث يتسلمها منه شخص يهودي يتولى تصريفها.. وتطور الأمر بالضابط الإسرائيلي فكلف عبدالكريم هذا بنقل رسالة إلى شخصية يهودية دينية تقيم في بيروت. وكانت حصيلة تلك الرسالة أن تحول عبد الكريم من مهرب مخدرات إلى عميل تجسسي وضع نفسه تحت تصرف (الشخصية الدينية اليهودية) ليعمل على تهريب بعض اليهود من لبنان إلى إسرائيل، وفي بعض الأوقات إعادة البعض منهم من إسرائيل إلى لبنان لقاء مبلغ عن كل يهودي يجتاز الحدود إلى إسرائيل.

الفصل الثامن

الموساد: جهاز للخداع والتزوير والقتل

- **10 آلاف جواز سفر كندي في القبو لتزوير الوثائق**
- **محطتان لتدريب العملاء في باريس وروما وتدريب 21 يوماً في القاهرة**

"الموساد".. منظمة سرية للتزوير والقتل والخداع، وإذا كانت قد كشفت عن استخدامها لجوازت السفر الكندية المزورة، في محاولة اغتيال خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحركة حماس بالعاصمة الأردنية عمّان في 1997/9/25، فإن هناك نحو عشرة آلاف جواز سفر كندي مزورة أخري تحت يد الموساد لاستخدامها في عمليات قادمة. إن تدريب وإعداد الضباط والعملاء، هو جزء من هذه المنظمه السرية، ومن كيانها بل إن بعض العمليات التي يشارك بها عضو الجهاز، تكون جزءاً مكملا من تدريبه الذي يستمر سنوات وتصنع فيه طريقة تنفيذ العمليات، التي تقوم على أيدي محترفين، وتلك التي يضطلع بها هواة ودارسين تحت الاختبار.

فالموساد منظمة التي لا تتبارى في عالم التجسس والاستخبارات، عندما تفشل بعض العمليات أوتسبب فضيحة مدوية لها.

إن الذين يتطلعون إلى التجنيد في الموساد، يخضعون لفحوصات نفسية واجتماعية وثقافية جيدة، ومن المفترض أن تنفذ ما يطلب منك.. إذا سألت أسئلة من الممكن أن تفشل كل العملية لاحقاً.. يتم في البداية أخذ المرشحين اللازمين، ثم مع الوقت – بواسطة إعلام مركز وغسل دماغ – يعاد صقلهم، كما يقال: "إذا أردت أن تعصر الطماطم عليك أن تأخذ الحبة الناضجة، عندما تأخذ الحبة الخضراء يمكن عصرها إنما بصعوبة أكثر".. إن العمليات التي تقوم بها الاستخبارات الإسرائيلية تعد سرية ولا ينشر عنها شيء إلا بعد فترة،و غالباً في الصحف الأجنبية.

ولا يوجد متحدث رسمي لهذا الجهاز، ففي التنظيمات الديمقراطية يوجد مكتب اتصال للصحفيين ليس فقط بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، لكن في نفس الوقت لدى رجال مخابرات "كي . جي . بي" السوفيتية. في الموساد لا يمكن تسجيل التواريخ الشخصية

للمديرين، حيث تعتبر من أسرارهم الشخصية، والإعلان عن الأسماء يعتبر خيانة عظمى ويلقى من قام بذلك عقوبة قاسية، ولهذا السبب يدرك الكثيرون من المطلعين على بواطن الأمور مع من يمكن التعامل.

ومن وظائف وكالة المخابرات المركزية تتبع وتغطية أخبار البيت الأبيض في واشنطن وكذلك فإن الـ "بي. إن . دي" تغطي أخبار مكتب المستشار الاتحادي لحكومة بون، والموساد كذلك من وظائفه تغطية مكتب القدس لرئيس الوزراء، وهناك تنتهي كل الطرق، بجانب هذا فإن رئيس الوزراء نفسه هو واحد من أفراد الموساد الحالين للتقاعد، يتجنب الكثير، مما يمكن للمخابرات أن تأتي به علانية، كلماته لا تعتبر قاطعة، لأنه يساوم ولايقول الحقيقة خوفاً من العواقب بالنسبة لإسرائيل، وأفضل مثال لذلك كتاب "فيكتور أوستروفيسكي" (الموساد) المثير للجدل، والذي أوجد ظهوره رغبة لدى رئيس الحكومة – وقتها – لإيقاف هذا الانهيار الجليدي.

هل توجد ثمة حقيقة الآن عن الموساد؟

عندما تكون الإجابة بالإيجاب، أين؟ ولأن وكالة المخابرات المركزية متواجدة في الغابات المحيطة بواشنطن، بالضبط في "لانجلي"، وهذا يعرفه أي صبي بالغ في أمريكا. وبالخوف والفضول كان المواطنون السوفيت دائما ينظرون إلى لوبيانكا المقر الرئيسي التاريخي لـ"كي . جي . بي"، وبعد انقلاب أغسطس 1991 احتشدوا كذلك أمام المبنى السيئ السمعة، وأخذوا ينزلون التمثال الذين يزن أطنانا لمؤسس البوليس السري تشكا – والذي تحول الـ "كي . جي . بي" من على قاعدته، من يعرف أين توجد الموساد يعرف تماماً صورة إدارة الاستخبارات الإسرائيلية. وحتى أواخر الثمانينات كانت الموساد متواجدة وسط مدينة تل أبيب في أحد المباني العالية ذات المكاتب، يسمي "هادار دافنا" ويقع هذا المبني في شارع الملك شاؤول، على نفس المستوى خلف مجموعة من المكاتب المماثلة، والتي تسمي بأسماء أمريكية وآسيوية.

أما الآن فتتواجد رئاسة الموساد مع مركز تدريباتها "الميدراشا" وتوجد الأكاديمية الخاصة بها بالقرب من الشارع الرئيسي الذي يعج بالكثير من الحركة من تل أبيب إلى حيفا، حيث يبدأ الطريق الدائري إلى القدس.. وهو بالقرب من المركز الرئيسي حيث يقع "النادي الريفي" وهو فندق معروف، والمكان الطبيعي للتدريب لوكالة التنمية الجديدة، ويعتبره الكثير من الإسرائيليين مقر صيفي لرئيس الوزراء.

وقد استمر التدريب لمعاوني الإدارة الرئيسية لهذا الجهاز في الستينات مرتين لمدة ستة أشهر. وهذا ما تضمنته كتابة أحد عملاء وكالة المخابرات المركزية في جريدة "المخابرات" حول الموساد وجاء فيها ما يلي: "إن دورة تدريبات تتضمن برنامجا استهلاليا لـ"العمليات الأساسية"، التي يفكر فيها بالنسبة لأفراد مرتبة الخدمة الفرعية، وبرنامج للعمليات الأساسية، وبرنامج للعمليات الخاصة.

ويجب على كافة الضباط المرشحين حضور برنامج لمدة أربعة شهور لـ"العمليات الأساسية"، وذلك قبل تمكنهم من دخول الخدمة، وتمتد فترة دورة التدريب في مجملها إلى ما يقرب من سنتين. ومن المعتاد أن يتكون الفصل من اثني عشر رجلا.. والمدربون في برامجه من المدرسين الدائمين والعاملين في المخابرات بعقود تدريس محدودة المدة، وأفراد من الرئاسة، تحت إدارة مدير الموساد.

وفي الغالب فإن كافة العملاء من الذكور يجندون من داخل الوحدات الخاصة للجيش الإسرائيلي.. وهذا معناه، أنهم من ذوي التدريبات الكاملة ولديهم الحافز الزائد. وبالنسبة للنساء فإن الترشيح يتم بشكل مماثل، فإنهن أيضا من الممكن أن يكون لهن خدمة قتالية مباشرة منتهية أو بكل بساطة رسبن في الكفاءات الخاصة. وتتطلب الشهور الأولى للتدريب جهداً جسمانيا كثيراً للغاية، يتم تدريب الطلبة على الدفاع من خلال العمليات القتالية، ويجرون كثيراً ويمارسون خليطاً من تدريبات اللياقة، وبطبيعة الحال فإن العمل اليدوي الأول للعملاء يتعلق بالخطة التعليمية التالية: استخدام الشفرة، وإرسال التقارير، والملاحظة والتموية والخداع.

وقد أسهب "فيكتور أوستروفيسكي" في شرح ذلك بوضوح في كتابه، حيث قال: "تخصص نقاط وأعمال محددة لطلبة الموساد، يجب عليهم إنجازها في وقت محدد، وبعد ذلك يجب عليهم كتابة التقارير، سواء تبعهم أحد أو لم يتبعهم من أعضاء الموساد كرقيب عليهم أو من أجهزة أخرى لدول أوجهات أخرى. فعندئذ يجب عليهم إرسال التقارير، من الذي رأيت ومتي؟ وكم من الناس وكيف يبدون؟ والطلبة، الذين يرسلون التقارير، لن يكونوا في الظل، بل يجب القول، أين ومتى كانت الملاحظة؟ كيف فحصوها؟ وما هو السبب وراء عدم تتبعهم للتفسيرات؟

وينقسم أي طريق إلى قسمين رئيسيين، فالمألوف أن الإنسان يقوم بوضع الخطط على الخريطة، ويترك موقعا ويخفي بطبيعة الحال الأماكن المكتظة.. ويتناول البحث عن النقاط الاستراتيجية، وكذلك الأماكن الاستراتيجية، حيث يمكن أن يبرر توقفه، ومن حيث يمكن أن يلقي نظرة عامة على الامتدادات، التي توصل إليها، وبالتطابق، فإن طبيب الأسنان يستقبل مرضاه بالطابق الثالث من أحد المباني، وفي هذا الطابق توجد نافذة، من خلالها يمكن أن يرمق المكان الذي يخرج منه أي شخص إلى الشارع.

وعندما يحصل الفرد على برنامج دراسي، ويجتازه، وعلى التو يدرك، إذا كان قد استوعب مهمته أم لا، ومن النافذة سيرى الشخص المقتفي أثره، كيف رمقه وبعدئذ انتظره.. وإذا ما ألقي الظل من جانب فريق ما فإنني عندما أخرج من أحد الفنادق سأجد نفسي محاطاً، ومن ثم سأجري بسرعة ولمدة خمس دقائق، حتى أفرق حلقتهم وبعدئذ أسير في خط متعرج إلى أحد المباني، وأبحث عن نقطة مراقبة وأراقب، كيف سيتجمعون ثانية؟! وفيما بعد يجب عليّ في كل حادثة أن أمتنع عن ممارسة العمل، ثم أركب إحدى الحافلات، وأتجه إلى مكان آخر في المدينة ويتكرر عمل ذلك، وبكل تأكيد وببطء وأعطيهم فرصة تتبعي.

وما يجب على الإنسان أن يفعله عندما تلقى عليه الظلال هو أن يترك المقتفي أثره، وعندما يمر هذا الأمر، فكيف يمكن للإنسان وبالتأكيد عندئذ أن يراجعه؟ وبالمثل وفقا

لذلك، ينظرون ثانية، وإنني متأكد تماماً، ستكون المراقبة، وبعدئذ أضع كل الأنشطة التي تم تخطيطها للمرحلة الثالثة، وكل واحد منا يحمل في جيبه قلنسوة صغيرة، وعندما نتأكد أنه قد ألقيت الظلال علينا، نرتديها بسرعة، وحينذاك يجب على الإنسان أن يتجه إلى أحد أكشاك الهاتف، فيتصل بالمسؤول ويخبره عن مكان وجوده، ويذكر أن الظلال ألقيت عليه – أو لم يحدث – ثم يتجه بعد ذلك إلى المنزل، حيث تناقش الحالة مع أحد الطلبة في المنزل، وهذا بالطبع يتعلق بتكتيك السلامة. والمراقبة الحادة ستكون مطلوبة أيضا.. وهذا يمكن أن يحدث، وأن يعرض المدرب فيلما وتتوقف الدورية عند بعض الأماكن، وعندئذ وفي الحال يطرح الأسئلة: من كانت تلك السيدة التي في آخر تسلسل؟ ماذا كانت تحمل خلال تواجدها في الموقع؟ كيف يمكن معرفة تحليل شخصيتها؟ كيف يمكن تفسير مسلكها؟ وهكذا يتم التساؤل حول كافة التفاصيل ودراسة التصوير الجوي، والصور الأسرية، واللوحات الفنية وطبع المواد الجوهرية، وينتقلون إلى إحدى الموائد ويضعون المواضيع العديدة المفككة. وفي اللحظة الثالثة يضع المدرس قطعة قماش على المواد المختارة، ويسأل عن الأشياء بالإشارة إلى الأمثلة الموجودة على الجانب الشمالي للمائدة، ويجب على العملاء الصغار أن تكون لهم قدرة على الاستيعاب، بل وأيضا يمكنهم وبسرعة البرق طبع أدق التفاصيل.

ومن الأمور الهامة على وجه الخصوص، إلقاء الظلال على الشخص المستهدف مع دمج الأحياء المجاورة. لا يجلس عملاء الموساد وحيدين في أحد المقاهي، وينظرون من خلال ثقب بإحدى الجرائد ويتظاهرون بقراءتها، بل يكوّنون الصداقات مع الفتيات الجميلات الجالسات حول المائدة المجاورة أو مع أحد كبار السن من الرجال الذي يكون في الحضيض، ويثيره للدردشة معه، ويضحك ويمزح، ولا يحدث لقاء بينهما بعد ذلك، وهنا تكون الصورة مناسبة تماماً.. وهذا بطبيعة الحال ما يجب تعلمه، هذا التدريب على لعبة الحياة في تل أبيب ويجب – من وجهة نظر مدربهم – أن يتخلوا عن المقترحات الصعبة.

كتب نيفين كتابه "فرق الهجوم" كيف تحدث الإثارة لدى عملاء الموساد الصغار من ذوي الهوية الظاهرة؟ فقال: ".. وتبدأ عملية الدراسة بمغامرات كاملة غير ضارة، ويمنح الطلبة جوازات سفر مزورة في مطار اللد، حيث يجب وصولهم ضمن ركاب إحدى الدرجات السياحية. وفي ذلك الوقت يصمدون للاختيار، لكي يدركوا، إذا ما كان بإمكانهم الالتفاف دون أي دلالات على الانفعالات العصبية لدى مرورهم خلال رقابة الجوازات "دون تخمين على الإطلاق". وبعد ذلك يتعلم العملاء فن التسلل. ومنذ البداية فإنها ليست خطرة، وبأي وسيلة سيتم انتقاء التنظيم العسكري أو مراكز نقل السلاح الجوي. ويطلب من الدارسين، بعد ذلك أن يلقوا نظرة عامة على نسبة الاتساع لتحديدها، وبناء على ذلك يجدون السبل، لسبرا أغوار المبنى المختص. ويقوم في نفس الوقت أحد القادة من "شين بيت" بالتدريس، بأن إحدى الجماعات الإرهابية في تلك الليلة المحددة تخطط للقيام بغارة، وهكذا يجد الطلبة أنفسهم أثناء "التدريب" محاصرين بالخطر أو إطلاق النيران.

ويجب على رجال الموساد أن يكون في مقدورهم إصابة الهدف، ومع هذا لا يسمح أن تكون البطولات باستخدام المسدس، فالألعاب الرومانية هي أوج الأولويات الأساسية، وهذا ما لاحظه الأمريكيون. وقد دونت إدارة الخبرة التابعة لوكالة المخابرات المركزية في صحيفة الموساد السرية: وبعض ضباط الموساد الشبان الذين ربما في نطاق مبنى الأكاديمية لضعفهم في اللغات الأجنبية، يرسلون إلى الجامعات في الخارج، حيث يكون العمل للوصول إلى أعلى الإنجازات في نفس الوقت كتمويه لنشاطهم المؤثر بجانب متابعة الدراسة، فضلا عن هذا فإنه من أحد أهداف عمل الاستخبارات والأمن، أن يكون كل ضابط فصيح اللسان في التحدث باللغة.. وهكذا توجد برامج دراسية مكثفة لمدة تسعة أشهر لدراسة اللغة العربية من جميع أقسام الاستخبارات الثلاثة، على مدار العام في الأماكن المتاحة لتل أبيب.

وكذلك فإن ضباط الموساد الذين يخطئون في العمليات العربية، يجتازون امتحانا للتدريب اللغوي في اللغة العربية تماماً مثل ضباط شين بيت، وبالنسبة لتدريباتهم الأخرى يعمل الضابط لمدة عامين في دوائر الإدارة الإسرائيلية، وهكذا تتطور مهارتهم اللغوية، قبل وصولهم إلى مواقعهم في الخارج.

وأول رحلات إلى الخارج يمكن أن تكون من خلال برامج تدريبية، ويستخدم العملاء شبانا وأوراقاً مزورة وأولها جواز السفر، ومأمورية سفر إلى القاهرة عن طريق باريس، وهناك يتم تبديل جوازات سفرهم ويجب إعطاؤهم خلسة بطاقات هوية جديدة، وفجأة وفي وقت قصير قبل إقلاع الطائرة من باريس إلى القاهرة، ينادي عليه في المطار باسمه الحقيقي، وهنا يتواجد رجلان يكونان في الانتظار داخل شباك الاستعلامات، وعندئذ يلقى بعميل الموساد الشاب عديم الخبرة داخل أحد المكاتب ويؤخذ بأسئلة شائكة، ومن ثم يجب أن يسيطر على دوره في كل موقف، ولا يسمح له بعمل أي خطأ بلغة منمقة، ولا يسمح له بأن يقع فريسة للخوف كطفل يحتاج للحماية من السفارة الإسرائيلية.

ما الذي سيحدث له الأيام التالية؟ من الممكن أن يكون كريها جداً وكئيباً ومن الممكن أن يوضع في الحبس، ويحقق معه دون توقف، بل وربما يعذب بدنياً بشدة، ومن المحتمل إذا ما أصبح مدعى عليه أن توضع المخدرات في حقيبته ويكون من معاوني تجار المخدرات!! ما الذي يجب عليه أن يفعله في مثل تلك الظروف؟ هل يجب عليه أن يستعطف لإلحاقه للعمل بالسفارة الإسرائيلية، حيث يتلقى المساعدة أم يجب عليه أن يروي لرجال الشرطة، أنه بالتأكيد شاب يهودي لطيف. وبالمناسبة يستكمل طلبه الأول؟ وبعد ذلك ربما يثق فيهم بل ويقول "استمعوا أيها السادة، أن معي جواز سفر مزوراً، وأنا لست من تبحثون عنه" هل ينبغي أن يفعل ذلك؟ وعندما يضمن العميل الشاب كل إحساساته بعدئذ لا ينبس ببنت شفة، ولا يقول شيئاً البتة. وبعد تلك الامتحانات القاسية، التي يجب أن يمر بها، ربما يتم استخدامه ولكن بعدا امتحان آخر أكثر قسوة.

وحينئذ يعرف أن رؤساءه الجدد سيكونون مسرورين عندما يكتشفون المدى الذي وصلت إليه مقاومته بالضبط، وكيف أنه في ظل كافة الظروف الصعبة من الضغط والتوتر الشديدين صمد، وبعد ذلك ربما يحتجز لمدة أسبوع، وبكل تأكيد في أحد المنازل غير العادية وبالضبط في أحد ضواحي باريس ثم يطلق سراحه فجأة.. وفجأة يضحك الرجال الذين ضايقوه وضربوه لمدة أسبوع أو أسبوعين، ويقولون له بمودة وتقدير، إنه الآن قد أصبح جاهزا للتوجه إلى القاهرة.

وتبدأ المأمورية الأصلية.. وهنا يجب على العميل الذي تم توظيفه أن يبقى في القاهرة مدة ثلاثة أسابيع وبأي وسيلة يجمع المعلومات، والتي تزكي وظيفته، كما يجب عليه أن يلبس جلداً جديداً ليصبح أسطورة.. ومن خلال نظام لا يكل يجب أن يتواجد داخل أجنحة مدينة عربية كبيرة، ولا يسمح له بالسقوط البغيض، وأولاً وقبل كل شيء ألا يقع في أي وقت داخل دائرة الخوف، وبكل حواسه يجب عليه أن يكيف ظروف الأخطار ويبعدها عن ذهنه، وسيحاول التعرف على الكثير من المصريين المهمين بقدر الإمكان، ليستخلص منهم الإجابة على كل الاستفسارات المطلوبة.

ولدى العودة إلى إسرائيل، يتخذ أولاً مكانا غير رسمي في باريس، ومن ثم يصل إلى تقييم الخطوة النظرية.. وهنا يحكم إذا ما كان العميل قد تم اختياره لإحدى المهام أم لا؟! وإذا كان الرد بالإيجاب عندئذ يسمح له بالالتحاق ببرنامج تعليمي خاص. وبالتأكيد ستكون الوظيفة في جيبه.. أما إذا كانت بالنفي، عندئذ يقسم بأنه لن يتحدث إطلاقاً طوال حياته بأنه تلقى تدريباً مع الموساد، وكذلك فإن العملاء الذين عملوا لسنوات طويلة يصفون أنفسهم بأنهم ينتمون إلى وزارة الدفاع وأن الآخرين يمارسون مهنة مناسبة. وعلى سبيل المثال فقد وجد "فيكتور أوستروفيسكي" نفسه في منتصف الثمانينات في هذا الموقف، وبعد فضيحة السلاح انتقم لنفسه وألف كتاباً عن الموساد.

وهكذا لا يمكن أن يتحدث إلا بنسبة تتراوح بين عشرة إلى خمسة عشر بالمائة فقط عن فترة التدريب.. وكل المسؤولين يجب أن يزوروا مدرسة التقدم تلك، عندما يعودون من

أحد الأعمال في الخارج، كما يجب أن يتم تسجيل ما يقرب من أربعين إلى خمسين دارساً في كل برنامج دراسي، ويجلس أعضاء التدريس سويا كممثلين لمدارس المخابرات الثلاث، ويخضعون مباشرة لمدير الموساد، ويأمر رئيس الوزراء أو أحد كبار المسؤولين الآخرين بفض الدراسة، بعد امتحان، يطلق على العملاء الشبان أسماء مستعارة، حتى يمكنهم السفر إلى إسرائيل دون اكتشاف أمرهم، ومن خلال تلك الأسماء الإسرائيلية العالمية فإن الموضوع يتعلق بترتيب الحيل الكثيرة لهذا الجهاز السري، ومن ثم يقول فيكتور أوستروفيسكي:

"تواصل الموساد داخل قبو الأكاديمية إقامة مصنع صغير ومعمل كيماوي، حيث يمكن عمل مختلف أنواع الأوراق. ويعمل الكيميائيون على توحيد تحليل الأوراق الأصلية ويكتشفون المزيج المضبوط، بخصوص نسخ الأوراق اللازمة لإنتاج النسخ المطلوبة. ويتم تخزين رزم الورق في مخازن ذات درجات حرارة محددة ويحتفظ برطوبة الجو، وتوضع على أرفف التخزين الأوراق الخاصة بجوازات سفر معظم بلدان العالم".

وعند وصول العديد من المهاجرين إلى إسرائيل يطلب منهم إذا كانوا يودون تسليم جوازات سفرهم، لإنقاذ اليهود، وأي شخص، قادم مباشرة من الأرجنتين ليستقر في إسرائيل، وغالبا لا يكون لديه ما يعترض عليه، لدرجة أنه يقدم جواز سفره الأرجنتيني طواعية وهكذا يضاف هذا الجواز إلى كتلة الجوازات الأخرى، ليعيد إلى الذاكرة تلك المكتبة التي تتواجد بها عدة آلاف من جوازات السفر، والمدن، وحتى الأحياء، والتي تحمل أسماء يهودية أو غير يهودية تصنف جميعها وفقا للقدم وتثبت التواريخ باستخدام الكمبيوتر ولدى الموساد أيضا مجموعة كبيرة من أختام جوازات السفر والإمضاءات، التي تثبت في سجل الأداء اليومي، والكثير من تلك العلامات يتم تجميعها بمساعدة الشرطة، والذي يفحص الجوازات من آن لآخر ويمكنه تصوير الأختام المختلفة، وقبل إعادتها إلى أصحابها.

ويحدث أن ينتهي سريان الختم ذاته بالجوازات المزورة وبصورة دقيقة، وعلى سبيل المثال عندما تم ختم جواز سفري في أثينا في أحد الأيام المحددة، يعلن عن الوقت الصحيح لإقلاع الطائرة وفقا للختم والإمضاء، وهكذا يتم الاتصال بأي شخص في أثينا، وأي موظف يمكن أن يقدم خدمة للحصول على معلومات صحيحة، وهذا ما يجعلهم يفتخرون

بأعمالهم تلك" .. جواز السفر يملأ عادة بأكثر من عشرين ختماً، ويقولون: "إنه لا تخطئ أي عملية تتم بوثيقة مزورة، وعلى سبيل المثال سأحصل على وثيقة مزورة، وإضافة معلومات عامة عن يوم أذكر فيه أنني كنت في أثينا ،وكيف كان الطقس، وماذا عن عناوين الصحف؟ وعن أي شيء كانت تدور الأحاديث على وجه العموم، وأين كنت أمضي الليل؟ وماذا كنت أفعل هناك وهكذا؟!

هناك عالم آخر في المقر الرئيسي للموساد وهو جهاز "عمليات التخريب في أراضي الأعداء"، خاصة ضد منظمة التحرير الفلسطينية. والموظفون التابعون لهذا الجهاز كانوا متخصصين في أمور الأبحاث والتحليل، فالجهاز يوميا يجمع معلومات عن تحركات منظمة التحرير والمجموعات الفدائية الأخرى. فتح المدرب الحائط المغلق وظهرت خريطة ضخمة للعالم، لا يظهر عليها القطب الشمالى وتحتها أجهزة كومبيوتر. لقد كان الحائط مقسما إلى مربعات صغيرة مضيئة. فإذا ضغطت على زر الكومبيوتر على عرفات مثلاً، فإن مكان تواجده على الخارطة يضيء. إذا سألت عن وضع عرفات في الأيام الثلاثة الماضية، فإنها تضيء في كل مكان كان متواجداً فيه خلال تلك الأيام.

ضوء المربع القوى كان دلالة عن الوقت الحالى، وكلما خف الضوء دل على أن التحرك جرى منذ فترة. الخريطة شملت أناساً كثيرين، فمثلا إذا أردت أن تعرف عن تحرك ونشاط عشرة أشخاص مهمين في منظمة التحرير الفلسطينية يمكنك أن تضغط على زر أسمائهم، فيظهر كل بموقعة وتحت ألوان مختلفة، ويمكنك أن تحصل على ملف كامل عن كل منهم. الخريطة كانت مهمة كمرجع، إن جهاز الكومبيوتر الرئيسي لدى الموساد يحوي أكثر من مليون ونصف اسم في ذاكرته. كل اسم في المنظمة مصنف لدى جهاز الكمبيوتر المستعمل من قبل الموساد، بينما جهاز كمبيوتر الجيش وسائر المخابرات تظهر على جانب شاشته بيانات تحتوي على ساعة مرقمة بالدقائق وأسماء المدن.. مثلا عندما تأتي معلومات من أي محطة بخصوص المنظمة يشير الكمبيوتر إلى ذلك على الشاشة. الشخص المسؤول يقرأ التقرير ويسحب نسخة منه "الشاشة" تشير إلى سحب نسخة وتسجل الوقت. ليس

هناك من نشاط أو تحرك قامت به المنظمة في العالم ولم تسجله الشاشة الضخمة التابعة للموساد.

أول ما يفعله الشخص المناوب عند الاستلام هو مراجعة شاملة للتحركات في الـ 24ساعة المنصرمة، هذا يوضح مكان تواجد أفراد المنظمة خلال الـ 24 ساعة المنصرمة. إذا كان هناك مخيم مثلا للمنظمة في شمال لبنان ولاحظ العميل وصول شاحنتين تنقل هذه المعلومات إلى الشخص المناوب، المرحلة الثانية هي معرفة ماذا تنقل الشاحنتان؟ الاتصال مع هؤلاء العملاء كان يحدث يوميا وأحيانا على مدار الساعة حسب مكانهم وحجم التهديد لإسرائيل.

لقد دلت التجارب في الواقع على أن أموراً بسيطة غالبا ما أفشلت مخططات مهمة. في إحدى المناسبات قبل الحرب مع لبنان، وردت معلومات من عميل يفيد بأن شحنة لحم بقر من نوعية جيدة قد أدخلت إلى مخيم للمنظمة في لبنان، وهذا الشيء لم يسبق أن حدث من قبل. علمت الموساد أن المنظمة كانت تخطط لهجوم ولكن لم تكن على علم بالوقت.. شحنة اللحم فضحت الأمور، إذ إنها كانت لعشاء حافل. بناء على هذه المعلومات هجمت وحدات كوماندوز بحرية إسرائيلية وقضت على أحد عشر فدائياً فلسطينياً بينما كانوا يتحضرون لركوب قواربهم المطاطية لتنفيذ العملية.

مسدسات "برتا 22" هي السلاح الرسمي للموساد، مع العلم أن قليلين هم الذين يحملونه خلال العمل، لأنه قد تنتج عنه مشاكل جدية.. في بريطانيا مثلا حمل السلاح غير مشروع، لذا لا داعي للمخاطرة بالأمر، إذا عملت بطريقة صحيحة فلا تحتاج عندئذ لسلاح إذا كان بالإمكان الهرب أو حل الأمر بطريقة ما فهذا أفضل. ومع كل مهمة كان رجال "الكاتسا" يستلمون مذكرة عن عملهم السابق، مثلا لا تنس أنك في تاريخ كذا كنت في فندق كذا وكان اسمك كذا.. كذا يسجل اسم كل الأشخاص الذين التقينا بهم ورأيناهم، لهذا السبب تكتب بالتقارير كل التفاصيل الصغيرة قبل الكبيرة.. تلاميذ إسرائيليون سبق أن اشتركوا في وحدات قتالية.. من الضروري تعليمهم كيف يتجنبون

الملاحقة، يعتبرون أصحاب أصغر رتب في الدائرة. بالرغم من ذلك لم يكن عملهم يعتبر شيئاً بالنسبة إلى كونهم تلاميذ.

معظم محطات أو نقاط التجسس في الخارج تحتفظ باثنين أو ثلاثة من المرسلين، مهمتهم الأخرى هي التفتيش عن منازل آمنة. على المرسل أن يسكن على التوالى في ست شقق، حتى لا يصبح موضع شك الجيران عندما يلاحظون صندوق بريده مملوءاً بالرسائل والطرود. هؤلاء "المرسلين" لا يدفعون إيجارات إنما يسكنون مجاناً، ومن واجبهم أن يحتفظوا بثلاجاتهم عامرة بالطعام والشراب، وأن يدفعوا جميع الفواتير وغيرها. إذا دعت الحاجة لاستعمال "البيت الآمن" "على "المرسل" أن ينتقل إلى مكان آخر أو أن يذهب إلى فندق. لا يمكن "للمرسل" أن يأتي بأصحاب أو صاحبات إلى شقق "المنازل الآمنة".

القاعدة الأولى أنه في الموساد يقولون: "منا إليهم"، وقواعد التسليم تحتم عليك أن تسرع قدر المستطاع بوضع المادة، يجب أن تبدو واضحة عند حملها لتسلم لاحقا، يجب أن توضح الجهة المرسلة للشخص بإيجاز، وعندما يحملها يجب أن تبدو واضحة مجدداً، يقبض عميل الموساد راتبا شهريا مقداره ثلاثة آلاف دولار، بالإضافة إلى ثلاثة آلاف أخرى مكافأة أخرى شهرية.

والكثير منهم يقبض أكثر من ذلك وهذا يكلف المؤسسة 15 مليون دولار شهريا رواتب للعملاء فقط.. إضافة إلى تكاليف التجنيد، "المنازل الآمنة"، العمليات. السيارات ومصاريف متنوعة أخرى، ويبلغ مجموع هذه التكاليف مئات الملايين من الدولارات شهريا.

الأشخاص الذين يعملون من مرسلين بين "المنازل الآمنة" والسفارة، أوبين مختلف "المنازل الآمنة"، التدريب الأساسي لهؤلاء الأشخاص يتم مع جهاز الأمن، ليتعرف إذا كان أحد يلاحقه أم لا؟! يحمل كل شيء في ظروف دبلوماسية أو حقيبة، وحاملوها يتمتعون بحماية دبلوماسية ويحملون المستندات، عملهم الأساسي هو الإتيان بجوازات سفر ومستندات أخرى إلى جماعة الـ "كاتسا" والعودة بالتقارير إلى السفارة.. ليس مسموحاً

دائما لرجال "الكاتسا" دخول السفارات الإسرائيلية، وفقاً للمهمة الموكلة إليهم و"المرسلون" في العادة رجال تقارب أعمارهم الـ 25 عاماً ويخدمون لمدة سنة أو سنتين. قد تلتقون شخصاً ما.. من الأقليات في بلاده، ويريد الانتقام، هذا يمكن تجنيده وعندما تعرضون عليه المال فيأخذه تعلمون عندها أنه تجند، الكل يعرف أنكم لا تعطون المال، هبة، ولا أحد يأخذ المال ما لم يعلم أن عليه أن يعطي شيئاً في المقابل.. ثم هناك الجنس مفيد، إنما لا يعتبر طريقة للدفع، لأن معظم الأفراد الذين يتم تجنيدهم رجال، هناك قول إن "النساء تعطي وتسامح، الرجال يأخذون وينسون؛ لهذا السبب لا يعتبر الجنس قاعدة في الدفع، "المال لا ينسى"، حتى لو أن الأمر نجح، فهذا لا يعني بالضرورة أنها الطريقة الصحيحة، فإذا كانت صحيحة فسوف تحصل كل مرة، أما إذا فشلت فإنها قد تصلح أحيانا.

وقصة العامل العربي الذي كان من المفترض أن يعقد اجتماعاً مع أحد ضباط الموساد في السيارة بينما ذهب العربي ليأتي بالمجند، وعندما أتي به ليرى ضابط الموساد في السيارة: "هذا هو العميل الإسرائيلي الذي كنت أخبرك عنه يقبل أن يعمل لك براتب ألفي دولار شهرياً، سوف يفعل أي شيء تريده".. يستعان بالعرب لأن "الكاتسا" الذين يتكلمون العربية معدودون وأنه من السهل على العربي أن يبدأ اتصالا بعربي آخر. لقد وضح للكاتسا أهمية دور هؤلاء فيما بعد.

وبهذه الطريقة ينجح الموساد في تجنيد العميل، إنما طبعاً لم تتبع الإجراءات بشكل جيد. إن الأمور يجب أن تبدو طبيعية.. الحيلة للوصول إلى اتصال بأحدهم يجب أن تكون طبيعية حتى إذا ما راجع الشخص المسألة قليلاً لا يجد ما يشك بأمره. بهذه الطريقة إذا لم تنجح لا تكون قد أحرقته لا يجب أن يفكر أبداً أنه أصبح هدفاً إنما قبل تقدمك منه.. عليك أن تكون قد تعرفت على ملفه جيداً، واكتشفت كل شيء عنه، ماذا يحب ماذا يكره؟ وعن مشاريعه الليلية، بقدر المستطاع لتتجنب عنصر الحظ وبالتالي المخاطرة.

قد يقول رجل "الكاتسا": إنه يملك شركة تصنع القناني (الزجاجات الفارغة) أو أنه موظف إداري مع الفرع الأجنبي من ibm هذه شركة جيدة، إنها كبيرة لدرجة أنه يمكن إخفاء موظف إداري لسنوات، حتى إننا نملك بعض محلات ibm للمساعدة الطارئة.

الموساد تملك شركات عديدة جاهزة في كل أنحاء العالم.. في المقر الرئيسي خمس غرف ملأى بأسماء شركات وهمية مسجلة بالترتيب الأبجدي، وموضوعة في الدواليب السحابة، هناك ثمانية صفوف من الأرفف وستون علبة، على كل رف في كل من الغرف الخمس، تشمل المعلومات: تاريخ كل شركة، جداول مالية، تاريخ الشعارات، مع من تم التسجيل، وكل شيء يحتاج رجل "الكاتسا" معرفته عن الشركة.

ويقول أحد ضباط الموساد عن تدريبه: "أعطيت ثلاثين دقيقة، عند ذهابي فكرت بمراقبة المقهى، كان لدي الوقت الكافي فذهبت، وتأكدت من عدم ملاحقتي، ثم عدت وصعدت إلى سطح بناية تشرف على المطعم، بعد عشر دقائق دخل الرجل الذي كنا بانتظاره وبعده بدقيقتين أحاطت سيارات الشرطه بالمكان، وأخذوا الرجلين هناك وأوسعوهما ضربا. اتصلت لأمر طارئ ووجدت أن الفصل المسرحي كان مجرد تمرين منسق بين معهد الموساد ودائرة شرطة تل أبيب، ونحن الاثنان كنا الطعْم في العملية.

الفصل التاسع

نساء في الدهاليز

- ضباط المخابرات يحرسون الغانيات الإسرائيليات في غرف نوم لدبلوماسيين.
- جانيت وسارة في مهمة وطنية في ليال حمراء حتى الصباح مع الدبلوماسيين الأفارقة.

وظفت المخابرات الإسرائيلية النساء في هيكل جهازها، ووظفت بنات الهوى في علب الليل، لاستدراج الزبائن البلهاء من دبلوماسيين وعلية القوم، ولكن أيضا كضابط من الكاتسا وأعضاء في فرق الاغتيالات، وهذا بسبب طبيعة إسرائيل العسكرية وقلة سكانها مقارنة بالعرب المحيطين بها. لجأت إلى تجنيد النساء مثل مدة تجنيد الرجل في الجيش الإسرائيلي، وخدمت المجندات في معظم أسلحة الجيش البرية والبحرية والطيران.. كما ألحقت بجهاز المخابرات ومنظمة "الكاتسا " العاملة في الخارج، لتعويض النقص في العنصر البشري.

والدور الذي تلعبه النساء في خدمة التخابر التجسسي ليس بجديد. أحداث التاريخ – "دليلة" التي استطاعت أن تستخدم سحرها ودلالها الأنثوي، لتأسر شمشون الجبار ذلك الشاب الذي كان نذيرا لخدمة الله. وعندما أتى السحر والدلال الأنثوي فعله في الحديث استدرجت "دليلة" الجبار لمعرفة سر قوته، فأفضى إليها بسر النذير، وهو سبب قوته. باعت دليلة هذا السر مقابل 11 ألف قطعة فضة لقومها الذين قاموا بمساعدتها بقص شعره، وبذلك فأصبح خائر القوى أسيراً وعبداً لهم بعد أن كانوا يخشون بأسه.. والمرأة الجاسوسة لها إمكانيات وقدرات يمكن توظيفها بشكل مختلف، ولكن لتحقيق الأهداف بسرعة وبأمان، فهي بأنوثتها ودلالها تبدو ضعيفة واهنة مستسلمة، وهو ما يحقق في نفس الرجل غريزة الصياد، فيبحث عن الفريسة التي أصبحت أو كادت تبدو طيعة، ليفضي إليها.. وهي تستمع بلا مبالاة أو إعجاب زائف أو تزلفٍ يزيد من استعراض الصياد بما لديه من معلومات وأسرار وخفايا عساها تشفع لدى سيدة القلب، فتمنحه ما يريد، وتلعب النساء مع الخمر وجو الحفلات والمجون دور فك عقدة الألسن والتحفظات لدى أصحاب المكانة والسمو والذين لا يريدون إلا إثبات أي أهمية يحظون، وأي مكانة عليا وقدرات ومعلومات يمتلكون، وهم يفعلون ذلك بدون ريبة، وإنما في ثقه تامة . ومن ناحية أخرى فالجاسوس يعمل في الخفاء.. أما هي – وهذا في أكثر الحالات – تظهر ضمن هالات الأضواء على حلبات المسارح والملاهي تعرض فتنتها وتظهر جاذبيتها وتلقي شباكها، ليأتيها ما ترغبه

طائعا ومختاراً.. وهكذا تصل المرأة إلى أعمق أسرار الرجل، تلك الأسرار التي يلاقي لجمعها صعوبات شتى في سبيل الحصول على النذر اليسير منها، فتتسرب الأسرار خلال همسات الرجل وأسئلة المرأة إلى المرجع الذي أوفدها، لتقصي ناحية من النواحي التي تهمه، ومهما كان الرجل يكره النساء، ويعتبر نفسه عدواً لهن فلا بد أن يقع يوماً ما في حبائلهن.

ويعتبر رؤساء المنظمات التجسسية كل تضحية – حتى ولو كانت "الشرف"– جائزة في سبيل التجسس.. فيطلب من الجاسوسات أن يستسلمن لبعض الشخصيات – مهما كانت قيمتها – توصلاً لجمع معلومات قد تفيد المصلحة العاملة لديها.. ومن هنا نلمس أن تلك المنظمات العالمية وحتى الإسرائيلية منها، تستخدم هذا النوع من بائعات الجسد، أو على وجه التحديد "الأرتيستات" العاملات في الملاهي وعلب الليل اللواتي يقمن بعملين أوّلهما باسم الفن وثانيهما التجسس.. وفي كلتا الحالتين هدفهما جمع المال من أى طريق وسبيل.. واليهود برعوا في استخدام النساء في أعمال التجسس أو للتأثير في أعصاب الآخرين، توصلاً لمآرب لهم.. فهم يبعثون بنسائهم وبناتهم إلى بعض الرجال الذين يعارضون مشاريعهم لتنهار تلك المعارضة أمام إغراء الجنس، فيحظى اليهود بما يأملون بواسطة هذه الطريقة التي أتقنوها. ونجد في تاريخ اليهود ما كان من أمر محظية الملك بطليموس السابع اليهودية.. التي استطاعت بفتنتها أن تبدّل حكم الملك بحق بني قومها الذين سيقوا ليلقوا حتفهم تحت أقدام الفيلة. وفي أوائل التاريخ الميلادي، نجد قصة "سالومي" ابنة زوجة الملك هيروديس. كانت أم "سالومي" زوجة لشقيق الملك هيروديس، وقام الملك بانتزاعها عنوة من زوجها، وتزوجها هو.. وعندما بدأ القديس يوحنا المعمدان دعوته، نذر نفسه لمحاربة الرذيلة، وتناول في خطبه الوعظية ما حدث من الملك والمرأة التي شاركته فعلته.

لقد عز عليها أن يمسح القديس بسمعتها الأرض، وقررت أن تنال رأسه مهما تكلفت من ثمن، تحينت الفرصة للإيقاع به وقطع رأسه، حتى كان يوم احتفال.. رقصت فيه "سالومي" وأبدعت في الرقص، وإذ كان الملك قد سكر وذهب عقله من كثرة ما شرب من الخمر، أعجبه رقصها فسألها أن تطلب أي شيء حتى إلى نصف مملكته، سألت

"سالومي" أمها: "ماذا أطلب؟"، فقالت لها: "رأس يوحنا المعمدان على طبق"، وما إن طلبت "سالومي" حتى أصدر الملك أوامره لحراسه بأن يأتوه برأس يوحنا المعمدان – وكان في حينها سجيناً – ففعلوا.. وذهبت الحكاية مثلاً في التاريخ، واليوم.. وبعد قيام "إسرائيل".. فليس في الحديث عن الدور الذي تلعبه النساء الإسرائيليات، سواء في ممارسة أقدم مهنة مارستها امرأة اليهود في العالم، أو في الجاسوسية أدنى مبالغة، فإسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم التي تفرض التجنيد الإجباري على النساء وقت السلم منذ أن قامت عام 1948، حيث تستخدمهن في المجالات العسكرية والسرية، لتحقيق أهداف إسرائيل حتى بوسيلة "الجنس" ولا يقل عدد الفتيات في أى وحدة عسكرية عن 15 مجندة.

وعن الدور الذي تلعبه الفتاة الإسرائيلية.. كتب الجنرال السويدي "كارل فون هورن" قائد مراقبي الهدنة في فلسطين في مذكراته عن الفترة التي قضاها في فلسطين يقول: "لقد هوت المبادئ إلى درك منخفض جداً، وهوي معها موظفو الأمم المتحدة في فلسطين الذين تعرضوا لوسائل الإغراء الواضحة، والمسلية، فقد فوجئت يوماً بفتاة جميلة من فرقة الفدائيات الإسرائيليات، وهي تدخل خيمتي، ودخلت معي في حديث طويل، حاولت أن تأخذ كل ما يلزم السلطات الإسرائيلية العسكرية والمدنية من معلومات وبرقيات متبادلة بيني وبين الأمين العام للأمم المتحدة، وذلك بالتأثير على بواسطة اتباع حديث الوسادة، ولكني لم أضعف أمامها".

وهناك العديد من الوقائع والقصص الحقيقية تصوّر بوضوح أساليب المخابرات في استخدام "الجنس" تنفيذاً لمآربها مهما كانت تلك الأساليب من البشاعة والقذارة، مادام هناك شيء خطير في هذه الطرق يقول بالحرف الواحد "إنه يلزم في بعض الأحيان أن يكون الجنس وسيلة فعالة للإقناع.. وأنه لخدمة المبدأ لابد من استخدام كل الوسائل الممكنة.."، فقصة فندق بيرلا.. تعتبر وصمة عار في جبين المخابرات الإسرائيلية، وفي كيفية اتباع الأساليب لتقصي المعلومات.. فرئاسة جهاز المخابرات الإسرائيلية تركزّ جهودها في

كسب تأييد الدول عن طريق إرضاء سفرائها في تل أبيب، فهي توفر لهم أجمل بنات الهوى، وأفخر بيوت السهر، وأحفل الليالى الحمراء بكل ألوان العبث والمجون.

وقد نشرت المجلة الإسرائيلية "هاعولام هازية": "بدأت الفضيحة تفوح في قاعة جلسة محكمة السلام بتل أبيب عندما وقف "يوسف كلين" وعمره 41 عاماً متهماً بأنه يدير منزل "دوف شحرباهو" المشهور للدعارة. وقد غضب كلين "لشرفه" وثار على توجيه التهمة إليه.. وقرّر أن يدافع عن نفسه وأن يشرح دوره كرجل وطني يؤدّي عملاً لخير الدولة، ولتدعيم مركزها الدولي.. فقال: "إنه ذات يوم جاء إليه بعض رجال وزارة الخارجية الإسرائيلية وكان معهم صاحب البيت الذي اتهم بأنه يديره للدعارة، وكان البيت حتى هذه اللحظة يدار كفندق من أفخر فنادق إسرائيل. وطلبوا إليه أن يستقبل امرأتين هما – جانيت وسارة – وأن يضع تحت أمرهما كل الحجرات التي تطلبانها وأن يعمل تحت أمرتهما وينفذ طلباتهما بلا مناقشة. ونفذ كلين تعليمات رجال مخابرات وزارة الخارجية، لأنه شعر بأن ثمة عمل وطني تقوم به جانيت وزميلتها.. ويتم دفاعه بالقول: "وبدأت سيارات الدبلوماسيين تقف أمام البيت، وينزل منها ركابها ليقضوا عندنا سهرات حافلة بالطعام والخمر والمتعة وأجمل بنات الهوى.. وكانت التعليمات تصل إلينا باستيراد مشروبات روحية من الخارج إرضاء للأذواق المختلفة، للدبلوماسيين الأجانب الذين يزوروننا كل ليلة.

وذات يوم حضر موظف كبير في مخابرات وزارة الخارجية.. وأخبرني بأنه سيأتي ومعه شخصية كبيرة لقضاء ساعات عندنا.. وأنه محظور علينا تأجير أى غرفة لأي إنسان على الإطلاق في تلك الليلة، وفعلاً حضرت الشخصية الهامة في موعدها.. وهي شخصية إفريقية ممن تبادلوا معنا التمثيل السياسي. وبعد ذلك أخذت تفد على الفندق جماعات من رجال البعثات الإفريقية.. أمّا صاحب الفندق عندما سُئل عن رأيه في هذه الشهادة رفض أن يعلّق بشيء، لأن ستار السرية الذي أزيح للحظة قصيرة عاد فأسدل بسرعة على هذه القضية المثيرة. ولم يكن هذا البيت الذي اتّخذ وكراً لملذات الدبلوماسيين بيتاً عادياً يقضي فيه الزوار مجرد وقت المتعة.. فقد كان الهدف الذي ترمي إليه المخابرات هو اكتساب قلوب

الضيوف بجعل أيامهم في إسرائيل أيام حب سعيدة، لا مجرد قضاء شهوة عابرة في منزل سيئ السمعة، لهذا وقع الاختيار على فندق "بيرلا" حتى لا تنشر أسماء الضيوف ذوي المكانة والغواني اللاتي يدخلن إليه.. ولكن سجل الفندق يضم توقيعات جميع الدبلوماسيين والوزراء وأعضاء الوفود السياسية والاقتصادية والعسكرية الذين قضوا ليالى حمراء فيه.. ومن بين الموقعين أعضاء لجنة دولية.. وضيف آخر هو رئيس وزراء دولة أجنبية. وفندق "بيرلا" مؤسسة تعمل لحساب المخابرات.

ومن المؤكد أنه ليست كل غانية في إسرائيل صالحة للعمل في هذه المؤسسة.. فإن هناك شروطاً يجب أن تتوفر في الغانية.. وفي مقدمتها أن تحسن عدة لغات أجنبية، وأن تحسن السلوك في المجتمعات السياسية، وأن تعرف كيف تدير الحديث في شتى النواحي. والمخابرات تتولى تلقين الغواني الأحاديث التي يجب أن تدور مع الدبلوماسيين. وأكثر من هذا أنه إذا أقيمت حفلة لإحدى الشخصيات الدبلوماسية فإن أحد رجال المخابرات يتولى الحراسة في خارج حجرات الضيافة.. فإذا ما جاءت الشرطة للتفتيش تصدّى لها رجال المخابرات، وأفادوا بأن الفندق تحت تصرف وزارة الخارجية فلا يسع رجل الشرطة إلا أن ينسحب.. مع العلم بأن المخابرات جهزت غرف الفندق بآلات التسجيل والتصوير اللازمة لمهمتهم.

وماذا عن ميرا ؟

إنها فتاة يهودية ألمانية، اعتقلت في عهد النازي، ولو أن جيوش الحلفاء تأخرت لعدة أيام ولم تدخل مدينة "بلسن" الألمانية لكانت المعتقلة "ميرا" قد لقيت حتفها على أيدي الجيش النازي.. تشربت "ميرا" في أعماق نفسها بعقدة كان لها الأثر القوى في أعصابها وتصرفاتها، حتى أضحت بحاجة إلى طبيب أخصائي في الأمراض النفسية، ليعيد أعصابها إلى حالتها الطبيعية، بسبب ما حدث لها من تعذيب. وعندما خرجت من المعتقل وجدت أمامها العالم – رغم سعته – أضيق من ثقب الإبرة، فالأبواب جميعها مغلقة

في وجهها، ما عدا باب واحد هو باب الهجرة إلى فلسطين.. حطّت بها عصا الهجرة في فلسطين ومازالت تتأجج في نفسها روح النقمة على كل مخلوق، ولا تترنم في جوانحها سوى الرغبة في أن تنتقم من المجتمع.

وتسأل "ميرا" نفسها: ليس لأي مسيحي من أولئك الذين عذبوا اليهود ومثلوا بهم في معسكرات النازي، وأحالوا عظامهم إلى قطع صابون أية ميزة. ولم تفرق "ميرا" بين جنس وآخر.. فالبريطانيون في فلسطين وحوش شرسة، ويجب أن ينظر إليهم وكأنهم نازيون.. أما العرب أصحاب الأرض فيجب سحقهم، لأنهم يقفون في طريق قيام "دولة إسرائيل".

كانت هذه الفتاة جسورة إلى درجة التهور، ومقدامة إلى حد الجنون تتمنى الموت، وهي تكافح في ساحة القتال.. وتلوح في أن يعهد إليها بمهام تتطلب منتهى الجسارة والتضحية. ومع ذلك فلم توافق أى منظمة إسرائيلية إرهابية أن تضم هذه الفتاة إلى صفوفها، وإنما وضعت تحت إشراف "هيئة المساعدة الاجتماعية" لكنها تمكنت من الفرار. فاستغلت الوكالة اليهودية – قسم التجسس والإرهاب – اندفاع الفتاة الجنوني وتعطشها لسفك الدماء، إرضاء لعقدة نفسية في أعماقها.. وصهرت رغباتها هذه، وحولتها إلى تنفيذ عملية قتل الكونت "فولك برنادوت" الوسيط المنتدب من هيئة الأمم المتحدة.. قبل سفره من السويد إلى فلسطين كوسيط منتدب من هيئة الأمم المتحدة، توصلاً إلى وضع تسوية سلمية بين العرب واليهود، جاءه أحد أفراد الجالية اليهودية في "ستوكهولم" وأنذره بأن هناك فتاة عصبية في فلسطين يخشى أن تعمل على اغتياله.. لم يعبأ برنادوت بهذا التهديد والتحذير، ولم يعره أي اهتمام، فهو يذهب إلى فلسطين ليحمل إليها السلام، السلام الذي يؤمن به شخصياً، والمتأصلة جذوره في أعماق نفسه، وحينما وصل إلى القدس استقبلته لافتة كتب عليها: "لك ستوكهولم يا برنادوت ولنا القدس" و"عد إلى بلدك فإن جهودك تذهب عبثاً".

لم يعد "برنادوت" إلى بلاده.. ولم تتوقف "ميرا" عن حملتها ضده، لأنها كانت تعتبره -كما تعتبره الوكالة اليهودية - خائناً يستحق الإعدام، مادام قد وافق - أثناء الحرب العالمية الثانية - على مقابلة "هنريج هملر" رئيس الجستابو، قاصداً إقرار السلام.. أنها لم تستطع قتل هملر، فلماذا لا تقتل من فاوضه؟!.. وكان ذلك المفاوض هو "برنادوت".. من المعلوم أنه بعد مرور أسبوعين على نشوب القتال في فلسطين بين الجيوش العربية التي دخلت في 15 مايو (آيار) وبين الغزاة الصهيونيين، اتخذ مجلس الأمن قراراً بوقف القتال لمدة أربعة أسابيع.

وبتعيين الكونت السويدي" فولك برنادوت" وسيطاً منتدباً من قبل الأمم المتحدة مهمته التوفيق بين العرب واليهود.. كما قرر مجلس الأمن إنشاء هيئة دولية لمراقبة الهدنة، تتألف من ضباط تابعين لدول عديدة، وتخضع لإشراف الوسيط الدولي.. وأثناء الهدنة عكف برنادوت على وضع مشروع جديد لحل المشكلة الفلسطينية، أدخل فيه بعض التعديلات على مشروع التقسيم الذي وضعته الأمم المتحدة، والذي كان سبباً مباشراً لنشوب القتال في فلسطين.

وأعلن الوسيط الدولي مشروعه في 28 يونيو، فرفضه العرب، لأنه يقوم على نفس الأسس ذاتها التي كان مشروع التقسيم يقوم عليها، ورفضه اليهود أيضا، لأنه نص على حرمانهم من بعض المزايا التي كان قد حققها لهم قرار التقسيم الأصلي، الذي كانوا قد وافقوا عليه.. ولكن اليهود لم يكتفوا برفض المشروع الذي وضعه الوسط الدولي، وإنما شنوا حملة ضارية على الكونت برنادوت، فاتهموه بأنه يسعى إلى محاباة العرب على حسابهم وبأنه لم يلتزم موقف الحياد الذي تحتمه عليه مهمته وبذلك لم يعد صالحاً للقيام بمهام الوسيط الدولي.. في الوقت ذاته قررت الوكالة اليهودية التخلص من الكونت برنادوت، بعد أن تصورت أنه أصبح يشكل خطراً على أطماع اليهود التوسعية، وعلى مشروعاتهم العدوانية التي كانت ترمي في عام 1948 إلى الاستيلاء على أكبر قدر من أرض فلسطين. لذلك فالهجوم العاتي الذي شنته الدوائر الصهيونية في فلسطين، وفي الخارج على الكونت السويدي، إنما كان يستهدف التمهيد لاغتياله، إذا استمر في وضع المقترحات التي

لا تتفق مع أطماع إسرائيل.. وتجدد القتال في فلسطين، بعد انتهاء فترة الهدنة.. لكن مجلس الأمن لم يلبث أن فرض هدنة ثانية، شرع الوسيط الدولي خلالها في وضع مشروع ثانٍ لحل مشكلة فلسطين، ولكن قبل أن يذاع مشروع برنادوت الثاني، وفي اليوم التالى مباشرة لقيام الوسيط الدولي برفع مشروعه الجديد إلى الأمم المتحدة لجأت الوكالة اليهودية إلى إقرار ارتكاب أبشع جريمة قذرة بحق حياة وسيط السلام برنادوت.

وعندما ترامى إليها بأن مشروع الوسيط الدولي الثاني يهدف إلى تدويل القدس والتقليل من مساحة الأراضي الإسرائيلية المحددة في قرار التقسيم الصادر عام 1947، في 31 من أغسطس عند الظهيرة كانت طائرته البيضاء اللون تطير من دمشق إلى القدس، حيث توجه إلى مشارف الرملة خارج القدس، ليتباحث مع البريجادير "نورمان لاش" القائد البريطاني في الفيلق العربي الأردني الحارس للجبهة حول القدس.. وبعد ذلك توجه الكونت برنادوت إلى القدس، وبينما هو في سيارته عند جبل سكوبس أطلقت عليه طلقة يبدو أنها مصوبة من اتجاه الجامعة العبرية ومستشفى هداسا الإسرائيلي، فأصيبت عجلة السيارة الخلفية، لكنه استمر في سيره. وبالرغم من تعرضه منذ أسابيع عديدةللتهديد والاغتيال فإنه لم يحط نفسه بحرس مسلح أو يركب سيارة مصفحة، فقد كان يضع إيمانه بالله في الموضع الأول.

وفيما بعد.. في يوم 17 سبتمبر 1948 عندما كان متوجها إلى الرملة توقف قليلاً، ليفتش المناطق المحتلة باليهود عند ضواحي "كاتامون".. كان الكونت "برنادوت" وصحبه يسيرون بالترتيب التالى: سيارتان من سيارات الأمم المتحدة تسيران في المقدمة في إحداهما كان يجلس "مدثر شمسي" الباكستاني، أحد معاوني "برنادوت".. وفي السيارة الثالثة والأخيرة جلس ضابط البوليس الأمريكي السابق "فرانك بيجلي"، يقود السيارة وبجانبه الكومندور الأمريكي "كوكس" على المقعد الأمامي. وجلس في المقعد الخلفي مراقب فرنسي هو الكولونيل "أندريه سيروب" وإلى يمينه جلس" فولك برنادوت" وإلى يساره رئيس أركانه الجنرال السويدي لندستروم. وكانت السيارتان الأماميتان ترفعان علم الصليب

الأحمر.. وأما السيارة الثالثة، كانت ترفع علم الأمم المتحدة الأزرق اللون ذا الخطوط البيضاء وفي مركزها الكرة الأرضية. وكانت السيارات الثلاث قد مرت في التواء من خلال عائق يسد الطريق رفع لأعلى ثلاث مرات قبل أن تتمكن السيارات من المرور ،وفجأة في هذا المكان عند سطح "تل الخطيئة" أوقفت السيارات الثلاث ستة رجال وامرأة جميعهم يحملون رشاشات، يجلسون فوق عربة جيب من عربات الجيش الإسرائيلي كانت تقف بجوار برميل يسد الطريق.

وقد ظن ركب رجال الأمم المتحدة أن هذه نقطة مراقبة الطريق العادية وتوقفوا بسياراتهم، بينما ترجل من السيارة الإسرائيلية أربعة بألبسة عسكرية يقودهم الإرهابي "باروخ نادل" وبرفقتهم "ميرا" وجميعهم يحملون مدافع، واقترب هؤلاء "الجنود الإسرائيليون" بكل هدوء من سيارة الكونت "برنادوت"، للتيقن من وجوده فيها ولسهولة الرماية، فلما تبينوه جيداً عن كثب أطلقوا عليه الرصاص فصرعوه، وصرعوا معه معاونه الكولونيل الفرنسي سيروب ورجعوا على مهل إلى سيارتهم، وغادروا المكان وكأن شيئاً لم يحدث.

عندئذ سأل لندستروم قائلاً: "هل أصبت يا فولك؟" وقيل: "إن الكونت قد أومأ برأسه ثم شاهد لندستروم أن الطلقات قد مزقت صفوف النياشين التي تحلي صدر برنادوت، ولكنه كان لا يزال حياً، فقاد السيارة إلى مستشفى هاداسا اليهودي. قال لهم الطبيب: "هناك أمل في نجاته وبعد أن فحصه تركه ينزف إلى أن مات وفاضت روحه في الساعة الخامسة. وقد تمكن القتلة خلال هذا الوقت الطويل من الهرب خارج إسرائيل.. وعرف أنهم من عصابة شتيرن الإرهابية".

ويروي السفير عبد الله النجار في كتابه "أسرار المؤامرة الصهيونية": كان الكونت "برنادوت" في يوم سابق من اغتياله في دمشق ينوى السفر بالطائرة إلى فلسطين، فتلقى إنذاراً من الاستخبارات السورية ينصحه بالبقاء في دمشق، لأن الاستخبارات اطلعت على تدبير إسرائيل لقتله، فلم يأبه لذلك قائلاً: "أي شر فعلت لأستحق القتل؟.. لا أريد أن

أموت، أنا في خدمة الإنسانية، لا أظهر عداءً لأحد.. ولي عائلة في السويد تنتظرني.. سأعود قريباً لأعيش سعيداً معها..".

ويكشف باروخ نادل الرئيس السابق لمجموعة "شتيرن" الإرهابية الإسرائيلية تفاصيل الحادث في حديث لصحيفة "أووبيو" الإيطالية، وذلك لأول مرة منذ 23 سنة، في مطلع شهر يوليو 1971 لقد اعترف بأنه اشترك في التدبير للحادث، وأن مجموعته استغلت أحد الضباط الفرنسيين في قوات الأمم المتحدة وهو الكولونيل سيروب في الحادث، حيث كان مرافقاً لبرنادوت.

وقال "نادل" إن "فريدمان بيليين "و"أليعازر نيسكي" والدكتور شاووب أصدروا أمراً في أغسطس 1948 باغتيال برنادوت، بحجة أنه كان يضطهد إسرائيل باستمرار. وقال "ناديل": "إننا اكتشفنا أن الضابط الفرنسي سيروب كان يعمل لحساب المخابرات البريطانية والفرنسية في وقت واحد، فبدأنا في ابتزازه، وهو الذي أعطانا موعد وصول برنادوت إلى إسرائيل يوم 17 سبتمبر 1948 وخطة سيره، مما أتاح الفرصة لنجاح عملية اغتياله". وأضاف "ناديل" أن برنادوت كان قد أمر بتغيير موكب سيره في آخر لحظة وأمر بأن يسير الموكب في طريق "كاتامون" بدلا من طريق "أبو طور". وقد سارع الضابط الفرنسي بإبلاغنا بهذا التعديل، وتم نصب الكمين في المكان المسمى "بيرمان هاوس"، وما إن وصل الموكب حتى تم سد الطريق أمام سيارة برنادوت، واقترب أحد رجال الجماعة وأطلق مدفعه الرشاش على سيارة الدبلوماسي السويدي، وقد أصابت الطلقات الأولى الكولونيل "سيروب" بطريق الخطأ وأصيب برنادوت نفسه بثماني رصاصات، وكانت إصابته خطيرة، حيث توفي فور وصوله إلى المستشفى.

أجل.. "شولا كوهين".. هي الحسناء اليهودية التي باعت روحها للشيطان ومنحت مفاتن جسدها المغري لكل راغب في سبيل تنفيذ ما كانت توحي إليها به المخابرات الإسرائيلية.. "شولا".. الفاتنة اليهودية.. العارفة بأساليب "دليلة" العاملة لمصلحة إسرائيل

على أرض لبنان، كانت قد انطلقت تعمل لصالح من صنع منها جاسوسة محترفة، وجعل من جمالها السلاح الذي تقتحم به حصون أقوى النفوس.. ذلك الجمال المقرون بالأعصاب المتينة التي تسيطر على النفس وتجعلها طوع أمرها.

إن شولا.. ككل يهودية أدركت أن جمال المرأة سلاح لايقاوم وبواسطته بمقدورها أن تتسرب إلى قلب الرجل. اتخذت من كل ذلك وسيلة سيطرت بها على قلوب بعض المسؤولين، الذين أفسحوا أمامها مجال العمل في لبنان كغانية تدخل المسرة إلى قلوب من يحيط بها.. فجمعت حولها عدداً من الفتيات الجميلات، واستأجرت خمسة منازل في مختلف أحياء بيروت وجهزتها بأفخر الأثاث.. وأطلقت فتياتها في الفنادق الكبرى والمجتمعات التي يؤمها رجال السياسة وكبار الموظفين ومن الصحفيين الأجانب، وهكذا برز اسم شولا كوهين في المجتمعات.. وبالأحرى هكذا بدأت تتسلل إلى حياة كبار المسؤولين.. فعملت.. وظلت تعطي بكل حرية.. وترسل التقارير إلى تل أبيب.. بينما توطد الصداقات أكثر فأكثر مع المسؤولين، وتعقد الاجتماعات في وادي أبو جميل، لتشجيع اليهود في لبنان على الهجرة للوطن الموعود. ونجحت في مهماتها هذه، فلمع اسمها في الأوساط اليهودية، وأطلق عليها لقب "الزعيمة".. وكيف لا تنجح ووراءها خمس دور تقام فيها كل ليلة الحفلات الحمراء.. وتعرض الأجساد.. ويراق الويسكي وتذبل العيون.. وتتراخى الأعصاب وتطفئ الأضواء الناعسة. كل هذا الذي كانت شولا كوهين تقدمه لأولئك "الكبار " الذين كانوا يتهافتون على قضاء ليلة في مربع من مرابع شولا.. كان من أموال المخابرات الإسرائيلية.

وعندما أدركت أنها بحاجة إلى من يساعدها، ويشد أزرها ويتسلل إلى إسرائيل يحمل المعلومات والتقارير.. وجدت ضالتها المنشودة في شخص ابن الجنوب محمد سعيد العبد الله.. القروي البريء النفس الساذج الطوية، الرجل المحروم من الحب. فألقت شباكها حوله وأوهمته بأنها أحبته.. أحبت رجولته، فآمن بما قالته تلك اللعوب عندما عاش إلى جانبها

ليلته الأولى في جنة من اللذات، وأحبها بكل جوارحه وسلمها كيانه لتتصرف به كما تشاء.. وأضحى ألعوبة بيدها فكان يتسلل إلى إسرائيل حاملاً تقاريرها.

وهكذا تحول القروي الساذج إلى عميل، تتصرف في مقدراته جاسوسة إسرائيلية.. لم يعد بإمكانه أن يفلت من شباكها مدفوعاً بنهم إلى جحيم اللذة التي كانت تغدقها عليه مقرونه بالأموال.. فأسلم نفسه للشيطان يلهو به كما يشاء، فلم يكتف بالسفر إلى إسرائيل لينقل "البريد"، وإنما تطورت به الحال إلى تولي أمر تهريب اليهود من لبنان إلى إسرائيل. ثم بحثت عن عميل جديد له نفوذ قوي في الدوائر الرسمية .. فوجدت ضالتها في شخص موظف مالي هو محمود عوض، الذي كان يشغل آنذاك أكثر من ست وظائف في الدوائر الحكومية.

فاستجاب لها بعدما ألقت شباكها حوله.. شباك الجنس والإغراء.. لكنه صارحها بأن هدفه الأسمى في الحياة هو الحصول على المال، مهما كانت طرق جمعه حتى لو باع نفسه للشيطان. أدركت "شولا" نقطة الضعف في نفس هذا العميل الجديد.. فأغدقت عليه الأموال.. فتحول فوراً إلى عميل يزودها بجميع المعلومات عن موظفي الدولة والدوائر الرسمية.

وبينما كان محمد سعيد "العبد الله" يحمل المعلومات والتقارير إلى إسرائيل.. ومحمود عوض يكتب التقارير الواحد تلو الآخر.. كانت شولا كوهين تضم عملاء جدد إلى حلقتها.. حيث كانت تحلم بأن تصبح تلك الحلقة شبكة قوية تؤدي مهمتها على أكمل وأتم وجه.. ولكن.. لم تكن المخابرات السورية بغافلة عن نشاط شولا كوهين المشبوه، فسلطت عليها أضواء المراقبة من بعيد.. وحينما استكملت لديها المعلومات التي قد تنير سبل التحقيق، اجتمع في عام 1958 ضابط سوري مسؤول بأحد كبار الضباط في المخابرات اللبنانية. ولفت نظره إلى موضوع شولا كوهين ونشاطاتها المشبوهة التي تشكل خطراً على الجيش السوري واللبناني معاً.

ووقفت المخابرات اللبنانية عاجزة أمام ما تحيكه شولا وعصابتها، فلم يكن لديهم الدليل الثبوتي الذي يدين تلك الجاسوسة أمام القضاء.. حتى جاء شهر أغسطس عام 1961، وتجمعت الأدلة الكافية لإدانة تلك العصبة، فألقي القبض عليها وشبكتها بعد أن ظلت تعمل سراً لحساب العدو قرابة تسع سنوات. وأحيلت شولا كوهين وعناصر حلقتها إلى القضاء العسكري اللبناني، ومن خلال اعترافاتها تكشفت أمام المحقق العسكري المختص حقائق مذهلة كان البعض منها يستهدف لبنان وكيانه، وكامل مخطط الشبكة والدور الذي قامت به منذ عام 1946. وحكم على شولا كوهين بالسجن عشرين عاماً بتهمة التجسس، واجتياز الحدود بطرق غير مشروعة، بينما حكم على أعضاء شبكة التجسس الآخرين فايز العبد الله ومحمد فائز العبد الله ونصرت العبد الله بالسجن عشرين شهراً بجرم اجتياز الحدود، وبراءة بقية المتهمين، أما محمود عوض المتهم الرئيسي بعد شولا كوهين.. فقد قضى نحبه في سجن الرمل في 1962/6/21 إثر نوبة قلبية، قبل تقديمه للمحاكمة.

فنانات متجولات

من أخطر ما تعتمد عليه المخابرات الإسرائيلية في مجال استخدام "الجنس" كوسيلة لتأمين مصالحها في جمع المعلومات عن الدول العربية، هو عنصر الفنانات في الفرق الفنية المتجولة في المنطقة، وخاصة الفنانات اللواتي يمارسن عملية مجالسة الزبائن واللاتي ينتقلن بين عواصم الدول العربية وبين إسرائيل.

إن التي تحترف "مجالسة الزبائن ومشاركتهم الشراب" تستطيع أن تكون جاسوسة من الطراز الأول، فبحكم ملامحها الجميلة المغرية وبحديثها المعسول، إلى جانب عدة كؤوس من الكحول يمكنها أن تسمع من جليسها ولو لم تسأله، ألف قصة خاصة إذا كان من ذوي السلطة. والمخابرات الإسرائيلية أدركت فعالية هذا النوع من التجسس ولمست مردوده

القوى ما دام هناك عدد كبير من الفنانات يفدن إلى البلاد العربية، ثم يغادرنها إلى قبرص أو إلى أوروبا، ومن هناك يفدن إلى تل أبيب.

الاستخبارات تبعث بعميلاتها، ليتدربن على رقصة (الباليه) وهذا ما اعترف به المتسلل الإسرائيلي "ماكس" أمام المحقق في إحدى الدول العربية، حيث قال إن إسرائيل أوفدت مائة فتاة يهودية إلى أوروبا، ليتدربن في أكاديميات الفنون على الرقص، ثم يلتحقن بالفرق العالمية الجوّالة.. وهذا ما أدلى به هذا المتسلل، ومن الطبيعي كل فتاة بعد تخرجها في معهد الرقص والتحاقها بإحدى الفرق العالمية هي جاسوسة تعمل لحساب إسرائيل.. ومنذ وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها وسقطت ألمانيا الهتلرية.. فاجتاحت موجة من الفساد الخلقي ألمانيا الغربية وبقية الدول الأوروبية، وظهرت النوادي الليلية وكثرت مرابع وعلب الليل، التي يدير معظمها عناصر يهودية عادت إلى ألمانيا بعدما كانت لاجئة في دول أخري فراراً من الاضطهاد العنصري.

وامتدت هذه الموجة حتى شملت أيضا إسرائيل منذ أن تكونت بشكل "دولة" بعد اغتصاب أرض فلسطين عام 1948، واستغلت السلطات الإسرائيلية الحاكمة هذه الموجة ووجهتها لخدمة مصالحها، وهكذا أصبح الرقص النسائي والموسيقى هما السلاح الفعال في أسلحة التجسس والدعاية لإسرائيل خارج أرضها في أوروبا، حيث الملاهي الصاخبة التي تؤمن لروادها كل ما تتطلبه الغريزة من شراب ونساء أتقن فنون الإغواء والاستسلام لكل طالب، فيجد المرء العديد من المراقص والحانات ودور اللهو تضم الفرق الموسيقية.

وتطور الأمر بأن أخذت بعض عناصر هؤلاء الفنّيين المدربين على أحدث فنون التجسس في التسرب إلى البلاد العربية، تحت ستار جنسيات وديانات مختلفة، ومزودين بجوازات سفر لا غبار عليها، ولا يشتبه بأمرها.. وقد تم لإسرائيل ما أرادت من إيفاد عملائها وعيونها إلى البلاد العربية دون لفت نظر أو شبهة ما. وكانت تتم هذه العملية في عدة مراحل: "أولها انتقاء الفنان أوالفنانة وتدريبها من خلال مؤسسة خاصة تعمل لحساب

إسرائيل مهمتها الإشراف على الغانيات وفتيات الليل اللاتي تستخدمن في مجال الترفية عن الدبلوماسيين الأجانب أو الذين يفدون إلى البلاد من أصحاب المكانة السياسية أو المراكز المهمة، ويحلون في فندق خاص في تل أبيب والعائد سراً لحساب هذه المؤسسة، أو يتم تسفيرهم للعمل التجسسي خارج إسرائيل. فعندما تتم "الجاسوسة الفنانة" تدريبها الظاهري والخفي في إسرائيل ترسل إلى ألمانيا الغربية (بدء المرحلة الثانية) ومنها بواسطة مكاتب "سمسرة الفنانات" تتسلل إلى العواصم العربية (بدء المرحلة الثالثة).

ومن الثابت أن إسرائيل تصدر كل عام ما يقارب من الثلاثة آلاف إلى بلدان أوروبا وخاصة ألمانيا الغربية.

ومن الملاحظ أنها صدرت عدداً كبيراً من الفنانات، وحتى تاريخه لم يعد منه إلا نسبة 20 بالمائة، والباقي مازال يطوف أنحاء العالم، وقد يكون متمركزاً في منطقة الشرق العربي.. ثم إن المسئول لا يسمح لفنان أو فنانة – من المدربين رسميا لحساب المخابرات الإسرائيلية بالخروج من إسرائيل إلا ضمن نطاق الشروط التالية: أن تكون الفنانة إسرائيلية، وأن تستغل رحلتها لصالح خدمة إسرائيل، وأن تكون مستعدة لتلقي التعليمات والتوجيهات والأوامر – في كل لحظة – من المخابرات والسلطات أو الهيئات الدبلوماسية الإسرائيلية المعتمدة في الخارج.. في الوقت نفسه، فكل فتاة تخرج من إسرائيل باسم "فنانة" يعاد إليها جواز سفرها الأصلي الذي يشير إلى جنسيتها السابقة قبل قدومها إلى إسرائيل– قبل الجنسية الإسرائيلية – للتمويه وتأمين حرية تنقلها، وخاصة في البلاد العربية.. فمنهن الألمانية، النمساوية، والفرنسية.. إلخ.. وهكذا تنطلق العميلة باسم فنانة خارج إسرائيل.

وهنا تبدأ المرحلة الثانية.. يقوم معتمد الموساد الرسمي في ألمانيا الغربية والمتخذ من مدينة ميونيخ مركزاً لعمله باستلام مجموعة الفنانات هذه، ثم يوزعها على ملاهي العالم والشرق الأوسط بصفة خاصة، وتكون المرحلة الثالثة هي اختبار الفنانة لمعرفة مدى صلاحيتها للعمل الاستخباري في البلدان العربية أوالأوروبية.

وتبدأ عملية الانتقاء، نتيجة المراقبة والفحص والمؤهلات لدى الفنانة أوالفنان ليكون عميلاً أو عميلة في البلد المضيف، والمؤمل منهم "الخير".. فعلى سبيل المثال تم تكليف

"شلومو حافيلوف" وهو عميل للموساد بالتعاون مع قنصلية إسرائيل في مدينة "كولون" بتبديل جواز سفر الفنانة بآخر ألماني مرفقاً بأوراق ومستندات رسمية تشير إلى كون صاحبته فنانة ومسيحية الديانة.. ومن هذه الأوراق الرسمية ورقة المعمودية.. وهكذا تصبح الفنانة اليهودية جاهزة للسفر من ألمانيا الغربية وتحمل جواز سفر قانوني، كما أنه يكون لديها ما يؤيد أنها مسيحية.. وهنا تبدأ "جمعية هياس" عملها.. وهي الجمعية الصهيونية العالمية التي تقف وراء الفنانات الأجنبيات، فتستلم "البضاعة" لتوردها إلى الشرق الأوسط بواسطة عملائها ووسطائها.. وتدل التحقيقات الدقيقة والمطولة التي قامت بها الدوائر ذات الاختصاص في لبنان على أن جمعية "هياس" هي الرأس المفكر والموجه لعمليات التجسس العالمية، كما أنها هي الأخطبوط الذي يدير أكبر شبكة للجاسوسية عناصرها من عالم الليل والفن ومسرح نشاطاتها بالدرجة الأولى ينحصر ضمن حدود البلاد العربية. ولهذه الجمعية فروع في تسع دول أوروبية.. أما في الشرق الأدنى والأوسط فلها فرع في تركيا، وقد دلّت التحقيقات على أن هذه الجمعية خاضعة بشكل مطلق لتوجيهات المخابرات الإسرائيلية..

وتنحصر مهمتها في: تحضير وتدريب الفنانين والفنانات، ليصبحن جواسيس وعيونا لحساب إسرائيل.. وتأمين تصديرهن إلى بلدان العالم خاصة البلاد البلاد العربية، مرفقات بمهمات يحرصن على تنفيذها بدقة تحت ستار الطرب والرقص ومجالسة رواد الملاهي والذهاب معهم إلى أبعد حدود المجالسة.

والعنصر الفعال في تسهيل مهمة هذه الجمعية لتنفيذ أهدافها هو "الأمبريزاريو" – مورد الفنانين – الذي يساعد إلى أقصى حد على تنفيذ مهمات وأغراض الجمعية بتأمينه توريد الفنيين الذين ترتأي الجمعية إيفادهم.. وكذلك تحضير العقود والأماكن لعملهم.. وإقناع الدوائر المختصة بالسماح لهم بالعمل.. وفي نفس الوقت نرى أن فرقاً أو فنانات أجنبيات غير إسرائيليات تدخل إسرائيل في ملاهيها ثم تنطلق منها إلى ملاهي العواصم العربية.. وطبعاً تتم عملية النقل هذه بواسطة مكاتب سمسرة الفنانين بالاشتراك مع العميل الأول في إسرائيل.. ومن الثابت أن هؤلاء الفنانين لا يدخلون إسرائيل بجوازات سفر رسمية،

لئلا تكون عرضه لتدوّن في ضمنها تواريخ الدخول والخروج، وإنما يكون دخول إسرائيل بواسطة أذونات سفر إسرائيلية (بعد أن يقدم سمسار الفنانة أو الفرقة الكفالة المقررة لدى الهيئات القنصلية الإسرائيلية في قبرص أو في تركيا)، كل ذلك للتموية.. وهكذا يصبح جواز السفر خالياً من أية تأشيرة دخول أو خروج.. وبعض الفنانات يدخلن إسرائيل بموجب جوازات سفر قانونية تخضع للتأشير.. ثم يعدن إلى بلادهن، حيث يستبدلن تلك الجوازات الممهرة بأخرى "نظيفة" ويأتين مجدداً إلى البلاد العربية.

أما المرحلة الثالثة فهي الزواج الصوري. إن ما يهم الفنانة العميلة، بالدرجة الأولى هو الإقامة في البلد المضيف إلى أقصي حد ممكن وخاصة في الدول العربية.. لذا نرى بعضهن في سبيل تأمين هذه الغاية يعمدن إلى قيام زواج صوري بينهن وبين المواطنين.. وقد يساعدهن إلى أقصى درجات المساعدة بعض الشخصيات التي تريد بقاء الفنانة بجانبها.

وهكذا تحصل الفنانة الأجنبية على الجنسية أو حق الإقامة من إحدى الدول العربية، مما يمكنها من البقاء والتنقل بحرية، ويتم الزواج الصوري هذا لقاء مبلغ معين، على أن يجرى الطلاق فور حصول الفنانة على الجنسية الجديدة، أولقاء راتب شهري دائم مقابل السماح للفنانة بمتابعة عملها بعد الزواج في الملاهي الليلية أو التنقل في البلدان العربية.. وهذه الناحية لها خطورتها وتأثيرها في أمن البلاد العربية الداخلي والخارجي.. إذ تعمد المخابرات الإسرائيلية إلى تزويج من يراد زجه في عالم الجاسوسية والعمل لحسابها بزوجة أجنبية متدربة على الجاسوسية.. وهذه الحالة تكون غالباً في أوساط رواد الملاهي الراقصة ممن عرفت عنهم حاجتهم إلى المال، وانحطاط نفسيتهم، مما يسمح لهم ببيع شخصيتهم لكل من يدفع، ومهما كان شكل البيع والدفع.

الفصل العاشر

جواسيس ما بعد 1948

- الجاسوس الأردني محمود ياسين يسلم المعلومات لإسرائيل وكأنه في نزهة للأرض المحتلة.
- 60 ديناراً مقدم أتعاب كتالوج الرادار والدبابات الروسية للجاسوس عزاوي الجبوري.
- إيليا كوهين يهودي مصري تسلل لسوريا كمغترب قادم من الأرجنتين.

بعد قيام دولة الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة في 15 مايو 1948 تبدلت أهداف التجسس الإسرائيلي، لتخدم أغراض التوسع في الأراضي العربية ومقاومة الحصار الاقتصادي وفك العزلة الدولية، ومحاولة تقويض أركان الاستقرار في البلاد العربية، ومعرفة خبايا وأسرار جيوشها وصناعاتها الاستراتيجية، وتحركاتها ونياتها تجاه إسرائيل، وللعمل على الوقيعة بين البلدان العربية، وبين الدول الكبرى وأيضاً للحيولة بين العرب، وبين إحراز تقدم في صناعة الأسلحة الاستراتيجية المتطورة كالأسلحة الذرية أو الصواريخ متوسطة وبعيدة المدى.

ورغم التغيرات التي لحقت بتنظيمات أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية، إلا أن هذه التغيرات لم تؤثر في وظائفها وموقعها الحيوي في بناء الكيان في الماضي والمحافظة عليه وحمايته في الحاضر والمستقبل، وهي المهمة التي تعني للعرب، مواجهة هذه المؤامرات والحلقات التجسسية ضدها، هي مهمة استراتيجية دفاعية وهجومية في آنٍ واحد.

إنها دفاع عن أمن الأوطان والأرض والقوات، وبقدر ما تحقق من نجاح في ذلك فإنها تعني هجوما وإضعافاً للكيان الصهيوني وقدراته حتى لو كان ذلك بمجرد القبض على العملاء اليهود وتقديمهم للعدالة.

ومن أخطر القضايا التي كشفتها أجهزة المخابرات العربية هي شبكة التجسس الأردنية التي عملت 14 عاماً وتضم 59 شخصاً كلهم من العرب. وأسفرت التحقيقات التي أجريت مع المقبوض عليهم عن الحصول على معلومات على أقصى درجات الخطورة، وباعترافاتهم الصريحة تبين أن هؤلاء الخونة مجتمعون ومنفردون قاموا خلال المدة الواقعة ما بين عام 1948 وحتى نهاية عام 1962 بالاتصال التجسسي في أماكن ومدن مختلفة.. وبدأت الشبكة عملها بعد أن تدرب بعض عناصرها على استعمال الأجهزة اللاسلكية وإتقان استخدام الشفرة والحبر السري، وتصوير الوثائق والمناطق العسكرية التي يهم العدو الاطلاع عليها.

وقد أمدتهم المخابرات الإسرائيلية بالأموال والسلاح والعتاد والأجهزة اللازمة، لتنفيذ المهمات الموكولة إليهم، ووزعوا إلى خلايا تولت كل واحدة منها منطقة معينة.. وتمكنوا من التنقل ما بين المنطقة المحتلة وأراضي الدول العربية، فتمكنوا من جمع المعلومات العسكرية والسياسية والاقتصادية عن الأردن وبعض البلاد العربية، وحملوها إلى العدو سواء بالاتصال الشخصي المباشر أو عن طريق الأجهزة اللاسلكية بالرموز المتفق عليها. وبعد استكمال التحقيق وجمع الأدلة الكافية لا سيما المقرون منها باعترافات المتهمين الصريحة، أحيلوا أمام محكمة أمن الدولة، حيث كرروا أمامها أنهم كانوا يعملون لحساب مخابرات العدو منذ عام 1948 حتى يوم إلقاء القبض عليهم.. فقالت العدالة كلمتها ولاقوا جزاءهم شنقاً، ليكون هؤلاء الخونة عبرة لمن يوسوس له الشيطان بأن يخون بلده وأمته.

وجاء في بيان الحكومة الأردنية حول هذه الشبكة أنها أخطر شبكة تجسسية عاثت فساداً في الوطن العربي حتى قضي عليها.. واستكانت المخابرات الإسرائيلية فترة للتخطيط لقيام شبكة جديدة غير الشبكة التي علقت عناصرها على أعواد المشانق.. وكانت النار تسير تحت الرماد كما كانت تتوهم المخابرات الإسرائيلية، وهي غير مدركة أن أجهزة الأمن العربية الأردنية ساهرة على أمنها ومحافظة على أسرارها وأنها كانت تحصي على الشبكة الجديدة أنفاس عناصرها.

وفي شهر إبريل 1966 كشفت هذه الشبكة، وكان رأسها المدبر العميل محمود ياسين الحيحي، من أهالي "قلقون" أصلاً، ومن سكان مخيم طولكرم، وإلى جانبه "الرقيب" في الجيش الأردني فوزي محمود عبدالله من أهالي وسكان عنتبا التابعة لطولكرم. وكان المذكور يذهب إلى الأرض المحتلة وكأنه ذاهب إلى نزهة ليقدم المعلومات المطلوبة، التي يكون قد حصل عليها من شريكه فوزي كان يغدو ويروح دون أن يفطن إلى عين ترقب عليه تحركاته واتصالاته وتحصي عليه حتى الخطوات التي كان يخطوها. وتجمعت لدى السلطات

المختصة في الأردن الأدلة الوافية، التي تتطلب إنزال الضربة القاضية بعد اتخاذ الترتيبات اللازمة.

ففي ليلة 1966/4/27 كان ياسين محمود الحيحي عائداً من المنطقة المحتلة، فألقي القبض عليه وضبطت بحوزته رسالة من أحد ضباط المخابرات الإسرائيلية موجهة إلى شريكه فوزي محمود عبدالله، وجاء فيها وجوب جمع المعلومات العسكرية الخاصة عن الجيش الأردني.. وفي الرسالة أيضاً مبلغ ثمانون ديناراً ثمناً لتلك المعلومات المطلوبة، وألقي القبض على فوزي محمد عبدالله، فعثر في منزله على آلة تصوير وثائق، وكذلك على بعض الأوراق المتضمنة معلومات عسكرية كانت جاهزة لإرسالها إلى العدو.

واعترف الجاسوسان بأنهما يعملان لصالح المخابرات الإسرائيلية منذ عام 1962 ويزودانها بمختلف المعلومات العسكرية التي كانت تطلبها، بالإضافة إلى أن فوزي تسلل إلى المنطقة المحتلة واجتمع بضباط من مخابرات العدو.. وكان أول اجتماع له خلال عام 1962و الثاني في عام 1965 حيث جرى تدريبه على استخدام آلة التصوير التي ضبطت في منزله، كما تعلم الطرق الواجب اتباعها لجمع المعلومات العسكرية والتي نفذها بكل دقة. واعترف الجاسوس فوزي بأنه تمكن من تصوير بعض الوثائق العسكرية وسلمها إلى ياسين الذي قام بإيصالها للعدو لقاء رواتب تقاسمها الاثنان. وأصدرت العدالة كلمتها، وبتاريخ 18/1/ 1967 لقي المجرمان مصيرهما المحتوم وهو الإعدام شنقاً.

وللوضع الخاص للعراق كقوة بشرية وعلمية وعسكرية مؤثرة في الصراع مع إسرائيل نجد أن شبكات التجسس الإسرائيلية في العراق، تختلف في قوامها ومخططاتها وتكوينها عن بقية الشبكات مثيلاتها التي افتضح أمرها في الأقطار العربية الأخرى، فكان عملاء إسرائيل خليط من العراقيين والإيرانيين واليهود، حيث كانت المخابرات الإسرائيلية تتعاون وتتحالف مع مخابرات إيران في عهد الشاه (السافاك) تعاونا كاملاً. في شهر نوفمبر 1966 أوقفت المخابرات العراقية المدعو "فجر عبدالله" إيراني الجنسية، ووجدت معه رسالة تضمنت

المعلومات المهمة عن القوات البحرية العراقية مقرونة بوثائق أخرى تثبت تعامله مع جهة أجنبية في مجال التجسس على الجيش العراقي.

وتطور التحقيق وتشعب، فإن كشف المتهم الأول يعقوب يوسف جاسم المتزوج من إيرانية ويتعاطى التهريب، كشف النقاب عن أساليب المخابرات الإيرانية – الإسرائيلية في المنطقة، كما حدد طريقة تجنيدها للأفراد بقوله: "إنه تعرف خلال منطقة قريبة من الحدود الإيرانية – العراقية على شخص يدعى "عبد نابلون"، فسيطر هذا عليه بعدما أدرك مكامن الضعف في نفسه، وجعل منه عميلاً للمخابرات الإسرائيلية. ومن ثم قدمه إلى مدير المخابرات الإيرانية الذي يحمل اسماً رمزياً هو "أبو منصور"، وقد تحدث إليه باللغة الفارسية وأفهمه أنه سيكون ارتباطه مع رجل آخر من المخابرات".

ويصف يعقوب هذا ما حصل له فيما بعد بقوله: "أخذني "عبد نابلون" إلى بناية تقع في أحد الشوراع الرئيسية وبرقم 15. ودخلنا غرفة رقمها 6 حيث التقيت رجلاً أطلق عليه نابلون اسم "أبو صادق". وقد علمت فيما بعد أنه هو المسؤول عن إدارة شبكات التجسس في المنطقة. وخلال حديثه معي طلب مني تزويده بمعلومات عن الأسلحة التي تقرر إرسالها إلى "عمان" الأردن، وعما يحتوي المخزن رقم 3 من أسلحة فوعدته خيراً ثم افترقنا لأبدأ مهمتي".

ويقول "يعقوب" أيضاً أمام المحقق: "ومن جملة المهام التي أوكلت إلى مهمة تسهيل عملية نقل المعلومات، ففي كل خميس وبساعة معلومة يحضر شخصان يحمل أحدهما حقيبة جلدية صفراء اللون ضمنها التقارير والصور والمعلومات، ويكون لقائي بهما في إحدى نقاط الحدود. وبعد أن أتسلم منهما الحقيبة يأتي مندوب عن المخابرات الإسرائيلية فأسلمها إليه. ولقاء كل ما قمت به من نشاط تلقيت مبالغ من المال إلى جانب تعييني في وظيفة وهمية في إحدى الشركات التي يمتلكها بعض أفراد اليهود في إيران".

وجاء في اعترافاته أيضاً: ".. وكان المتهم – عزاوي الجبوري – قد وصل إيران ومعه ورقة مكتوبة فيها رسالة رمزية باللغة الفارسية – "خرمشهر جنابانه بهلوي شهريافي" –

وتعني هذه الجملة، أن عزاوي هذا قد التحق بالشبكة. وقد لمست أن مهمته كانت الحصول على المعلومات عن الطائرات الروسية وشبكة الرادار".

ويضيف يعقوب قوله: "وقد علمت أن هناك ستة عشر ضابطاً إسرائيلياً تابعين للمخابرات الإسرائيلية وموزعين على الشكل الآتي: اثنان في منطقة عبادان – اثنان في كرمنشاه – اثنان في شيراز – عشرة في طهران".. هذا وكان لاعتراف يعقوب الأثر الفعال في تمهيد الطريق أمام السلطات المختصة في العراق، ليتم لها كشف البقية الباقية من عناصر هذه الشبكة، كما كشفت تلك الاعترافات الوسائل العديدة التي استخدمت لتجنيد العملاء أملاً في الحصول على المعلومات التي كان أبرزها: الأوضاع العسكرية، والسياسية، والعلاقات العربية.

ولم يكن يعقوب هذا وحده الجاسوس العامل لمصلحة اسرائيل، وإنما كان إلى جانبه جاسوس آخر هو عزاوي الجبوري – الذي تم تجنيده عن طريق شخص يحمل اسماً رمزياً هو "فهد". وأوكلت إلى العزاوي مهمة الحصول على معلومات عسكرية خاصة عن الجيش العراقي وتسليحه ونوعية السلاح الروسي الموجود لديه.

وأمام السلطات المختصة اعترف اعترافاً كاملاً عن مهمته بقوله: "طلبوا مني معلومات عن أجهزة الرادار الروسي وإمكانية الحصول على كتالوج الرادار هذا، وعن الدبابات روسية الصنع المتطورة.. إلى جانب تزويدهم بآخر الأخبار عن حوادث الشمال في العراق، وكذلك معلومات عن الجيش المصري. ومقابل ذلك دفعوا لي 60 ديناراً كمقدم أتعاب".. وإلى جانب اعتقال هذه الشبكة التجسسية الإسرائيلية، كانت هناك شبكات أخرى قد اكتشفت، وتم اعتقال جميع عناصرها، ومنها:

1– شبكة فيكتور عزرا مناحيم الذي كشفت اعترافاته عن فضائح عديدة، إذ كان يلجأ إلى شراء ذمم العملاء عن طريق الإغراء المادي أو التأثير العاطفي، بإقامة الحفلات

الصاخبة الحمراء وتقديم الهدايا الثمينة، ومن ثم جمع أخبار الفضائح الخاصة وتهديد أصحابها بنشرها إذا لم يذعنوا لما تطلبه منهم الشبكة.

2- الشبكة التجسسية الكبرى التي افتضح أمرها في بداية عام 1968 وتبين أن المخابرات الإسرائيلية قد أوجدتها لتتغلغل في العراق، والكويت والخليج العربي وسورية.. وعناصرها خليط من إيرانيين وعراقيين وإسرائيليين ويهود من جنسيات مختلفة.. لكن العين الساهرة في العراق كانت مسلطة أضواء المراقبة على تحركات أفراد هذه الشبكة، وما إن حل شهر سبتمبر 1968 حتى كانت جميع عناصرها في قفص الاتهام.. ودلت اعترافات المقبوض عليهم، وعددهم 36 جاسوساً، وأن معظم أفرادها هم من اليهود الذين يحملون الجنسية العراقية، وأنها كانت تسعى للحصول على معلومات عسكرية عن الجيش العراقي وتنظيمه، وتحديد نوعية صفقات الأسلحة الجديدة التي تسلمها.

3- شبكة عبدالله سليمان ورفقائه، التي أثبتت التحقيقات العدلية المقرونة باعترافات المتهمين الثمانية ما نسب إليهم من أعمال التجسس في مجالات جمع المعلومات عن القواعد الجوية العراقية، وتحديد أمكنة محطات الرادار، ثم إيصالها إلى إسرائيل عن طريق عنصر من عناصر الشبكة.

4- شبكة عبد العامر الشرقاوي، المؤلفة من أربعة عناصر، اثنان منها عراقيان واثنان إيرانيان.. والتي كانت مولعة بجمع المعلومات عن الأوضاع الاقتصادية في العراق وإرسالها عن طريق جهاز لاسلكي إلى إيران.

5- الشبكة المدنية – العسكرية، التي أدلى أفرادها، أثناء المحاكمة بمعلومات مفصلة عن دور كل منهم.

وأمام خطورة اعترافات كافة عناصر هذه الشبكات التجسسية الإسرائيلية، وبعد أن تأكدت المحكمة من ثبوت التهم على المتهمين، وبعد أن أدلوا باعترافاتهم صراحة بارتكابهم ما نسب إليهم، صدر الحكم بإعدام أغلبية المتهمين.

وفي سوريا كانت أهداف إسرائيل التجسيسة أكثر خطورة، حيث كان التسلل إلى المجتمع السوري عبر شخص يهودي واندماجه في المجتمع وإقامة شبكة الجاسوسية.. ونفذ الحكم علناً في أواخر شهر إبريل 1969.

وفي 8 مايو 1965 أصدرت محكمة الشعب في سوريا أحكامها في قضية شبكة الجاسوس الإسرائيلي "إيلياهو كوهين"، فقضت بإعدامه.. كما تضمنت أحكاماً بالأشغال الشاقة المؤقتة لعدد من أفراد الشبكة التجسسية، وبالحبس سنة وثلاثة أشهر لعناصر أخرى في هذه الشبكة.. وحين قامت المحكمة العسكرية الاستثنائية بمحاكمة الجاسوس، والمتهمين بالتعاون معه جاءت الوقائع مشيرة إلى حقيقة الشبكة وحدودها وطبيعة صلات أفرادها بالجاسوس الإسرائيلي. وقد لوحظ أن المحكمة أفسحت للمتهمين مجالاً واسعاً للتحدث والدفاع عن أنفسهم.

وقد جاء في وقائع المحكمة حول هذه القضية ما يلي: "لم تكن هذه العملية التجسسية التي خطط لها العدو طويلاً هي الأولي من نوعها، وإنما سبقتها محاولات عديدة للحصول على الأسرار والمعلومات التي تمس الأمن السوري.. غير أنها ظلت تختلف عما سبقها من حيث أسلوبها والأسس التي اعتمدها العدو، لضمان تنفيذ المهمة إذ كان فيما مضى يستغل نقاط الضعف التي خلفها الاستعمار ، في الوطن العربي، ولكنه في هذه المرة حاول أن يستغل العواطف النبيلة والمشاعر العربية الكريمة عندما اختار للجاسوس شخصية المغترب العربي العائد من أرض المهجر إلى الوطن الأم".

ويبدو أن مخابرات الصهاينة ظلت تبحث عن الشخص الذي يمكنه تمثيل هذا الدور، حتى وقع الاختيار على المتهم إيلياهو بن شاؤول كوهين، وهو من أصل يهودي ولد في الإسكندرية، وأتم دراسته الثانوية في مدارسها حيث حصل على الشهادة التوجيهية عام 1945، ثم التحق بكلية الهندسة بجامعة الإسكندرية. وبعد العدوان الثلاثي على مصر أخرج المتهم كوهين من البلاد، حيث تم نقله بتاريخ 1957/2/8 مع عدد من اليهود المصريين على باخرة من الإسكندرية إلى نابولي فروما، ومن هناك نقلوا إلى حيفا على حساب الوكالة اليهودية.

وفيما بعد جند إلياهو من قبل المخابرات الإسرائيلية، وبعد انتهاء مرحلة تدريبه أرسل إلى بونس إيرس "الأرجنتين" ومنها دخل سورية في عام 1962 كمغترب عربي، حيث مثل دور المغترب على الكثير من المواطنين السوريين، واستطاع أن يستخدمهم كواجهة للتستر إلى أن فضح أمره، وقبض عليه.. واعترف صراحة أثناء محاكمته العلنية بأنه أعد من قبل المخابرات الإسرائيلية كجاسوس لها في سوريا.. وحكمت المحكمة بالإجماع بتجريم هذا المتهم "إيلياهو بن شاؤول كوهين"، وعمره 40 عاماً، من أهالى تل أبيب – بجناية دخوله متنكراً في ملابس عسكرية، وبجناية الحصول على معلومات يجب أن تبقى مكتومة حرصاً على سلامة الدولة، وذلك لمصلحة العدو، فحكم بإعدامه.. هذا وقد نفذ حكم الإعدام بهذا الجاسوس الإسرائيلي في صباح 18 مايو عام 1965.

وحاولت إسرائيل عمل المستحيل لإنقاذ هذا الجاسوس من الإعدام، وبذلت شتى الطرق لذلك.. لكنها فشلت أمام الإصرار السوري على أن يلقى الجاسوس جزاءه العادل.

حتى لو نجحت أجهزة المخابرات العربية في تقويض دعائم 60 بالمائة من شبكات التجسس الإسرائيلية، ونفذت أحكام الإعدام في رؤوسها وأبرز عناصرها، فإسرائيل لن تتوقف عن القيام بنشاطها التجسسي ضد العرب، لأن هذا النشاط ذو مكانة وأهمية فائقة لاستمرار وجود دولة إسرائيل.. وقضايا التجسس العديدة التي اكتشفت حتى يومنا هذا في مختلف الأقطار العربية، ليست نهاية المطاف.. فالحرب السرية لم تتوقف مادامت إسرائيل قد حولت فلسطين العربية بالقوة المسلحة إلى قاعدة انطلاق لأطماعها الواسعة في المنطقة العربية. ولطالما استخدمت المعلومات التي قدمها العملاء منذ عدوان يونيو 1967، لأجل تخطيط الهجمات البرية ضد الوطن العربي.

إن تكوين جهاز المخابرات الإسرائيلي مبني على الوسائل التي تحلل ولا تحرم، ولا تلتزم بقاعدة خلقية سوى تحقيق الغاية المطلوبة، ذلك يعني أن الحرب الخفية الناشئة بين

الوطن العربي وإسرائيل في مجال الجاسوسية هي حرب قائمة ومستمرة في زمن السلم.. كما في زمن الحرب في الحاضر كما في الماضي والمستقبل، وإن تغيرت الطرق والأساليب أحياناً.

لم يهتز الرأي العام العالمي حينما ارتكبت إسرائيل عدوانها الغادر على الأراضي العربية، مثلما هزته فضيحة "لافون" وزير الدفاع الإسرائيلي في حكومة بن جوريون الذي كان له دور بارز في قيام الدوله منذ عام 1920، فمنذ أن قامت "دولة إسرائيل" يحاول المسؤولون فيها الحفاظ على سمعتها في المجالات العالمية، وإظهار الشعب اليهودي بمظهر المسالم، المضطهد من الحكومات التي يعيش في كنفها وخاصة الحكومة الألمانية النازية. ومسرحية محاكمة إيخمان هي محاولة للإعادة إلى الأذهان ما لقيه اليهود من اضطهاد على يد النازيين، وبالتالي إيجاد مبرر لما تقوم به إسرائيل من عمليات عدوانية مدفوعة بالحقد الدفين على كل من هو غير يهودي. إن فضيحة "لافون" – التي نحن بصددها – كشفت الستار عن فضائح جعلت "دولة إسرائيل" عارية أمام الرأي العام العالمي الذي بدأ يدرك ما عليه هذه "الدولة"، وكيف أنها تستخدم أجهزة التجسس وعمليات الغدر والقتل، لتحقيق أهداف فشلت في تحقيقها بالطرق، ولأن هذه الدبلوماسية قائمة على أسس متعارضة مع القانون الدولي والعلاقات بين الدول والأخلاقيات، كانت فضيحة "لافون" بمثابة الهزيمة النكراء التي منيت بها إسرائيل على يد أجهزة المخابرات العربية، فهزت أركان وزارة الدفاع الإسرائيلية، وأوجدت ضجة كبرى في الأوساط الدبلوماسية، رغم المحاولة اليائسة التي قام بها "بن جوريون" لإخفاء معالم تلك الفضيحة، حفاظاً على سمعته الشخصية.. وسمعة إسرائيل في المجالات الدولية.

وقد أسهبت الصحف العالمية في وصف تلك الفضيحة الشنعاء التي دلت على ما يتحلى به حكام إسرائيل من مؤامرات يحيكها بعضهم ضد الآخر، وكأنهم كلاب مسعورة إن لم تجد ما تنهشه، تنهش بعضها بعضاً.. ولنأت إلى مراحل هذه الفضيحة – التي ترجع في أصلها إلى حوادث ثلاثة – وإلى العوامل التي كانت وراء كشفها وتحديد معالمها، وأخذت هذه الفضيحة النكراء معالم ثلاثة في سوريا ومصر وعلى الحدود المصرية الإسرائيلية وقطاع غزة. في 12 أكتوبر عام 1954 اعتقلت إحدى دوريات الجيش السوري قرب

مخفر"العزيزيات" عدة متسللين قدموا من الأرض المحتلة، وكان أحدهم يتكلم اللغة العربية باللهجة العراقية، ونقلوا إلى المخفر ومنه إلى قيادة مركز القنيطرة. ولدى استجوابهم تبين أنهم من ضباط الجيش الإسرائيلي وكانوا يدعون: "ماير يعقوبي" نقيب في "الفرقة السوداء"، و"ماير مورس" ضابط في المخابرات الإسرائيلية، وشقيق كل من بنيامين مورس رئيس الجمعية الصهيونية ليهود رومانيا، والدكتور مورس رئيس دائرة الحسابات في الحكومة الإسرائيلية.

"أوري أيلان" ضابط في المخابرات الإسرائيلية وابن شقيق المدعوة الدبلوماسية. "إيلان" زوجة رئيس الدولة الإسرائيلية إسحق بن زفي.. ووالد أوري هذا رئيس مستعمرة "كفار شموئيل" وعمه الجنرال زفي إيان، قائد قيادة المنطقة الوسطى في القطاع الإسرائيلي "وقتئد" وأمه "إيلافيت" عضوة في الكنيست. "جاك كاستلانتس" ابن رئيس مستعمرة وعمه الموسيقار اليهودي الإسرائيلي الشهير"كاستلانتس".

وبدأ التحقيق مع هؤلاء المتسللين لتحديد المهمة التي أتوا من أجلها، فبادر "أوري ايلان" بالاعتراف الصريح بأنهم جاءوا بهدف إصلاح جهاز لاسلكي مرسل كانت المخابرات الإسرائيلية قد دفنته في باطن أحد الحقول تحت عمود هاتف سلكي يصل ما بين القيادة العامة في القنيطرة ودمشق، وبين الواحدات والمخافر على طول الحدود السورية – الإسرائيلية، وأن سلكاً دقيقاً حشر في بدن العمود الخشبي يتصل بالجهاز المرسل والخطوط الهاتفية الرئيسية ولعطل طارئا أوقف هذا الجهاز، مما دعا هؤلاء المتسللين إلى المجيء لإصلاح الخلل.. وبهذه الطريقة كانت السلطات الإسرائيلية على إطلاع تام بما كانت تحمله أسلاك الهاتف من اتصالات هاتفية تجرى ما بين القيادة العربية السورية والواحدات التابعة لها.

ويضيف "أوري ايلان" إلى اعترافاته أن هذا الجهاز ليس هو الوحيد من نوعه.. وأن إسرائيل تستخدم أمثاله في أماكن أخرى من البلاد العربية، لتكون على إطلاع تام بما تحدده أخبار القيادات العسكرية العربية.. وتطور التحقيق إلى كشف جميع نواحي عملية التسلل الفاشلة هذه، والتي مرغت جبين المخابرات الإسرائيلية في الوحل وجعلتها تدرك جيداً، وتلمس عدم قدرتها على الوقوف في وجه "العين الساهرة" في الأقطار العربية.. وبعد أن أدلى هؤلاء المتسللون باعترافاتهم الصريحة، انتحر "أوري أيلان" مسطراً بدمه أنه ضحية مؤامرة فاشلة. وكان ذلك في أواخر شهر يناير عام 1955.. إن هذه الضربة التي منيت بها المخابرات الإسرائيلية، وبالتالي وزارة الدفاع التي على رأسها لافون، كان لها الأثر الفعال العميق في كيان رئاسة الوزراة التي يرأسها بن جوريون، وقد تناقلت الصحف العالمية هذه الفضيحة.

ما من عملية انتقامية اتصفت بالوحشية والغدر ، إلا وكانت وقتئذ، وراءها "بن حاس لافون" وزير الدفاع الإسرائيلي.. فالغارات الجوية التي قام بها سلاح الجو الإسرائيلي على غزة يوم 1955/2/28 كانت بتوجيه منه كإجراء انتقامي ضد هجمات الفدائيين العرب من جهة، وخلق جو من الضغط على مصر للتوقف عن مهاجمة "حلف بغداد" من جهة ثانية، على اعتبار أن إسرائيل تؤيد وتدعم ذلك الحلف. وفشلت عملية غزة، فلم تجد عناصر تلك العملية سوى أن تعمد إلى ذبح حوالى أربعين من اللاجئين الفلسطينيين العزل، انتقاماً لفشلها الذريع.. وكانت هذه "الإغارة البهيمية الفاشلة" ذات أثر خطير في تطورات الأمور الإستراتيجية بمنطقة الشرق الأوسط، إذ كانت حصيلة ذلك العدوان أنه تم عقد صفقة الأسلحة التشيكية مع السلطات المصرية، مما جعل توازن القوى العسكرية في المنطقة لغير صالح إسرائيل. وعندما تربط بين صفقه الأسلحة التي جاءت ردًّا على غارات غزة، والفضيحة التالية نجد أن إسرائيل كانت تريد ألا تكون هناك علاقات جيدة بين مصر وأمريكا، وإن كانت لا تمانع من التقارب مع الكتلة الشرقية، وأنها كانت تستخدم الإرهاب والعمليات القذرة لتحقيق هذا الهدف.

كذلك سعت المخابرات الإسرائيلية لمحاولة نسف السفارة الأمريكية في القاهرة، فلم تعدم إسرائيل من إيجاد أية وسيلة لتسميم الجو الدبلوماسي ما بين الدول العربية وبين بقية الدول الأجنبية.. ولعل كشف تلك الشبكة الإسرائيلية في مصر خلال شهر يوليو 1954 التي كانت مكلفة بتأمين جمع ونقل المعلومات إلى إسرائيل، ومن ثم تعمدها نسف مكاتب السفارة الأمريكية ومراكز استعلاماتها، بغية تسميم العلاقات بين البلدين، مما يؤيد ما نذهب إليه.

وأحاطت المخابرات المصرية بهذه الشبكة وقادت عناصرها للتحقيق، فاعترفوا صراحة أنهم موفدون من قبل أجهزة المخابرات الإسرائيلية.. فصدرت الأحكام بحق أفرادها وكانت عقوبة الإعدام بحق المتهمين الرئيسيين والأشغال الشاقة بحق الباقين، بينما الرأس المحرك لهذه الشبكة وهو الضابط الإسرائيلي "جون بينيت" قد انتحر، وكانت إذاعة نبأ كشف هذه الشبكة وإحالة عناصرها للعدالة بمثابة صفعة قاسية تلقتها المخابرات الإسرائيلية ووراءها بن جوريون رئيس الوزراء.

وكما في (بروتوكولات حكماء صهيون) فقد حاولت إسرائيل طمس الحقائق وشغل الرأي العام عن الفضيحة الكبرى، لصناعة قضية أخرى وهمية وغير حقيقية، تهدف إلى التستر على الفضيحة وجعلها في مرتبة أقل أهمية وبالتالي ضياعها، فقد حاول بعض المسؤولين في إسرائيل طمس حقائق الفضيحة بلجوئهم إلى تحوير الواقع والوقائع، ونشرها بما يتوافق مع فكرتهم في إزالة وصمة الفضيحة عن أجهزة مخابراتهم، وبالأحرى عن وزارة الدفاع بالذات. وخلال هذه السحابات من الجو الرهيب.. جو الفشل والإخفاق.. نشب نزاع بين قادة إسرائيل.. بين "لافون" وزير الدفاع من جهة وبين "بن جوريون" رئيس الوزراء "وموشي ديان" قائد الجيش من جهة ثانية.. لكن الستار الكثيف أسدل على تلك الفضيحة وانتهت الأزمة باستقالة "بن حاس لافون" من وزارة الدفاع بعد أن أظهر التحقيق أنه هو المسؤول الأول عن تلك الأحداث التي سببت الفضيحة لإسرائيل.. ولم تر السلطات المختصة –كتغطية وتمويه لتلك الفضائح – إلا بأن يعهد إليه بمنصب رئاسة

النقابات العمالية، لكنه بعد تسلمه هذا المنصب بدأ يوضح للرأي العام الإسرائيلي ملابسات تلك العمليات، وينفي عن نفسه تهمة فشلها.

قال لافون إن مرؤوسيه المسؤولين في وزارة الدفاع – بالاتفاق مع بن جوريون – قد زوروا توقيعه على الأوامر المعطاة إلى تلك الشبكات، مما أدى إلى وقوعها في قبضة المخابرات العربية، خاصة فضح شبكة التجسس والتخريب في مصر. وأثبتت التحقيقات المدعومة بشهادات الضباط الذين كلفوا بإدارة تلك المهمات، أن التزوير قد وقع بصورة تدين "بن جوريون" بالذات، وانفجرت الأزمة.. وتفكك الائتلاف، واضطر "بن جوريون" حينها إلى الاستقالة، وحدثت أزمة وزارية حادة تشعبت أطرافها ودخلت في طور لم يكن بالحسبان، إلا أن الهدف من ذلك هو الكشف عن ثمة تناقضات وصراعات، حتى أن دراسات المحللين السياسية الأكثر حياداً انصبت على أن أزمة فضيحة "لافون" لم تكن وليست سوى انعكاس واقعي للسياسة التي تغلف الحكومات الإسرائيلية، وما هي سوى مردود للصراع الحاد الدائر بين كواليس الحكومة هناك.. والتطاحن المستميت للوصول إلى السلطة. كل ذلك قوامه الأحزاب اليهودية من جهة والجيش من جهة ثانية، خاصة بعد أن أضحت المبادأة في أيدي ضباط سبق لهم أن قادوا من قبل شراذم "الهاجاناة"، ونجحوا في إقصاء ضباط كانوا ينتمون إلى منظمات أخرى "كالمبالماخ" وعناصرها من ذوي الميول اليسارية، وجرى كل ذلك بمساعدة بن جوريون نفسه وبدعم منه.

ومنذ أن تألف الجيش الإسرائيلي النظامي كان قادته يحرصون على أن يبقى هذا الجيش مستقلاً عن أي تدخل سياسي ينبثق عن الأحزاب أوالمنظمات اليهودية، مع احتفاظ قادته بأن يكون لهم رأيهم الواضح.. وقد نفذ ذلك عملياً وبسهولة تامة حينما كان بن جوريون على رأس الحكم، بالإضافة إلى منصبه وزيراً للدفاع. أما في الوزارات التي تولي رئاستها موشي شاريت فقد أسندت وزارة الدفاع إلى بن حاس "لافون"، وبدأت حينئذ فترة عدم انسجام ما بين الجيش والحكومة، تجسدت بمحاولة "لافون" بتقييد تدخلات الضباط، بحجة أن الجيش أصبح دولة ضمن الدولة. وتلافياً لهذا اقترح إنشاء ما يسمى ب"لجنة الدفاع

العليا"، وتضم عناصر مدنية وعسكرية، لتصبح المرجع الرئيسي الأول للسياسة الدفاعية وشؤون التسلح.

بيد أن قادة الجيش لم يرق لهم هذا الاقتراح فتحرك موشي ديان "قائد الجيش" و"شمعون بيريز" "نائب وزير الدفاع" لإيجاد مبرر لإقصاء لافون عن الوزارة. واتخذ من فشل عملية "نسف السفارة الأمريكية" في القاهرة.. الذريعة، التي اتخذها الضباط ليعلنوا أنهم "ضد تقييد حرية الضباط" وعلى الوجه الأصح الحجة التي اتخذت لإقصاء "لافون" عن منصبه. وانهالت الاتهامات من قبل "ديان" وأعوانه على سياسة "لافون"، ونسب إليه أنه تجاوز صلاحياته فأصدر أوامر خاطئة، أدت إلى فشل أكثر من عملية خارج إسرائيل، وبالتالي فهو قد أساء إلى الجيش الإسرائيلي أمام الرأي العام، خاصة أجهزة المخابرات فيه.

ولم يصمت "لافون" وإنما رد ما اتهم به، وطالب بتشكيل لجنة خاصة تجري التحقيق بما نسب إليه، فاستمعت تلك اللجنة لشهادات كبار الضباط المسؤولين، وخرجت بنتيجة هي "إدانة الوزير لافون وتحميله المسؤولية" – رغم أن الأوامر التي صدرت ممهورة بتوقيعه كانت مزورة، ولم يسع "موشى شاريت" أمام هذا الموقف المحرج إلا أن يعلن أمام أعضاء "لجنة الأمن والشؤون الخارجية" براءة لافون وعدم مسؤوليته في "الكارثة" موضوع الاتهام .. ومع ذلك فالعناصر العسكرية – حينما لمست عناد لافون وإصراره على التمسك بمنصبه – أخذت تهاجمه بالأقوال الصريحة، فنائب الوزير شمعون بيريز يهاجمه بالقول: "الوزير الذي لا يصلح لهذا المنصب.." ويتبعه موشى ديان ببيان ذكر فيه "أنه يفكر بالاستقالة من رئاسة الأركان، لعدم استطاعته التعاون مع المسؤولين". ومن الواضح أن لافون هو المقصود بكل ذلك.. واتخذ الجيش الخطوة الحاسمة لإنهاء هذه المرحلة، وأعلن الضباط ثورتهم التمردية على شخصية وزير الدفاع إذ قابله ممثلون عنهم طالبين إليه أن يستقيل، كما طالبوا بمذكرة إلى موشى شاريت تشير إلى لزوم إعادة بن جوريون الموجود آنذاك في النقب – لتولي وزارة الدفاع.. وتقدم لافون باستقالته، وما زالت الوصمة ملتصقة باسمه، فقبلت الاستقالة.

ومرت السنوات ولافون عاجز عن إثبات براءته.. وفي عام1961 حدث ما لم يكن بالحسبان، وبرزت إلى الوجود حادثة وجهت الأضواء إلى قضية لافون، فأثير الموضوع كله من أساسه، ففي شهر أغسطس عام 1961 وقف أمام المحكمة العسكرية الكولونيل "مالنكي" بشأن جريمة عادية، وفي إحدي الجلسات أعلن أنه اشترك في عام 1954 بعملية تزوير توقيع "لافون" على الأوامر التي أدت إلى وقوع "كارثة الأمن في القاهرة"، وأضاف هذا الضابط معترفاً بأن لافون لا علاقة له بالموضوع.

واستغل لافون هذه الشهادة.. وطالب في اجتماعات حزب المابام والبرلمان والهستدروت بفتح تحقيق جديد، لإعادة اعتباره وتقرير براءته السياسية والاجتماعية من التهمة التي ألصقت به طيلة سته أعوام.. وتلقت الأحزاب المعارضة تلك الشهادة واتخذتها سلاحاً، لتحرج موقف بن جوريون، ولوضع حد لتسلطه على أجهزة الدولة منذ عام 1948. وكذلك فعل خصوم بن جوريونداخل الحزب إذ وصفوه بأنه يستأثر بالحكم ويعمل على تثبيت مركز مجموعة من الشباب في أجهزة الحزب أمثال: موشى ديان وأبا أيبان ويوسف ثال وسواهم.. وتكتلت هذه القوى السياسية المختلفة، وأصرت على لزوم إعادة فتح التحقيق، وبعد جلسات عديدة في الكنيست، تقرر أن تحال قضية "لافون" أمام لجان ثلاث.

1- اللجنة القضائية ويرأسها النائب العام الإسرائيلي "جدعون هاوزيز".
2- اللجنة الوزارية ومؤلفة من سبعة وزراء يمثلون الأحزاب المؤتلفة في الحكم ويرأسها وزير العدل "بن حارس روزمين".
3- لجنة الأمن والشؤون الخارجية.

وخلال مناقشات هذه اللجان الثلاث تبادل لافون وبن جوريون الاتهامات والشتائم ونشر الفضائح اللا أخلاقية، فوقف لافون يتهم بن جوريون وموشى ديان وضابط آخر بتزوير توقيعه، بينما رد بن جوريون الاتهامات بشتائم يكيلها إلى "زميله" وينعته بـ"المخرب.. هادم أوضاع أمن البلاد"، لكن بن جوريون عجز عن إقناع اللجان بعدم مسؤولية الجيش،

وأثناء انعقاد اللجان والسير بالتحقيقات طار النائب العام جدعون إلى باريس ليحقق مع موظفة في السفارة الإسرائيلية هناك كانت قبلاً سكرتيرة للجنرال موشى ديان – المتهم في القضية – وهناك اعترفت وهي تبكي بأنها تلقت أمراً لتقوم بتزوير الوثيقة بإضافة هذه العبارة "هذه الأوامر صادرة عن الوزير لافون".

وفي نهاية مداولات هذه اللجان الثلاث تقررت براءة "لافون" التامة.. وكان ذلك القرار بمثابة الضربة القاصمة لبن جوريون وللجيش.. وفي الوقت نفسه أعلنت "جولدا مائير" – وزيرة الخارجية آنذاك – عن عدم إمكانها الاستمرار في عملها ورغبتها في التخلي عن منصبها، وقد أيدت لافون، وانتقدت مسلك بيريز بوجه الملحقين العسكريين الإسرئيليين بشكل يسبب الإحراج لمبعوثي إسرائيل الدبلوماسيين، ويفسد أعمالهم في البلدان التي يعملون بها. ورغم وقوع بن جوريون في مأزق حرج بعدما تطورت الأمور على هذا الشكل السيئ، كان عليه أن يستقيل من رئاسة الوزارة بعد انشقاق حزبه وتكتل بقية الأحزاب ضده.. لكنه حاول وماطل في تقديم الاستقالة إذ منح نفسه إجازة لمدة شهر وترك الأمور معلقة وخلال هذه الفترة برزت قضية اختطاف إيخمان ومحاكمته، تلك القضية التي حققتها المخابرات الإسرائيلية، إنقاذاً لسمعة بن جوريون، وكذلك محو الوصمة عن أجهزة المخابرات أمام الرأي العام الإسرائيلي والصهيوني في العالم.. ومحاولة أخرى لكي توجه أنظار الرأي العام في الداخل والخارج، إلى الوجه البشع للنازية، عسى أن ينسى الناس بشاعة الوجه الصهيوني القبيح وأساليب ممارساته. إن الذاكرة العربية تعرف جيداً أنه عندما يخسر اليهود أو يفتضح أمرهم في أحد المسائل الجوهرية والحيوية، فإنهم يعمدون إلى إثارة مشكلة أكبر أو أزمة صعبة بين أحزابهم ونقاباتهم، أو بينهم وبين حلفائهم وأصدقائهم، سواء كان حقيقة أو ادعاء، حتى لا يفطن الآخرون إلى ما يريد اليهود أن يكون مجهولاً أو لا يتم توجيه أنظار الرأي العام له.

القسم الثاني

لا عزاء للجواسيس

توطئة

ليس من قبيل الادعاد أن نقول: إن المتتبع لتاريخ الكيان الصهيوني منذ نكبة 1948، حتى الآن، يجد أن إسرائيل قامت ومازالت على مبدأ الاختراق والتجسس، وهذا من صميم الفكر والعقلية الإسرائيلية المتجذر فيها عقدة الخوف باعتبارها كياناً قائماً على التضليل والخداع.

ومع ذلك، ظن البعض أن السلام بين إسرائيل وبعض الدول العربية سوف يدشن جسوراً من الثقة المتبادلة بين الطرفين، وعدم الالتفاف والخديعة، لكن إسرائيل لم تدع مجالاً لزرع الثقة وإظهار حسن النوايا، بل جعلت من الجاسوسية وسيلة لأهدافها.وأرادت أن تحول جميع مظاهر التطبيع والسلام الزائف إلى غطاء شرعي لأهدافها لاختراق الشعوب العربية بكل فئاتها.

ورغم تعثر ما يسمى بمسيرة قطار السلام الذي تحول بالفعل إلى ما يسمى بالسلام البارد، فإن محاولات التجسس الإسرائيلي مستمرة ومتتالية والثقة في التعامل تراوح مكانها، بل واجهت الكثير من النكسات، فإسرائيل غير مقتنعة بالعلاقات الإسرائيلية الرسمية عبر القنوات الدبلوماسية في العلن، بل تلجأ إلى الظلام، الذي يخبئ الخفافيش، وليس أدل على ذلك من أن إسرائيل وقعت معاهدة سلام مع مصر.

اكتشفت مصر بعد بدء عملية السلام قضية الجاسوس المصري الذي زرعه الموساد في سيناء عام 1981 ويدعى "عامر سليمان" وقد تم اكتشافه والقبض عليه في 22 نوفمبر 1993 وسجلت القضية تحت رقم 1/38 لسنة 1996، وفي ظل السلام البارد بين البلدين توالت عمليات سقوط الجواسيس.

فهل نستغرب ما تفعله إسرائيل مع أول دولة عربية وقعت معها معاهدة سلام؟.. لا يجب أن نستغرب، لأننا نعلم كيف تفكر، وماذا تريد، وهذا ليس بسر، لأن الدولة العبرية تؤكد مراراً أنها دولة من طراز خاص وهو الطراز الالتفافي. ومن أجل

ذلك فجميع أجهزة الدولة ما هي إلا أجهزة مخابرات، بما في ذلك وزارة الخارجية بسفرائها وقناصلها.. وفي هذا الصدد يقول كتاب "الدبلوماسية السرية والمخابرات" الذي صدر عام 1996 عن مركز الدراسات الاستراتيجية التابع لوزارة الدفاع الإسرائيلية، والملحق بجامعة تل أبيب: "إن وزارة الخارجية الإسرائيلية لا تزال منذ نشأتها في 14 مايو 1948 جزءاً لا يتجزأ من المنظومة الأمنية التي تشكل منها الفروع المختلفة للمخابرات، بل إنها تعد بمثابة الفرع العلني الممثل للموساد".

ويستطرد الكاتب قائلاً: "لقد بدأت منظومة المخابرات الإسرائيلية عملها داخل الإطار العام لقنوات العمل الدبلوماسي، حيث لم يكن هناك فصل بين العمل السري والدبلوماسية، فهما وجهان لعملة واحدة".

وهذا الكلام يؤكده بالفعل الواقع العملي، فمصر طردت الملحق الإعلامي بسفارة إسرائيل بالقاهرة عام 1998 "ليثوربن دور". بعد تورطه في قضية تجسس، بل إن أول قنصل لإسرائيل في القاهرة أصبح فيما بعد رئيسا لجهاز الشين بيت.. وقد أرسلت القاهرة رسالة واضحة إلى تل أبيب عقب انتهاء مدة السفير الإسرائيلي الخامس في القاهرة ديفيد سلطان، قالت فيها إنها تريد دبلوماسيا معروفا وليس جاسوسا!!

في كل يوم تتكشف حقائق ومعلومات جديدة عن جرائم المخابرات الصهيونية في حق الإنسانية، فالحقيقة الأكيدة أنها لم تتورع عن ارتكاب الجرائم وانتهاك الحقوق في سبيل تحقيق أهدافها.. كما شهدت العواصم الأوروبية والآسيوية والعاصمة الأمريكية أحداثاً للقتل والخطف والغش والتدليس، مارستها إسرائيل ضد خصومها سواء كانوا فلسطينيين أو عربا أو حتى أجانب أو مواطنين من البلدان ذاتها التي وقعت فيها هذه الجرائم. وقد يكون هذا بالتعاون مع أجهزة مخابرات دول أخرى أو بالتنسيق معها أو حتى من وراء ظهرها.

إن تاريخ اليهود في التجسس ليس حلقة عابرة في التاريخ ولا في علاقتهم بالعالم، بل هو حقيقة ارتبطت في وجدانهم وسلوكهم منذ بدء التاريخ حتى الآن، وكان للاستخبارات دور رئيسي في قيام دولة إسرائيل والحفاظ على بقائها واستمرارها في محيط عربي يرفضها، وظروف دولية لا تسمح بالاحتلال والعدوان، وفي نشر الفتن والدسائس بين الأصدقاء والخصوم على حد سواء.. استطاع اليهود – رغم كونهم أقلية في كل المجتمعات وكل العصور – أن يحفروا موقعا لهم في تاريخ العالم يحركون حروبه ومذابحه وانقلاباته الكبرى التي عانوها في بعض الأحيان ويفقدون مئات الآلاف من الضحايا على مذبح الانتقام.

في هذا القسم نجد الكثير من الإجابات لبعض الأسئلة.. وطرح أسئلة جديدة من خلال استعراض وبحث حقيقة بعض الجرائم التي مازالت طي السرية في أقبية المخابرات.. وجاءت معلومات هذا القسم من صور حقيقية ومن مصادر موثوقة ومتنوعة، لتعطي مؤشراً قوي الدلالة على جوانب الحرب الخفية التي مازالت تحت الرماد.

وتتعرض الفصول التالية لبعض من جرائم المخابرات الإسرائيلية، شملت عمليات قتل واغتيال بدم بارد واختراق المؤسسات التابعة لدول صديقة بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها.

ويتناول كذلك صورا من أشكال الصراع بين أجهزة المخابرات العربية ونظيراتها الإسرائيلية في العواصم العربية والأوروبية.

ويبقى أن نؤكد أننا اجتهدنا في تحري الدقة والمصداقية قدر استطاعتنا.

الفصل الأول

فضائح ضد أمريكا

– الموساد تقدم معلومات مضللة عن الرهائن لـ cia ورئيس الموساد يقول: إنهم مجانين.

– الـcia تتعامل مع جاسوس إسرائيل من أجل إنقاذ رهائنها.

أعلن اليهود في "بروتوكولات حكماء صهيون" أنهم سادة هذا العالم وحكامه الحقيقيون، وأن غيرهم ما هم إلا عبيد إحسانهم، وهم يمارسون هذا النهج عمليا ليس مع العرب والمسلمين فحسب، بل مع أولياء نعمتهم وسادتهم وضامني وجودهم "الأمريكيين" الذين يقدمون لهم العون بالمال والسلاح والتأييد السياسي صباحاً ومساءً.

فجهاز الموساد الذي أخذ على عاتقه تنفيذ بعض الأهداف السرية لا يعترف بهذه النعمة المهداة له ويقوم بقضم الأيدي الأمريكية، وهو على يقين من أن هذه الأيدي سوف تمتد إليه ثانية من جهة بالمعونة، ومن الجهة الأخرى لتنال بركات قضمها من بني إسرائيل.

وهذا ما حدث بالفعل في الفضيحة المعروفة باسم "إيران جيت"، عملية تفجير مركز القيادة الأمريكية ببيروت عام 1983، كانت نتيجته مقتل عشرات الجنود الأمريكيين وعملاء الـ cia، لأن الموساد رفض إعطاء الأمريكيين المعلومات التي توافرت لديه عن العملية التفجيرية. رغم طلب المخابرات المركزية الأمريكية هذه المعلومات عن المخطوفين الأمريكيين والأجانب.

وفي النهاية أعطاهم معلومات مضللة عن دور منظمة التحرير الفلسطينية وهو يعلم كذب هذه المعلومات، وكان يريد أن يستخدم لجوء الـ cia لمعونته لتوجيه ضربة سياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية التي كانت تسعى لإجراء حوار سياسي مع واشنطن.. ولم تنته الأزمة عند هذا الحد فقد دفعت إسرائيل بحليفتها القوية لتقديم أسلحة سراً إلى "إيران"، الدولة الإسلامية، من أجل مصالح إسرائيلية استراتيجية، فكانت فضيحة إيران "كونترا جيت" التي ذهب ضحيتها طاقم الإدارة الأمريكية في عهد الرئيس ريجان "أوليفرنورث وبوندنكسيتر".

ويقول أحد ضباط الموساد: "إن كل هذه المآسي من الرهائن إلى فضيحة إيران كونترا جيت. كان من الممكن تجنبها لو تعاون الموساد منذ البداية مع اليد الأمريكية الممدودة بالعطاء لإسرائيل. لكن ما لم يقله إن كثيرا من المآسي التي شهدها العالم منذ الحرب العالمية الثانية في فلسطين والمنطقة العربية ودول كثيرة منها أوروبا وأمريكا أيضا كان يمكن ألا تحدث لو لم يكن هناك وجود للعصابات الصهيونية وأجهزة مخابراتها المتغطرسة".

في صيف عام 1983 أبلغ أحد مجندي الموساد في بيروت عن شاحنة كبيرة من نوع مرسيدس يقوم بإعدادها المسلمون الشيعة لتفخيخها بقنابل، وقال: إن الأماكن المعدة فيها للقنابل أكبر من المعتاد، لذا فإن هدفها لابد أن يكون رئيسياً.. الموساد عرفوا أنه لابد أن يكون مركز تجمع القوات الأمريكية أحد الأهداف للعملية.. السؤال هو: هل تم تحذير الأمريكيين لأخذ الحيطة والحذر من شاحنة تطابق المواصفات؟.. كان القرار أكبر من أن يتخذ في مركز بيروت وتم توجيه السؤال إلى تل أبيب حيث قرر أدموني، وكان رئيساً للموساد، تحذير الأمريكيين بشكل عام والإشارة إليهم بصورة مبهمة أن لديهم سبباً للاعتقاد بأن أحدهم ربما يخطط لعملية ضدهم. لكن التحذير كان عاماً وعادياً كأنه تقرير عن حالة الطقس، لا يتطلب القيام بحذر خاص أو تشديد الإجراءات الأمنية.

أدموني في رفضه إعطاء الأمريكيين معلومات محددة حول الشاحنة قال: "لا لسنا هناك لحماية الأمريكيين. إنهم دولة كبرى.. أرسل المعلومات العادية فقط". غير أنه في الوقت نفسه أعطيت كل المنشآت الإسرائيلية التفاصيل المحددة وحذرت لمراقبة شاحنة تتوافق مع مواصفات المرسيدس. الساعة السادسة وعشرين دقيقة من صباح الثالث والعشرين من أكتوبر عام 1983 اقتربت شاحنة مرسيدس كبيرة من مطار بيروت تحت أنظار الحراس الإسرائيليين في قاعدتهم القريبة ، وعبرت حاجزاً للجيش اللبناني ثم انعطفت يساراً داخل موقف السيارات. أنذر حارس المارينز الأمريكي بأن الشاحنة تزيد من سرعتها، لكن قبل أن يتمكن من القيام بأي شيء كانت الشاحنة قد انحدرت باتجاه مدخل المبنى المكون من أربعة طوابق والتابع لـ"مركز سلامة الطيران المدني"، وكان يستعمل كمركز قيادة

الفيلق الثامن للمارينز، مخترقة بوابة من الحديد المطاوع مطيحة في طريقها بحواجز من أكياس الرمل لتنفجر بقوة هائلة جعلت المبنى حطاماً متناثراً على الفور.

بعد دقائق قليلة صدمت شاحنة أخرى مركز قيادة المظليين الفرنسيين في بئر حسن في حي سكني مواجه للبحر على بعد ميلين فقط من مركز تجمع قوات المارينز كانت الصدمة من القوة بحيث أزاحت المبني حوالى ثلاثين قدما وقتلت ثمانية وخمسين جنديا فرنسيا ومائتين وواحداً وأربعين جنديا من المارينز، كان معظهم نياماً عندما نفذت العملية الانتحارية، وهي تعتبر أكبر خسارة في الأرواح ليوم واحد منذ مقتل مائتين وستة وأربعين في فيتنام، حين بدأ هجوم في الثالث عشر من فبراير 1968. وخلال أيام سلم الإسرائيليون لـ"سي. آي. إيه" أسماء ثلاثة عشر شخصاً قيل إنهم متورطون بقتل المارينز الأمريكيين والمظليين الفرنسيين، وشملت اللائحة أسماء لضباط في المخابرات السورية والإيرانية في دمشق والشيعي محمد حسين فضل الله.

أما في مركز قيادة المخابرات الإسرائيلية فقد كانت هناك تنهيدة ارتياح لأن الإسرائيليين لم يكونوا هم من تلقى الضربة.. الانطباع العام الذي كان سائداً هو أنه إذا كان الأمريكيون يريدون التدخل بقضية لبنان فليدفعوا الثمن. ويقول ضابط الكاتسا أوستروفسكي: بالنسبة لي كانت المرة الأولى التي يوجه إلى فيها توبيخ عنيف من رئيسي في الموساد ضابط الارتباط "إيمي يار". لقد قلت في ذلك الوقت إن الجنود الأمريكيين الذين قتلوا في بيروت سيظلون عالقين في أذهاننا لوقت طويل لأنهم جاءوا بنية طيبة ليساعدونا على الخروج من هذه الورطة التي سببناها. قيل لي: "اخرس إنك تتكلم خارج الموضوع، نحن نعطي الأمريكيين أكثر مما يعطوننا". كانوا دائماً يقولون ذلك لكن الأمر غير صحيح وكثير من المعدات الإسرائيلية كانت أمريكية الصنع والموساد كان مديناً لهم بالكثير.

وفي غضون ذلك، ظل عدد كبير من الغربيين يختطفون ويحتجزون كرهائن لدى مختلف الأحزاب اللبنانية. وفي أحد الأيام من أواخر مارس 1984 غادر وليام باكلي رئيس مركز الـ"سي. آي. إيه" والمسجل رسميا ضابطاً سياسياً في السفارة الأمريكية، شقته في بيروت الغربية واختطف على يد ثلاثة جنود شيعة، وتم احتجازه لمدة ثمانية عشر شهراً تعرض خلالها للتعذيب، وأخيراً قتل بشراسة رغم أنه كان من الممكن إنقاذه.

فالموساد من خلال شبكته الواسعة من المخبرين كانت لديه فكرة جيدة عن أماكن احتجاز كثير من الرهائن، ورجل مثل "باكلي" يعتبر مهماً لدرجة كبيرة، نظراً لحجم المعلومات التي بحوزته، وهو ما دفع بيل كايسى رئيس الـ"سي· آي · إيه" للإصرار على إنقاذ باكلي، لدرجة أنه أرسل لإنقاذه فريقا من خبراء الـ "سي. آي. إيه" المدربين على كشف مواقع الضحايا الرهائن إلى بيروت للمساعدة على إنقاذ باكلي، لكنهم بعد شهر عادوا "صفر اليدين"، رغم أن كايسي سمح بدفع مبالغ كبيرة للمخبرين إذ اضطره الأمر لشراء حرية باكلي.

ولم يستغرق الـ"سي. آي. إيه" وقتا طويلا للتوجه إلى الموساد طلباً للمساعدة، فبعد وقت قصير من خطف باكلي كان ضابط ارتباط الـ"سي. آي . إيه" في تل أبيب يسأل الموساد عن كل المعلومات الممكنة حول باكلي ومخطوفين آخرين، وعند الساعة الحادية عشرة والنصف في أحد الأيام طلب عبر اتصال هاتفي داخلي في مركز قيادة الموساد من جميع الموظفين عدم الاقتراب من الطابق الرئيسي والمصعد خلال الساعة المقبلة، لأن هناك ضيوفاً قادمين.. اثنان من مسئولي الـ"سي. آي. إيه" دخلا وتوجها إلى مكتب أدموني الكائن في الطابق التاسع، وقال لهما رئيس الموساد إنه قد يعطيهما كل ما لدى الموساد، أما إذا كانا يريدان شيئاً خاصا فعليهما أن يطلبا ذلك عن طريق رئيس الوزراء "لأنه رئيسنا".. في الحقيقة إن أدموني أراد طلباً خاصا حتى يتمكن من رد المعروف لاحقا إذا اضطرته الحاجة.

وهو ما دفع الأمريكيين إلى أن يتقدموا بطلب رسمي من خلال سفيرهم إلى رئيس الوزراء شيمون بيريز الذي أصدر تعليماته لأدموني بأن تعطي الموساد الـ "سي. آي. إيه" كل ما يساعد على حل مشكلة الرهينة الأمريكي.

سياسيا.. هذه الأمور قد تكون كالديناميت، فإدارة ريجان تذكر جيدا الضرر السياسي والذل اللذين عاناهما جيمي كارتر عندما كان الأمريكيون محتجزين في إيران بعد الإطاحة بالشاه. أدموني أكد لبيريز أنه سيبذل كل جهده لمساعدة الأمريكيين، قال: "ربما لدينا معلومات تساعدهم" ولكن في الحقيقة لم تكن لديه أية نية لمساعدتهم.

اثنان من مسئولي الـ"سي. آي. إيه" وهما خبيران بأمور منظمة التحرير استدعيا للاجتماع بشعبة السيفانيم "السمك الذهبي" التابعة للموساد، ونظرا إلى أن إسرائيل تعتبر منظمة التحرير عدوها الأول فكان الموساد يحسب أنه إذا كان بالإمكان إلقاء مسؤولية أي عمل على منظمة التحرير فإن ذلك يعتبر نصرا لإسرائيل. لذا راحوا يحاولون اتهام منظمة التحرير بالرغم من معرفة الكثيرين منهم بألا علاقة لاختطافهم بمنظمة التحرير. وبأمل الظهور وكأنهم يتعاونون كليا.. قام رجال السيفانيم بلصق الخرائط على حائط غرفة الاجتماع وقدموا للأمريكيين معلومات وافية حول الأماكن العامة للمخطوفين، ورغم أن الرهائن كانوا دائما ينقلون إلى مواقع جديدة فإن الموساد كانت لديه معلومات عامة وجيدة عن أماكن وجودهم، كل هذا كان جزءا من نظام غير مكتوب لكنه حقيقي جدا لتسديد الدين مقابل تقديم خدمات في المستقبل.

في نهاية الاجتماع أرسل تقرير شامل لأدموني.. أما الأمريكيون فقد عادوا وبحثوا الأمر مع رؤسائهم وبعد يومين طلبوا مزيدا من التفاصيل وقد أرادوا التحقق من التفاصيل، طلبوا أن يتكلموا مع رجل الموساد فجاءهم الرد حاسماً: انس الأمر "لا أحد يتكلم مع المصادر".. قال رجل الـ"سي. آي. إيه": "هذا يكفي، هل بالإمكان التحدث مع الضابط المسؤل عن القضية؟".

بالتأكيد الموساد يحافظون على هوية رجال الكاتسا بقوة، فلا يمكنهم المجازفة بأن يراهم أحد. إن رجل الكاتسا في بيروت اليوم ربما ينتهي به الأمر إلى العمل في أي مكان

غداً، ويصادفه رجل الـ"سي. آي. إيه" فيطيح بعملية بأكملها، رغم ذلك هناك عدة طرق لترتيب مقابلات لا يلتقي فيها الطرفان، مثلا التكلم من وراء شاشات وتشويش الصوت أو وضع غطاء على الرأس، لكن لم تكن للموساد أية نية للمساعدة رغم الأوامر المباشرة من "رئيسهم" بيريز في ذلك الوقت.

شاع الخبر في الشعبة أن أدموني مستاء. عشيقته التي كانت ابنة رئيس التسوميت هي أيضا منزعجة كانت في دورتها الشهرية، هكذا كانت النكتة عند الغداء في غرفة الطعام.. كان الجميع يتحدثون عن موضوع الرهائن. مع وصول الموضوع إلى غرفة الطعام كانت القصة ربما ضخمت بعض الشيء. وعلق أدموني ساخرا: "الأمريكيون أولاد العاهرات تبا لهم ربما يريدوننا أن نحضر لهم رهائنهم أيضا، هل هم مجانين؟".

قال كثير من الناس في الحكومة: "إن رجال الموساد سيندمون يوما ما"، لكن الأغلبية كانوا سعداء لقد كان الموقف هكذا "لقد تمكنا منهم، لن نسمح للأمريكيين بركلنا على مؤخراتنا، نحن الموساد.. نحن الأفضل".

فضيحة إيران جيت

كان القلق على باكلي وغيره من الرهائن كبيراً، مما دفع كايسي إلى التحايل على سلطة الولايات المتحدة التشريعية والتورط في خطة لتزويد إيران بأسلحة محظورة مقابل سلامة الرهائن الأمريكيين فتتأجج فضيحة إيران كونترا.. لو قدم الموساد المساعدة منذ البدء لكانوا ليس فقط أنقذوا حياة باكلي وآخرين، بل لتفادوا أيضا هذه الفضيحة السياسية الأمريكية الكبرى ورأى بيريز أن من مصلحة إسرائيل أن تقدم التعاون، لكن الموساد وأدموني خاصة كانت لديهم مصالح أخرى دأبوا على تحقيقها بلا رحمة.. المأساة الأخيرة لتورط إسرائيل في لبنان عن طريق الموساد وقتئذ كان الكثير من العملاء قد سرحوا والشبكة كلها انهارت. كثيرون قتلوا رغم أن آخرين تم تهريبهم للخارج.

خلال هذه الفترة كان مستشار بيريز لشئون الإرهاب رجلا اسمه أميرام نير، وعندما شك بيريز في أن الموساد لا يقدم المساعدة للأمريكيين – كما يجب – قرر استخدام "نير" كضابط اتصال شخصي بين البلدين. وكان نير على صلة بالمقدم أوليفر نورث محور الشخصيات في فضيحة إيران كونترا. كان نير مخطط الأحداث وكأنه يحمل الكتاب المقدس المشهور والموقع عليه من قبل رونالد ريجان.. قام نورث ومستشار أمن قومي سابق في الولايات المتحدة هو روبرت ماكفارلين بجواز سفر أيرلندي مزور بزيارة إيران سرا في مايو 1986 لبيع الأسلحة، استعمل ريع تلك الصفقة لشراء أسلحة لثوار الكونترا في نيكاراجوا الذين تدعمهم الولايات المتحدة.

كانت لـ "نير" اتصالات واسعة ولعب دوراً بارزاً في القبض على خاطفي الباخرة السياحية أكيلي لاورو عام 1985. أطلع نائب الرئيس الأمريكي ومدير الـ "سي. آي. إيه سابقا" جورج بوش على مفاوضات الأسلحة لإيران. ونسب إلى "نير" قوله إنه هو ونورث أشرفا على عدة عمليات لمكافحة الإرهاب في 1985، 1986 بموجب اتفاقية سرية بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل. وفي نوفمبر 1985 عزا نورث إلى نير فكرة جمع الأرباح من بيع الأسلحة لإيران من أجل التغطية لعمليات أخرى.

إن تورط نير في كل هذا يثير الاهتمام أكثر بسبب علاقته برجل أعمال غامض اسمه مانوخر جوربانيفار يعمل في إيران. رئيس الـ "سي. آي. إيه" بيل كايسي حذر نورث بأن جوربانيفار عميل مخابرات إسرائيلي، على الرغم من ذلك رتب جور بانيفار ونير المساعدة الإيرانية في 29 يوليو 1986 لإطلاق سراح لورنس جنكو وهو رهينة أمريكي عبر بعض المتطرفين.. خلال أيام من إطلاق سراح جنكو أطلع نير جورج بوش على الحاجة للتجاوب بشحن الأسلحة لإيران.

جوربانيفار كان مصدراً لـ"سي. آي. إيه" منذ عام 1974 وهو الرجل الذي روج الشائعات عام 1981 عن إرسال فرق انتحارية ليبية إلى الولايات المتحدة لقتل ريجان

بعد سنتين. وبعد التأكد أنها محض شائعات أنهت الـ "سي· آي · إيه" علاقته كمصدر وأصدرت في عام 1984 تحذيرا رسميا بأن جوربانيفار هو "ملفق موهوب"، ورغم ذلك كان جور بانيفار وراء قرض الخمسة ملايين دولار الذي قدمه الملياردير السعودي عدنان خاشقجي للتغلب على عدم الثقة بين إيران وإسرائيل في صفقة الأسلحة.

ونقلا عن أحد ضباط الموساد فإن خاشقجي نفسه تم تجنيده منذ سنوات عميلاً على يد الموساد في الحقيقة، وتم إعداد طائرته الخاصة والمدهشة التي كتب الكثير عنها في إسرائيل.. الخاشقجي لم يكن يحصل على راتب من الموساد كالعملاء العاديين بل كان يستعمل أموال الموساد في كثير من أعماله، كان يحصل على القروض متى يشاء ومبالغ كبيرة من أموال الموساد كانت تمر عبر شركاته معظمها صادر عن وفاديا غاون، وهو ملياردير يهودي مغربي الأصل متمركز في باريس كان يتم الاتصال به عند الحاجة لمبالغ كبيرة من المال.

بالمقابل لم توافق إيران على الدفع قبل تسلم الأسلحة ولم تشأ إسرائيل إرسال صورايخ "تاو" قبل تسلمها المال، لذا كان ضروريا الحصول على هذا القرض السخي من الخاشقجي لإكمال الصفقة. وبعد وقت قصير من الصفقة تم إطلاق سراح رهينة أمريكي آخر هو القس بنجامين، وبالرغم من أن الأمريكيين مقتنعون بأن جوربانيفار كاذب فإنه يستطيع إطلاق سراح الرهائن من خلال اتصالاته بإيران. وفي الوقت نفسه كانت إسرائيل تبيع سرا ما قيمته حوإلى خمسمائة مليون دولار من الأسلحة لآية الله الإيراني الخوميني، وهناك قليل من الشك بأن جوربانيفار وشريكه نير استعملا هذا النفوذ للتفاوض في صفقات على الرهائن الأمريكيين.

في التاسع والعشرين من لقاء يوليو 1986 التقى نير بوش في فندق الملك داود في القدس، وتفاصيل اللقاء سجلت في مذكرة بالغة السرية من ثلاث صفحات كتبها جريج فوللر رئيس أركان بوش.. تذكر المذكرة أن نير أخبر بوش بالتورط الإسرائيلى، وقال إن

الأمريكيين يتعاملون مع العناصر الأكثر تطرفا في إيران.. ريجان كان قد ادعى باستمرار أنه يتعامل مع إيرانيين "معتدلين" في إرسال الأسلحة لإيران.

وعندما تم استدعاء نير للإدلاء بشهادته عام 1989 في محاكمة نورث على فضيحة الكونترا إيران خاصة، لأنه ادعى إشرافه هو ونورث على عمليات لمكافحة الإرهاب خلال 1985 ، 1986 بموجب اتفاقية أمريكية - إسرائيلية سرية.. كانت شهادته ستسبب إحراجا كبيرا ليس فقط للإدارة الأمريكية بل أيضا في تأكيد دور الإسرائيليين الكبير في القضية كلها.. غير أنه في الثلاثين من نوفمبر 1988 وبينما كان في طائرة سيسنا t 210 فوق مزرعة تبعد مائة وعشرة أميال عن مدينة مكسيكو، ورد خبر وفاة نير مع كابتن الطائرة التي تحطمت وأصيب الركاب الثلاثة الآخرون إصابات طفيفة بمن فيهم الكندية إدريانا ستانتون "25" سنة التي ادعت أنه لا علاقة لها بنير. غير أن المكسيكيين وصفوها بأنها "سكرتيريته" و"دليلته"، وكانت تعمل في شركة لنير وتربطه علاقة بها.. لكنها رفضت الإدلاء بأي تعليق آخر.

وكان "نير" في المكسيك يقوم ببحث تسويق مشروع تجاري له، وفي التاسع والعشرين من نوفمبر قام بزيارة مصنع لتجهيز الأفوكادو في الولاية المكسيكية الغربية ميشواكان. كانت لدى "نير" مصلحة مادية ضخمة في المشروع، في اليوم التالى استأجر طائرة شارتر خفيفة للانتقال إلى مكسيكو بصحبة شخص يحمل الاسم المستعار "بات ويبر" الذي حسب قول المسؤولين أنه قتل عند التحطم، غير أن "جثته" تعرف عليها الأرجنتيني الغامض "هو بيدرو كروشيه" الذي كان يعمل لنير في المكسيك بطريقة غير شرعية، وأخبر البوليس بأنه أضاع بطاقته الشخصية في مصارعة الثيران لكن حتى بدونها تمكن من أخذ بقايا نير، بالإضافة إلى ذلك خرجت تقارير أخرى من مكتب النائب العام أكدت أن نير وستانتون رغم سفرهما لإقامة عمل شرعي فإنهما كانا مسافرين باسمين مستعارين، ولم يفسر الخطأ إطلاقا، وبالرغم من أن أكثر من ألف شخص حضروا جنازة نير في إسرائيل من بينهم وزير الدفاع إسحق رابين الذي تكلم عن تكتمه الشديد لمهماته

السرية التي كلف بها وأنه حفظ الأسرار مقفلة في قلبه، فإن "التورونتوستار" ذكرت بلسان مسؤول مخابرات لم يكشف عن اسمه، أنه لا يصدق أن نير مات، والأحرى أن يكون قد توجه إلى جنيف ليقوم بجراحة لتغيير ملامحه، قال: "حيث العيادات جيدة جدا، خاصة جدا، ومتحفظة جدا، مهما حصل لنير لا يمكننا سوى التخمين بشأن الضرر الذي كان سيلحق بالإدارة الأمريكية والحكومة الإسرائيلية فيما لو أدلى بشهادته في استجوابات إيران كونترا ومحاكمة المجرمين. ويبدو أن بيريز قد رتب مسألة موت نير لتجنب الإدلاء بشهاداته حتى لا يحرج الرئيس ريجان نفسه.

إن الضحية الوحيدة، كان بويند كستر فقد سجن من بين سبعة متهمين في الفضيحة، وفي الحادي عشر من يونيو 1990 تلقى حكما بالسجن لمدة ستة أشهر ومحاضرة قاسية من القاضي هارولد غرين الذي قال: "إن بويند كستر يستحق السجن لأنه العقل المخطط لعملية إيران كونترا.

وقبل ذلك، وفي الثالث من مارس 1989 حكم على روبرت ماكفارلين بغرامة عشرين ألف دولار أمريكي وتعليق العقوبة بالسجن لمدة سنتين، بعدما اعترف بجرمه في أربع جنح وبحجبه المعلومات عن الكونجرس. وفي السادس من يوليو 1989 وبعد محاكمة واشنطن المثيرة حكم على نورث بغرامة قدرها مائة وخمسين ألف دولار وأمر بتنفيذ ألف ومائتي ساعة من الخدمات الاجتماعية.

وأمام هيئة محلفين أخرى في الرابع من مايو تلقى نورث أيضا حكما معلقا لثلاث سنوات، بالإضافة إلى سنتين اختبار، مذكرة نورث لبويند كستر تؤكد أهمية دور نير في هذه الفضيحة.

في ذلك الوقت كان ثلاث رهائن أمريكيين قد أطلق سراحهم مع صفقة الأسلحة هم: جنكو وير ودايفيد جاكوبسون. تحت عنوان "رهائن" قالت المذكرة: منذ عدة أسابيع خلت عبر بيريز عن قلقه من أن الولايات المتحدة ربما تعتزم وقف الجهود القائمة مع إيران،

يرى الإسرائيليون موضوع الرهائن عقبة يمكن التغلب عليها في الطريق لتوسيع العلاقات الاستراتيجية مع الحكومة الإيرانية.

يصعب الجزم بموت "نير" وبالإضافة إلى أن تجار الأسلحة الإسرائيليين كانوا يهربون الأسلحة والتدريب عبر الكاريبي إلى لوردات المخدرات في كولومبيا فمن غير المحتمل أن يكون نير قد مات.. قد لا نعرف بالتأكيد لكننا نعرف أنه لو كانت المخابرات الإسرائيلية مستعدة أكثر لتقديم المساعدة والمعلومات بشأن الرهائن الأمريكيين والغربيين لما كانت فضيحة إيران كونترا قد تفجرت.

الفصل الثاني

جاسوسة حسناء

– لجنة خاصة في بريطانيا لتجنيد الجاسوسة الحسناء.

– في مقر الصداقة البريطانية – الإسرائيلية.

– بين إنجلترا وأستراليا وإسرائيل وألمانيا عاشت إيريكا رحلة الإعداد والتغطية.

– شهادة فقر من الشرطة السرية الألمانية عميلة الموساد.

مرت سبع سنوات تقريبًا من بين قرار "جولدا مائير" التي كانت تشغل منصب رئيس وزراء الكيان الإسرائيلي سنة 1972 بالقضاء على الأمير الأحمر الشهير بأبي حسن (على حسن سلامة)، وبين تمكن الموساد من النيل منه في 22 يناير 1979 في حادث الانفجار الذي هز بيروت وأصاب الرئيس عرفات بحزن شديد في دمشق.

خلال هذه السنوات لم تتوقف مطاردات المخابرات الإسرائيلية للأمير الفلسطيني في شتى المدن الأوروبية وفي بيروت نفسها، وذهب ضحية هذه المطاردات آخرون من الفدائيين والمواطنين الأبرياء، وأصيب في إحداها الشهيد على حسن سلامة إصابة بالغة في بطنه من رصاصة أطلقها عليه مجهول في بيروت، إلا أنه أمكن علاجه واستعادة عافيته، ولكن بعد عدة أشهر من هذا الحادث كان موعده مع الموت مع الفتاة البريطانية إيريكا تشامبرز التي تم تجنيدها في الموساد لهدف واحد فقط، هو الفوز برأس سلامة.

وعندما أنجزت هذه المهمة عادت إيريكا تشامبرز إلى إنجلترا واختفت هناك وضاعت كل معالمها وآثارها، حتى عادت إلى الذاكرة بعد سنوات عندما قتلت سيدة يهودية ومعها آخرون في قارب صغير في ميناء لارناكا القبرصي، وقيل إنها المسئولة عن اغتيال "أبي حسن"، وهو ما أصاب السلطات الإسرائيلية بحالة غضب قامت بعده بعملية "حمام الشط" التي قصفت فيها مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس، فمن سيدة الموساد؟!

وما حكايتها مع الشهير على حسن سلامة؟

ولدت إيريكا تشامبرز في 10 فبراير 1948 وكانت الابنة الأولى والوحيدة لماركوس تشامبرز وامرأته "لونا" اليهودية التشيكية، وبعد خمس سنوات من ميلادها انفصل والداها وعاشت مع أمها "لونا" بينما عاش أخوها الذي كان يكبرها بأربع سنوات مع أبيه. كانت جذابة واجتماعية وتلفت الأنظار لها دائمًا. التحقت بالجامعة وبعد تخرجها سافرت

إلى أستراليا مع صديق لوالدها يدعى "جودار" لم يكن متزوجًا وإن كان يعيش مع مديرة منزله التي تدعى "نيللي" قرابة عشرين عامًا حياة زوجية كاملة، وهناك التحقت بوظيفة حكومية واضطرت إلى الانتقال للعيش في كانبرا، لكنها قطعت أعمالها وارتباطاتها فجأة لتذهب إلى إسرائيل بحجة الدراسة.

ضيفة في إسرائيل

دخلت إيريكا مطار بن جوريون بجواز سفرها الحديث، الذي استخرجته منذ أسابيع قليلة من المفوضية العليا البريطانية في كانبرا، وبدأ فصل جديد تمامًا من حياتها. في الفترة الأولى – قبل أن تنضم إلى عالم المخابرات – عاشت إيريكا في بيت الطالبات وكان مقر دراستها في جامعة "هيتربو"، كلية علم النبات والجغرافيا. بدأت تحت إشراف آشير شيك ذي الشهرة العالمية في مجال علم أشكال الأرض والمائيات، في إعداد أطروحتها للماجستير، وعملت لفترة زمنية طويلة في فريق جعل من سيناء حقلا لأبحاثه. كان الطلبة يعملون في وادي "فهيبلة" الذي يقع في الجنوب الشرقي من سيناء، وأثناء فترة احتلال إسرائيل لها 1967-1982، بحثوا هناك عن تاريخ الفيضانات، التي تحدث كل عشر سنوات، وأثرها في نمو الشجيرات الصغيرة.

كان من يسجل نفسه في مجموعة البحث الميداني في سيناء يواجه عملاً متعبًا حقًا، إذ يجب عليه أن يقوم مع الطلبة بعملية مسح للأشجار وحصد الحقول في درجة حرارة تصل إلى 40 درجة في مناطق الظل – إن وجدت – وكان الكثير من هذه الأشجار مغطي بأشواك حادة. وذات مرة أصيبت إيريكا بشوكة من هذه الأشواك في عينها، وكان الجرح غائرًا، لذلك تمت معالجتها في مستشفى إيلات بسرعة.. لم تستطع إيريكا أن تستمر في تحمل هذه الحياة، وتقدمت بطلب للالتحاق بكلية الجغرافيا في جامعة كلارك.

وفي عـام 1973 التقـت إيريكـا تشـامبرز "بمكتشـف المواهـب" في الموسـاد الإسـرائيلي، وفي مصـطلحات لغـة المخـابرات الـتي تعـود إلى العصـر الجرمـاني يسـمى "spotter" أي: "المستطلع".

هـذا "المسـتطلع" يعمـل تقريبًـا في كـل مكـان في إسـرائيل، خاصـة حيـث يتواجـد الأجانب بانتظام، وحيث يقيمون. ويظل "المستطلعون" يراقبون ويسجلون ويهتمون بكل الزائرين باستثناء الأمريكيين، لأنه ربما غير مسموح باستخدامهم. وهذا شيء تم التقيد به في الاتفاقيـة رقـم 27 لسـنة 1976 الـتي تعتـبر واحـدة مـن 29 اتفاقيـة بـين "c.i.a" والموساد.

والمستطلعون يعرفون تمامًا، ما الطراز الذي يجب البحث عنه، فذوو المظاهر المبالغ فيها والألوان الزاهية مستبعدون، وكذلك النقيض لهذا الطراز من ذوي الشيبة والانطواء النفسي. فالوكالة تبحث عن شخص عادي، وخواص هذا الشخص من الصعب وصفها، لكن المستطلعين فقط هم الذين يشعرون به. ومن الطبيعي أن يكشف المستطلع كل شهر من عشرة إلى ثلاثين مرشحًا يتم تصفيتهم بعد ذلك.

تجنيد إيريكا تشامبرز

والعميلة الطالبة التي في حالتنا هذه، وهي إيريكا تشامبرز، جاءها استدعاء مؤثر بشكل لطيف. فقد أراد رئيس شئون الطلبة أن يتحدث معها ورئيس السلطات الأجنبية وقسـم السـجلات في الجامعـة، وأحـد مـوظفي السـنترال ومجلـس الصـداقة الإسـرائيلي — البريطاني.. أتت بسذاجة إلى العنوان الموجود رسميًا، والمشار إليه، وكان في انتظارها أشخاص ودودون، حاوروها في بادئ الأمر حول الموضوع الخاص بها، فهم يعرضون بحذر شائق ويحرصون على أن كل الأوراق تظل في أيديهم حتى النهاية. ولم تفهم إيريكا لوقت طويل عم يتحدثون، وشعرت بأنها محاصرة ولا تعرف ما الذي يحدث بعد ذلك.. أما في الجانب

الإيجابي فقد بدأ هؤلاء في اللعب على وتر الحس الوطني والديني لدى العميلة المنشودة، قالوا لها: نحن نمنح فرحة دولية، لها أهمية كبرى بالنسبة لبقاء وأمن الشعب اليهودي.

وإذا ما أبدى الشخص المستهدف اهتمامًا بالغًا. فمن الممكن ألا يمر شهر حتى يصبح العميل سهلاً في الاستجابة، والموساد الذي يسمى في اللغة الداخلية (المكتب) لا يختلف عن الـ"cia" التي تسمى الوكالة، يقدم عقدًا مدته خمس سنوات يتضمن سنة تدريبات أساسية وسنة تدريبات خاصة وثلاثة أعوام من الخدمة النشيطة.

وطارت إيريكا تشامبرز من تل أبيب إلى لندن يوم 22 مايو، وكانت تحمل معها حقيبة صغيرة. بعد أن تشربت بسمرة أنثوية خفيفة بسبب سفرها منذ ست سنوات. لقد سبق لها أن جندت في صفوف رعايا صاحبة الجلالة وتخلت عن جواز سفرها في كانبرا. وفي ذلك الوقت وجدت نفسها وحيدة –ومعها تأشيرة دخول إسرائيل.

وجدت إيريكا نفسها مجبرة على السير في الطريق الصحيح – الذي رسمه الموساد لها – وألا تسافر إلى أمها التي تحبها أكثر من أي شيء. فمن غير المسموح أن تعرقل العلاقات الأسرية نشاط أية عملية، لذا يجب عليها أن تتحكم في سلوكها وظروف حياتها، وبدلاً من الأسرة فإن الذي يحل محلها هو رئيس العملاء. وهذا الرئيس هو الذي يكون عوضًا عن الأب، والأم، وقس الاعتراف، كما أنه هو الشريك المخلص في الموساد.

وفي الليالى الأربعة الأولي أقامت إيريكا تشامبرز في أحد الفنادق الصغيرة. وفي تلك الحجرة الضيقة لم تشعر بأية رفاهية، لكنها كانت في حاجة إليها حتى تجد شقة مؤثثة تأثيثًا مناسبًا. وقضت بعد عودتها لوطنها أول يوم في البحث عن سكن، وقامت بزيارة قصيرة للأماكن المألوفة لديها قبل سفرها إلى استراليا وإسرائيل. وفي النهاية سكنت عميلة الموساد في ريتشمون أحد أحياء جنوب شرق لندن. كان الوصول من وسط مدينة لندن إلى محطة ريتشموند بوسائل النقل المفتوحة يستغرق ساعة واحدة.

جواز سفر جديد

وفي 30 مايو 1975 قامت إيريكا تشامبرز بزيارة أحد مكاتب جوازات السفر بلندن، وطلبت سحب جواز سفرها الخاص الذي مازال سارِي المفعول لمدة سبع سنوات من مكتب المندوب السامي البريطاني في كانسبر، ولتبرير ذلك قالت: "إنني كثيرة السفر إلى الشرق الأوسط، ويوجد بجواز سفري خاتم إسرائيل، وللأسف فإن هذا لا يسمح لي بالقيام برحلات إلى أية دولة عربية. وهكذا فإنني في حاجة إلى جواز سفر جديد يمكنني بواسطته زيارة الدول العربية.

حصلت على وثيقة سفر حديثة، وكان سريان هذا الجواز حتى 30 مايو 1985، وهي مدة كافية لاصطياد على حسن سلامة. بعد ذلك طارت إلى جمهورية ألمانيا الاتحادية في شهر يونيو، وبالتحديد إلى جامعة "ألاريجون الحرة"، وأرلانجن ضاحية دراسة يفضلها الشباب العرب. وهناك قابلت د.فولفي يخ هيتروث من معهد الجغرافيا – التابع للجامعة، وأخبرته بالآتي:

لقد أوصاني أستاذي الأسبق الأستاذ "مالكولم فاجستاف" بأن أتصل بك، لقد درست لمدة ثلاث سنوات في ساوث هامبتون، كما هو واضح من مستنداتي، وآخر امتحان أديته هناك كان للحصول على شهادة الثانوية، لكنني للأسف لم أحصل عليها، وحيث إنني أرغب في تحسين وظيفتي، في هذه الحالة على أن أواصل دراستي عندكم للحصول على درجة علمية، كما أرغب في تحسين لغتي الألمانية، وبخلاف هذا فإن لي اهتمامات كثيرة بالشرق الإسلامي.

لم يجد الأستاذ هيتروث مانعًا من أن يوافق على طلب إيريكا، وبدأت تدريبها بجامعة ألاريجون بتاريخ 17 يونيو، لقد قامت عميلة المخابرات حتى تلك اللحظة بما فيه الكفاية من أجل حقها المدني الظاهري، وعادت إلى لندن وبدأت في منتصف شهر يوليو

تأثيث شقتها في ريتشموند مرة أخرى، وخلال الشهرين التاليين اختفت عن الظهور حيث كان يبدو أنها تسافر كثيرًا في تلك الحقبة الزمنية، ومن بين هذه السفريات زيارة قامت بها إيريكا تشامبرز في صيف 1975 إلى إسرائيل، ثم عادت مرة أخرى إلى فرانكفورت يوم 26 أغسطس.

قضت الفتاة الإنجليزية شهرًا كاملاً، وكانت إيريكا تشامبرز تتصرف كسائحة ولم تظهر أي نشاط من الممكن اكتشافه، فهل كان الموساد يتوقع مرور علي حسن سلامة بفرانكفورت؟ هل حصلت عميلته على معلومات من داخل منظمة التحرير الفلسطينية تفيد بأنه سيحضر إلى مدينة "الماين"؟.. هل كانت إيريكا تشاهد المناظر في فرانكفورت والأنوار الحمراء على محطة السكك الحديدية الرئيسية وحدها، أم أن مايك هاراري المسئول عنها في الموساد أرسل كل فريق الهجوم، المكون من 16 فردًا؟.. هل هرب علي حسن سلامة، أستاذ التنكر والخداع بعد تجدد محاولة قتله؟ مايك هاراري وإيريكا تشامبرز الوحيدان اللذان يمكنهما الإجابة عن تلك التساؤلات، لكنهما لن يفعلا ذلك أبدًا!

سافرت "إيريكا" من فرانكفورت إلى فيسبادن، وهي من المدن الألمانية المناسبة للعلاج والتي يوجد بها الكثير من عطايا الإمبراطور وليام، والتي تعتبر عاصمة ولاية هلسن وتقع عند مركز اتصال المواصلات لمدينة فرانكفورت.

وفي أول يوم استأجرت إيريكا تشامبرز مرة أخرى حجرة في أحد الفنادق، وكان هذا الفندق يسمى "الباني" ويقع عند ملتقى شارعي جايسبرج –كابلين.. وفي اليوم التالى حصلت الإنجليزية على وعد بالإقامة من إدارة معونة الأجانب بمدينة فيسبادن. وهنا قامت بملء طلب، وقد لاحظت في أحد الأعمدة المطبوعة مدة الإقالة المطلوبة: من أربع إلى خمس سنوات. وتحدد الوظيفة المطلوبة لتكسب البحث عن عمل. وتزيد، أن لديها النية، في الدراسة في جامعة فرانكفورت. ولدى سؤال عن مصدر التمويل، أجابت إيريكا تشامبرز: عن طريق التوفير، وقلب الموظف المختص صفحات جواز سفرها اللندني الجديد ببطء، وتأكد من عنوانها المثبت في الجواز لندن، ريتشموند هيل 52. وبالضبط وبعد

أسبوع سمحت فيسبادن -دون أية مشكلات- بمنحها تصريح إقامة قانونية لمدة خمس سنوات.

ومن جديد بدأت إيريكا تشامبرز بمشروعها. وبعد أيام قلائل من تسجيلها في فيسبادن قامت بزيارة جامعة فرانكفورت. وعن طريق أحد أساتذتها الخبراء قامت بأداء اللعبة ذاتها التي سبق ولعبتها في ألاريجون، ولم تلح في تفاصيل جميع الأمور بصورة مكثفة. قالت إنها مولعة بدراسة الجغرافيا في فرانكفورت. وكان الأستاذ جادًا، فطلب أن يراها بعد أسابيع تجلس في إحدى محاضراته، لذا لم تجازف في الظهور بعد ذلك.. وفي يوم 24 نوفمبر 1975 حان الوقت لإيريكا لكي تغير العنوان. وفي النهاية وجدت ما كانت تبحث عنه لعدة أسابيع: شقة في موقع ممتاز، مع إمكانية أن تكون مجهولة الاسم.

سخاء الموساد

وانتقلت إيريكا إلى مبنى فخم يتكون من 250 شقة سمحت لها الموساد بأن تدفع المصاريف بالكامل، وكان الموساد يدفع لها بسخاء. وكانت تتسلم شهريًا 3000 دولار أمريكي للمتطلبات الشخصية، بجانب جميع النفقات الثابتة، كالإيجار ومصاريف السفر. وفي الوقت نفسه، كان مخصصًا لها في دفاتر حسابات الموساد من 3000 إلى 5000 دولار شهريًا لحسابات الأجور.

وكأمر عادي، فإن إيريكا تشامبرز قبل استئجار شقة فيسبادن عليها أن تأخذ لها اسما سبق فحصه جيدًا، عن طريق مكتب الاستعلامات وهو "وليس ميللر"، وضمن المعلومات التي سجلتها لمجلس إدارة المنزل أنها تحصل على إعانة لتساعدها على المعيشة.

ولم تهتم "إيريكا" بهذه النهاية، بل أتمت عملها بشكل منسق، وجعلت لنفسها صندوق بريد يكون عنوانها لدى السلطات والبنوك تستعمله في حالات استثنائية، كما فتحت لنفسها حسابًا في بنك درسدن والبنك التجاري.. وخلال السنة التي أقامتها في فيسبادن كان البيان المحاسبي بالنسبة لآخر رقم "رصيد مدين"، وجاءت القيمة ثابتة، كما حددها اتحاد البنوك السويسرية. وكان المرسل منه إحدى المنظمات المصرفية التابعة للموساد، وهي مؤسسة مساعدة وحماية الأطفال في جنيف "a.s.e.d"· وهذا الاتجاه جاء بناء على تعليمات مايك هاراري الخاصة بإيريكا من أجل اصطياد على حسن سلامة.

وفي يوم 11 يوليو 1975 قامت بتسوية حسابها في جنيف. وكان أن تقدم لها المخطط لذلك التقرير وهو رجل له تأثيره من أهالى الجنوب يدعى "جيلبرت رومو"، عنوانه: كيس 11271، مونت ساكرو، روما. وعندما يتتبع الإنسان ذلك، من المحتمل أن يرسو عند صندوق بريد ليس بعيدًا عن شارع الملك شاءول في مدينة تل أبيب.

وللمرة الثانية استطاعت إيريكا تشامبرز أن تحقق معجزتها. ففي يوم 22 أبريل 1976 توجهت إلى إدارة تراخيص القيادة بمدينة فيسبادن للحصول على رخصة قيادة جديدة، واستخرجتها تحت اسم آخر نسبته لها، وبالتالي لن يجد أي إنسان من تدعي إيريكا تشامبرز.

في انتظار الشفرة

إن المطلعين على بواطن الأمور داخل الموساد كانوا مقتنعين تمامًا، أن إيريكا تشامبرز خلال الفترة الزمنية التي قضتها في فيسبادن لم تكن لتنتظر سوى الكلمة المشفرة (كلمة السر) لكي تقوم بدورها ضد الأمير الأحمر التابع لعرفات، لقد كانت في الواقع مثل العديد من عملاء الموساد الآخرين، مرتبطة باقتفاء أثر العدو، وهذا معناه أنه يجب عليها أن تكثر

من السفر إلى مدينة بون مترامية الأطراف، لكي تستكشف أماكن سكن الدبلوماسيين العرب أوالمشبوهين.

فضلاً عن هذا فإن جواسيس الموساد يتجسسون على السفارات في جميع أنحاء العالم. كما أنهم يراقبون الشرقيين المشبوهين، ومنظمة التحرير الفلسطينية، أو من ينتمي إليها.

وبالنسبة لإيريكا تشامبرز التي كانت تمهد لتواجدها في ألمانيا، لزم عليها ألا تعلم التفاصيل، لذلك كان رئيسها مايك هاراري يعطيها دائمًا معلومات عامة، وليست دقيقة مفصلة ويتركها دون أن يخبرها بالعمليات الكبرى ضد الأمير الأحمر. وحدث تطور بأن فاز رئيس وزراء إسرائيلي جديد – في شهر مايو 1978 فازت كتلة الليكود برئاسة مناحيم بيجن في الانتخابات التاسعة للكنيست وخسر حزب العمل –كان بيجن ورئيس الموساد يكرهان منظمة التحرير الفلسطينية. وكانت عملية اصطياد الأمير الأحمر بالنسبة لهما مسألة كبرياء وشرف، وبالتأكيد فإنها مسألة ثأرية قديمة.

قبل ذلك وفي أوائل عام 1978 جاءت إيريكا ماريا تشامبرز، الطالبة المستديمة والعضوة في منظمة مساعدة الطفولة لأول مرة إلى بيروت. وقد كان ذلك خطرًا غير عادي وعالماً جديدًا وغريبًا عليها. لقد كانت تعد لذلك طوال العام. وقرأت الكثير عن لبنان ومركزه السياسي في العالم. لقد علمت الكثير من خروجها للتمشية خلال الشوارع المملوءة دائمًا بالعوائق التي لا تتيح إلا تعلم القليل.

وأكثر ما يعبر عن بيروت منطقة "الحمراء"، ويقع في القطاع الغربي منها أفخم شارع في المدينة، وخلال اليوم تكون هناك أمواج طاغية من حركة مرور السيارات عبر الشارع ويجلس الكسالى يحتسون البيرة أو القهوة حول الموائد المتراصة على مقاهي الرصيف، إلا أنه سرعان ما يحل الظلام وتصبح "الحمراء" في حالة موت. وعندما يهبط الظلام يبدأ عمل

العناصر المسلحة غير القانونية، عصابات تتستر بالمنظمات السياسية، يسطون ويقتلون، ويسلبون ويطلقون الرصاص في الشوارع المجاورة، وتدوي التفجيرات. رغم ذلك لم يشعر أهالى بيروت بالجوع إطلاقًا، ولم يحدث حتى أيام الحرب الأهلية أن ساد شعور بأن المواد الغذائية الكثيرة من المحتمل أن تنقص، ورغم الحذر الواضح حول السوبر ماركت الغالى بكل تأكيد، فالسلع والمواد الغذائية والأطعمة اللذيذة من جميع أنحاء العالم موجودة بكثرة، كما كانت موجودة فيما سبق، فاللحوم المستوردة موجودة، بجانب الجبن الفرنسي والزبدة الألماني والشاي الصيني والشامبانيا الفرنسي. كذلك الأطعمة المحلية.

كانت إيريكا تشامبرز تنظر إلى كل ذلك بعين أخرى. فقد كانت أمامها مهمة يجب أن تنجزها. وتظاهرت بتجاوبها الاجتماعي عندما كانت ترى عشرات الآلاف من الفارين من القصف الإسرائيلي، ومن قصف القنابل الذي لا ينقطع عن الجزء الشرقي من العاصمة الممزقة، وهكذا احتل كثير من الفلسطينيين العديد من المساكن التي فر أصحابها أو مستأجروها بسبب الحرب. وعلى النقيض من ذلك فإن المساكن التي لم يكتمل بناؤها أصبحت ملاذًا لربع سكان بيروت الفقراء. وكان يشغل كل حجرة عشرة أفراد أو ما يزيد على ذلك، وهذه هي البيئة التي يمكن فيها تجنيد القتلة ولم يعرف الذين استسلموا للحرب أي شيء على الإطلاق. وقد بدأوا حياتهم الوظيفية بأعداد تتراوح بين أربعة عشر أو خمسة عشر مع منظمة التحرير الفلسطينية أو الميليشيات الأخرى وينتهون بالموت في حصار لأحد الشوارع أو في بعض الأحيان في قتال حقيقي حول ربع المدينة ذات النصف المتهدم.

واتخذت الشابة الإنجليزية طريقها من خلال المؤسسات الفلسطينية، فمنظمة التحرير الفلسطينية مستشفى "الهلال الأحمر" الذي يشرف عليه "فتحي" شقيق "عرفات"، وهي مؤسسة للرحمة وتسمى "الصامد"، ويعني الاسم الكامل "مشغل لأطفال شهداء الثورة الفلسطينية". وفي هذا الحد بدأت بقولها: "إنني أدعى إيريكا تشامبرز، لقد حضرت من ألمانيا وإنني أعمل مع إحدى المنظمات التي تعمل على مساعدة الأطفال، إني أرغب في

رؤية بعض الأشياء التي لديكم ولأجد طريقة ما، لكي نتمكن من مساعدتكم ومساعدة القضية الفلسطينية.. وكانت كثيرًا ما تكرر هذا القول، وكأنها تقريبًا تعتقد ذلك".

وتستقبل منظمة التحرير الفلسطينية العديد من الزوار من جميع أنحاء العالم. ويقابل معظمهم ياسر عرفات. بجانب ذلك فإن عددًا ليس بالقليل منهم – ينتمي إلى جماعة التضامن الدولي، حيث في إطار هذا البرنامج يتم استعراض الورش، وملاجئ الأيتام والمؤسسات الصحفية. ويدير الهلال الأحمر مدرسة رعاية المرضى، والمعمل المركزي وبنك الدم، بجانب ذلك فإن المعاقين يتمتعون بالعلاج الطبيعي، وبكل كبرياء تقدم إيريكا لمنظمة التحرير الفلسطينية إثباتًا لعملها الاجتماعي أو إدارة برامج السكرتارية في مخيمات اللاجئين أو إلقاء المحاضرات عن الإجراءات الصحية، وفي أحد ملاجئ الأطفال، وفي بيت الأطفال الصامدين (بيت الصمود) يوجد الأطفال الذين بقوا على قيد الحياة من مخيم تل الزعتر الذي استمر حصاره 53 يومًا عام 1976. مئات الأطفال بقوا بعد تلك المذبحة، والآن يعيشون في ظل نظام خاص "الأم البديلة" و"الأسرة البديلة" وبين الحين والآخر فإن ثمانية أطفال تتولاهم إحدى الأمهات، لتتم العناية بهم في كنف أسري. والكثير من الأمهات يأتين من المخيم الذي انهار. وكل واحدة منهن تعاني الصدمة نفسها، فمناظر الفزع توجد على أشكال مصغرة وترسم بألوان الماء، وتعلق على الجدران. وهذه الصور تشير إلى المعتدي والخاسر، والموت والأحزان. وبالنسبة للزائر فإنه سيستمع إلى ترانيم الأحزان. إنها حالات كئيبة لضياع الوطن والدم والأرواح، التي يضحي بها الإنسان في كل وقت من أجل فلسطين المحتلة. وعلى النقيض من ذلك فإن الأطفال يفعلون كل شيء مثلما يفعله من هم في سنهم في المناطق المحيطة بهم من اليهود. ويتحركون للعب، ويتعلمون العزف على إحدى الآلات الموسيقية ويتدربون على الرقصات القديمة.

أنشئت مؤسسة "الصامد" عام 1969م. وبخلاف ذلك فإن المؤسسة تقدم خدماتها عن طيب خاطر وتمد من ينتمون إليها بمستلزمات المعيشة. وتنتج "الصامد" المنسوجات والملابس ذات الزينة التقليدية وكل ما يصنع من الخشب والمعدن، والزجاج

والسيراميك. وتتيح "الصامد" السلع الاستهلاكية التي تعتبر من اللوازم اليومية وأيضًا الماكينات، وتعتبر تلك المؤسسة نموذجاً للاقتصاد الفلسطيني المأمول. وعلى أية حال فإن الشتات من أهالى بيروت يبيعون منتجاتهم تقريبًا لجميع دول العالم الثالث والدول العربية وأوروبا. وترسل "الصامد" مساعدات للتنمية إلى الدول الإفريقية الفقيرة. بجانب هذا فإنها تهتم هناك بالمشروعات الزراعية. وبعد زيارة أخيرة للتضامن مع منظمة المرأة الفلسطينية حققت إيريكا نجاحًا مبدئيًا لمهمتها بعدها اشترت تذكرة العودة بالطائرة إلى ألمانيا، وكان لزامًا عليها يومًا أن تجعل رحلتها علنية هذه المرة، إلا أن الوقت قد حان، مرة أخرى لتغير موقعها، وتضع خطة تحرك جديدة.

وفي يوم 12مايو 1978 أخطرت إيريكا تشامبرز الجهاز الإداري لمدينة فيسبادن بعنوانها في كولونيا. وقبل ذلك بأيام وخلال أشهر قليلة كانت قد استأجرت شقة صغيرة في أحد المساكن القديمة بجريفشتراسه. على مقربة من مبنى التليفزيون توجد مجموعة من المباني السكنية لا روح فيها، كثير من الخرسانة والنوافذ الزجاجية كانت تعلو تلك المباني.. إنها إمبراطورية ذات أبراج طويلة معتمة تعلو عدة طوابق. والناس الذين يعيشون فيها ما هم إلا مجرد أرقام وليس من السهل أن يعرفوا جيرانهم، وهذا هو السبب في أن عملاء المخابرات والإرهابيين يفضلون السكن فيها، ومن ثم يجب أن تسكن إيريكا تشامبرز برقم 3 جيريفشتراسه. وهنا كان رقمها 22.

إلا أن ذلك لم يمنع من اعتراض مكتب الاستعلامات عليها هذه المرة بعد أن جاءت تحريات الشرطة السرية كما يلى: "إن السيدة تشامبرز تتراخى في نشاطها الوظيفي اليومي، ورغم ذلك لم تستطع بالبحث العريض أن تحصل على أية خبرة" لقد كان ذلك بمثابة شهادة فقر من الموساد.

وتحركت إيريكا تشامبرز نحو الإجراء البديل، وهو إما أن تقدم شهادة بدخلها أو الالتزام بضمان أبيها، وكان هذا البديل مشكلة، أولاً يجب عليها أن تقدم شهادة بالدخل

من المصنع المزيف التابع للموساد، وفي النهاية كان عليها ألا تتقدم لأي مكان في ألمانيا وألا تظهر بمظهرها الخادع ولو لمرة واحدة.

وفكرت في بديل آخر. وحيث إن جمعية الإسكان ترغب في التأجير، فلابد من وجود وسيلة أخرى، لذا يجب على إيريكا أن تضع مبلغ 6000 مارك كضمان، وهذا المبلغ وإيجار نصف شهر 525 ماركًا دفعتها بشيك وهي تبتسم ابتسامة تدل على المودة. بعد ذلك يسمح لها بتسليم مفتاح السكن.

هذا وقد استغرقت إيريكا تشامبرز شهر مايو 1978 بأكمله، في تجهيز سكنها رقم 22. واستعملت سيارة من طراز فولكس فاجن عن طريق مكاتب تأجير السيارات ونقلت متاعها من سكن فيسبادن بعد إخطار صاحبه بتركها له. وقد لاحظ صاحب المسكن الذي كان يدعى ميللر أن السيدة الشابة كانت في ذلك الحين تمتلك العديد من الكتب الخاصة. لقد كانت لديه ملاحظة جيدة، وقد تعجب في اللحظة نفسها من وجود جهاز استقبال للموجات القصيرة طراز "زينيت" مع إيريكا، فضلاً عن هذا فإن صاحب المسكن كان من هواة الإذاعة على الهواء، وذلك في أوقات الفراغ لتكوين صداقات، كما أنه يعرف، أنه بالتعامل مع الأجهزة الحساسة الغالية على وجه الخصوص، يمكن للإنسان استقبال البرقيات وعلى هذا تحدث بفضول مع المستأجرة الجديدة، لكنها جعلته لا يعي شيئًا. لقد حصلت على جهاز الاستقبال من أحد الأصدقاء المخلصين، وفي الحقيقة فإنها تستمتع إلى البرامج الموسيقية من إذاعة لوكسمبورج. وكان عليه أن يصدقها.

وما إن استطاعت عميلة الموساد أن تؤجر سكنًا في كولونيا، حتى بدأت، كما كانت فترة تواجدها في فيسبادن – في تدبير آلية الدفاع عن مجال عملها، وعلى هذا استأجرت صندوق بريد لدى أحد مكاتب البريد في كولونيا برقم 300364.. وفي يوم 22 مايو استشارت أحد الرجال، ويسمى أندريه بوجارت في عمل توكيل. وفي مكتب التليفونات الذي يقع على بُعد يقل عن مائة متر في جريفشتراسه، طلبت خطًا تليفونيًا وقد تم تركيبه في وقت قصير.

وفي شهر أكتوبر حصلت على جهاز للرد على المحادثات التليفونية أوتوماتيكيًا. وفي الفرع التالى لبنك درِسْدِنْ دبرت العميلة لها حسابًا تحت رقم "84725279/01" يأتيها عن طريقه المال من جنيف إلى كولونيا. وهذا الحساب المصرفي مهم جدًا، وكان الرصيد في بعض الأحيان يصل إلى 10000 مارك.. وهكذا تمكنت إيريكا تشامبرز من أن تدير منزلها، وأن تتجنب ألا تكون مقبولة هناك. وكانت تدفع جميع الإيصالات بشكل منتظم ودون أية مشكلات. وبالنسبة للالتزامات النظامية فإنها لا تنساها، كما كانت تحافظ على استمرارية مهمتها.

ونادرًا ما كانت إيريكا تشامبرز تتواجد في سكنها في كولونيا. وقد لاحظ ذلك صاحب المنزل – شديد الملاحظة – وسألها في هذا الأمر، فقالت له: إنها كثيرًا ما تسافر إلى الوطن في إنجلترا، وحيث إن مجموعة المباني الموجودة في جريفشتراسه تحمل أرقامًا فردية من واحد إلى خمسة، بجانب كونها أبراجًا مجهولة للقوم، لذلك فإن مستأجريها سرعان ما يغيرونها. وفي هذه الأيام لم يعد هناك الكثير من السكان برقم 3 جريفشتراسه، كما كان معروفًا على وجه العموم.. لقد أنهت إيريكا تشامبرز مهمتها في ألمانيا التي لم تكن إلا محطة بداية في رحلة مأموريتها الوحيدة في "الموساد". كانت ألمانيا محطة مهمة في هذه المأمورية، لأنها كانت المكان المفضل للأمير الأحمر، ولكن رغم مساعدة الموساد وذراعها الممتدة، لم تستطع الوصول إلى بغيتها هناك، فقررت أن تكون المواجهة في المحطة الأهم، وهي بيروت، حيث المقر الدائم لعلى حسن سلامة.

الفصل الثالث

اللحظة الحاسمة

- فتاة حاملة في مهمة اغتيال تطعم الحيوانات الجائعة في شوارع بيروت.
- إيريكا تشامبرز تقتفي آثار "دينا" الطبيبة التي باعت أسرار الثورة للموساد.
- 50 كيلو جرامًا من الديناميت وثلاث سفن صاروخية لقتل على سلامة.

قد تمضي سنوات حتى ينال الفلسطينيون من قاتلة "سلامة" الإنجليزية إيريكا تشامبرز، التي جاءت إلى بيروت من أجل الإيقاع بفريستها واقتفاء أثره والتمهيد لقتله، في مهمة وحيدة تم تجنيدها من أجلها. ومن بعدها يذوب أثرها قبل العثور عليها في لارناكا وتنفيذ حكم الإعدام فيها. وسواء كانت إيريكا تشامبرز هي القاتلة في بيروت أو القتيلة في لارناكا، فإن حكم الإعدام قد نال من عميلة الموساد، لأنها هي التي شاركت وخططت ونفذت قتل سلامة في بيروت.

وكانت في مهمة أخرى في لارناكا، حيث تجددت الحرب بين الموساد، والثوار الفلسطينيين وأصبحت "قبرص" مسرحًا لكل عمليات المقاومة والمطاردة بين الموساد والفلسطينيين بعد الرحيل عن بيروت عام 1982، إلا أن رد الفعل الإسرائيلي العنيف والقوى كان أبلغ دلالة على تحديد هوية قتلى قارب "لارناكا"، فهل كانت إسرائيل تحتاج لقصف مقر قيادة عرفات في تونس وقيادة مركز القوة "17" جهاز الأمن الخاص بعرفات للثأر من قتل ثلاثة من السياح الإسرائيليين على شواطئ "لارناكا"؟!

عمومًا، كانت الفتاة ذات الثلاثين عاماً تشاهد في عام 1978م مرات عديدة في بيروت، وكانت تبقى في معظم الأوقات لمدة تقترب من الأسبوعين، وكانت تجازف باستمرار بتحري الأخبار، ولم تكون صداقات مع أحد. وفي معظم الأحوال كانت تهتم بالفلسطينيين، ومن ثم كانت دائمة الزيارة للمؤسسة الاجتماعية. وقد أنفقت آلاف الليرات اللبنانية على ملاجئ الأيتام، وتقابلت مع فتحي عرفات من الهلال الأحمر، وأكدت للجميع أنها تتفهم كفاح الشعب الفلسطيني كثيرًا. وفي بعض الأحيان كانت تتجول في شارع مدام كوري، وتظل واقفة بجوار الكلاب والقطط، وتربت بيدها على الشعر الخشن للحيوانات المتوحشة التي تتغذى على ما تحضره لها في السلة البلاستيك. وعندما تسأل عن اسمها ومنشئها، تقول إنها لابد من توضيح تلك الدعابة للقارئ من ألمانيا.

وفي النهاية تبتسم لتلك الدعابة، ولكن قليلين من يفهمونها. ليس بعيدًا عن شارع مدام كوري، كان على حسن سلامة، وزوجته جورجينا تحت حراسة مشددة من "القوة 17"، يتلكآن داخل سكنهما الفاخر المسدل الستائر. وأصبح الثوري غير المستقر، مستقراً مع زوجة أحلامه، ملكة جمال الكون تأثر كثيراً من الجراح الكثيرة التي أصيب بها التي كادت أن تودي بحياته في النهاية.. والآن يعرف صائده مايك هاراري، أين يمكن أن يجده؟ ولأول مرة منذ أكثر من عشر سنوات يكون للأمير الأحمر عنوان، وأصبح الصيد متوقعًا له النجاح أكثر من ذي قبل. لقد تغيرت شخصية أبي حسن كثيرًا جدًا، فبعد أن كان شابًا وسيمًا مستهترًا تحول إلى سياسي جاد، مما جعل الكثير من المراقبين يتوقعون مستقبلاً عظيمًا له في منظمة التحرير الفلسطينية.

فمقابلاته الصحفية وآراؤه ليست انطباعًا عن الكراهية، كما كانت من قبل، بل تدل على الإرادة. وقد أدلى بحديث عام 1975 لبنتارديه ستيفان المحررة بمجلة "موندي مورننج" البيروتية قال فيه: "في المرحلة الأولي لكفاحنا، خرجت قيادتنا من الأرض، ومن يومنا هذا فإننا نناضل من خارج بلادنا. إن الظروف تجبرنا على أن يكون مركز قيادة ثورتنا خارج البلاد. وفي الوقت الذي نتواجد فيه خارج فلسطين، فإننا سنأتي بالمشكلة إلى هنا على أن نجنب وطننا أى أحداث، مما هو حادث اليوم في لبنان".

ورغم أن عملاء كثيرين للموساد حاولوا دراسة عادات سلامة، لكي يتمكنوا منه، فإن إيريكا تشامبرز وهي تتحرك في دوائر منظمة التحرير الفلسطينية متظاهرة بالشغف بها ومساندتها لقضيتها، حدث لها ما لم يكن في الحسبان، وما لم تكن على استعداد له. فقد وجدت الأمير الأحمر بنفسه يقف أمامها. لقد تعرفت عليه في أقل من ثانية وركزت عليه نظراتها. إن أعصاب إيريكا تشامبرز قوية، وهذا ما يجعلها تتماسك في مثل تلك اللحظات دائمًا. إن الشاب سلامة الذي يبلغ من العمر 73 عامًا، أصبح إلى حد ما كئيبًا بجانب حبه لمعبودته جورجينا.

تواعد على حسن سلامة وإيريكا تشامبرز على اللقاء عند حمام السباحة بأحد الفنادق، الذي كانت تدعى الإنجليزية السكن فيه "كورال بيتش" (شاطئ المرجان) بمنطقة الجناح. ويوجد هذا الفندق الأربع نجوم على بعد أمتار قليلة من سمرلاند إنترناشيونال الشهير. وعندما يركب الإنسان السيارة بشارع الساحل إلى المطار، يمر عليه مباشرة، ومع ذلك لا يرى الكثير منه، بسبب كثرة الأنشطة التي تحدث على جانب البحر. إنه مبنى أبيض اللون مكون من ثلاثة طوابق، يحيط به حمام السباحة الكبير، يتخذ شكل حدوة الحصان تقريبًا، تتجه كل غرفة من غُرَفِهِ الـ59 صوب المسبح المضاء باللون الأخضر. ومن هنا يمكن إلقاء نظرة على البحر وأمام الحوض تصطف الموائد الواحدة تلو الأخرى، ومن خلال المظلات الشمسية تحتفظ بالظلال. هذا ما تعلن عنه دعاية "كورال بيتش".

ويعتبر على حسن سلامة من الرياضيين المتحمسين، وهو يفضل الفندق، وها هو ذا هنا – قبالة السمرلاند – الذي تم بناؤه أثناء الحرب الأهلية في 67/5791، وهو مبنى كبير ويؤمه العديد من الزوار الأجانب خلال عطلات الأسبوع وأيام الإجازات، علاوة على اللبنانيين ميسوري الحال. كما أنه يكشف للأمير الأحمر أيضًا المخاطر الأمنية. وكأمر عادي يوجد بالقرب منه اثنتان أوثلاث عربات من حراسه، لمواجهة أي هجوم جديد من جانب الإسرائيليين منذ حادثة ليليهامر.

ومن بين نزواته الرجولية إيجاد مكان مناسب لمغامراته، لهذا كان على حسن سلامة يحجز حجرة بصورة مستديمة في الكثير من فنادق بيروت الفخمة، وكان يستخدمها لفترات قصيرة بصحبة سيدات العائلات الراقية في المدينة، ويعتني بهن، لدرجة أنه لم يكن لديه مسكن يأوي إليه، مما يجعله محط إعجاب عام.. والآن فقد تقابل مع إيريكا تشامبرز، وأعجبته، ليس فقط لأنها من النوع الفائق الجمال، بل لأنها أيضًا أيقظت فيه روح الصياد. وبخلاف ذلك يبدو أنها مستعدة لتكون كذلك. ويقوم حراسه بتأمين موقف السيارات وبهو الفندق، وبين السلم والمماشي، أما في الحجرة فإنه يكون وحيدًا. وقد تواجها في الدور الأرضي، وبطبيعة الحال لإلقاء نظرة على حمام السباحة. إن ما يحدث الآن، ما هو إلا مجرد تفكير، ولكن دون ملاحظة أحد أن على حسن سلامة وإيريكا يرقدان سويًا. وهذا لم

يحدث مرة واحدة، بل عدة مرات. ولابد أن يكون أحد كبار القادة في منظمة التحرير الفلسطينية قد علم بذلك. لقد قضت المدعوة تشامبرز أوقاتًا عديدة معه في "الكورال بيتش". وقد تم بحث هذه الحقيقة داخل منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها من الأسرار الكبرى، هذا ولا يعرف الكثير عن تلك العلاقة السرية، لكن هناك فردًا واحدًا متأكداً من ذلك، فقد قدمت إيريكا تشامبرز كل أساليبها الرائعة من الخداع، وكانت تظهر له اهتمامها بحراسته، وبكل تأكيد لم يتحدث أبو حسن عن العمليات السرية أو الاعتراف بدوره في عملية ميونيخ. ولم تسأله عن الكتاب الوحيد الذي قرأه بجانب القرآن. ألا وهو ملحمة "الجذور" السوداء. لقد تأثر به، وذلك لأن اسم الكتاب يطابق تمامًا شعبه وماضيه.

وخلال ذلك كان لزامًا على إيريكا أن تفكر بطريقة "دنيا". لقد كانت دنيا عميلة إسرائيلية أسطورية. لقد كانت تدخل وتخرج من بيت أسرة قائد منظمة التحرير الفلسطينية. ولدت دنيا في عمان عام 1935. وفيما بعد درست الطب. وجندتها الموساد في أوروبا عام 1972، وأصبحت محل ثقة أنشطة الوكالة خلال عام من الدراسة السريعة. وبعد ذلك انتظمت في ممارسة الطب في بيروت، وقامت دنيا بعلاج اللبنانيين والفلسطينيين ومعظمهم من مخيمات الجنوب. وخلال فترة نشاطها تلك اكتشفت العديد من المؤسسات العسكرية القوية التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية، وكذلك المراكز الطبية، وقامت دنيا بإرسال معلومات قيمة مهدت للإسرائيليين غزوهم للبنان عام 1982.

بجانب هذا فقد التزمت بأن تعمل كحاضنة أطفال لدى علي حسن سلامة، وأثناء غياب سلامة قامت بتصوير الأوراق السرية، وأرسلتها إلى تل أبيب، وبجانب تلك الوثائق قائمة بأسماء مقاتلي منظمة "أيلول الأسود" بأسمائهم المستعارة والعمليات المستقبلية، ومن ثم استطاع الإسرائيليون عرقلة الهجمات، وعندما كانت في قمة نجاحها، وبدون قصد منها أخبرت أحد أصدقائها اللبنانيين عن حياتها المزدوجة، فقام بإخطار إدارة الأمن، وهكذا قبض عليها وسلمت لمنظمة التحرير الفلسطينية وقت أن كانت إيريكا تشامبرز تمكث في بيروت. وجدت دنيا داخل أحد الكهوف البدائية بالقرب من صيدا، حيث حكِمَ عليها

بالسجن مدة خمس سنوات، وفي شهر فبراير 1980 تمت مقايضة اثنين من قوات منظمة التحرير الفلسطينية مقابل الطبيبة دنيا. وهي اليوم تعمل كطبيبة في شمال إسرائيل.

وداخل رئاسة الموساد كان يتم تجميع أحدث المعلومات عن الأمير الأحمر، فهو يتدرب على رياضة الكاراتيه، ويتدرب كل يوم على إصابة الهدف باستخدام المسدس، وكحد أدنى فإنه كان يذهب إلى حمام السونا مرة كل أسبوع. وتم تجميع قائمة بجميع مراكز اللياقة البدنية وحمامات الغطس ونوادي الكاراتيه والسونا الموجودة في العاصمة اللبنانية. وهكذا أصبحت مجموعة كاملة من العملاء في حالة ضياع، طوال نهار كامل، يكدحون دون هوادة.

وفي إحدى المرات قام أحد عملاء الموساد بزيارة إلى حمام السونا.. قام أحد صناع القنابل بمعاينة مكان العمل في "النادي الرياضي" في "إنترناشيونال أوتيل" ببيروت، وبحث عن المكان المثالى لإخفاء العبوة الناسفة. وقام آخر بإيجاد طرق الهروب. وفي آخر لحظة اتفق على وقف العملية. وفي اللجنة "س" كان يشك البعض في نجاح العملية، وعلى هذا قام مايك هراري –كما يقال – بعمل على مستوى القرارات السياسية، وطلب البحث عن طريقة آمنة أخرى. وبسرعة فكر في إيريكا تشامبرز.

وهكذا رؤي أن تتواجد إيريكا في كولونيا لفترة زمنية حتى خريف عام 1978. وقبل رحيلها الأخير من بيروت وجدت شقة مناسبة كانت تريد استئجارها دون شروط.. لقد وجدت تلك الشقة في الدور الثامن في أحد المنازل الجانبية بشارع لبنان. غير بعيد عن شارع مدام كوري. ومن النافذة يمكن للإنسان أن يلقي نظرة فاحصة على المبنى الذي يعيش فيه على حسن سلامة وجورجينا رزق، وبخلاف ذلك يمكن رؤية الشوارع المحيطة. وفي المحاولة الثانية، كانت تحاول أن تجد مسكنًا آخر عاينته قبل شهر، وهو يواجه سكن سلامة مباشرة.

وفي الأسبوع الأخير من شهر أكتوبر تحدثت كثيرًا من خلال الخط التليفوني ببيروت، وعلى الطرف الآخر كان يرد عليها دائمًا "أنيس عساف". إنه صاحب العقار الذي تستأجر إحدى شققه، وآخر اتصال بعساف كان يوم 26 أكتوبر.. وفي يوم 21 نوفمبر قامت إيريكا تشامبرز بزيارة أفضل من تثق بهم في فرانكفورت – ماين. فقامت بالاتصال بمكتب شركة الخطوط الجوية اللبنانية – بيروت – فرانكفورت. ولم تُضع عميلة الموساد الفرصة، فتطلب من خدمات البريد الاتحادي أن يوقظها يوم 23 نوفمبر حتى لا تضيع منها الطائرة. وفي تمام الساعة الرابعة صباحًا جاءتها المكالمة التليفونية. وصلت المسافرة إلى فرانكفورت في الوقت المضبوط، وأسرعت في الصعود إلى الطائرة التابعة لخطوط الطيران اللبناني على الرحلة 216. وكان مكانها حسب قائمة المسافرين رقم 20 أيضًا في شهر نوفمبر تسلمت السكن بمنزل السيد عساف.

وفي يوم 10 ديسمبر وقعت على عقد لمدة عام باسم منظمة مساعدة الطفولة.. وسكنت إيريكا تشامبرز في شقتها الجديدة بمفردها، ولم تشاهد إطلاقاً مع أي رفيق من الرجال.. وكانت عادة تحضر الساعة العاشرة صباحاً وتغادر المبنى بعد الظهر حوإلى الساعة الرابعة.

وفي ذلك الوقت قامت إيريكا تشامبرز بزيارة مكتب اليونيسيف "صندوق رعاية الطفولة التابع لهيئة الأمم المتحدة" في بيروت، وتقدمت للتعرف على أحد مؤسسي الفرع المحلي "جمعية مساعدة وإنقاذ الطفولة".

وبعد ما يقرب من أسبوعين عادت سيدة الموساد إلى منطقة الانطلاق ثانية. كان العالم في كل مكان يتسابق للاحتفال بعيد الميلاد، ولم تمر تلك المناسبة دون أن يكون لها أثر في الإنجليزية. لذا قررت أن تقوم بعمل شيء طيب، توجهت إلى المدينة القديمة للتسوق، وفي شركة كولونيا لمتعهدي الملابس"شركة بوجيز" أنفقت كثيراً. وباختيار سليم وذوق جيد اشترت بلوفر وبلوزة مناسبة ودفعت مبلغاً كبيراً.

ومـرت أعيـاد المـيلاد، دون أن يحـدث شـيء لإيريكـا تشـامبرز. وكانـت تعلـم أن الاستعدادات الطويلة لعملية ضد الأمير الأحمر مازالت في الهواء، وفي إسرائيل تم اتخاذ القرار يوم 2 ينـاير. وكـان الاسـم السـري الخـاص بالعمليـة وهـو "الـنجم زار"، وكانـت الفكـرة لهـا مدلول مزدوج، ومن ثم فإن العملية ستحدث يوم الاحتفال بعيد أحد الأنبياء الأربعة الكبار الـذين ذكـروا في العهـد القـديم.. وكلمـة الـنجم زار لهـا بالعبريـة معنيـان "زهـرة لكـم – غريـب لكم"، وتعني قدراً محدداً من الخبز – وكلمة زار يمكن أن تشير إلى العدد. وهذا يعني استعارة الاسم لأعمال التجسس السرية العالمية للموساد، وفي يوم 10 يناير طلب هاراري القيام بمهمـة سرية. وفي كولونيـا اشـترت إيريكـا تـذكرة سـفر: فرانكفـورت – بـيروت – جنيـف – فرانكفـورت. وفي يـوم 13 ينـاير كانـت متجهـة إلى لبنـان. ووصـلت في الموعـد المحـدد إلى شباك الحجز. كـان رقمهـا داخـل طائرة طيران الشرق الأوسط المسافرة رقـم سبعة. وفي يـوم 14 ينـاير استأجرت سيارة فـولكس فـاجن جولـف مـن شركـة لبنـان كـار في بـيروت لكنهـا سرعان ما أعادتها.

وفي اليوم التالى كانت تجلس معظم وقتها أمام النافذة في سكنها وبانتظام تنظر من خلال المنظار المكبر على الزوجين نفسيهما في سيارتهما بنية اللون طراز شيفروليه ستيشن التي تأتي من منطقة الصنوبرة، من خلال شارعي فردان ومدام كوري بسرعة من مقر رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية في منطقة الفاكهاني. وكان سلامة يستعمل في تنقلاته سيارتين، وكانت تضع أمامها قائمة وتدون الملاحظات بتوقيتات سير السيارتين، وكانت السيارتان تمران أربع مرات كل يوم. فالأمير الأحمر رجل اقتصادي إنه يعود إلى بيته وقت الغداء ولابد أن يكـون ذلـك قـدره الأخـير. لقـد بـدأ العـد التنـازلي لـلأيام العشـرة الأخـيرة في حيـاة علـى حسـن سـلامة، ونادرا مـا كـان أحـد ينظـر إلى لبنـان في تلـك الأيام، لقـد كـان العـالم يتـابع مأساة شاه إيران "رضا بهلوي". وفي يوم 16 يناير غادر الشاه بلاده للأبد.

وفي الوقت الذي كانت تتناقل فيه وسائل الإعلام أخبار الفوضى اليومية في طهران كانت الشبكة تشتد حول على حسن سلامة، واشتهر عنه أنه كان يؤمن بالقضاء والقدر.

ودقت الساعة.. في يوم 17 يناير سافر رجل إنجليزي يبلغ من العمر حوإلى أربعين عاماً يدعي بيتر سكريفر من باريس إلى بيروت.

كان نحيفا ويبدو من مظهره أنه رياضي، ولما سئل عن سبب سفره إلى بيروت أجاب بأنها زيارة سياحة وتجارة وهو يبتسم ابتسامة خفيفة، ثم استقل سيارة أجرة واتجه إلى "رويال جاردن أوتيل" في حي الحمرا التجاري، وكان يرتدي بدلة رمادية اللون ونظارة وأسنانه تبرز من بين شفته العليا ولحيته.. وفي اليوم نفسه تقابل مع رونالد كولبرج، كندي ويبلغ عمره من 25 إلى 27 عاماً، كما أنه أيضا نحيف. وجهه مستدير وشعره كستنائي اللون، وشفته العليا ولحيته كثة مثل سكريفر. وعند مكتب الجوازات، ذكر أنه يتحدث الإنجليزية، ثم قام رونالد كولبرج بملء بطاقة السفر. ولد في فانكوفر على الشاطئ الغربي الكندي عام 1954 وعنوانه هناك: شارع بيرنباي 1256، بالرغم من أنه لا وجود لهذا العنوان. واستقل سيارة أجرة أوصلته إلى فندق البحر المتوسط ويقع هذا الفندق في مواجهة البحر مباشرة.

وفي صباح اليوم التالى توجه بيتر سكريفر لأول مرة لشركة لبنان لتأجير السيارات، وكان قد اتصل بهم يوم 13 يناير – تليفونياً من لندن – لكي يتم ترتيب سيارة له. وهكذا تم إحضار السيارة، وقدم الإنجليزي جواز سفره وشيكاً سياحياً، سبق سحبه عام 1978 في بانيستوك هامبشير، وفي الوقت الذي رشف فيه القهوة التركية المرة، تم إعداد أوراق السيارة، وكانت طراز فولكس فاجن "جولف". وفي الوقت نفسه تواجد رونالد كولبرج بشركة لبنان لتأجير السيارات وكان قد سبق أن حجز سيارته عن طريق التليفون من زيورخ، سيارة طراز سيمكا. وقدم كولبرج شيكاً سياحياً دولياً مسحوباً عام 1978 في كندا. وتقريباً عند الظهر تقابل الأجنبيان كما لو كان اللقاء مصادفة داخل المدينة.

تبادلا سوياً بعض الجمل ثم افترقا ثانية، فضلاً عن هذا فقد استقبلت شركة لبنان لتأجير السيارات عملاء آخرين. وبعد يوم، وكان الجمعة 19 يناير، دخلت إيريكا تشامبرز مركز الشركة. أخذت تتحدث عن أعصابها المنهارة، وكانت بذلك تعني أنها في حاجة ملحة إلى الراحة وهواء الجبل. وهنا نطق موظف شركة تأجير السيارات بعدة أسماء بعض القرى الجبلية المناسبة للراحة. وقدمت الإنجليزية شيكاً سياحياً، وكان كما ظهر فيما بعد شيكا زائفاً وتسلمت إيريكا تشامبرز سيارة طراز داتسون خضراء اللون، ووعدت بإعادتها مرة أخرى بنهاية عطلة الأسبوع. وركبت السيارة لكنها لم تذهب إلى الجبال، بل أوقفت السيارة على بعد أمتار قليلة من سكنها بشارع لبنان.

في المساء اتصل الأمير الأحمر بجورجينا، وقالت: إننا يجب أن نغير المنزل.. إن هذا المبنى العالى يجعلني عصبية. وربما وجب على حراسنا أن يبحثوا في المنازل المحيطة بنا. قال على حسن: "لا لن نفعل شيئا.. لقد أصبح متعبا من كثرة الهروب وقد أعتقد أن هذا هو المصير المسبق للعديد من أبناء الشرق".. تلك كانت كلمات الأرملة بعدما يزيد على عشر سنوات من مقتل زوجها في مقابلة صحفية مع أكبر الصحف الإسرائيلية اليومية، يديعوت أحرونوت.

في لبنان كانت تقترب عطلة نهاية الأسبوع "الأحد"، وفي إسرائيل كان يوم إجازة. وقد أحضر خبراء المفرقعات التابعون للموساد خمسين كيلو جراما من مادة الـ "تي. إن. تي" من إحدى القواعد البحرية شمال كازريا، كما تم إعداد ثلاثة قوارب صواريخ سريعة طراز "سار 4" من مركز إعادة تطوير السفن في شربورج. وكان هدف العملية محاطاً بالسرية الصارمة. وكان عدد غير كثير من القادة يعلمون بتلك العملية. ظلت إيريكا تشامبرز تلاحظ حركة المرور اليومية. ووجدت نفسها تنتظر يوميا من 10 إلى 16 ساعة بالسكن. وفي الوقت ذاته حصلت على نوع جديد من أجهزة الإرسال، وحدة صغيرة سهلة بأزرار، جهاز يتحكم في تفجير القنابل عن بعد. وفي المساء كانت تنام في "فندق بريستول"– وسط العاصمة اللبنانية – وهو فندق فخم، ومنه يمكنها السير على الأقدام

لمسافة غير بعيدة، وكان مسكنها هو نفسه دائماً. لقد كانت هادئة تماماً وثابتة، وهكذا كانت تفكر على الدوام "خلال ثلاثة أيام سينتهي كل شيء وبعد ذلك سيختفي هذا التوتر وهذا الضغط الفظيع، ويمكنني العودة إلى الوطن إسرائيل".

وبالنسبة لبيتر سكريفر ورونالدو كولبرج، فإن بيروت تعتبر بلداً جديداً، وقد استغلا يومهما بأن تعرفا على المدينة جيداً، وأولاً وقبل كل شيء سبل الهرب. ولابد من التخطيط لجميع الاحتمالات.

في مساء أحد أيام الآحاد وفي تلك الأثناء وكان الوقت ظلاما، عندما غادرت ثلاثة قوارب صواريخ سريعة نقاطها في ميناء حيفا، وكانت الجيل الثاني للقوارب السريعة الإسرائيلية وأول ما صنع في إسرائيل، وقد تم تزويدها بأحدث وأفضل النظم: طراز "سار 4" من صواريخ البحر حابريل وهاربون، ومدفع فولكان – فلانكس، والمدفعية الميكانيكية الثقيلة. وكان لـ"سار 4" لولب دوار يمكنه بمساعدة الطائرات العمودية من مراقبة الأفق. وكل قارب مزود بأجهزة حرب إلكترونية. وداخل مركز المعلومات، يجعل قائد البحرية الحربية الصغيرة، كابتن حايم شاكيد، ومعه ملاح أسمر اللون على مشارف الخمسينات من عمره، يحتسي القهوة التركية: إنه مايك هاراري. وقد أراد رئيس فرقة كوماندوز الاغتيالات التابعة للموساد أن يعي ليشهد هذا الانتصار، كما أنه يريد كما كان من ذي قبل أن يرى بنفسه، الكيفية التي سيموت بها عدوه.

وبعد ساعات عدة من السفر وقفت القافلة أمام بيروت ووقف هاراري على الكوبري وأخذ يدرس من خلال منظاره الليلي القوى أضواء المدينة الكثيرة. وقام رجال الضفادع البحرية بعمل دورتين للبداية بالقوارب المطاط.. كانت الساعة تشير إلى الثالثة، وهذا هو الوقت المناسب قبل أن يخرج صيادو السمك اللبنانيون إلى البحر، حيث يربض العميلان في أحد مناطق الشاطئ بين بيروت وأحضان جونية، وكان رجال الضفادع البشرية

يرتدون البدل المطاطية هاراري ومنذ لحظة أخذ يراقب الطرف الشمالى لبيروت، حيث تقع أحياء الصنوبرة والحمراء، وفجأة صعدت إلى أعلى سحابة كبيرة من التراب والدخان.

وهنا تعلق رئيس العملاء بالتلسكوب، وبالطبع أمكنه أن يرى الكثير، وكانت جورجينا رزق تقف أيضا في شرفة منزلها الفخم، لقد سمعت الانفجار وشاهدت في ذلك الوقت سحب الدخان. وسمعت صفارات سيارة الإسعاف التي كانت تجلجل. وكان أول من فكرت فيه "لقد قتلوك! لقد فعلوها معك" وكانت الساعة الثالثة صباحاً و55 دقيقة.

امتلأ شارع البقاع بفوضى لا مثيل لها، لم يصب الحراس الخمسة في السيارة الثانية بأي ضرر، لكنهم كانوا يتحركون بصعوبة، لقد تحطمت سيارة "أبي حسن" بالكامل، ولكن يبدو أنه مازال حياً، وبسرعة كان لابد من إحضاره إلى مستشفى الجامعة الأمريكية، ومع ذلك فكل ما استطاعه الأطباء في ذلك الوقت هو إثبات وفاته. لقد التصقت قطعة معدنية بمخه، والذي حدث بعد ذلك هو إخطار قوات أمن منظمة التحرير الفلسطينية والشرطة اللبنانية، وكان لابد من تجميع جهدهما، وأن يتشاور الطرفان.. أشارت التحريات المبدئية إلى أن حوالى من سبعة إلى عشرة أشخاص لقوا حتفهم وما يقرب من ثمانية عشر آخرين جرحى، ويضاف إلى الجثث التي تم عدها الخمسة رفاق في السيارة الشيفرولية.

وتشير كل المظاهر إلى أن الشخصين اللذين كانا في السيارة التابعة قد نجيا. ويقول أحد التقارير: "إن العديد من عابري السبيل وأحد العاملين بمركز سيارات الأجرة كانوا ضمن الضحايا".

واختفت الجابية بعد دقائق من الانفجار، وكان آخر من رآها، ولمرة واحدة هو صاحب البيت. وبعد وقت دخل مقاتلو منظمة التحرير الفلسطينية التابعين للأمن بأسلحتهم الثقيلة، جميع المنازل المجاورة لتفتيشها. وقد وجد بمكان الحادث اللوحة المعدنية لإحدى السيارات وكانت تخص سيارة بيتر سكريفر.. سارت إيريكا تشامبرز بالسيارة التي استأجرتها في عدة طرق في اتجاه المنطقة الشرقية من المدينة. وفي حي بجونية تقابلت مع

رونالد كولبرج الزائف. وهناك انتظرا في فنقدهما ليلة كانا فيها مسهدي الجفون.. وبعد ذلك سارا بالسيارتين إلى الشاطئ حيث أوقفا السيارتين. وبعد منتصف الليل بقليل اقتربت سفينة قوارب الصواريخ مرة أخرى من الساحل. ومن جديد عاد رجال الضفادع البشرية بقواربهم الدائرية إلى الشاطئ وأخذوا معهم العميلين. لم يكن هناك من يقلق عليهما مثلما قلق مايك هاراري. واحتضن جندي الموساد المحنك "إيريكا تشامبرز" بين ذراعيه. فنادراً ما كانت تصعد على ظهر السفينة.

وقالت إيريكا بفرح: "مايك، لقد مات". وانضمت السفينة مرة أخرى إلى القافلة واتخذت طريقاً مختصراً إلى حيفا. وفي مساء اليوم التالى في أكاديمية الموساد أقاموا احتفالاً كبيراً ووقفت إيريكا تشامبرز في المنتصف، وأصبحت تحصل على راتب الآن من الموساد، واستأذنت في التصرف فيما اقتصدته من مال على حياتها الخاصة. وكذلك غادر مايك هاراري مكتبه في الموساد ليتقاعد.

وأعلنت المنظمة تفسيراً لذلك. إنه رد فعل إسرائيلي لعملية ميونيخ: "إن القتلة لن يفروا".. جرت مراسم جنازة أبي حسن بصورة مثيرة وأحيط قبر شهداء منظمة التحرير الفلسطينية بالقرب من مخيمات شاتيلا بأشجار الصنوبر، وكان ذلك اليوم إجازة تعطيل مدرسية بالنسبة لأطفال المسلمين في بيروت الغربية وحمل عرفات نفسه الكفن. وسالت الدموع على لحيته المرتعشة، وقت أن كانت بقية رفات "أحد أولاده المحبوبين" – كما كان عرفات يشير إلى سلامة – يواريها التراب.

أطلقت الأعيرة، وصيحات الثأر خلال هذا المشهد وقام ما يقرب من 50000 فلسطيني بتوديع على حسن سلامة الذي كان في مقدمة رجال المقاومة بمنظمة فتح، الذي لا يعرف أحد شيئاً كثيراً عن مهامه السرية، وكان الكثيرون منهم يقبضون وهم ينظرون بغضب إلى عدسات التليفزيون ويقولون: إننا نواري الشهيد التراب! كان ذلك صدى

صوت ياسر عرفات حاد النغمة "إلى اللقاء أيها البطل، استقر مكانك في كبرياء! سنكمل مسيرتنا في الطريق إلى فلسطين!".

كانت تقف بجواره أرملة سلامة الأولي، أم حسن، ومعها ولداها.. أما الأرملة الأخرى، جورجينا رزق، فغير مسموح لها بالتواجد وفقا للقواعد الإسلامية، وكان حسن سلامة، أكبر أولاد الميت، يرتدى ملابس الفدائيين خلال الجنازة. وكانت الكوفية تتدلى فوق كتفيه. وكان الشاب يمسك في يده مدفع كلاشينكوف، وضعه أحدهم في يده.. كما قال عرفات الذي يتحرك بألم ممسكاً بذراعه: "إن قصة عائلة سلامة ستظهر مرة أخرى".. وبدون أن تترك أي أثر وراءها ذابت العميلة الرئيسية بصورة مدهشة. وفي يوم 4 فبراير 1979 وصل إلى إيريكا خطاب وهي في كولونيا وارداً من بيروت يحذرها فيه من العودة إلى لبنان في المستقبل، وكانت إيريكا قد غيرت اسمها واكتسبت لها عنواناً جديداً، وبذلك لم يصلها الخطاب وإن كان التحذير قد وصل فعلاً.

الفصل الرابع
انتقام فلسطيني

– بعد ست سنوات اكتشفوا أن قاتلة سلامة قد تكون الإنجليزية إيريكا تشامبرز.

– قاتل ضابط الموساد: قتلتهم لأنهم قتلوا قائدي وجميع أفراد أسرتي.

– زوجة سلامة تتزوج مرتين وأولاده يدرسون في أمريكا والقاهرة.

لم تنته المعركة بين المخابرات الإسرائيلية و"أيلول الأسود" باغتيال الشهيد على حسن سلامة في 22 يناير 1979. ورغم أن عمليات أيلول الأسود كانت قد توقفت عمليا بعد 1974 عندما أعلن عرفات من منبر الأمم المتحدة وقف جميع أعمال العنف الفلسطيني خارج الأرض المحتلة. وأن على حسن سلامة قد سافر مع "أبو عمار" إلى نيويورك، فإن الانتقام الإسرائيلي من حادث قتلى ميونيخ لم يهدأ إلا باغتيال من اعتقدت أنه المسؤول الأول عنه.

وفي المقابل فإن الرد الفلسطيني كان سريعاً، فبعد عدة أيام حدث انفجار على مقربة من تل أبيب أودى بحياة إسرائيليين وجرح ستة آخرين. وتوالت العمليات الانتقامية، إلا أن الفلسطينيين لم يتوانوا عن البحث عن قاتلي "سلامة" وعلى رأسهم "إيريكا تشامبرز"، حتى كانت الجولة الأخيرة في مدينة "لارناكا" بقبرص وكان الرد الإسرائيلي عليها بقصف مقر المنظمة الفلسطينية في تونس.. إلا أن أهم ما تكشفه هذه العملية هو نفي إسرائيل التام أن تكون الأيدي الفلسطينية قد أصابت قاتلة سلامة وعضو الموساد. وأعلنت أن القتيلة ليست إلا مجرد سائحة يهودية عادية في قبرص، فهل كان الرد الإسرائيلي العنيف لمجرد مقتل ثلاثة من السياح الإسرائيليين على أيدي مجموعة فلسطينية؟ وهل كانت الرواية الإسرائيلية حقيقية؟ تلك مسألة تقودنا إلى أهم وسائل وأساليب عمل الموساد في التمويه والتضليل الإعلامي للعمليات الخارجية التي كانت وراء اغتيال "سلامة".

عندما شاهد أبو عبيدة تلك السيدة ذات الشعر القصير غير المقصوص بعناية، وذات البشرة التي تميل إلى اللون الأسمر بفعل أشعة الشمس، والجسم الممتلئ، والطول المتوسط، تذكر أنه كان رآها من قبل، في بيروت، إنها إيريكا تشامبرز التي يبحث عنها الجميع التي قتلت "أبا حسن سلامة".. كانت تتصرف كبلهاء، تجري من خلفها القطط والكلاب التي تطعمها، ساعتها أبلغ عنها "أبو الطيب" قائد القوة الخاصة "الفرقة 71"، وذلك في شهر سبتمبر 1985.

كانت منظمة التحرير قد غادرت بيروت بعد اجتياح إسرائيل لها 1982، واستقرت في مقرها الجديد في تونس، لكنها كانت قد بدأت عمليات للتسلل من قبرص وسوريا إلى داخل الأراضي اللبنانية فرادى أو جماعات، ولم تكتشف إسرائيل هذا التسلل في البداية، وعندما بدأت تضع يدها على هذه الوقائع انتقلت ساحة المواجهة إلى الشواطئ المتوسطية في لارناكا، وفي المنطقة الممتدة من بيروت للجنوب اللبناني، وبدأوا فرض رقابة على الملاحة البحرية إلى قبرص، تلك الجزيرة المنفصلة.. ونجحوا في أن يوقفوا المواجهات ويكتشفوا الفدائيين، وتفادوا في الوقت نفسه وقوع هجوم محتمل على الشواطئ، وفي يوم 22 إبريل أغرقت البحرية الإسرائيلية سفينة تجارية، كان على متنها 29 فلسطينياً متوجهين إلى الشواطئ الإسرئيلية – وقد مات 21 منهم خلال تبادل لإطلاق النيران في عرض البحر، وتم إلقاء القبض على الثمانية الآخرين.

وقد اعترفوا بأن وحدة كوماندوز مكونة من عشرين رجلاً كان من المقرر أن تهاجم قافلة للجيش الإسرائيلي، للحصول على أسرى لمبادلتهم بـ 150 من الفلسطينيين المسجونين في إسرائيل.

وفي يوم 24 أغسطس أخذت البحرية الإسرائيلية في التفتيش عن مركب قادم من قبرص، ويسمى "كاسل راديس"، وهذا القارب يملكه أمريكي وأسترالي، وتخطط "القوة 17" للانتقال به إلى صيدا، وفي يوم آخر أوقفت البحرية الإسرائيلية على الامتداد نفسه يختاً بريطانياً يونانياً، يسمى "جانداي" اكتشفوا على سطحه سبعة عشر عضواً من أفراد "القوة 17" ومن بينهم "فيصل أبو شعر" ممثل أبي الطيب.

وبالطبع لم يتمالك أبو الطيب نفسه، عندما وصلته أنباء ظهور عميلة الموساد التي استمر البحث عنها طويلا وقد تلقى تلك الأنباء من ليليهامر من أحسن معارف هاراري، فأصدر الأوامر على الفور للقيام باللازم. وخلال ثلاثة أيام أرسل أفراداً من فرق كوماندوز الإعدام من أثينا إلى لارناكا وهم خالد عبد القادر الخطيب البالغ من العمر 28 عاماً، وعبد الحكيم الخليفة البالغ من العمر 29 عاماً، وهما فلسطينيان من مواليد سوريا وأحد

المرتزقة الأوروبيين التابعين لأبي الطيب، تم تجنيده منذ فترة، وهو الإنجليزي "سكينهيد أبان ماسكل" ويبلغ من العمر 28 عاماً، وقد أطلق على نفسه اسماً حركياً والتحق بمنظمة التحرير الفلسطينية بعد مذبحة صبرا وشاتيلا بعد أن قرر وهو بحار ولاعب كرة سابق أن يهب نفسه للقتال ضد اليهود.

في الساعات الأولى من الصباح الباكر، وقبل أن تشرق الشمس، تقابل الثلاثة وهم مسلحون بمدافع الكلاشينكوف، والمسدسات والقنابل اليدوية عند مرسى اليخوت في لارناكا. في ذلك الوقت كانت من يعتقدون أنها إيريكا تشامبز ورجلان، يعتقد أنهما إسرائيليان، يتواجدون على ظهر قارب طوله ثلاثة عشر متراً يسمى "لافيرست" وعندما كانت الريح تحرك شراع السفينة أطلق الرجال الثلاثة النيران على السيدة وتركوا جثتها معلقة على درابزين السفينة ولم ترفع الجثة من مكانها لمدة تسع ساعات ونصف الساعة، وهي الفترة التي تم فيها أخذ الرجلين كرهينتين، وقد طالب الفدائيون بالإفراج عن الركاب الفلسطينيين العشرين لكل من اليختين "جاندا" و"كاسيل راويس".

وفي نطاق ذلك توالت المفاوضات مع الفدائيين، وقد طالبوا بمقابلة سفيري فرنسا ومصر وكذلك مندوب الصليب الأحمر، وبخلاف ذلك طالبوا بإعداد طائرة في مكان ظاهر. وجاء السفير المصري وتحدث مع الفدائيين ثم أعلن أنهم لا ينتمون لأية منظمة محددة ثم ظهر زائران يمثلان مكتب منظمة التحرير الفلسطينية المحلي، وقد أكد فيما بعد أنه ليس لمنظمتهما أى علاقة بما فعله هؤلاء الرجال الثلاثة "إننا ندين هذه الأعمال على الأرض القبرصية"، وهذا هو التكتيك الذي تسير عليه عملية تلو الأخرى كما هو مخطط لها. كما تدخل وزير داخلية قبرص في لعبة شد الحبال حول حياة الإسرائيليين.. وفجأة وبسرعة تامة، حيث كانت الساعة 14، صعد رجال "أبي الطيب" على سطح السفينة وألقوا بأسلحتهم وبسرعة تم القبض عليهم وقام البوليس القبرصي بترحيلهم.. ورداً على سؤال لأحد الصحفيين عن الرهينتين أجاب أحد الفدائين: "تجدونهما في السماء، وفوق سطح السفينة وجدت جثتا الملاحين وبجوارهما المسدس كاتم الصوت. وفي أول اختبار أعلن

دافيسون بقوله: "اتفقنا قبل بداية العملية على أية حال، أن نتحاور لمدة أربع عشرة ساعة، وإذا لم يتجاوب أحد مع طلبنا، فعندئذ نقتل الرهائن، لقد قتلت الرجل الموجود على الشمال برصاصتين في مؤخرة رأسه وبعدئذ استعملت المسدس مرة أخرى ضد الرجل الآخر".

وفي اليوم التالى كانت للسلطات الإسرائيلية القدرة على العمل مرة أخرى بعدما وضحت هوية الضحية. كانت السيدة تدعى إيستر بالتسور تجاوز عمرها العقد الرابع من مواليد حيفا، وأحد رفاقها يدعى رولفين ويبلغ من العمر 53 عاماً وهو زوجها، والشخص الآخر يدعى إفراهام أفنيري، وهذا الأخير يبلغ من العمر 55 عاماً. وإيستر بالتسور تبادلت شخصيتها مع إيريكا تشامبرز وحتى يومنا هذا والحكومة الإسرائيلية تنكر أن هؤلاء الثلاثة الذين قتلوا في لارناكا كانوا ينتمون إلى الموساد بأي شكل من الأشكال.

وقد ظهرت تناقضات تلو الأخرى في إحدى صحف السلطة التنفيذية للتحقيقات الحكومية ببرلين، وقد توصلت الإدارة الثانية في نشرة معلوماتها السرية إلى أن المدير العام للمخابرات الإسرائيلية "الموساد" وزوجته وزملائه في العمل السري لقسم أوروبا في لارناكا قد ماتوا، كما أن منظمي الهجوم كما ذكرت إحدى الوثائق كانا قد تواريا في برلين الشرقية، خشية أن يراهما أحد واسمهما الأخوان محمود وحماد شتا.

وبعد يومين من حادثة القتل في لارنكا أطلق الرصاص على شاب سوري يدعى مصطفى سبرا يعمل بحاراً ويبلغ من العمر 26 عاماً في شارع الميناء القبرصي ليماسول، وهرب الجاني. وفي ذلك الحين احتجزه سائق إحدى السيارات تحت التهديد بالسلاح، وأخذه معه. وبعد ذلك ألقي القبرصيون القبض على شاب يبلغ من العمر 27 عاماً، وقد علم أنه مغربي الجنسية وقد اعترف بأنه قتل مصطفي صبرا وقد قال: لقد تقابلت معه في فندق "كونتيننتال" وقلت له هذا هو عقاب شعبي، وأطلقت عليه رصاصات في رأسه وقد جاء القاتل من أثينا.. والأمر الغريب في هذا العمل وضح لأول مرة، عندما قرأ أحدهم النشرة رقم 68 لتنظيم فتح بتاريخ 17 ديسمبر 1985 وقد قرر عضو منظمة التحرير

الفلسطينية في ذلك الحين أبو عبيدة أنه أول من تعرف على مصطفى صبرا. لقد كان هذا الشخص يتعاون مع الموساد وعرض عليه أن يؤدي له خدمة نقل الفدائيين على اليخت "فيرست" إلى لبنان، لكنه ذهب إلى إسرائيل، وهنا أصيب أبو عبيدة بالفزع الشديد، وقد ظهر في جريدة منظمة فتح بالحرف: "منذ استشهد القائد على حسن سلامة وحتى رؤيته لها على ظهر اليخت، لم ينس الأخ أبو عبيدة سحنة تلك المرأة، لقد كانت تجلس أمامه، ولقد تأكد منها، إنها هي التي استخدمت جهاز التحكم عن بعد والسيارة الملغمة، والتي أودت بحياةالشهيد على حسن سلامة".

وهذا ما جلب الموت لمصطفى صبرا وقد حكم على قاتله بالسجن مدي الحياة. بدأت الدعوى يوم 2 ديسمبر 1985 واستمرت لمدة أيام، وقد اعترف الثلاثة بفعلتهم وقد استفادوا من فرصة التخطيط للحادث وكان دانيسون على وجه الخصوص ثرثاراً وقد جزم الفدائي الإنجليزي بلغة عربية ركيكة: "أنا نفسي إذا حكم على بالسجن مائة عام، لن أندم على ذلك، لأنني أحمل حريتي في قلبي ووعيي.. إنني لا أنفي أي شيء وسأفعله مرة أخرى لو أتيح لي ذلك".

إنني أشعر بالسعادة.. إن هذا واجبي كرجل مؤمن بالاشتراكية العالمية وكإنسان لديه إحساس، بأن أحارب الحركة الصهيونية، كلما أمكنني ذلك. وقد أعلن خالد الخطيب: "لقد قتلنا الإسرائيليين، لأنهم يديرون حلقة تجسس في قبرص ومن أجل رفاقنا الفدائيين المسجونين، وكذلك من أجل النساء والأطفال الذين قتلوا نتحمل المسؤولية، فضلا عن هذا فقد قتلوا رئيسي الأسبق على حسن سلامة وقد أبادوا كل أفراد أسرتي، وإنني الوحيد الباقي على قيد الحياة".. وقد أقر عبد الحكيم الخليفة أنه أطلق الرصاص على إليستر بالتسور: "إننا نعلم أن قتل امرأة من عمل المجرمين وليس من أعمال الثوريين أمثالنا، لكنها كانت عضواً في الموساد وتحمل رتبة عسكرية. ثم خرج ثلاثتهم وهم يرددون شعار منظمة التحرير الفلسطينية "الثورة حتى النصر"، وهم موجودون حتى يومنا هذا في السجن المركزي بـ"نيقوسيا"، ولم يحاول أحد أن يفرج عنهم في حين طالبت إسرائيل الحكومة القبرصية بتسليمهم إلا أنها رفضت ولا تزال ترفض حتى اليوم.

ورغم النفي الإسرائيلي الرسمي لتبعية هوية القتلى الإسرائيليين لجهاز المخابرات الإسرائيلية "الموساد"، فإن هذا يتناقض مع الوثيقة الألمانية التي نشرت بعد الحادث بأسابيع.

كما أن رد الفعل الإسرائيلي الحاد والعنيف الذي استهدف قتل رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات عن طريق قصف مقره في تونس، ينفي ذلك أيضا، وفي كل الأحوال فإن المخابرات الإسرائيلية لم يكن لها من هدف إلا تشكيك الفلسطينيين في قدراتهم على تحديد وإصابة الهدف. وفي ذلك الوقت كانت الفرصة سانحة لمهاجمة مقر عرفات الجديد بتونس، لكي تكون منظمة التحرير الفلسطينية في وضع دفاع دائم. وخلال السنوات التي تلت ذلك لم تكن هناك سوى تفاصيل بسيطة عن مباني منظمة التحرير الفلسطينية في العاصمة تونس، وفي أغلب الأحيان كانت تحوم طائرة بوينج 707 أمام السواحل التونسية، وكانت مجهزة بأحدث أجهزة التنصت وتقوم بتسجيل كل الأحداث بين رئاسة منظمة التحرير والعالم الخارجي، بخلاف ذلك فقد جندت الموساد العديد من الجواسيس التونسيين.

كان عملاء المخابرات الإسرائيلية يجيئون ويذهبون كلما أرادوا ذلك وبصورة دائمة، وكانوا يستخدمون جوازات سفر مسروقة، يتنكرون في زي رجال أعمال عرب أو سياح أوروبيين. كما كان أفراد صفوة وحدة البحرية الإسرائيلية فوتيلا 13 يتسللون وبانتظام إلى الأراضي التونسية، ويرسمون الخرائط للشواطئ، وكلما أمكن يقومون بتفقد أرصفة الميناء، وعلى وجه العموم كانوا يقومون بدراسة البلد. ومن ثم تكونت شبكة محلية إسرائيلية من المساعدين، كما تم تأمين إيجار المساكن فضلا عن تخزين الأسلحة. وأقيمت أنظمة الاتصالات السرية، ومن ثم لم توجد أى أحداث عارضة في قمة تجوال الإسرائيليين اكتشفت إحدى الوحدات السرية القوية "سايريت ماتكال" مكان سكن قائد منظمة التحرير الفلسطينية. وتوجد على الساحل قرية تعتبر حتى تلك اللحظة من أفضل المناظر، وكانت في الماضي نقطة التقاء الطبقة المتوسطة والبيروقراطيين، وفي شهر سبتمبر 1982 وضع تحت أمر منظمة التحرير الفلسطينية جزء كبير من هذا المكان – حوالى خمسين هكتاراً – وكانت ترصد في وجه الزوار غير المرغوب فيهم من جميع الجوانب. ويقوم على

حراسة المجمع السكني الذي تحيط به أشجار النخيل والمكون من مبنين من ثلاثة طوابق بلون الرمال. عدد الجنود التونسيين وأفراد من القوة "17".. إن قرار الغارة الإسرائيلية الجوية على حمام الشط يعتبر عملية ثأرية لاغتيالات لارناكا وضربها بالقنابل، تلك الأحداث التي حدثت مساء يوم 52 سبتمبر، وهذا ما قرره مجلس الوزراء المصغر برئاسة رئيس مجلس الوزراء شيمون بيريز.

وفي الصباح الباكر ليوم 1 أكتوبر 1985 تزودت طائرات بالوقود بكامل حمولتها وأقلعت ثماني طائرات من قاذفات القنابل طراز إف -16، وانتظمت في نطاق مساحة تبلغ 1900 كيلو متر مربع، لهذا كان يجب على الطائرات المقاتلة أن تزود بالوقود في طريق عودتها مثلما حدث في طريق الذهاب. وفي الصباح فيما بين الساعة الثامنة والتاسعة أنهت طائرات إسرائيل إف-16 أطول عملية هجومية منذ عملية عنتيبي. وطوال ستين دقيقة كانت تلمع في الجو الطائرات التي تم تزويدها بخزانات الوقود الخاصة بالصواريخ والقنابل زنة 500 كيلو جرام. وفي حوالى الساعة الحادية عشرة وصلت الطائرات إلى السواحل التونسية.

وهنا ظهرت المشكلة الثانية، فبالقرب من تجهيزات منظمة التحرير الفلسطينية توجد بعض المنازل، التي يعيش فيها تونسيون مدنيون ومدرسة دولية، وكانت الطائرات الثمانية التي يطلق عليها اسم "النسور المقاتلة" والتي تنتجها شركة جنرال داياميك لإنتاج المعدات قد أسقطت ذخيرتها الموجهة من الداخل لمدة خمس عشرة دقيقة، وتم توجيه الصواريخ والقنابل على المنازل فقط، والتي حددت بالليزر. وبكل دقة أصابت رئاسة أركان حرب أبو الطيب لقوات "القوة 17" وتم تدمير وتسوية كل شيء بالأرض، ولم يبق سوى مبنى الحراسة الصغيرة، حيث لجأ ياسر عرفات ونجا من الموت بعد أن غادر هذا المبنى قبل القصف بدقائق، وقام الإسرائيليون بقصف أحد المنازل بالقنابل، وكان يضم مجموعة من قادة الصاعقة. أحد فروع منظمة التحرير الفلسطينية، الذين تحالفوا مع ياسر عرفات عام 1983 ، أما المبنى ذو الطابق الواحد الذي توجد به أجهزة الاتصالات، كما ذكرت

وكالات الأنباء فيما بعد، فلم يدمر، فضلا عن هذا قامت كتيبة الطائرات إف -16 بالهجوم مرة أخرى على مبنى من طابق واحد، حيث يوجد مكتب عرفات الشخصي وحجرته الصغيرة وهكذا تحولت القيادة المركزية العسكرية لمنظمة فتح ونادي وحدات الكوماندوز إلى حطام ورماد.

ولم يبق من المباني سوى الحطام الذي يعلوه الدخان من أثر القنابل شديدة الانفجار العنيفة. في ذلك الحين وجد 47 قتيلاً و56 جريحاً - من جراء الهجوم الجوي - وكذلك بعض من كانت له علاقة سابقة بـ"أيلول الأسود". وبعد ما يقرب من ربع الساعة استدارت الطائرات وهي تحمل أطنانا خفيفة، وكونت تشكيلات في طريق العودة فوق البحر المتوسط. وفي طريق العودة إلى الأرض راقب السلاح الجوي الإسرائيلي بارتياب المجال الجوي الليبي.

لم يواجههم أي تهديد بالخطر هناك، لأن الليبيين على ما يبدو ليس لديهم علم بالعدوان على حمام الشط، كما أنهم لم يتمكنوا من تنظيم أنفسهم، وفوق ذلك فقد تم تزويد الطائرات التي تحمل نجمة داود للمرة الثالثة بالوقود وهبطت في قواعدها في إسرائيل في وقت مبكر بعد العصر.

وفي المساء على شاشة التليفزيون شوهد عرفات في حالة من الثورة وهو يشير إلى حطام مركز القيادة التابع له، وكان حانقاً وهو يلقي بتصريحاته: "لقد حطمت إسرائيل عملية السلام"، وادعى فيما بعد إسحاق شامير وزير خارجية إسرائيل أن ما قاموا به كان للرد على إرهابيين من منظمة التحرير، ومنذ ذلك التاريخ صارت للارناكا مكانة خاصة في تاريخ الشرق الأوسط.

ووفقا للتوقع دائماً عندما يكون هناك اغتيال يكون هناك ثأر هذا ما كانت تتذكره الأرملة جورجينا رزق كلما فكرت في قدرها، فتلك المرأة التي كانت ذات يوم من أجمل نساء العالم العربي شاهدت الكثير منذ يناير1979 العصيب الذي مات فيه زوجها مساعد عرفات على حسن سلامة، وقطعا فإن هذا الوقت - بالنسبة لها - مازال ماثلاً

أمام عينيها، وفي صباح يوم 15 مايو 1979، في الوقت الذي كانت تحتفل فيه إسرائيل بالعيد الـ31 ولد "علي" الابن الثالث لسلامة وارثاً لطبيعة أبيه، وقد صرحت جورجينا في المستشفى: "لقد أصبحت اليوم ملكة". لقد "عاد" على حسن الابن الروحي لعرفات وكلاهما من أبناء الثورة، وأبناء على هم حسن، وأسامة وابني الوحيد وهما في نفس الوقت أبناء الثورة، إن هذا يجعلني سعيدة الطالع".. وهذا الطفل، وإخوته سيكونون من قادة منظمة فتح في المستقبل.

عاشت جورجينا في لبنان أربع سنوات، وعاصرت الاجتياح الإسرائيلي قبل انسحاب منظمة التحرير الفلسطينية. غادرت بيروت إلى حيث يتجه معظم اللبنانيين ليعيشوا في باريس، وبعد خمس سنوات ونصف السنة من استشهاد على حسن سلامة تزوجت، وكان سعيد الحظ يدعى "عبده سالم" وهو رجل أعمال لبناني.. في عام 1987 انتقلت الأرملة مرة أخرى إلى الشرق الأوسط، وهذه المرة إلى القاهرة.. وكما قالت في ذلك الحين: إن "علي" لابد أن يدرس اللغة العربية وأن يندمج في المجتمع.. سمح لأسرة جورجينا رزق بالسكن في حي الفيلات بالمعادي، حيث كان في ذلك الحين يوجد العديد من الأصدقاء المحدودين من بيروت القديم.. إلا أن ذلك لم يضع حداً لمعاناتها، وكما قالت جورجينا رزق في حينه فقد رأت أحلاما رهيبة: "كنت أستحم في الدم وقبل أن أستيقظ، وفي كل مرة كان لدي شعور، أنني أختنق بالدم".

وفي إحدى المقابلات الصحفية تحدثت جورجينا كثيراً عن ابنها "علي": "لقد بذلت جهدي، لكي أنشئ "علي" تنشئة عادية.. ورغم ذلك فإنني أتعجل أن يصبح إنساناً طيباً.. لابد أن يستخدم القيم الإيجابية، في ذلك الحين يعلم أن ذلك لا يمكنه أن يحصل عليه من زملائه التلاميذ في المدرسة الأمريكية.. وقالت جورجينا: "إنه يعلم أنه من الأفضل له، أن يكون بعيداً عن الإسرائيليين".. وبخلاف ذلك فإن الشاب البالغ من العمر في تلك الأيام الثالثة عشرة لم يعد بدون أب.. لقد تزوجت أمه منذ عام من المغن وليد توفيق.. أما شقيق "علي" المدعو حسن الذي كان يبلغ من العمر حينئذ 52 عاماً فقد أنهى دراسته

في الولايات المتحدة.. وعاد إلى رحم عشيرته سلامة، والتي يرجح أنها تعيش في عمان .. أما إيريكا تشامبرز من الذين قدموا خدمات جليلة للموساد، فإنها تعيش حياة عادية بعد إحالتها إلى التقاعد ويمكنها الاستمتاع بشهرة أعمالها داخل دوائر صغيرة لأصدقاء الأسرة. كما أنه كثيراً ما يتواجد رجال أمثال مايك هاراري هناك، كلما احتاجت إلى المساعدة. ومن ناحية أخرى لابد أن تختفى، حتى تهرب من مصيرها.

وبعد استشهاد على سلامة استعادت المرأة الإنجليزية صاحبة الاسم الأصلي إيريكا تشامبرز علاقتها القوية مع أمها فقد تزوجت لونا مارجيت تشامبرز، في شهر أغسطس1978 من جديد وكان زوج أم إيريكا يدعى روبرت بريستون، وقد كان فيما مضى من أصدقاء أبيها ماركوس.. هذا وكانت إيريكا وباقي الأسرة قد تقابلوا معه ذات مرة في إحدى الإجازات الجماعية.. ولم يتحدث أحد عن كل ما حدث من الموساد والعمليات ضد على سلامة.. وقد أكدت إيريكا لأمها على الدوام أنها كانت ضحية لخطأ في الأسماء.. فلم تكن هي بل واحدة أخرى هي التي ارتكبت هذا العمل.. كان ذلك اعتقاد لونا بريستون.. وقد مات روبرت بريستون، الذي يقترب من عامه السبعين عندما كان يقضي شهر العسل مع لونا، في إحدى الإجازات السياحية في إسرائيل.. وبعد فترة زمنية قصيرة وبالضبط يوم 22 إبريل 1987، أصيبت أم إيريكا تشامبرز التي كانت تبلغ في ذلك الحين 74 عاماً، بالتهاب رئوي، وقد أخبرت ابنتها بقرب وفاتها، ومن ثم فإنها ستدفن في أرض الميعاد.. لقد كانت صدمة قاسية بالنسبة لإيريكا.

إن ما تبقي من لونا بريستون يوجد على جبل الزيتون. "ووفقاً للمعتقدات اليهودية التقليدية فإن من يدفن هناك سيبعث على الفور يوم مجيء المسيح" وكتبت إيريكا هذا، ويوجد فوق الحجر العريض فوق قبرها عدة كلمات هي: "هنا ترقد أمي الحبيبة، ابنة البيت الكبير"..

تلك هي قصة إيريكا تشامبرز أخطر جاسوسات إسرائيل.. ونأتي هنا لما قالته إيريكا عن الخطأ في الأسماء وما ادعته إسرائيل من أنه لا علاقة لقتلى لارناكا بالموساد وما

تؤكده من أنه كانت هناك علاقة تبادلية بين شخصية إيريكا تشامبرز الجاسوسة الإسرائيلية اليهودية، البريطانية الميلاد وبين القتيلة التي كانت في الزورق الحربي بميناء لارناكا. وقالت إسرائيل: "إن اسمها إيستر بالتسور"، وقالت: "إن القتيلين الآخرين هما زوجها وأحد الأصدقاء".

والعمليات التبادلية في شخصيات الجواسيس هي إحدى أهم وسائل الجاسوسية الإسرائيلية السرية في تنفيذ وتأمين عملياتها الفائقة السرية خاصة القتل والاختطاف والتخريب.. فالعملاء الشبان في جهاز الموساد غالبا ما تطلق عليهم أسماء مستعارة حتى يمكنهم السفر إلى إسرائيل دون اكتشافهم، بمن فيهم إيريكا تشامبرز نفسها منذ وقت بدايتها مع أوراق الموساد المزيفة باسم روث ألوني وهو من الأسماء اليهودية الشهيرة في بلاد كثيرة.

فالمخابرات الإسرائيلية كانت تحصل على جوازات سفر لفترة لا تزيد على ثلاثة أيام.. وبعد تلك الفترة، فمن السهل إنكارها خلال استفسارات البوليس الدولي حول التزوير أو الاستجوابات التي تجريها سلطات الشرطة الوطنية.. ومثل جوازات السفر تلك فإن معظمها تكتشف بها أسماء ذات استخدام يومي.. وكما ظهر في الأمثلة السابقة، فإنه يمكن للكثير من اليهود المهاجرين إلى إسرائيل استخدام أحد الأسماء وتواريخ جوازات السفر دون إعلام صاحب الجواز الحقيقي. فقد سافرت "سيلفيا رافيل" أحد جواسيس مايك هاراري في أوروبا باسم باتريشيا روكبرو إلى جميع أنحاء العالم، مع العلم بأن "باتريشيا روكبرو" الأصلية الكندية الجنسية لم تكن لديها أية فكرة على الإطلاق.

لكن من عميلى الموساد اللذين شاركا الإنجليزية إيريكا تشامبرز اغتيال سلامة؟.. الأول: هو بيتر سكريفر وجواز سفره مزيف. أما رونالد كولبرج فهو الشريك الثاني لسكريفر مع تشامبرز في مهمة قتل سلامة، وكان يبحث خلال إقامته في بيروت عن مؤسسة تجارية لبيع السلع المنزلية، وتقدم إليها باعتباره مندوباً عن إحدى الشركات التجارية الكبرى، وبعدئذ ترك بطاقة زيارات بها التعريف التالي:

ريجنت شيفيلد إنترناشيونال، أكبر اسم في صناعة السكاكين، فار منجدال – نيويورك 11735، الولايات المتحدة، رونالد إم. كولبرج، مندوب معتمد، ميتلهوفن 66، هولندا.. وتقريبا فإن إيريكا تشامبرز التي حصلت على هويتها في ألمانيا. من المحتمل أن تكون هي التي زرعت هذا العميل في هولندا ليعمل من هناك.. والخطأ الوحيد هنا: "أن بطاقة الزيارة الخاصة كانت مطبوعة في إسرائيل، حيث إنها تحمل خطأ مطبعياً لا يحدث في هولندا.. فلا وجود لميتلهوفن، بل ميرلهوفن، وفي بيروت كان من الصعب أن يدرك أحد هذا الخطأ ليفحصه.

وكان عملاء كولبرج يدفعون ثمن إنجاز الأعمال لحسابه في أنحاء بنوك هولندا بروتردام.. وحين فتح الحساب، قدم جواز سفر كندياً برقم 10477 صادر بتاريخ 24 يناير 1977 في فانكوفر.. وقد ولد كولبرج هذا بتاريخ 25 يونيو 1954 في فانكوفر، ويقطن في روتردام، هويلد شهرات رقم 35، واختفى في نوفمبر 1978. وعندما قام البنك بإرسال مستخرج حسابه على العنوان البريدي، وصله إشعار يقول: "المرسل إليه غير معروف".. وليس هناك من يجيب.. إن هذا العنوان الذي كان يتعامل عليه يخص إحدى المؤسسات التجارية النفطية.. وفي إحدى زياراته تعهد كولبرج بأن عنوانه الجديد هو صندوق بريد 3353.. وعن طريق هذا العنوان وبمساعدة العنوان الآخر يمكن الاتصال به: روتردام مسترات65.. وبالتأكيد فإن السكن كان خالياً، فقد فر شبح الموساد.. وهنا تأتي المفاجأة، حيث يتواجد شخص ثان يدعي رونالد إم. كولبرج. ينتظر جميع حسابات الشخص الأول. وهذا الشخص الثاني – وبالضبط كولبرج – كان يبلغ من العمر 25 عاماً في ذلك الحين، أضخم من ذلك الشخص الذي يحمل اسمه ويعمل لدى المخابرات، له شعر أسود، ويلبس نظارة.. إنه يهودي أرثوذكسي، ويمتلك جوازي سفر أحدهما كندي ويحمل رقم 104277، والثاني إسرائيلي.. والجواز الكندي صادر بتاريخ يناير 1977، قبل يوم واحد من سفر كولبرج إلى إسرائيل للالتحاق بالجامعة والآن هو بتل أبيب لدراسة علم الأحياء "البيولوجيا".. وفي شهر سبتمبر 1977 كان لابد أن يسلم جواز سفره، فقد طلب من أحد وكلاء الشحن توصيل ثلاجة عبر الجمارك

الإسرائيلية.. وقد استغرقت الإجراءات أسبوعاً.. وفي نوفمبر 1977 اشترى كولبرج غسالة آلية لنفسه.. ومرة أخرى طلب وكيل الشحن جواز السفر.. لقدكانت تلك ساحة الموساد ومن يعملون في التزوير لديها.

وتواجد كولبرج الحقيقي في شهر يناير 1979 في جامعته، وكان يحضر المحاضرات اليومية ويستعد لامتحاناته، التي كانت ستعقد في شهر يونيو.. وتقريبا كان يمضي كل مساء في شقته في ريهوف هايبليون برماتجان.. وقطعا استطاع كولبرج فيما بين 17 و21 يناير أن يتواجد في بيروت.. أما هذا اليوم فلا يجب عليه السفر إلى لبنان أبدا لكي يمنع سوء الفهم.. وهكذا إن العملية التبادلية التي استخدمها الموساد لقتل على حسن سلامة لم تكن مقصورة على إيريكا تشامبرز، وإنما شملت رفيقيها سكريني ر وكولبرج اللذين كان لكل منهما رفيق آخر في مكان آخر يتبادلان معه شخصيتهما.

وبالعودة إلى شهر مارس1979، في ذلك الوقت قوي الشك لدى سلطات جمهورية ألمانيا الاتحادية، بأن الإسرائيليين وراء مسألة إيريكا تشامبرز، إلا أن العلاقة الخاصة بين ألمانيا وإسرائيل ومهارة الأخيرة في الضغط على الجانب الألماني وتذكيره دوما بالذكريات السلبية المرتبطة بأحزان الإبادة الجماعية، كل ذلك أدى إلى إجهاض الطلب الذي تقدمت به منظمة التحرير الفلسطينية للسلطات الألمانية بشأن التقصي عن إيريكا تشامبرز.

ويثير الدور التبادلي لشخصية سيدة الموساد الإسرائيلية – إيريكا تشامبرز – وشبيهتها التي قتلت في لارناكا "أستير" التساؤل حول الآليات التي استخدمتها الموساد لتحريك كل من الشخصيتين في أكبر العمليات وأخطرها لهذا الجهاز استطاع الشهيد على حسن سلامة أن يخدع الموساد في مدينة "ليليهامر"، ويصيبها بالخزي والعار عندما قتلت "جرسونا مغربياً" شبيهاً له في هذه المدينة، وهي تعتقد أنه الهدف المقصود بسهولة. أما الخداع فكان ضرورياً لأن حاسة سلامة الأمنية القوية كانت تسبق "الموساد" وخططها، وبالتالي تحطمت جميع خطط الموساد ومحاولاتها خلال الفترة من 1972 إلى 1979 والتي لم تهدأ في يوم ما.

وعلى هذا فإن الأمر الذي يجب التفكير فيه أن إيريكا تشامبرز لعبت دوراً مختلفاً عن الدور الذي لعبته "إستير"، وأن إستير هي الشخصية الرئيسية التي قامت باستخدام جهاز التفجير عن بعد بالتعاون مع العميلين الآخرين اللذين استخدما السيارة المفخخة، وهي التي أصابتها رصاصات الانتقام في لارناكا وكانت زوجة لمدير الموساد في أوروبا كما جاء في أحد الوثائق الألمانية، وأن النفي الكاذب عن علاقة القتلى الإسرائيليين بالموساد لم يكن إلا إحدى وسائل إسرائيل للتغطية على جهازها الأكثر سرية ولكن كون علاقاتها بزوجها مدير فرع المخابرات في أوروبا، وأنها إسرائيلية هو الذي دفع مايك هاراري إلى اصطياد وتجنيد "إيريكا تشامبرز" التي كانت مطلوبة بسبب التشابه الكبير بين "إيريكا" و"إستير" حتى يمكن القيام بالدور التبادلي الأكثر حيوية في عملية الموساد لنجاح المهمة.

ويمكن أن نكتشف أن "الموساد" لم يقرر استخدام "إستير" مباشرة، لأنها خشيت أن يكتشفها "حسن سلامة" بحاسته الأمنية السريعة، وبالتالي لا يحبط العملية فحسب بل يضع أدق أسرار الموساد خاصة جهاز العملاء في أوروبا الغربية تحت أيدي الفلسطينيين من جراء هذه المغامرة والدور المطلوب لإيريكا، هو ألا تجذب الانتباه إلى دورها التجسسي، وإن كانت على علاقة بهذا الجهاز، ولكن لهذه العملية فقط "عملية سلام" وتنتهي علاقتها بالموساد.

ومن رأى إيريكا تشامبرز في لبنان، قال إنها كانت تذهب بسلتها المملوءة بالطعام لإطعام الحيوانات والقطط الضالة في شوارع بيروت، وكانت تلك وسيلة لتأمينها في جمع المعلومات وأيضا في أن تجعل الجميع يحفظون شكلها ويعرفون سلوكها حتى تكون غطاء آمناً للجاسوسة إستير ساعة اللزوم ومسح الأرض والبنايات. أما الشيء الأهم فهو توجهها لاختراق المؤسسات الفلسطينية بزعم أنها متعاطفة مع قضية الشعب الفلسطيني، وتريد أن تقدم له المساعدات، ولكن الهدف هو الوصول إلى "على سلامة". وقيل في مناسبات أخري أن "إيريكا" قضت عدة ليال مع الأمير الأحمر في أحد فنادق بيروت، وأطلعت على الأسرار الخاصة بمنظمة التحرير، وكان منطقياً تبادل الأدوار بين كل من "إيريكا" التي لعبت

دوراً محدوداً في جمع المعلومات والوصول إلى مخدع الأمير وبين "إستير" التي يمكن أن تكون هي التي قادت عملية التفجير مع الجاسوسين الآخرين.

وبالتأكيد فإن إيريكا كانت في لبنان في ذلك الوقت وأنها كانت في مكان آخر بعيداً عن دائرة الأحداث، حيث كان من الممكن أن يتم تبادلها في حالة وقوع إستير أو الشك فيها أو الاقتراب منها، لذلك فلابد أن تكون مع آخرين يؤكدون أنها كانت بعيدة عن دائرة الأحداث حتى تتيح الفرصة لإستير في الهرب.. أما وقد هربت إستير قبل أن يفطن أحد إلى حقيقة دورها فإن إيريكا يمكن أن تكون فرت معها في اللحظة نفسها أو بعدها بقليل. وكل الوقائع تدل وتؤكد أنها لعبت هذا الدور من البداية حتى النهاية للتغطية على إستير، أما اختفاؤها وذوبانها التام، فلكي يتأكد كل من يتابعها أنها كانت المجرمة وليست "إستير"، لذلك كانت فاجعة إسرائيل عندما قتلت الأخيرة في لارناكا، وبقدر هول الفاجعة كانت ضخامة الرد في تونس.

الفصل الخامس

اختطاف إيخمان

– ثرثرة نسائية تقود تاجراً يهودياً لمعرفة مكان إيخمان في الأرجنتين.

– باقة ورد في ذكرى زفاف إيخمان قادته لحبل المشنقة.

– 521 ألف دولار ومئات الجواسيس جندوا لاعتقال"إيخمان"في بيونس آيرس.

كانت عملية اختطاف الزعيم النازي أدولف إيخمان، من أغرب عمليات الاختطاف في التاريخ الحديث والقديم على السواء، تقوم بها دولة داخل دولة أخرى ذات سيادة، ومن أجل أهداف تبدو ظاهرياً كأنها تحقيق العدالة أو الانتقام من مجرمين، وفي باطنها أشياء أخطر.

فاليهود قوم يثيرون الصخب والضجيج حولهم كثيراً، وقد يكون هذا الصخب مجرد أزمات وصراعات حقيقية أو مفتعلة، وذلك من أجل إخفاء حقائق وأشياء في منتهي الخطورة.

كان القصد من عملية اختطاف "إيخمان" هو التغطية على فضيحة لافون، وأن يظهروا كجهاز يتابع المجرمين والنازيين ويتعقبهم. وفي الحقيقة فإن اختطاف وقتل إيخمان كان ضروريا للتغطية على جرائم الصهيونية وزعمائها الذين تعاونوا مع النازي (إيخمان) ضد أبناء جلدتهم، وإذا كان إيخمان يمتلك المعلومات والوثائق الدالة على هذه الجريمة فلابد من خطفه تحديدا ومحاكمته وإعدامه في إسرائيل وليس في أي مكان آخر.. إلا أن عملية اختطاف إيخمان تكشف أن أدوات جهاز التخابر الإسرائيلية ليست تلك القابعة في تل أبيب ويافا وحدهما، بل هناك مراكز متنوعة ومتعددة للتجسس وجمع المعلومات والبيانات لصالح إسرائيل في جميع أنحاء العالم وتم توظيفها في قضية "إيخمان" كما تم توظيفها في العديد من القضايا التي كشف النقاب عنها،كتدمير المفاعل الذري العراقي سنة 1981 الذي استعانت فيه المخابرات الإسرائيلية بجاسوس، من اليهود الفرنسيين كان يعمل في المصنع المخصص لإنتاج المفاعل. هناك وسائل اتصال حية ومنظمة بين هذه الخلايا التجسسية من أوروبا وأمريكا وآسيا وإفريقيا بمراكز التجسس الإسرائيلية وأجهزة مخابراتها في تل أبيب.

ولد أدولف إيخمان في ألمانيا سنة 1906وكان رئيساً لدائرة الشئون اليهودية التابعة للاستخبارات في عهد هتلر. عمل موظفاً ثم وكيلاً لإحدى شركات النفط قبل أن ينضم إلى المنظمة العسكرية والسياسية النازية في سنة 1933.. وبعد أربع سنوات عين

رئيساً لدائرة الشئون اليهودية التي أصبحت فيما بعد جزءاً من مكتب الأمن الرئيسي للرايخ. ومع نهاية الحرب العالمية الثانية في سنة 1945 اختفى كل أثر لأدولف إيجمان، ومع أن عدة أنباء ذكرت أنه يقيم في أمريكا اللاتينية أو سويسرا أو الشرق الأوسط، إلا أنه لم يعرف شيئاً عنه حتى مارس 1961 عندما اقتفى رجال المخابرات الإسرائيلية أثره في الأرجنتين. اختطف إيخمان ونقل بالطائرة إلى إسرائيل وأحيل في إبريل 1961 إلى المحاكمة، وأدين في 51 تهمة وحكم عليه بالإعدام شنقاً في 51 ديسمبر 1961.. وكانت عملية اختطاف إيخمان وثيقة الصلة بما حدث قبلها من عمليات، فشلت فيها المخابرات الإسرائيلية خاصة عملية "لافون" في القاهرة التي عرفت بعملية "سوزانا".

ففي اليوم الثاني من شهر مايو 1960. يوم الاحتفال بقيام "دولة إسرائيل"كان دافيد بن جوريون يشهد العرض العسكري.. وقد بدا وجهه ممتقعاً، وتظهر على ملامحه علامات الغضب والحنق، مما حدا بالدوائر الدبلوماسية إلى توقع حدوث أزمة سياسية وشيكة. وبين الكواليس كان يدور الهمس حول وجود فضيحة "دريفوس جديدة" في البلاد.. إذ إن بن حاس لافون . وزير الدفاع السابق . تقدم بشكوى ضد (مجهول) اتهمه فيها بأنه قام في عام 1945 بعملية تزوير تخفي وراءها إكراهه على الاستقالة.

كما كان سامعو ذلك الهمس يتساءلون عن هوية (المجهول) الذي قدم لافون شكواه ضده. وكان هذا المجهول هو (الكولونيل مالنكوف) الملقب بـ "مالنكي" رئيس المخابرات العسكرية، الذي لم يغفر لوزير الدفاع، أي بن جوريون، أنه وضع قضية إيخمان بين يدي جهاز "الشين بيت" (دائرة المخابرات المدنية) "الشاباك" حاليا. وقد استطاع الكولونيل مالنكي أن يأخذ بثأره مرتين:

الأولى: حينما فشلت المخابرات الإسرائيلية في خطتها الرامية إلى نسف مقر السفارة الأمريكية في القاهرة، وحينما افتضح أمر عناصرها واعترفت هيلدا فون ماتوسكا أمام المقدم إبراهيم سليمان من المخابرات المصرية بجميع التفاصيل، كانت كلمة القضاء هي الحكم

بإعدام د. مرزوق وأعضاء ذلك الجهاز التجسسي المعروف باسم كيدكل، أي نهر دجلة باللغة العبرية، وكانت هيلدا نفسها من بين العناصر التي نالها القضاء.

والثانية: التهمة القائلة بأن ثمة عملية تزوير بالإيعاز تمت مذيلة بالعبارة: إن عملية نسف السفارة الأمريكية في القاهرة يجب أن تتم ولو ضحينا في ذلك بجهازنا السري في مصر. وإثر فشل العملية قدم لافون – وزير الدفاع وقتها – استقالته.. كما سقطت أسهم مالنكي نفسه بعد عملية "سيناء" إذ كانت تعليماته تقضي بحجب الأنوار، مما سبب القضاء على حياة عدد كبير من العرب في "كفر قاسم".. وصدر حكم القضاء بمعاقبته بالسجن خمسة وعشرين عاما مع الأشغال الشاقة، ثم خفضت إلى خمس سنوات بسبب مرضه.. وأثناء وجود "مالنكي" في السجن أخذ يفكر في إيجاد وإحداث أزمة سياسية في إسرائيل تطيح بوزارة بن جوريون فاهتدى إلى كشف النقاب عن العبارة التي اختتمت بها تعليمات "لافون" المرسلة إلى شكبة المخابرات الإسرائيلية الموجودة في مصر، لذا فإن وزير الدفاع السابق لم يكن السبب في القضاء على شبكة إسرائيل التجسسية في مصر.

وهكذا نجح "مالنكي" في فضح فشل المخابرات العسكرية الإسرائيلية في هذه القضية.. التي تمتد جذورها إلى قضية إيخمان التي سببت الضجة الكبرى في الكنيست وفي أوساط الرأي العام المحلي.. لهذا كله فإن بن جوريون كان غاضباً، وحانقاً. وكانت حصيلة كل هذا أن أوعز باعتقال إيخمان.. ورصد مبلغ 521 ألف دولار أمريكي لإنجاز الخطة.. وكان بن جوريون يهدف من اعتقال إيخمان إلى إيجاد مبرر، لإبعاد خطر الأزمة السياسية التي أثارها "مالنكي" و"لافون".. وإنقاذاً للوضع السيئ الذي تردت فيه أجهزة المخابرات الإسرائيلية.

تغطية على الفضيحة

الحكومة الإسرائيلية قالت إنها خطفت "النازي السابق" لتقديمه إلى محاكمة "عادلة"، لتحاسبه على التسبب بقتل ستة ملايين يهودي خلال الحكم النازي في ألمانيا.. بينما الحقيقة الدامغة تثبت أن اختطاف إيخمان حتى إعدامه لم يكن سوى تغطية لعملية ثانية، وهي معرفة مكان أودعت فيه 300 مليار فرانك فرنسي دفعها يهود العالم لإنقاذ اليهود من معسكرات هتلر، ولا يعرف مكان الكنز ولا يملك مفتاحه سوى إيخمان.. وكان إيخمان يعيش في مقاطعة سان فرناندو بالقرب من عاصمة الأرجنتين "بيونس أرس" آنذاك مع زوجته وأولاده الثلاثة في فيلا منعزلة متواضعة، ويعمل في مصنع "مرسيدس بينز" في الطرف الآخر للمدينة، مما يستوجب عليه أن يسير كل يوم حوالى 300 متر ليصل إلى موقف الأتوبيس الموجود على الطريق الزراعي المهجور الذي يوصله إلى محل عمله..لم يكن أحد يعرف أن هذا الرجل هو "إيخمان"، وإنما المعروف أن السيدة ربة البيت هي أرملة "إيخمان"الذي مات.. والإنسان الرجل الذي تعيش معه هو زوجها الثاني ويدعى "ريتشارد كليمنت".. وعاشت هذه الأسرة الصغيرة ثماني سنوات (1935- 1960) دون أن تعكر صفو جوها أية شائبة.

في الشهور الأولى من عام 1960 بدأت عملية تسليط أضواء الرقابة عليه دون أن يشعر من قبل عناصر المخابرات الإسرائيلية.. فقد استأجر هؤلاء بيتاً يقع على بعد 200 متر تقريباً من بيته ولا يفصل بينهما سوى الحقول. وخلف إحدي نوافذ غرف هذه الدار كان يوجد منظار "تليسكوب" قوى جداً ذو طاقة بمقدورها تحديد رؤية كل ما يجري في بيت "إيخمان"، وتسجيل كل حركة يقوم بها كل من بداخل الدار منذ أن يستيقظ صباحاً إلى أن يركب الأتوبيس الذي يحمله إلى المصنع.. كان دوف هذا الذي يقيم في شقة استأجرتها له المخابرات الإسرائيلية، وتقع أمام المصنع الذي عمل فيه إيخمان، يبدأ مهمته في المراقبة منذ لحظة نزوله من الأتوبيس ودخوله الصنع حتى ساعة خروجه منه.

ولم تكن عملية "دوف" بالمراقبة بواسطة تليسكوب، وإنما كان يحمل حقيبة أوراق عادية وينزل إلى الشارع فيقف بموقف الأتوبيس الذي ينزل فيه إيخمان.. وحين نزول هذا يبدأ دوف بالمتابعة دون أن يثير شكوكه.. بينما تكون في مقبض الحقيبة كاميرا حساسة جداً تلتقط صوراً متوالية لـ"إيخمان" من زوايا متعددة.. والسبب في التقاط هذه الصور وإرسالها إلى تل أبيب هو التأكد والتيقن من أن هذا الرجل هو "إيخمان" فعلاً إذ لم تكن المخابرات الإسرائيلية على يقين من أن هذا الرجل هو إيخمان بالذات.. فمنذ عام 1952 بعد اختفاء إيخمان، اختفت زوجته وأولاده من النمسا فجأة فانقطع خيط المطاردة الإسرائيلية لإيخمان، مع أن المخابرات الإسرائيلية ما كانت تؤمن بأن الرجل قد مات وإنما فقدت أثره.

ويقول موشى بيرلمان في كتابه حول اختطاف إيخمان: "إن أهم عناصر المطاردة في مثل هذه العمليات أفراد الجاليات اليهودية في شتى بلاد العالم. ومعنى ذلك أن كثيراً من أفراد الجاليات اليهودية تؤمن لإسرائيل مصالحها في البلاد التي تعيش فيها. ففي سنة 1952 استطاع تاجر يهودي أن يدخل المجتمع الأرجنتيني دون أن يعرف أحد أنه يهودي، وعلى هذا الأساس اختلط بالجالية الألمانية الموجودة في "بيونس آيرس" وحاز على ثقتها.. وعلى أساس هذه الثقة سمع أن "أرملة إيخمان" تعيش في أطراف المدينة مع زوج جديد اسمه "ريتشارد كليمنت"، ورغم خطورة مركز إيخمان أيام الحكم النازي، فالذين يعرفونه شخصياً كانوا قلائل، لأنه كان حريصاً دائماً على أن يبقى في الظل. لهذا حرص الذين كانوا يراقبونه على أن يلتقطوا له عشرات الصور من جميع الزوايا، ثم ترسل إلى تل أبيب، حيث تعرض على كل من يعرف إيخمان أو شاهد صوره أثناء الحكم النازي.. وظلت المراقبة الدقيقة مفروضة.. كان إيخمان طيلة تلك الفترة لم يبدل أي شيء من نظامه اليومي حتى كان يوم 21 مايو إذ عاد من عمله يحمل باقة ورد كبيرة أعطاها لزوجته. فأخذ الذين كانوا يراقبونه يفكرون في السبب الذي دعاه إلى تقديم باقة الورد.. وما المناسبة في ذلك؟ وبمراجعة المعلومات الخاصة عن حياته تبين أن يوم 21 مايو هو يوم زفافه على زوجته عام 1935.

إذن فلا بد أن يكون هذا الرجل هو إيخمان نفسه. إذ من المستحيل أن يقدم الزوج الثاني لزوجته باقة ورد لذكرى زواجها من زوجها الأول، كما أنه ليس مجرد صدفة أن يكون يوم 21 مايو بالذات وبعد 25 سنة هو عيد زواجها من الزوج الثاني ليقدم لها باقة ورد. وأرسلت برقية إلى تل أبيب نصها "الرجل هو الرجل"وعلى الفور بدأت دراسة الخطوات التالية: كيف يمكن أن يتم خطفه؟ وأين تنفذ هذه العملية؟ هل يحتفظ بإيخمان في بيونس آيرس حتى إخراجه من البلاد؟ وكيف يمكن إخراجه من الأرجنتين؟

وكان لابد من حل مشكلة كيفية اختطافه وأين تنفذ هذه العملية؟ وفيما يتعلق بالمكان الذي يمكن أن يوضع فيه إيخمان لفترة من الوقت ريثما ينقل خارج الأرجنتين، فقد اقترحوا، إما وضعه في فيلا من الفيلات المنعزلة التي تكون ملائمة لهذا الغرض، لئلا يتورط أحد اليهود في مغامرة قد يفتضح أمرها. أما كيفية نقله إلى الخارج، فإما عن طريق البحر أو البر أو الجو.

ونوقشت هذه الناحية فنقله براً سهل جداً، ولكن ليس إلى إسرائيل وإنما إلى إحدى دول أمريكا اللاتينية.. ونقله بحراً يستلزم أن تكون الباخرة إسرائيلية، لأن قبطان أية باخرة من جنسية أخرى إذا ارتاب في الأمر، فسوف يطلق سراح إيخمان وينزله في أول ميناء تمر به السفينة.. ولاشك في أن الباخرة أسلم من الطائرة لأن هذه لا يمكن أن تطير رأساً وإنما تتوقف في عدة مطارات. وقد تتعرض لعمليات تفتيش. ومع ذلك فهي توصل إيخمان خلال 24 ساعة، بينما الباخرة تستغرض رحلتها عدة أسابيع وقد يشاع نبأ الاختطاف، وتحدث ضجة قبل وصول إيخمان إلى إسرائيل.. وتقرر استخدام الطائرة رغم ما في ذلك من مخاطرة، إذ لا يمكن أن تكون طائرة ركاب عادية.. بل يجب أن تكون طائرة خاصة.

وقد تم إعداد كل شيء وتم استئجار طائرة، وتم استئجار بيت أعدت إحدى غرفه لتكون الزنزانة التي سيوضع فيها إيخمان.. ورسم خط الطيران، فالطائرة ستطير رأساً إلى مطار في غرب إفريقيا، ومن هناك تتجه رأساً إلى إسرائيل.. وينبغي ألا تزيد مدة بقاء إيخمان في زنزانته على ثلاثة أيام أو أقل، حتى لا تعمد زوجته خلال هذه الفترة إلى مراجعة

دوائر الشرطة. ستفضح أن إيخمان زوجها.. وهي لن تفعل ذلك إلا بعد أن تيأس من العثور عليه بوسائلها الشخصية.

وقفت سيارة بالقرب من محطة الأتوبيس التي ينزل منها، وتظاهر راكبوها أنهم منهمكون في إصلاح عطل فيها، لئلاً يثيروا شبهات العابرين، واختاروا ساعة عودته للدار إذ يكون وقت الغروب قد حان ولن يمر شخص في تلك الطريق، ونزل إيخمان، وعندما اقترب منهم هجموا عليه دفعة واحدة، وقذفوا به إلى حفرة على جانب الطريق الزراعي، حيث ربطوا يديه وعصبوا عينيه ثم حملوه إلى سيارتهم فانطلقت إلى الوكر بسرعة رهيبة، وحينما وصلوا أغلقوا الأبواب والنوافذ، وأضاءوا الأنوار القوية ورفعوا العصابة عن عينيه وسأله أحدهم: من تكون أنت؟

فأجاب إيخمان، وقد أدرك كل شيء: "أنا أدولف إيخمان"، وخلعوا عنه ثيابه كلها وأوقفوه تحت الأضواء عارياً، وفتشوه تفتيشاً دقيقاً خشية أن يكون معه شيء ما يمكن أن ينتحر به.

وجاء يوم نقله فأعطوه في الليل كوباً من القهوة المزوجة بمخدر قوي فانهارات أعصابه على الفور، ثم خلعوا ملابسه وألبسوه "بيجاما" و"روب دي شامبر" وأمام الباب كانت بانتظارهم سيارة فاخرة، فقد ادعوا أنه رجل غني ومريض جداً ومسافر إلى الخارج ليعرض نفسه على طبيب عالمي، وهذا ما يفسر فقدانه الوعي.. وكونه في ملابس النوم، وفي المطار اجتازوا به الجمرك بأوراق مزيفة وحملوه على نقالة إلى الطائرة وهو مخدر تماماً وغائب عن وعيه، وبرفقته اثنان من رجال المخابرات الإسرائيلية وهما بملابس الممرضين، ولديهم كميات من القهوة المزودة بالمخدر يجرعونها إليه كلما لاح لهما أنه على وشك أن يفيق حتى وصلت الطائرة إلى مطار اللد في إسرائيل.

وقال بن جوريون في البرلمان الإسرائيلي: "إن إيخمان جاء بملء إرادته"، ورددت وسائل إعلام إسرائيل هذا القول أيضاً لإيهام الرأي العام العالمي بأن إيخمان ذهب إلى إسرائيل طائعاً مختاراً كي تجرى له محاكمة.. وقد رحب إيخمان بذلك ليتخلص مما يثقل ضميره.

وحاولت أبواق بن جوريون أن توهم العالم بأن الوثيقة التي كتبها إيخمان وثيقة حقيقية، والتي جاء فيها: "أنا الموقع أدناه أدولف إيخمان أعلن بملء حريتي، حيث إن شخصيتي الحقيقية قد عرفت فلا أجد داعياً لمواصلة تجنب العدالة، وأعلن عن رغبتي في الذهاب إلى إسرائيل لأواجه المحاكمة.. وإنني أكتب هذه الوثيقة بملء حريتي دون تهديد أو ترغيب، لأنني أريد أن أحصل أخيراً على سلامة النفس. وقد ذيل هذه (الوثيقة) بتوقيعه وسطر تاريخها. بيونس آيرس مايو 1960.

إن محاكمة إيخمان في أساسها غير شرعية، لأن أسلوب خطفه كان غير قانوني، ولأن القانون الذي حاكموه به كان غير شرعي أيضاً، وإنما كان الأمر هو عمل انتقامي سافر، رغم المحاولات الإسرائيلية الهادفة إلى تغطية المحاكمة بثوب من الشرعية.. ومن المؤكد أن ما كتبه إيخمان كان في سجون تل أبيب، ولكن المخابرات الإسرائيلة دونت تاريخ وجوده في الإرجنتين في ذيل الوثيقة ليقولوا: إنه سافر إلى إسرائيل بإرادته وليس خطفاً، وإذا كانت إسرائيل زورت من قبل توقيع وزير دفاعها "لافون" فهل من الصعب تزوير توقيع مسجون لا حول له ولا قوة هو "إيخمان"؟!

لماذا إيخمان ؟

لماذا اختطفت إسرائيل إيخمان خاصة، رغم أن مئات النازيين القدامى الذين شاركوا مباشرة في قتل اليهود ما زالوا على قيد الحياة، وما زالوا يزاولون في ألمانيا نشاطاً رسمياً؟ ولماذا جندت إسرائيل مخابراتها لعدة سنوات جرياً وراء إيخمان نفسه؟

إن السبب الرئيسي يكمن في أن إيخمان كان يرأس المكتب المركزي لتهجير اليهود الألمان إلى فلسطين، وكان هذا المكتب ملحقاً مباشرة بالقيادة العليا للجستابو وكان – بحكم منصبه – يعرف كل أسرار التعاون السري بين الحركة الصهيونية والنازية.. وزعماء الصهيونية العالمية وحكام إسرائيل كانوا يخشون أن تفلت منه بعض هذه الأسرار، وبذلك يفسد عليهم الوسيلة التي يبتزون بها مشاعر أوروبا وهو ما لاقاه اليهود في ظل النازية؟ كما أن إذاعة هذه الأسرار يضع زعماء الصهيونية في قفص واحد مع النازيين ماداموا في غمار الحرب العالمية الثانية، وعندما كانت القيادة العامة الهتلرية تعد الخطط لغزو الشرق الأوسط اصطدمت هذه القيادة بصعوبة بالغة الأهمية، فلم يكن لدى النازية في هذه المنطقة عملاء، وجاء القرار على غير انتظار فقد اقترح سترن أحد زعماء المنظمة الصهيونية السرية "هاجاناه"، أن يختار يهودا من الجيتوهات ومن معسكرات الاعتقال كعملاء ألمان، وأن يرسلوا إلى منطقة الشرق الأوسط كلاجئين يهود. وفي فبراير سنة 1941 أرسل النازيون فريقاً من هؤلاء العملاء الجواسيس إلى الشرق الأدنى على ظهر الباخرة "ستروما"، وعندما افتضحت فجأة عملية "اللاجئين" إثر توقيف "سترن" من قبل الإنجليز أغرق زورق للطوربيد الألماني الباخرة ستروما في عرض البحر مع ركابها جميعهم، وفي سنة 1944 اقترح الهتلريون على الصهيونيين صفقة جديدة هي ما تسمى "افتداء الدم اليهودي"، فقد اتفق أدولف إيخمان مع رودولف كاستنير الذي كان أحد زعماء اليهود في ذلك الحين، ونتيجة لهذه الصفقة كان إيخمان يفرج عن اليهود الأغنياء من معسكرات الاعتقال مقابل ألف دولار للشخص الواحد، ونتيجة ذلك حصل النازيون على مليونين من الدولارات الأمريكية ومواد إستراتيجية وسندات وجواهر، وقد ساهم في هذه الصفقة بصورة مباشرة أو غير مباشرة أقطاب الدولة اليهودية فيما بعد الحرب وكان من بينهم أول رئيس لها "حاييم وايزمان" ورئيس الوزراء موسى شاريت وبن جوريون.

ومن المعروف أن بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل في حينه قد أمر شخصياً بقتل "كاستنير" بعد اختطاف إيخمان، كي لا يتاح لكاستنير أن يؤكد أثناء المحاكمة اتصالات النازيين مع الصهاينة أثناء الحرب العالمية الأخيرة.. وإذا كانت إسرائيل قد استطاعت إخفاء

معالم جريمة تعاون قادة الصهيونية مع "إيخمان" ضد اليهود والحلفاء، باختطافه وإعدامه ثم قتل ضابط الاتصال اليهودي "كاستنير"، فإنها لم تستطع أن تخفي الدلالات التي يمكن استنتاجها من هذه الوقائع والحوادث بدءاً من فضيحة لافون، واعتداءات الطيران على غزة، ثم خطف "إيخمان". وهذه القسوة في التعامل لم تكن على الأعداء فقط، بل على أبناء جلدتهم الذين يمكن أن يكون في وجودهم أو أقوالهم وتصرفاتهم ما يضر بالأهداف الإستراتيجية لإسرائيل.

الفصل السادس

المفاعل العراقي واغتيال "المشد"

- شقراء مثيرة ترتدي بنطلونا ضيقا وقميصاً شفافاً لاصطياد عالم الذرة.
- ألف دولار وليلة حمراء مع الصغيرة ماري للإيقاع بالفريسة.
- الموساد تدمر المفاعل في باريس وتتهم أعداء السامية.

كان ضرب المفاعل النووي العراقي في صيف 1981 انتصاراً للمخابرات الإسرائيلية، بدأت قصة هذا الانتصار مع نجاح خطة الموساد في تجنيد "بطرس بن حليم" أحد علماء الذرة العراقيين.

استطاع "حليم " أن ينقل للإسرائيليين كل المعلومات الفنية وغير الفنية عن المفاعل النووي العراقي.. ومهدت تلك المعلومات لنسف المشروع وتعطيله.. كما ساعدت المعلومات التي قدمها حليم عن عالم الذرة المصري د. يحيي المشد على قتله لاحقاً.. وكانت المخابرات الإسرائيلية قد فشلت بمساعدة من حليم في تجنيد المشد.

ويكشف تجنيد بطرس بن حليم واستغلاله كطعم جوانب كثيرة في العالم السري للموساد. والدور الذي يلعبه خبراء علم النفس في عملية التجنيد، ودور "السايان" وهم اليهود من أهل البلدان الأخرى الذين يخدمون الموساد، ويقيمون بأدوار التضليل والخداع للرأي العام، وتحاول إسرائيل أن تسوغ مبررات واهية لتجميل الدوافع اللا أخلاقية لجرائمها في القتل والنسف والتخريب والانتهاكات لسيادة الدول الأخرى، والاعتداءات على قوانينها، وكلها أشياء مباحة للمخابرات الإسرائيلية وعملائها مادامت تحقق أهدافها.

إن بداية الخيط الذي تلقفه الموساد لتجنيد بطرس بن حليم هو معرفة أنه يمكن أن يثار لرؤيته فتاة شقراء مثيرة ترتدي بنطلوناً ضيقاً وقميصاً شفافاً، ومثل هذه الفتاة هي بالطبع التي تم وضعها أمامه.. كان يشاهدها يومياً ولأسبوع كامل في محطة انتظاره الدائمة للباص، في ضاحية "فيلا جويف"الباريسية. كان الركاب قلة وكان من السهل عليه ملاحظتها، ورغم عدم معرفة حليم بأي شيء، فقد كانت هذه النقطة هي طرف الخيط.. كان ذلك في شهر أغسطس 1978 فعندما وصل حليم إلى المحطة،كانت الفتاة الشقراء هناك، ظهر فجأة رجل أشقر بعض الشيء، أزرق العينين، ملابسه أنيقة يقود سيارة فيراري حمراء رقمها B.B 512 بمقعدين، توقف لتصعد الشقراء.. ثم أسرع ذاهبا إلى حيث لايدري حليم أو غيره.

كان "حليم" العراقي الجنسية وزوجته سميرة لايطيقان البقاء في باريس، وكان يمضي أوقات رحلته إلى عمله في التفكير بالفتاة الشقراء، وكان لديه الوقت لذلك، لأنه لا يحدث أحداً خلال الطريق، خاصة أن المخابرات العراقية كانت قد علمته ألا يسلك طريقا مباشراً للوصول إلى عمله.. كما فرضت عليه أن يبدل هذا الطريق كل مرة.. كانت محطة الباص قرب منزله في "فيلا جويف"ومحطة المترو في "سانت لازار" هما الثابتتان فقط، هناك استقل حليم القطار إلى سارسيلي شمال المدينة، حيث يعمل في مشروع سري للغاية ضمن مشروع بناء محطة نووية للعراق.

في أحد الأيام وصل الباص قبل الفيراري، تطلعت الفتاة نحو الشارع بانتظار وصول السيارة التي لم تأت، ثم صعدت إلى الباص ولكن ما حدث هو أن الباص تأخر اضطرارياً، بسبب حادث سير بسيط وقع على مسافة شارعين عندما برزت سيارة بيجو فجأة أمامه.. لحظات أخرى، أتت الفيراري ونظر السائق باحثاً عن الفتاة وحليم يلاحظ ذلك.. ناداه بالفرنسية إنها استقلت الباص.. أجاب الرجل بالإنجليزية، وهو ينظر بحيرة، أعاد حليم القول بالإنجليزية، ثم سأل الرجل حليماً عن اتجاهه فأجابه بأنه يقصد محطة "ماديلين" القريبة من "سانت لازار" السائق اسمه الحقيقي ران .س، والذي سيعرفه حليم فيما بعد باسم جاك دونوفنان الإنجليزي. قال أيضاً: "إنه يتجه إلى المكان عينه وسأله إن كان يرغب في أن يوصله.. ركب حليم السيارة، لقد ابتلعت السمكة الطعم وكما ستبرهن الأيام القادمة سوف تكون هذه هي "الجائزة الكبرى" للموساد.

بدأت قصة حليم مع المخابرات الإسرائيلية قبل ذلك بفترة طويلة، ولم يكن له يد فيها، فعندما كان العراق يقترب من مرحلة إنتاج قنبلة نووية في أواخر السبعينيات، سارع جهاز "أمان" – وحدة المخابرات العسكرية الإسرائيلية – بإرسال مذكرة كتب عليها "سري للغاية" إلى تسفي زامير، وهو الجنرال السابق الذي كان يرأس الموساد.

طلب "أمان" معلومات أدق لمراحل التطورات على صعيد المشروع العراقي، لذلك اجتمع "دافيد بايرن" رئيس الـ"تسومت" (قسم المتطوعين في الموساد) . وزامير بايرن رجل الموساد ذو الوجه المستدير، والأنيق من الطراز الأول، الذي اجتمع بدوره مع القادة في جهازه وأمرهم بالبحث عن عراقي ما، مرتبط بمصانع الإنتاج. بعد يومين اتصل "بايرن" برئيس خلية فرنسا "دافيد اربيل" ذي الشعر الأبيض الذي يتكلم عدة لغات، وهو ضابط موساد وأعطاه التفاصيل اللازمة للمهمة كما في كل الخلايا، بما في ذلك خلية باريس التي تقع أسفل السفارة الإسرائيلية، وهي خلية محصنة جيداً ويتمتع رئيسها بسلطة أعلى حتى من السفير نفسه ويتحكم أعضاء الموساء بالحقيبة الدبلوماسية، فكل البريد الوارد والصادر من السفارة يمر من خلالهم، كذلك هم المسئولون عن المحافظة على الأمن في منازل تعرف باسم "غرف العمليات".

وتملك الخلية مائة شقة، بالإضافة إلى 50 شقة أخرى مستأجرة، وتتبع خلية باريس. هناك أيضاً "معاونون" يطلق عليهم السايان وهم متطوعون يهود غير إسرائيليين ويحملون جنسيات دول أخرى يقيمون فيها ومن مختلف المهن أحدهم اسمه الحركي جاك مارسيل ويعمل في مصنع سيرسيلي للوقود النووي. وعادة كان مارسيل ويعمل في مصنع سيرسيلي للوقود النووي. وعادة كان مارسيل ينقل المعلومات شفهياً، لكن هذه المرة طلبت منه الملفات الأصلية الخاصة بكل العراقيين يعلمون معه في المصنع، وأن يضع الملفات داخل صندوق سيارته.

قبل ليلة اجتمع به ضابط الموساد (كاتسا) وأخذ نسخة من مفتاح صندوق السيارة وأعطى تعليماته، وكان على مارسيل أن يقوم بدوره في شارع قريب من المدرسة الحربية في الوقت المحدد، هناك يلتقي سيارة بيجو حمراء تحمل لاصقاً معيناً على الزجاج الخلفي. كانت السيارة مستأجرة، لتترك طوال الليل أمام مقهى لتضمن موقفاً، كما طلب من مارسيل أن يدور حول الشارع وعندما يرجع تتحرك البيجو لتترك له الموقف. بعدها طلب إليه أن يذهب إلى اجتماعه تاركا ملف الأشخاص في صندوق سيارته.

وبما أن الموظفين في المصانع الحساسة معرضون للتفتيش والرقابة في أي وقت، فقد لوحق مارسيل دون علمه، من قبل الموساد خلال ذهابه إلى موعده، وبعد التأكد مرة أخرى من عدم ملاحقته أخذ رجلان من الموساد الملف من صندوق السيارة ودخلا المقهى، بينما كان أحدهما يطلب شيئاً من المطعم سار الآخر باتجاه الحمام، حيث استعمل كاميرا خاصة لا تحتاج إلى وقت لتجهيزها وتحوى عبوات خاصة من صنع الموساد وتأخذ 005 صورة في الفيلم الواحد، وبعدما قام بتصوير ثلاث صفحات أعاد الرجلان الملف إلى صندوق سيارة مارسيل.

أرسلت الأسماء فوراً بواسطة الكمبيرتر من مكتب باريس إلى تل أبيب مستعملة الشفرة الخاصة المتبعة، فإذا كان الاسم مثلا عبد الله فإن ع·ب يمكن أن تسمى 7 ود الله 12. ولأجل تعقيد الأمور أكثر فإن كل رقم يحمل شفرة معينة – حرفاً آخر أو رقماً – وهذه الشفرة تتغير مرة كل أسبوع وكل رسالة تخبر نصف القصة حتى تحمل شفرة الشفرة ع·ب بينما الأخرى شفرة الشفرة (دالله). وفي حالة التنصت على هذا البث فإن ذلك لا يعني شيئاً للشخص الذي يحاول أن يحلل الشفرة. بهذه الطريقة أرسلت لائحة الأشخاص إلى المقر الرئيسي.

بعد فك رموز الأسماء في تل أبيب، أرسلت المعلومات إلى دائرة الموساد للأبحاث وإلى "أمان"، الأمر الذي جعل قائد "تسومت" يقول: "اضربوا عند راحتكم" أي أوجدوا الهدف الأسهل، وبسرعة. هذا الأمر جعلهم يفكرون فى بطرس حليم، لقد ثبت لهم أن الضربة محظوظة وسبب اختياره تم لكونه العالم العراقي الوحيد الذي يعرفون عنوان منزله، وهذا معناه أن الآخرين كانوا إما تحت حراسة أوسع أو يسكنون في مراكز عسكرية قرب المصنع. حليم أيضاً كان متزوجاً وبدون أولاد وهو أمر مستغرب لعراقي في الثانية والأربعين ألا يكون له أولاد، في الوقت نفسه ليس دلالة على زواج ناجح وسعيد.

الهدف إذن موجود، ويبقى السؤال عن كيفية تجنيده؟ ولإتمام المهمة اجتمع فريقان لهذه الغاية..

الأول "ياريد" وهو فريق مهتم بالأمن الأوروبي، ومهمته معرفة مواعيد حليم وزوجته سميرة، ومعرفة إذا كانا تحت المراقبة العراقية والفرنسية، وتدبير شقة قريبة بواسطة مكتب عقاري تابع لـ"سايان" وهم اليهود غير الإسرائيليين المقيمين في بلاد أخرى (مهمة السايان تدبير الشقق في الأماكن المطلوبة دون سؤال).

والثاني: "نيفيوت" وهو الفريق الذي يقوم بجميع أنواع الاقتحامات: تحديد الهدف وتركيب أجهزة تنصت مناسبة بوضعها مموهة في طاولة أو زجاج أولدسها في الهاتف.

يتألف فرع الـ"ياريد" من ثلاثة فرق، يضم كل منها من سبعة إلى تسعة أشخاص، فريقان يعملان في الخارج والثالث يساندهما في إسرائيل. فرع الـ "نيفوت" يتألف أيضا من ثلاثة فرق من المحترفين المتدربين على فن الحصول على المعلومات المستحيلة، وذلك يعني: "الاقتحام، تصوير المستندات، دخول وخروج من البنايات لتركيب أجهزة ومعدات تنصت بدون ترك أية بصمات أو إثارة أية شبهات أو مشاكل. من ضمن مهماتهم نسخ مفاتيح لأهم الفنادق في أوروبا وهم يتقنون وسائل حديثة لفتح الأبواب والأقفال التي تحتاج إلى البطاقات الممغنطة والوسائل الأخرى، رغم أن بعض الفنادق مثلا تستعمل أقفالاً تحتاج إلى بصمات ضيف الغرفة لكي تفتح.

بعد وضع أجهزة التنصت في شقة حليم، يقوم موظف "شيكلت" (دائرة التنصت) بتسجيل المحادثة ويرسل شريط التسجيل في اليوم ذاته إلى المقر الرئيسي في تل أبيب، ومن هناك يسارعون إلى إرسال خبير تنصت إلى باريس لمتابعة المراقبة الإلكترونية وتأمين ترجمة سريعة لخلية باريس، حتى الآن كل ما يملكونه هو الاسم والعنوان، حتى بدون صورة له، ولم يكونوا متأكدين أنه سيفيدهم في النهاية، لقد بدأ فريق "ياريد" بمراقبة شقته في البناية من الشارع ومن شقة أخرى مواجهة ليروا صورة حليم وزوجته فقط.. حدث الاتصال الأول

بعد يومين عندما طرقت باب حليم امرأة صغيرة السن جميلة المنظر ذات شعر قصير وقدمت نفسها باسم جاكلين، وهي في الواقع "دينا" عملية مع الـ"ياريد". كانت وظيفتها في هذه الزيارة إلقاء نظرة فاحصة على الزوجة وتعريف الفريق عليها حتى تبدأ مراقبتها بعد ذلك وكانت دينا متخفية كبائعة عطور، وتملك كميات كبيرة منها، وتحمل حقيبة وأوراقاً جاهزة للطبات. ذهبت دينا أولاً إلى البناية ذات الثلاثة طوابق لتعرض بضاعتها محاولة تجنب الاشتباه بها وتعمدت الذهاب إلى شقة حليم قبل رجوعه من العمل.

أبدت سميرة ابتهاجها بالعطور المعروضة، وكذلك معظم النساء في البناية، ولا غرابة حيث إن الأسعار كانت أدنى بكثير من أسعار السوق، وكان على الشارين أن يدفعوا مسبقاً نصف المبلغ والباقي عند التسليم، مع الوعد بهدية مجانية عند تسليم الطلب.. أكثر من ذلك دعت سميرة جاكلين لدخول الشقة، وفتحت لها أنها تنحدر من عائلة غنية، وقد ملت من تبديد مالها الخاص وكيف أنها مصممة على العودة إلى العراق خلال أسبوعين، لأن والدتها ستجري عملية جراحية وستترك زوجها وحده هنا.

جاكلين بدورها تباسطت معها في الحديث وأخبرتها أنها تلميذة من عائلة متوسطة في جنوبي فرنسا، وأنها تبيع العطور لتحصل على كسب إضافي مظهرة لسميرة تطعافها الشديد معها، علما بأن مهمتها كانت فقط أن تتعرف إلى المرأة، في هذه المراقبة كانت كل دقيقة تنصت تسجل ويقوم الفريق بهضمها وعصرها والتخطيط لخطوة جديدة، وهذا يعني ساعات من التلقي ولملمة المعلومات وتلقف كل كلمة، ويختلط الدخان والقهوة بالأحاديث والمصارحات التي توثق الصلة بين سميرة وجاكلين، وبما أن دينا (جاكلين) قد تمكنت من كسب ود سميرة، الأمر الذي يساعد على ربط الأمور ، تقررت الخطوة التالية: أن تخرج المرأة مرتين من شقتها، وهكذا يقوم الفريق بتحديد مكانين من أفضل الأماكن لوضع أجهزة التنصت.. وهذا يعني الدخول لأخذ صور، قياسات، دهن العبوات، واستبدال أو صنع غرض ما بديلاً للموجود، وأخذ أقصى درجات الحذر، وخلال زيارة عادية اشتكت سميرة من استحالة وجود مصففة شعر جيدة وبعد يومين عادت (جاكلين) قبل وقت قصير

من عودة حليم، حتى تتمكن من مشاهدته والتعرف عليه، وأخبرت سميرة بأنها عثرت على مصفف شعر ممتاز يدعي أندريه، وقالت: "لقد أخبرته عنك"، وقال: "إنه يسعده أن يقوم بتصفيف شعرك، ولكن ذلك يتطلب القيام بعدة زيارات، إنه متخصص وأفضل اصطحابك إليه بنفسي.. شهقت سميرة للفكرة، فهي وزوجها ليس لديهما صديق في المنطقة، بل إن حياتهما الاجتماعية بسيطة، والذهاب إلى المدينة بعد الظهر بعيداً عن الشقة فكرة جيدة. كانت هدية سميرة المجانية، علاقة مفاتيح جميلة "هيا أعطني مفتاح الشقة وسأريك كيف يعلق" قلبها، أخذت جاكلين المفاتيح ووضعتها في علبة صغيرة بدت كأنها هدية أخرى، إنما كانت مملوءة بمادة تطبع شكل المفتاح وتسمح بعمل نسخة منه.

كان بإمكان الـ"نيفوت" الدخول عنوة دون مفتاح، ولكن لماذا المخاطرة إذا كان بإمكان الدخول من الباب الأمامي وكأن الشقة ملكك. عندما يكونون في الداخل يقفلون الباب ويضعون عصا بين مسكة الباب والحائط وإذا مر أحد المراقبين، وحاول فتح الباب سيظن أن القفل قد كسر فيذهب في طلب المساعدة، عندها يكون لمن في الداخل وقت كاف للخروج.. بعد التعرف على حليم كان من السهل مراقبته، لأنه يومياً كان يستقل الباص ذاته. المراقبة كانت تتم بتمهل، وكل يوم كان ثمة مراقبين جدد، جهاز التنصت عرف الفريق بالضبط متى تغادر سميرة إلى العراق، كذلك سمع حليم يقول لها: "إن عليه أن يذهب إلى السفارة العراقية لأسباب أمنية".

هذا الأمر نبه الموساد ليكونوا أكثر حذراً، إنما لم يكونوا قد فكروا بطريقة ما لاستدراجه وتجنيده، كذلك لم يكونوا بعد على يقين من أن حليم سيتجاوب معهم، لقد كان موضوع جعل عربي يقنع عربياً آخر منزلقاً خطراً جداً في هذه القضية بالذات، لقد كانت هذه المهمة فرصة عمر واحدة، ولم يكونوا مستعدين لأي خطأ.. الأمل في البدء كان بجعل دينا (أي جاكلين) طعماً لحليم.. لكنه فشل، إذ إن سميرة وبعد الزيارة الثانية لمصفف الشعر لم تعد تريد أن تراها "لقد رأيت نظراتك إلى تلك الفتاة" قالت سميرة لحليم خلال إحدى الجلسات: "لا تأخذ أية فكرة برأسك خلال غيابي فأنا أعرفك جيداً".

هذا الأمر جعلهم يفكرون بفتاة الباص مع "كاتسا" ران س، صديقة الإنجليزي جاك دونوفان، فقد جعلوا الفيراري المستأجرة ودونوفان والثراء يلعبون دورهم.. في أول طلعة له في الفيراري لم يعط حليم أية معلومات عن عمله قائلاً: إنه طالب، وأخبرتها أنها غير سعيدة مع زوجها ووصفته بالرجل الفاشل.. وأخبرتها قديم نوعاً ما، ولم يذكر شيئاً عن زوجته وأنه يحب أن يأكل جيداً، غير أنه لا يشرب.. دونوفان وبإبقائه على مهنة غامضة قال: "إنه يعمل في التجارة العالمية"، واقترح أنه يمكن لحليم أن يزور فيلته في الجبل أويشاركه العشاء خلال غياب زوجته، لم ينطق حليم بكلمة واحدة.

في الصباح التالى عادت الشقراء، ومر "دونوفان" وأخذها، وبعد يوم ظهر دونوفان ولكن الفتاة لم تظهر ومرة أخرى عرض أن يوصل حليم إلى المدينة هذه المرة عارضاً التوقف من أجل فنجان قهوة، ولأجل الرفقة الجيدة، بدأ دونوفان شارحاً: "آه.. كانت قد بدأت بطلبات كثيرة، لهذا السبب تركتها ويا للخيبة، ولقد كانت جيدة جداً، إذ كانت تعرف ما أعني، إنما ليس هناك نقص في عددهم أيها الوالد الكبير".. لم يذكر حليم أمام صديقه الجديد أمر زوجته.. هذا الأمر أراد الاحتفاظ به لنفسه بعد ذهاب سميرة إلى العراق، وأخذ دونوفان باصطحاب حليم دائماً وتقرب منه أكثر، وقال له إنه ينوي الذهاب إلى هولندا في رحلة عمل لمدة عشرة أيام، فأعطى لحليم عنوان عمله وتليفونه، طبعاً، ليس لمكتب معين إنما هناك سكرتيرة للرد في حالة اتصال حليم أو مجيئه إلى هذا العنوان المميز في بناية جديدة بالقرب من الإليزيه.. خلال هذا الوقت كان ران (دونوفان) يسكن في المنزل الخاص، حيث إن رئيس الخلية يجتمع معه بعد كل لقاء مع حليم أو مع المسؤول الثاني، ليخطط للتحرك المقبل، ويكتب تقاريره ويقرأ السيناريو الجديد.. كان ران يقوم بجولة أولاً للتأكد من عدم ملاحقته، في البيت الخاص، ران كان يترك جواز سفره البريطاني خلفاً ويتبادل المعلومات، وكان التقريران اللذان كتبهما، الأول دار حول تفاصيل المحادثة خلال الاجتماع بكل دقة، والثاني كان تقريراً للعمليات ويشمل "الأسئلة الخمسة" من – ماذا – متى – أين – ولماذا؟

وهكذا فإن ران ذكر كل ما جرى خلال الاجتماع وما حدث، ووضع التقرير الثاني في ملف آخر، ليعطيه إلى حامل البريد الذي ينقل الأخبار بين البيت الخاص والسفارة.. وهكذا فإن التقارير المعلوماتية والعملية تصل إلى إسرائيل منفردة بواسطة الكمبيوتر. التقرير العملي كان يجزأ لتجنب اكتشافة فكان الأول يقول: "لقد اجتمعت مع (انظر لاحقاً) "وتقرير آخر يحدد المكان.. كل شخص يحمل اسماً ذا شفرتين، علماً بأن ناقلي الأخبار لا يعرفون الشفرة كاملة.. شفرة للمعلوماتية وشفرة أخرى للعمليات.. لقد كان اهتمام الموساد الأكبر دائماً بالاتصالات، لعلمهم أن بلداناً أخرى قادرة على فعل الشيء نفسه، أثناء غياب سميرة، تخلى حليم عن الروتين فأخذ يتردد على المطاعم في المدينة، لتناول الطعام أو مشاهدة فيلم سينمائي.

في إحدي الليالى أخذ حليم يشرب وخلال فترة الليل الطويلة كان دونوفان يخبره عن صفقات عمل، مثل بيع حاويات إلى أحد البلدان في إفريقيا بقصد استعمالها كمنازل، والناس في هذه الدول في حالة يرثى لها.. إنهم يعمدون إلى شق فتحات في الحاويات وجعلها نوافذ وأبوابا ويسكنون فيها، وأضاف: "إنني ذاهب إلى طولون في نهاية هذ الأسبوع لشراء كمية بثمن زهيد، لماذا لا ترافقني؟!" قال حليم: "قد أكون عثرة في طريقك فأنا لا أعرف شيئاً عن هذه المصلحة" رد دونوفان: "ماذا تقول؟ إنها رحلة طويلة إلى هناك ذهابا وإيابا، وأرغب في أن يشاركني رفيق خلالها ويكون بجانبي.. وستكون العودة يوم الأحد، وعلى أية حال ماذا ستفعل في عطلة نهاية الأسبوع؟

تنكر أحد رجال الـ "كاتسا" بدور رجل الأعمال ليبيع الحاويات لدونوفان، بعد مناقشة السعر بين الرجلين تنبه حليم إلى أن إحدى الحاويات قد ضربها الصدأ في أسفلها (كانوا جميعاً يتمنون أن يتنبه حليم لهذا الأمر)، فانتحى بدونوفان جانباً وأسر له بالأمر ونصحه بمناقشة السعر مع البائع، لاسيما أن الصفقة تدور حول شراء 1200 حاوية.. في المساء وخلال العشاء أعطى دونوفان حليما ألف دولار أمريكي نقداً قائلاً: "خذها إنها لك، لقد وفرت على مبلغاً كبيراً من المال، من جراء تنبيهك". لأول مرة بدأ حليم يلاحظ

أنه بغض النظر عن الصحبة والوقت الممتع الذي يقضيه مع دونوفان فإن هذه الصداقة قد تكون مربحة أيضاً.

بالنسبة للموساد، المال، الجنس، وبعض الإغراء النفسي، عناصر مؤهلة لشراء أي شيء، لقد علق رجلهم الآن في الشرك.. لقد دنا الوقت للدخول ببعض الأعمال الجدية مع حليم الآن وقد عرف أن حليما لا يساوره شك بدونوفان كونه تاجرا فقد دعاه الأخير لاستضافته في فندق "السوفيتيل – بوربون" في شارع 32 سانت دومينيك بعد أن حجز له جناحاً فيه. كذلك دعا مومساً صغيرة هي ماري كلود ماجال. بعدما طلب العشاء أخبر دونوفان ضيفه أن عليه أن يخرج لعمل ما بسرعة تاركاً على الطاولة برقية (تلكس) كاذبة ليمكن حليم من الاطلاع عليها فيصدق سبب تركه مع ماري.. "اسمع. إني حقاً آسف لهذا لشأن" قال: "إنما أنت استمتع بوقتك وسوف أتصل بك".. وقد أمضى حليم وقتاً ممتعاً مع الصغيرة ماري تلك الليلة، وتم تصوير الواقعة بحذافيرها لاستثمارها كابتزاز، وإنما بعد معرفة مستجدات الأمور، ماذا يقول حليم أويفعل؟ لقد كان هناك محلل نفسي إسرائيلي يدرس التقارير الواردة عن حليم للتعرف على ردود الفعل وأسلوب السلوك الذي يجعل التقرب أمراً سهلاً.. كما كان هناك عالم فيزياء إسرائيلي جاهز للاستعانة بخبرته عند الضرورة.. بعد يومين عاد دونوفان واتصل بحليم لتناول القهوة، وتبين لحليم أن صديقه مستاء من أمر ما "لقد حصلت على عقد عمل مهم من شركة ألمانية بخصوص أنابيب للهواء المضغوط لشحن أجهزة للاستعمال الطبي"، قال دونوفان: "وهناك مال كثير في هذه الصفقه، ولكن تنقصني الخبرة في هذا الشأن لقد جمعوني بعالم إنجليزي اتفقت معه على فحص هذه الأنابيب، ولكنه طلب مبلغاً كبيراً.. وأنا لا أثق به على أية حال.. وأظنه متفقاً مع الجانب الألماني".. "ربما يمكنني مساعدتك" قالها حليم: "شكراً إنما يلزمني عالم خبير ليفحص هذه الأنابيب" أجاب حليم: "أنا عالم خبير"!

بنظرة استغراب قال دونوفان : "ماذا تقصد لقد ظننت أنك طالب؟".. "لقد وجب على أن أقول لك ذلك، إنما أنا عالم أرسلت من العراق في مهمة لمشروع خاص، أنا متأكد

أن باستطاعتي المساعدة"، بعد اعتراف حليم بمهنته شعر ران بفرحة عظيمة، وأن عليه أن يخفي الأمر ويكون هادئاً لقد نال منه أخيراً.. "اسمع، على أن أقابل الجماعة في أمستردام في عطلة نهاية الأسبوع، يجب أن أذهب ليوم أو اثنين، ما رأيك في أن أرسل لك طائرتي الخاصة نهار السبت صباحاً، ولن تندم على ذلك". قال: هناك أزمة مال حاضرة.. الطائرة الخاصة تم طلاؤها مؤقتاً باسم شركة لدونوفان.. كانت طائرة خاصة استقدمت من إسرائيل لهذه المناسبة، أما المكتب في أمستردام فهو ليهودي متعهد ثري، ولم يرغب "ران" بقطع الحدود مع حليم، علماً بأنه لن يستعمل جواز سفره الإنجليزي إنما أوراقه الحقيقية.. عند وصول حليم إلى مكتب أمستردام في الليموزين التي استقبلته في المطار كان شخصان في انتظاره رجلا أعمال، هما إتسيك.. عميل "كاتسا" من الموساد، وبنجامين جولد ستين عالم نووي إسرائيلي يحمل جواز سفر ألمانياً، وقد أحضر معه أحد الأنابيب لعرضه على حليم لفحصه.

بعد مناقشات ترك ران وإتسيك الغرفة بحجة مناقشة القضايا المالية، تاركين العالمين معاً لبحث القضايا التكنيكية مع علمهما التكنيكي وخبرتهما تلاقيا سويا في مباحثاتهما، فسأل جولد ستين حليماً عن كيفية علمه بهذه الموضوعات عن الصناعة النووية فأجاب حليم، وأخبره عن وظيفته.. لاحقاً عند إخبار جولد ستين لإتسيك عن حليم قررا دعوته للعشاء واعتذر ران عن المشاركة.

خلال العشاء أخبر الرجلان حليما عن مشروع يعملان عليه لبيع مفاعل نووي لبلدان العالم الثالث – لأسباب سلمية طبعاً وجاء رد حليم: "إن مشروع مصنعكم هو مثالي لنا وبإمكاننا بيعه لهؤلاء (يقصد العالم الثالث) قال إتسيك: "فقط، إن كان بإمكانك أن تأتينا ببعض التفاصيل عن المشروع، فمثل هذه المشاريع تمكننا من جني أرباح طائلة.. "إنما يجب أن يبقى الأمر سراً بيننا فلا نريد دونوفان أن يعلم بالأمر لأنه سيطالب بحصة من العملية"،"نحن عندنا الاتصالات وأنت عندك الخبرة ولسنا بحاجة إليه". "والله لا أدري بالضبط" قال حليم: "لقد كان دونوفان جيداً معي.. ثم.. ألا تظنان أن في الأمر بعض

الخطورة؟". "لا، ليس هناك أي خطر" قال إتسيك: "من المؤكد أن لك طريقة للوصول إلى هذه الأشياء" نحن نريد فقط استعمالها كنموذج فقط لا غير، وسوف ندفع لك جيداً، ولن يدري أحد، وكيف باستطاعتهم أن يدروا؟ هذا الأمر يحدث دوما"٠

"أعتقد ذلك" قالها حليم، بتردد، ولكن بجشع في المال الكثير ولكن ماذا بشأن دونوفان؟! أكره اللعب من خلفه.. "هل تظن أنه سيدخلك في صفقاته؟ هيا بنا لن يدري بالأمر أبدا. بإمكانك أن تبقي صديقاً لدونوفان وتتم صفقات معنا. بالتأكيد نحن لن نخبره لأنه عندها سيطالب بحصة". الحديث عن الثروة كان مغرياً وقد نالوا منه الآن على أية حال. لقد شعر بارتياح مع جولد ستين وتم تطويع حليم رسمياً وككل المتطوعين لم يدر بأمر تجنيده.

دونوفان دفع لحليم ثمانية آلاف دولار لمساعدته في قضية الأنابيب، وفي اليوم التالى بعد الاحتفال بوجبة طعام شهية وقضاء وقت ممتع مع ماري طار العراقي عائداً إلى باريس على الطائرة الخاصة.. كان على دونوفان في هذه المرحلة أن يختفي من الصورة كلية ليريح حليم من حرج الموقف في إخفائه الأمور عنه، وقد اختفى لفترة مع ترك رقم تليفونه في لندن مع حليم في حالة رغبته الاتصال به. قال دونوفان: "إن لديه عملاً في إنجلترا ولا يعلم كم من الوقت سيتغيب.. بعد يومين اجتمع حليم بشريكيه الجديدين في فرنسا، إتسيك المتسرع أكثر من دونوفان كان يريد رسما للمفاعل العراقي مع تفاصيل عن موقعه، مقدرته، وموعد تركيبه بالضبط.. تجاوب حليم أول الأمر بدون أي إشكال، لقد علمه الإسرائيليان كيفية النسخ التصويري باستعمال ورق خاص يوضع فوق المستندات فتنقلها، ولكن لا يبدو عليها سوى أنها مجرد ورقة إنما عند التظهير تظهر صورة المستند.

كان إتسيك لا يزال يدفع بحليم لتزويده بمعلومات أوسع ويدفع له في كل مرحلة وبدأت الشكوك تدور في رأس العراقي، وغالبه الإحساس بأنه أصبح جاسوساً وبدأ الخوف من انكشاف أمره يقلقه ويمنعه من النوم.. ما العمل؟ كل ما فكر القيام به هو الاتصال بصديقه دونوفان، فهو يعرف أشخاصاً في مناصب عليا. "عليك أن تساعدني" قال له حليم: "عندي مشكلة ولا أستطيع إخبارك بها هاتفياً إني في ورطة وأحتاج إلى مساعدتك".

"لهذا السبب هم الأصحاب" أجابه دونوفان، وأخبره أنه سيعود من لندن خلال يومين وسيلاقيه في الجناح الخاص في فندق سوفيتيل.

"لقد خدعت" قالها حليم معترفاً بكل القصة والاتفاق مع الشركة الألمانية في أمستردام: "فأنا آسف فقد كنت أنت الصديق الجيد، وقد دفعني الجشع إلى مثل ما فعلت، فقد كانت زوجتي دوماً تريدني أن أكسب المزيد من المال لأحسن وضعي، رأيت الأمل، لقد كنت أنانياً بحماقة أرجوك سامحني أنا بحاجة إلى مساعدتك".. لقد كان دونوفان شهماً دوماً ويقول لحليم "هذا العمل هكذا" وقد ذهب إلى أبعد من ذلك فقال لحليم: "إن الألمان يمكن أن يكونوا من الـ "سي. آي. إيه" وقف حليم جامداً.. "لقد أعطيتهم كل ما يريدونه ولكنهم مازالوا يسألون عن المزيد" "دعني أفكر بالأمر" قال دونوفان: "أنا أعرف بعض الجماعة، على أية حال أنت لست الوحيد الذي أغرته الأموال، ارتح قليلاً واستمتع بوقتك، فالأمور ليست سيئة للدرجة التي تبدو عليها".. في هذه الليلة ذهب حليم ودونوفان إلى العشاء ثم أحضر دونوفان لاحقاً مومساً أخرى، وقال له "سوف تريح لك أعصابك".

لكن بعد خمسة أشهر من ابتداء العملية بهذه السرعة، والسرعة كانت هي المطلوبة، نظراً لأهمية الموضوع إنما الحذر ما زال سيد الموقف في هذه المرحلة، ولكن نتيجة لخوف حليم ووضعه العصبي المتوتر فإن معاملته برفق كانت المهمة الجديدة التي يجب اعتمادها، ليتسنى إيقاعه في الشرك في مرحلة لاحقة.. بعد جولة من المناقشات الطويلة في البيت الخاص، تقرر أن يعود ران إلى حليم ويخبره بأن العملية كانت من تخطيط الـ"سي.آي. إيه". قال حليم: "سوف يشنقوني.. سوف يشنقوني"، قال دونوفان: "لا لن يفعلوا"، "ليست الأمور سيئة إلى هذه الدرجة".. "لن يدري أحد" "فهم لا يريدون سوى قسم آخر من المعلومات فقط ثم يتركونك".. "ماذا؟ ماذا يمكنني أن آتيهم به أكثر".. "والله لا تعني شيئاً لي إنما الأكيد أنك تدري بالأمر" قال دونوفان ساحباً ورقة من جيبه: "آه.. نعم هذه هي، يريدون أن يعرفوا كيف سيتصرف العراق عندما تعرض فرنسا بدل المواد النفيسة بما يسمى

الكراميل؟ قل لهم هذا وهم لن يزعجوك بعد اليوم فهم لا يريدون ضرك، ما يريدونه هو فقط المعلومات".

قال حليم: إن العراق يريد اليورانيوم، إنما في أية حال، فإن يحيى المشد عالم فيزيائي مصري المولد، سيصل خلال الأيام القليلة المقبلة لفحص المشروع والموافقة على الأمور من قبل العراق.. "هل ستجتمع معه؟ "قالها دونوفان.."نعم، نعم سوف يجتمع معنا جميعاً في المشروع"، "عظيم فإن من الممكن أن تأتي بهذه المعلومات وتنتهي مشاكلك". حليم بنظرة مريحة أصبح في عجلة للرحيل.. والآن وقد أصبح يمتلك المال ويستأجر المومس بنفسه وعلى نفقته وصديقته ماري كلود ماغال كان يظن أنها تنقل معلومات إلى الشرطة المحلية، ولكن في الحقيقة كانت تزود الموساد بالمعلومات لقاء حفنة من المال.. وبالطبع عندما أخبر حليم ماغال أنه يريد أن يصبح زبوناً دائماً أعطته اسم صديقتها بطلب من دونوفان.

يؤكد دونوفان أن حليما قد دعي إلى اجتماع عشاء مع ضيفه "المشد" في البيسترو في ليلة الموعد. وبتصرف مفاجئ قدم حليم صديقه دونوفان إلى "المشد" فسلم المشد بإلقاء التحية واقترح على حليم العودة إلى طاولتهما حال انتهاء إلقاء السلام. لقد كان حليم متوتر الأعصاب لمناقشة موضوع الكراميل مع المشد، ولم يبد الأخير أي اهتمام لحليم عن صديقة دونوفان وإمكانية الأخير شراء أي شيء.. في آخر الليل اتصل حليم بدونوفان ليخبره بأنه لم يوفق في الحصول على معلومات من المشد، في الليلة التالية عقد اجتماعا في جناح السوفيتيل، دونوفان قام بإقناع حليم بأنه إذا تمكن من الحصول على معلومات حول مواعيد الشحنة من مصنع سرسيلي إلى العراق، فإن هذا الأمر سيرضي الـ "سي. آي. إيه" ويتركونه وشأنه.. في هذا الوقت علمت الموساد من عميل يشتغل في القضايا المالية للدولة الفرنسية أن العراق لن يرضى باستبدال الكراميل باليورانيوم.. أما "المشد" فما زال المتطوع السمين في حالة توفر طريقة للوصول إليه.. عادت سميرة من العراق لتجد حليماً قد تغير، مبرراً ترقيته وزيادة راتبه، وبدا رومنطيقياً، وأخذا يخرجان معاً إلى المطاعم حتى أنهما فكرا في شراء سيارة. بالرغم من كون حليم عالماً بارعاً قد كان بحاجة إلى براعة أكثر في كيفية

الإفصاح وإدارة الحديث. ذات ليلة بعد عودة زوجته أخذ يخبرها عن صديقه دونوفان ومشاكله مع الـ"سي. آي. إيه"، وخلال محادثتهما قالت: "ربما كانوا عملاء يهوداً وليسوا من الـ"سي. آي. إيه".. "ولماذا يهتم الأمريكيون" وأردفت: من غير الإسرائيليين يهتم بنا؟".. إنها لم تكن غبية أبداً !!

تفجير مبدئي

سائقا الشاحنتين اللتين تحملان محركات من مصنع "داسول بريكيت" لطائرات الميراج الحربية، إلى مستودع في الريفييرا في بلدة لاسين – سور – مير قرب طولون في الخامس من أبريل 1979، لم يكترثا مطلقاً بالشاحنة الأخرى التي كانت مواكبة لهما. وعلى نسق حصان طروادة خبأ الإسرائيليون فريقاً من خمسة مخربين "نيفيوت" وعالماً فيزيائياً نووياً، يرتدون ثياب شارع عادية بداخل حاوية، ودخلوا إلى المنطقة الآمنة كجزء من ثلاث شاحنات، وذلك بناء على معلومات من حليم، لقد عرفوا أن الحراس كانوا دائماً أكثر تنبهاً للبضائع المنقولة من البضائع التي هي قيد التسليم، فلم يكونوا ليفعلوا أكثر من إرسال إشارة السلام للسائقين على الأقل.. لقد راهن الإسرائيليون على هذا الأمر، لقد نُقل العالم الفيزيائي معهم من إسرائيل لفحص مكان وضع العبوات في المفاعل النووي الذي استمر إنتاجه ثلاث سنوات، ليسبب أكبر ضرر ممكن.. وبفضل نصيحة العالم الفيزيائي تم تجهيز خمس عبوات بلاستيكية وضعت بطريقة خفية بغرض تفجير المفاعل.. وفيما وقف الحراس عند باب المصنع كان انتباههم موجهاً إلى الشارع، حيث بدا أن سيارة قد صدمت فتاة صغيرة أنيقة المظهر، ولم تكن إصابتها خطيرة، كان صوتها مرتفعاً، وهي تصرخ بينما وقف سائق السيارة مندهشاً.. في هذا الوقت تجمهر عدد قليل من المارة لمشاهدة الحادث بمن فيهم المخربون الذين اجتازوا الشريط الحديدي وساروا إلى الأمام متفحصين الجمهور، للتأكد من أن جميع الجنود الفرنسيين كانوا في منأى عن الخطر.. فجر أحدهم بهدوء بواسطة جهاز باليد العبوة الموضوعة مدمراً ستين بالمائة من مكونات المفاعل الرئيسية مكلفاً

23 مليون دولار خسائر مالية، وأرجع مشروع العراق سبعة أشهر إلى الوراء. ومن الغرابة أن قوة الدمار لم تتلف قطعاً أخري كانت محفوظة في المستودع.

وعندما سمع الحراس الأصوات هرعوا إلى المستودع، وفي هذه اللحظة غادرت السيارة مكان الحادث واختفى المخربون والفتاة التي تظاهرت بأن السيارة صدمتها. لقد كانت المهمة ناجحة مخلفة خرابا جدياً للمشروع العراقي ومسببة حرجاً للرئيس صدام حسين، وأعلنت منظمة للبيئة تدعى "مجموعة فرنسا لعلم الأحياء" لم يسمع عنها من قبل مسؤوليتها عن الحادث.

وقد دفع تعتيم الشرطة على الحادث الصحف للاستنتاج بحدوث عملية تخريب والتساؤل معلومات من حليم، لقد عرفوا أن الحراس كانوا دائماً أكثر تنبهاً للبضائع المنقولة من البضائع التي هي قيد التسليم، فلم يكونو ليفعلوا أكثر من إرسال إشارة السلام للسائقين على الأقل.. لقد راهن الإسرائيليون على هذا الأمر، لقد نُقل العالم الفيزيائي معهم من إسرائيل لفحص مكان وضع العبوات في المفاعل النووي الذي استمر إنتاجه ثلاث سنوات، ليسبب أكبر ضرر ممكن.. وبفضل نصيحة العالم الفيزيائي تم تجهيز خمس عبوات بلاستيكية وضعت بطريقة خفية بغرض تفجير المفاعل.. وفيما وقف الحراس عند باب المصنع كان انتباههم موجهاً إلى الشارع حيث بدا أن سيارة قد صدمت فتاة صغيرة أنيقة المظهر، ولم تكن إصابتها خطيرة، كان صوتها مرتفعاً، وهي تصرخ بينما وقف سائق السيارة مندهشاً.. في هذا الوقت تجمهر عدد قليل من المارة لمشاهدة الحادث بمن فيهم المخربون الذين اجتازوا الشريط الحديدي وساروا إلى الأمام متفحصين الجمهور، للتأكد من أن جميع الجنود الفرنسيين كانوا في منأي عن الخطر.. فجر أحدهم بهدوء بواسطة جهاز باليد العبوة الموضوعة مدمراً ستين بالمائة من مكونات المفاعل الرئيسية مكلفاً 23 مليون دولار خسائر مالية، وأرجع مشروع العراق سبعة أشهر إلى الوراء. ومن الغرابة أن قوة الدمار لم تتلف قطعاً أخرى كانت محفوظة في المستودع.

وعندما سمع الحراس الأصوات هرعوا إلى المستودع، وفي هذه اللحظة غادرت السيارة مكان الحادث واختفى المخربون والفتاة التي تظاهرت بأن السيارة صدمتها. لقد كانت المهمة ناجحة مخلفة خرابا جدياً للمشروع العراقي ومسببة حرجاً للرئيس صدام حسين، وأعلنت منظمة للبيئة تدعى "مجموعة فرنسا لعلم الأحياء" لم يسمع عنها من قبل مسؤوليتها عن الحادث. وقد دفع تعتيم الشرطة على الحادث الصحف للاستنتاج بحدوث عملية تخريب والتساؤل عمن يكون وراءها، مثلاً صحيفة "فرانس سوار" قالت: "إن الشرطة تشك في مجموعة من ليبيا هم وراء تنفيذ العملية، أما المجلة الأسبوعية "لو بوان" فوجهت الاتهام إلى المخابرات الأمريكية.. وآخرون اتهموا الموساد، بينما رفض مسؤول إسرائيلي الاتهامات وألصق العملية بجهات مناهضة للسامية.. عاد حليم وسميرة إلى المنزل بعد منتصف الليل بعد عشاء فاخر في البيسترو، أدار الراديو ليسمع بعض الموسيقى قبل الذهاب إلى النوم، ومن ضمن ما سمعه كان خبر الانفجار، هاله الخبر، فأخذ يركض في الشقة، ويرمي الأشياء عشوائياً قائلاً: "أشياء لا معنى لها "ماذا بك؟" صرخت سميرة: "هل جننت؟.. رد حليم: "لقد نسفوا المفاعل"، "لقد نسفوه والآن سوف يقضون على أيضاً" اتصل هاتفياً بدونوفان.. خلال ساعة اتصل به صديقه "لا تقدم على عمل أحمق. ابق على هدوئك. لا أحد يمكن أن يشك بك. قابلني في الجناح في الفندق غداً.. كان حليم لا يزال يرتجف عندما حضر إلى الاجتماع، لم يكن قد نام أو حلق ذقنه" كان شكله مرعبا.. "سوف يشنقني العراقيون أو يسلمونني إلى الفرنسيين".. "لا دخل لك بالعملية" قال له دونوفان: "فكر بالأمر.. لا أحد يستطيع أن يلومك".. "هذا الأمر سيئ هل من الممكن أن يكون الإسرائيليون خلف هذه العملية؟ سميرة تعتقد أنهم هم، هل هذا ممكن؟"، أجاب دونوفان: "هيا يا رجل تمالك نفسك ماذا تقول؟ الناس الذين أتعامل معهم لا يتصرفون هكذا، لابد أنها عملية تخريب صناعية، هناك منافسة قوية وكبيرة في ذكرت لي ذلك بنفسك.

قال حليم إنه عائد إلى العراق. لقد أرادت زوجته العودة على أية حال فقد خدم فترة كافية في باريس.. لقد أراد الذهاب بعيدا عن كل هؤلاء الأشخاص.. لن يلحقوا به إلى بغداد، ولكي يزيل دونوفان أي شك تجاه التدخل الإسرائيلي دفع بقصة التخريب

الصناعي، وقال لحليم إنه إذا أراد حياة جديدة فما عليه سوى التقدم إلى الإسرائيليين وكان له سببان لاقتراحه هذا: أولا: للدلالة على عدم علاقته بالإسرائيليين، وثانياً: ليحاول تجنيد حليم لصالحه" سوف يدفعون لك سوف يعطونك هوية جديدة ويحمونك فهم يرغبون في معرفة ما تعرفه عن المصنع". "لا. لا أقدر، أنا ذاهب إلى بلادي"، وهكذا فعل.

اغتيال المشد

المشد كان لا يزال عقبة لكونه أحد العلماء العرب القلائل، وذا سلطة في الحقل النووي، ومقربا من القيادة العراقية العليا والسلطات المدنية.. فكان باعتقاد المخابرات الإسرائيلية أنه بإمكانهم تجنيده لصالحهم، بالرغم من مساعدة حليم فقد بقيت أمور وأسئلة تحتاج إلى أجوبة.. في السابع من يونيو 1980 زار المشد باريس مجددا، لإنهاء الاتفاق هذه المرة وخلال زيارة إلى مصنع سيرسيلي، قال للعلماء الفرنسيين: "إننا نغير وجه التاريخ في العالم العربي". وهذا ما كان يخيف إسرائيل فعلا، فقد التقط الإسرائيليون تلكسات تذاكر موعد سفر المشد وأين سيقيم (غرفة 9041 فندق الميريديان)، وهذا الأمر سهل لوضع أجهزة تنصت في الغرفة قبل وصوله، المشد مولود في بنها بمصر في 11 يناير1932، كان شخصاً جاداً وعالماً بارعاً وشعره الأسود السميك كان قد بدأ بالسقوط، يذكر على جواز سفره نوع عمله كأستاذ في قسم الهندسة النووية – جامعة الإسكندرية.. خلال مقابلة لاحقة مع صحيفة مصرية قالت زوجته إنها وزوجها وأولادها الثلاثة (بنتان وصبي) السوق سوف يغادرون إلى مصر في العطلة، وقد قالت بالفعل: "إن المشد اشترى تذاكر السفر عندما اتصل به مسؤول من مصنع سيرسيلي سمعته يقول: "لماذا أنا؟ بإمكاني أن أرسل خبيراً ".. قالت: "إنه منذ تلك اللحظة أصبح عصبياً"، وقالت: "إنها تعتقد أن عميلاً إسرائيلياً في الحكومة الفرنسية هو الذي دبر له الفخ طبعاً، كان هناك خطر لقد كان يذكر لي دوماً أنه سوف يتابع مهمته في إنتاج القنبلة حتى لو اضطر إلى أن تكون حياته هي الثمن".

القصة الرسمية التي وصلت إلى الإعلام من قبل الحكومة الفرنسية قالت: "إن مومساً دنت من المشد وصعدت معه عند عودته إلى غرفته في الطابق التاسع حوالى الساعة السابعة مساء في ليلة عاصفة في 13 يونيو 1980، وادعت المخابرات الإسرائيلية أن المشد كان غاطساً في حب الجنس، والمومس. ذات (اللقب) الحركي "ماري إكسبرس" كانت تذهب لزيارته باستمرار، وكانت تظهر في الساعة السابعة والنصف مساء..° وكان اسمها الحقيقي "ماري كلود ماغال" وهي التي سبق وأرسلها دونوفان إلى حليم علماً بأنها كانت تعمل لحساب الموساد.. لكن لم تكن تعلم على الإطلاق من المسؤولون عنها، وهي لم تكن تأبه بمعرفة من يكونون، ما يهمها أنهم كانوا يدفعون.. وكانت المخابرات الإسرائيلية تعلم أن المشد صعب المراس وليس سهلاً مثل حليم، وبما أنه سيبقى أياماً أخرى قليلة فقد اتخذوا قراراً بالتقدم منه مباشرة "إذا قبل فسنجزه" شرح أربيل: "إذا رفض، فهو ميت"، ياهودا جيل أحد الـ"كاتسا" المتكلمين بالعربية طرق باب المشد قبل وصول ماجال بقليل، فتح المشد الباب قليلاً، إنما أبقى حلقة الباب معلقة: "من أنت؟ ماذا تريد؟". "أنا من جهة تعرض عليك أموالاً طائلة للأجوبة" قالها جيل: "اذهب من هنا يا ابن الكلب وإلا سأتصل بالشرطة" أجاب المشد، عندها تركه جيل، مفضلاً العودة فوراً إلى إسرائيل حتى لا يرتبط لاحقاً بمصير المشد، أما المشد فقد واجهه قدر.

إن الموساد لا يعدمون أشخاصاً إلا إذا تلطخت أيديهم بالدماء، هذا الرجل قد تلطخت يداه بدم أطفال إسرائيليين إذا ما أنهى مشروعه؟ على الأقل انتظرت المخابرات الإسرائيلية حتى انتهاء ماجال من مداعبة المشد وذهابها عنه بعدة ساعات "أفضل أن يموت وهو سعيد".. خلال نوم المشد تسلل رجلان بهدوء إلى غرفته بواسطة مفتاح خاص وقطعوا عنقه (ذبحوه).. وجد مقتولاً في الصباح التالي.. عاملة التنظيفات كانت قد أتت مرات عديدة للقيام بعملها.. كانت تطالعها لوحة (لا.. للإزعاج) على الباب فاضطرتها لعدم الدخول.. أخيراً طرقت الباب ولما لم يجب أحد.. دخلت.

ذكرت الشرطة أن العمل هو عمل محترف.. ولم يسرق شيئا، لا مال ولا مستندات، إنما كان هناك منشفة وعليها أحمر الشفاة في غرفة الحمام. صعقت ماجال عندما عرفت بالحادث، على الأقل كان المشد حياً عندما تركته، ولكي تحمي نفسها لكونها موضع شك ذهبت إلى الشرطة، وأفادت بأن المشد كان غاضباً عند وصولها وأخبرها بقدوم رجل يرغب في شراء معلومات.. أفضت ماجال بالخبر إلى صديقة لها كانت على علاقة مع حليم وتلك بدورها نقلت الخبر إلى رجل الموساد. ليلة 12 يوليو 1980 في ساعة متأخرة كانت ماجال تعمل على بولفار سانت جيرمان عندما تقدم رجل يقود سيارة مرسيدس سوداء وناداها لتتقدم نحوه، لم يكن في الأمر شيء غير عادي، لكنها ما إن بدأت بالحديث مع زبونها حتى تقدمت مرسيدس سوداء أخرى بسرعة قصوى عندها قام سائق المرسيدس المتوقفة بدفع ماغال دفعة قوية باتجاه السيارة القادمة فقتلت على الفور واختفت السيارتان تحت جنح ليل باريس.. لقد اغتيل الاثنان: "ماجال والمشد.. أما السبب الذي أدى إلى ذلك فقد كان مختلفاً.

بالنسبة إلى ماجال لقد كان الاهتمام بها متركزاً في المقر الرئيسي في تل أبيب بعد توافر المعلومات والتحاليل عن أنها قد تخلق مشاكل جدية، هذا الاهتمام صعد سلالم الإدارات، ليصل أخيراً إلى طاولة رئيس الموساد الذي اتخذ القرار النهائي بتصفيتها، وهذا القرار كان في خانة العمليات الطارئة، حيث يستلزم الأمر قرارات سريعة للتنفيذ وفقاً لأهمية الوضع.. أما قرار إعدام المشد فاستلزم موافقة من رئيس الوزراء الإسرائيلي وهو اختيار يأتي من لائحة تشمل أسماء أشخاص قاموا بأعمال إرهابية ضد الإسرائيليين.. إن طلب وضع اسم شخص ما على لائحة التصفية يتخذ بقرار من الموساد ويرفع إلى مكتب رئيس الوزراء. والعدالة اليهودية تقول: "إنها قتلت المشد، لأنه كانت يداه سوف تلوث بدماء أطفال يهود بعد عدة سنوات من الآن، ولذا تم اغتياله جراء هذه الجريمة الشنعاء التي يمكن أن يقترفها في حق الأطفال اليهود.. أما "ماجال" فتاة الليل التي أدلت للشرطة بما لديها من معلومات عن القتلة فكان جزاؤها القتل، ليس من رئيس الوزراء بيجين، ولكن من ضابط الكاتسا في باريس الذي له الحق في التصرف في حياه العملاء، وفقا لما يراه لصالح إسرائيل.

الفصل السابع

جاسوس الشمبانيا

- طرد ملغوم يتسبب في مقتل خمسة مصريين.
- تلفيحة كلاينفاختر تنقذه من رصاصة عميل الموساد.
- جاسوس الشمبانيا ادعى أنه ألماني فأنقذ نفسه من الإعدام.

بـدأ التعـاون في السـتينيات بـين المخـابرات الإسـرائيلية والمخـابرات الألمانية الغربية.. وكان الهدف من وراء هذا التعاون إرغام عدد من العلمـاء الألمـاني على مغادرة مصـر، الـذين لجأوا إليهـا بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة، وانخرطوا في مسـاعدتها على تطوير جهودهـا لإنتـاج أسلحة متقدمة، خاصة محركات الطائرات النفاثة والصواريخ.

وتغاضـت المخـابرات الألمانيـة عـن جـرائم الموسـاد وتهديـداتها للمـواطنين الألمـان، خوفاً مـن الابتزاز الصـهيوني لهـا بتهمـة النازيـة.. وكـان قـد انسـحب عـدد مـن العلمـاء مـن المشـروعات المصرية، وأثر ذلك بالطبع على مستوى ومعدل تنفيذ طموحات مصر في هذا المجال.. غير أن انكشـاف بعض هـذه المؤامرات والفضـائح قـاد إلى أزمـة داخل إسرائيل انتهـت بانتصـار بن جوريون الـذي كـان يضـع أولويـة لتحسـين العلاقـات مـع دولـة ألمانيا الغربيـة عـن الانهمـاك في مؤامرات أجهزة مخابراته وألاعيبها. واضطر رئيس الموساد للاستقالة، ونجحت إسرائيل في الحصـول علـى مبـالغ خياليـة مـن ألمانيـا بـدعوى التعويضـات عـن جـرائم النازيـة بعـد ذلـك بسنوات.

وكانـت المصـادر الإسـرائيلية تشـير إلى أنـه كـان في مصـر قبـل 32 يوليـو 1952 حـوالى 500 مـن العلمـاء الألمـان، ولم يجـد الـرئيس جمـال عبـد الناصـر بعـد ثـورة يوليـو 1952 أفضـل مـنهم في تنظـيم جهـاز المخـابرات والعمـل كخـبراء في أسـلحة الجـيش الرئيسية. وشجع ذلك غيرهم من العلماء الألمان على اللجوء لمصر، فوصل للقاهرة سرا في عـام 1957 "فولفجـانج بيلـر" مسـاعد "د. بـراون" رائـد الصـواريخ الألمانيـة ولحقـت بـه مجموعـة أخـرى مـن تلاميـذه. وطبقـا لريتشـارد ديكـون مؤلـف كتـاب "العمليـات السـرية للمخابرات الإسرائيلية – لندن 1979" فإنه في نوفمبر 1959، وقع رئيس مخابرات الطيران "محمـد محمـود خليـل" عقـدا باسـم الحكومـة المصـرية مـع مصـانع "ويلـي شـيميت" للاستفادة بخبراتها في صناعة الطائرات التي تبيعها لحلف شمال الأطلنطي.

وبعد توقيع العقد انضم إلى مجموعة العلماء الألمان في مصر البروفيسر يوجين سانجر، مدير معهد دراسات الدفع النفاث في شوتجارت وأحد رواد صناعة الصواريخ المستخدمة في إطلاق الأقمار الصناعية التي تدور حول الأرض. وعندما سقط حكم "بيرون" في الأرجنتين في الستينيات، طلب عدد من العلماء الألمان الذين يعيشون هناك اللجوء إلى مصر ومنهم "كيرلناتك" الذي شارك فيما بعد في صناعة أول طائرة نفاثة في الهند. وطبقا للعقد المصري مع شركة "شيميت" تم إنشاء مصنع 36 الحربي، لتصنيع أجزاء الطائرة الأسرع من الصوت، لكن سرعان ما تعرضت مؤسسة "شميت" لضغوط هائلة من المخابرات الأمريكية والإسرائيلية تطلب منها فسخ العقد وسحب الخبراء الألمان العاملين فيه، ومن ثم راح المصريون يبحثون عن البديل.. وحسب معلومات ريتشارد ديكون، ضابط المخابرات البريطانية وثيق الصلة بالمخابرات الإسرائيلية، فإن المصريين بمساعدة الألمان، قطعوا شوطاً كبيراً في مجال تصنيع الأسلحة المتطورة، واقتربوا من صناعة الطائرات النفاثة بمساعدة الخبير الألماني فرديناند برانديو، كما قاموا بالمشاركة مع فريق من العلماء الألمان في مصنع الطائرات الحربي بإنتاج المحرك إتش إيه 2300، وأجروا عدة تجارب على القنابل الجرثومية بمساعدة كيميائية – طريقة لحقن الصواريخ بالفضلات الذرية "كوبالت 90 وسترونشيوم90" – من خلال مشروع عرف باسم أبيس، وأعدوا كل ما يلزم لإنتاج قنبلة ذرية محدودة وأطلقوا على المشروع اسم كليوباترا، وفكروا في إنتاج زجاجات غاز الأعصاب الذي يعرف باسم "تايون". عملية "الأستاذ" المصرية وفي خريف عام 1960 بدأت مصر في تجارب إطلاق الصواريخ في الصحراء الغربية، واستمرت التجارب لمدة عامين، حتى أعلن عن نجاح هذه التجارب أمام مراسلي الصحافة العالمية صباح 32 يوليو 1962 من قاعدة في غرف القاهرة.. وكان مدى الصاروخ القاهر "375" ميلاً والظافر "175" ميلاً، وفي منطقة العرض جلس رجل ألماني يحمل الجنسية السويدية في هدوء، جعل من الصعب تصور أنه وراء ما يحدث. ولأن ملامحه ليست شرقية، لم يدر بخلد من لا يعرفه أن اسمه "حسن كامل". وفي كتابه "جاسوس في القاهرة" يكشف حسن كامل عن عملية "الأستاذ" وهي الاسم السري لصناعة الصواريخ التي عرفت بالقاهر والظافر.

وفي مؤتمر صحفي عقده الرئيس جمال عبد الناصر قال: إن مدى هذه الصواريخ هو حتى جنوب لبنان وأن التجربة الناجحة جرت على صاروخ من مرحلة واحدة يمكن أن يتطور فيما بعد إلى مرحلتين.

وبدأت رئاسة أركان الجيش الإسرائيلي في وضع خطط لإجهاض البنية الأساسية لصناعة الصواريخ المصرية بالاعتماد على الطيران الإسرائيلي، وكانت الخطة أن يتسلل عدد من الطائرات الإسرائيلية لتدمير منشآت إنتاج هذه الصواريخ، مع قيام باقي طائرات الجو الإسرائيلي بالمعاونة للحماية والاستعداد لأي طارئ، وحددت ساعة الصفر بعد عدة أسابيع من نجاح تجربة إطلاق القاهر والظافر. ولكن تراجعت إسرائيل عن تلك العملية وفضلت عليها عمليات أخرى هي عمليات التخريب التي استهدفت اغتيال العاملين في مجال صناعة الصواريخ خاصة من العلماء الألمان.

بعد نجاح إطلاق "الأستاذ" سافر حسن كامل للاستجمام في جزيرة سبليت القريبة من الحدود الدانماركية، وهناك قضى وزوجته عدة أيام، قررا بعدها السفر إلى "دولسدوف" فاستأجرا طائرة خاصة. ولكن قبل السفر بساعات حدث ما جعل "حسن كامل" يلغي رحلته، فسافرت زوجته بمفردها، وبعد إقلاع الطائرة بدقائق "انفجرت في الجو" وكانت هذه أول عمليات التخريب الإسرائيلية لبرنامج الصواريخ المصري. وصاحبت هذه العمليات حملة دعائية صهيونية، ضد مصر بدعوى أنها وظفت علماء نازيين في مشروعاتها.. كما حذرت واشنطن جمال عبد الناصر من الاستمرار في برنامج الصواريخ.

وفي 10 سبتمبر 1962 تقدمت السيدة "فراو كروج" إلى شرطة ميونيخ ببلاغ عن فقد زوجها "هير هانز" مدير مكتب شركة "إنترا" المقيم في شارع "شيلر"، وكانت الشركة قد قامت ببيع معدات إلكترونية وأجزاء تدخل في صناعة محركات الصواريخ لمصر. وتبين من تحريات الشرطة أنه شوهد في اليوم نفسه يغادر مكتبه في الشركة مع رجل آخر اتضح فيما بعد أنه إسرائيلي، وبعد 48 ساعة وجدت سيارته خالية في مكان ناء خارج

المدينة وسرت شائعات أنه تم اختطافه. وفي 27 نوفمبر كان الحادث الثالث، واستهدف البروفسير فولفجانج بيلز، أحد العلماء الألمان في مصر الذي حل مكان يوجين سانجر، عندما فتحت سكرتيرته الحسناء "هانيلور وينري" طردا مرسلا باسمه من محام في هامبورج، انفجر الطرد في وجهها فشوهه وشوه أيضا رقبتها وصدرها ويديها، وكانت أول الرسائل الإسرائيلية الملغومة إلى العلماء الألمان في مصر.. وفي اليوم التالى وصل طرد آخر عبارة عن صندوق من رقائق الخشب جاء من مقاطعة "شتوتجارت" مرسل من مكتبة هناك ويحتوي على كتب أشبه بالكتالوجات، وفي هذه المرة فتح الطرد لجنة من المصريين وما كاد يتم فتحه حتى حدث انفجار هائل راح ضحيته خمسة قتلى من أعضاء اللجنة وأصيب تسعة آخرون.

وبعد أيام من هذا الحادث أبطل خبراء المفرقعات المصريون مفعول الطرد الثالث، الذي أرسل من هامبورج إلى "د. بول جيركه" في القاهرة، وتكتمت السلطات أنباء هذه الرسائل الملغومة التي تحمل الموت معها لإفزاع العلماء الألمان وتخييرهم ما بين ترك مصر أو الموت.. وبعد تحريات للمخابرات المصرية اكتشفت أن أسر العلماء الألمان سواء في مصر أو ألمانيا تلقوا مكالمات هاتفية من مجهولين تحذرهم من أن عملاءا سوف يتخذ ضدهم، إذا لم يغادروا مصر نهائياً ويتخلوا عن العمل في برنامج الصواريخ المصرية.

محاولة اغتيال كلاينفاختر

وفي فبراير 1963، غادر خبير تركيب الصواريخ، فانز كلاينفاختر، القاهرة في زيارة قصيرة إلى ألمانيا حيث كان لا يزال يحتفظ بمعمل أبحاثه في مدينة "لوراخ" القريبة من الحدود السويسرية، وبينما كان يقود سيارته في زقاق ضيق على مقربة من بيته، انحرفت فجأة وعن عمد سيارة أمامه أرغمته على التوقف، كان في السيارة ثلاثة أشخاص نزل أحدهم وتقدم نحوه، وكان الزقاق خالياً من الناس وحينئذ لم يشعر، د. كلاينفاختر بالارتياح لمنظره فقد بدا أن ثمة شيئاً شريراً فيه، أما الآخران فقد بقيا في السيارة.. وبادره الرجل قائلاً:

هل تعرف أن يقيم د. شنكر؟ كان السؤال بريئا أما الغرض فلم يكن كذلك، فقد كان الغرض دفعه إلى التفكير بعيداً وقبل أين تمر ثوان قليلة ودون أن ينطق بكلمة أخرج الرجل مسدساً كاتما للصوت وأطلق رصاصته.. كان د. كلاينفاختر محظوظاً، إذ حطمت الرصاص زجاج السيارة الأمامي، غير أنها لم تصبه بأي أذى، لأنها دفنت في تلفيحة شتوية سميكة كان يلف بها رقبته.. أما الجاني فقد هرع إلى سيارته، التي انطلقت على الفور. ووجدت الشرطة السيارة مهجورة على مسافة قصيرة من مكان الحادث، وأغلب الظن أن الرجال الثلاثة انطلقوا في سيارة أخري عبرت بهم الحدود السويسرية. وكان الشيء الوحيد الذي خلفوه وراءهم جواز سفر مزور باسم "سمير علي" قيل: إنه ضابط طيار.. وقيل إنه ضابط مخابرات، بهدف إلقاء ظلال الشك حول المصريين وإن بدا ذلك ساذجاً، فلم يصدق أحد أن المصريين يمكن أن يفكروا في قتله فهو لم يكن على خلاف معهم، كما أن "سمير علي" كان في القاهرة.

تسلم د. كلاينفاختر في اليوم التالى رسالة فتحها بسرعة فوجد فيها ورقة صغيرة بها عبارة واحدة فقط باللغة الفرنسية ترجمتها الحرفية "إن من يقتل اليهود جزاؤه الموت"، وبعد أيام تلقى رسالة أخرى أكثر وضوحاً جاء فيها: "إن من الصعب الوقوف ضدنا.. وإنك إذا كنت قد أفلت من الموت فلابد أنك ستموت.. إنك الآن تنتظر مصيرك.. إننا من القوة بحيث لا يصعب علينا أي هدف.. إنك لن تنجو منا"، إلا أنه على الرغم من تلك التهديدات كلها عاد كلاينفاختر إلى القاهرة.

تهديدات لـ" بول جيركه"

وفي مارس 1963، تلقت ابنة العالم الألماني بول جيركه واسمها هايدي، مكالمة تليفونية في بيت العائلة بمدينة فرايبورج، حيث تعيش مع جدتها وشقيقها رينيه، وكانت

المكالمة من عالم نمساوي اسمه أوتر فرانك جوكليك، عمل مع والدها في القاهرة ثم غادرها بحجة الخوف على حياته، مع أن السبب الحقيقي كان هو أن المخابرات الإسرائيلية أقنعته بأن يكون عميلاً لها ودفعت له الكثير في مقابل ذلك.

قال جوكليك لهايدي: "إن إجراء ما سيتخذ ضد والدك وأسرتك إذا لم يمتنع عن صنع أسلحة مصرية موجهة ضد إسرائيل، ثم طلب منها مقابلة في فندق دراي كونجين في مدينة "بال" السويسرية. واعتقدت الشرطة الألمانية التي كانت ترقب هذه الأحداث أن ثمة عنصر تهديد يكمن وراء هذا اللقاء، خاصة أن "جوكليك" كان ضابطاً سابقاً في الجيش الألماني، ويعمل في خدمة الموساد وقدم قبل عام إلى الإسرائيليين معلومات عن العلماء الألمان في مصر،، كما قدم لها أيضا تفاصيل دقيقة عن قنبلة "سترنشيوم كوبالت".. وطلبت سلطات التحقيق القضائية في زيورخ من سلطات مدينة "بال" مراقبة وتسجيل الاجتماع بين "هايدي" وشقيقها و"جوكليك" وإسرائيلي آخر سيصحبه وهو موظف في وزارة التربية والثقافة في تل أبيب.. يحمل اسم يوسف بن جال، وحاصر رجال من الشرطة في ملابس مدنية الفندق، وتم إخفاء مسجل الصوت في مصباح قريب من الطاولة التي اتفق على أن تجلس عليها هايدي جيركه وشقيقها، وفي الموعد جاءت هايدي وشقيقها "رينيه"، وبعد قليل انضم إليها جوكليك وبن جال، وأكد جوكليك مجددا أن جيركه إذا أصر على عمله مع المصريين فسيتعرض لأخطار جسيمة، وتساءلت هايدي: "وما الذي على أن أفعله؟!

قال جوكليك: عليك أن تستخدمي تأثيرك على والدك لإقناعه بمغادرة مصر. وأضاف بن جال: "بل عليك أن تسافري إليه وتعودي وهو معك". عند هذه النقطة نهضت هايدي منفعلة وغادر الرجلان الفندق، واستقلا القطار إلى زيورخ وتناولا الطعام والخمر في مطعم قريب من البحيرة، ثم عاد جوكليك إلى محطة القطار حيث ألقي القبض عليه، بينما سار "بن جال" إلى القنصلية الإسرائيلية فاعتقل قبل أن يهم بدخولها، وكان ذلك في 2 مارس 1963 .

وفي 15 مارس صدر قرار الاتهام الذي نص على أنهما عميلان لدولة أجنبية قاما بتوجيه تهديدات للآنسة هايدي جيركه، وقالت الصحف السويسرية إن جوكليك طرد من سويسرا، لأنه حاول دفع العلماء السويسريين إلى العمل لصالح إسرائيل. وفي 10 يونيو 1963 بدأت المحاكمة في مدينة "بال" السويسرية واتهم ممثل الادعاء "بن جال" بتهديد حرية هايدي جيركه واتهم جوكليك بأنه شريك له، وبأنه دخل البلاد دون سند قانوني. وأدت المحاكمة وما صاحبها من ضجة إعلامية إلى أزمة بين ألمانيا وإسرائيل وخلاف شديد بين رئيس الموساد "إيسر هرئيل" ورئيس الحكومة بن جوريون، ثم استقالة هرئيل من منصبه فيما بعد. وكانت هذه المحاكمة فرصة لكشف النشاطات غير الشرعية للموساد في ألمانيا وسويسرا، حيث اتضح أن الموساد شكل جمعية سرية اسمها "جدعون" هي المسئولة عن إرسال الطرود الملغومة إلى مصر، إلا أن إسرائيل استثمرت ما جرى من دعاية مبالغ فيها ضد أسلحة الدمار المصرية التي يصنعها جمال عبد الناصر بمساندة علماء هتلريين، قال الدفاع عن المتهمين: "إن "فولفجانج" اشترى لحساب المصريين 900 قطعة من آلية الصاروخ 2700 جيروسكوب وهو جهاز يستخدم لحفظ توازن الطائرات والصواريخ، وذلك لتجهيز 900 صاروخ سينتجها مصنع 33 الحربي. وزعم جوكليك أنه ترك عمله في مصر عندما شعر بأن النية الواضحة للمصريين هي إبادة اليهود.

وزعم أيضا أن "فولفجانج بيلز" عمل على تزويد الصواريخ بكبسولة تضم "سترونشيوم وكوبالت" مشعة، ورد محامي هايدي جركه، بأن هذه المواد المشعة كميتها قليلة وتستخدم لأغراض طبية فقط. وبعد ضغوط كبيرة مورست على سويسرا خفت لهجة العداء للإسرائيليين، ومن الواضح أن توجهات قد صدرت إلى المدعي العام في المحاكمة بعدم تضخيم القضية، فكان أن حكم على المتهمين بالسجن لمدة شهر وهي مدة كانت أقل من التي قضياها على ذمة القضية!!

جاسوس الشمبانيا

وفي قضية عُرفت باسم جاسوس الشمبانيا، ظهر التعاون الواضح بين المخابرات الألمانية الغربية وإسرائيل، حيث استطاعت إسرائيل بفضل هذا التعاون أن تضغط على العلماء الألمان في مصر، لإرغامهم على التخلي عن المساهمة في مشروع إنشاء الصواريخ المصرية، وهو ما نجحت فيه بعد سلسلة من العمليات الإرهابية الموجهة ضد العلماء الألمان من جواسيس إسرائيل عبر خطابات التهديد والملاحقة.. ولم تتوان السلطات الأمنية الألمانية الغربية عن تقديم دعمها الكافي للجاسوس الإسرائيلي جاسوس الشمبانيا "فولفجانج لوتز" باعتباره مواطناً ألمانياً، للتغطية على جنسيته الحقيقية.

وعندما تم اكتشاف الجاسوس الألماني بالصدفة أثناء عملية تفتيش روتيني، لتأمين زيارة الزعيم الألماني الغربي فالتر أولبريشت أصر الجاسوس وزوجته على أنهما ألمانيان.. ولم تتأخر الحكومة الألمانية في مد يد العون لهما إذ أرسلت مندوبين عنهما لمقابلتهما في المعتقل، لكي تؤكد ادعاءهما بأنهما ألمانيان، وانطلت الخدعة على المصريين وصدرت أحكام بالسجن 54 عاما على لوتز و3 سنوات على زوجته بتهمة التستر، وعندما اتفقت مصر وإسرائيل على مبادلتهما بعد حرب 67 طلب الجاسوسان تسليمهما لإسرائيل، في حين كان المصريون يصرون على تسليمهما إلى ألمانيا ولم يكتشفوا حقيقة شخصيتهما إلا بعد احتفالهما بنصر إسرائيل في حرب 1967 في تل أبيب.

لمدة أربع سنوات كان اليهودي الألماني المولد "فولفجانج لوتز" على علاقة صداقة بضباط الشرطة والجيش والمخابرات المصريين في عهد الرئيس جمال عبد الناصر، حيث كان يخالطهم في الحفلات والطعام والشراب حتى أطلق عليه بسبب ذلك فيما بعد اسم "جاسوس الشمبانيا". وبعد أن جمع معلومات لا تقدر بثمن ساعدت إسرائيل في حرب الأيام الستة، استطاع الهرب وحضور احتفالات النصر في تل أبيب.

وتبدأ قصة تجنيده في بداية الخمسينيات عندما كان الإسرائيليون قلقين من النازيين السابقين الذين تستأجرهم مصر للعمل في مخطط لإنتاج الطائرات المقاتلة والصواريخ. وكان واضحاً أن عبد الناصر يجهز لعمل عسكري ضد إسرائيل.. ودلت التحقيقات التي قام بها رجال الأمن الإسرائيليون في كل العالم وبمساعدة عملاء متعاطفين من أجهزة المخابرات الأمريكية والبريطانية والفرنسية والألمانية على وجود 400 عالم وفني ومهندس ألماني في مصر يعملون في مجالات معادية لإسرائيل. واحتاجت إسرائيل لعميل داخل مصر ليعرف مدى تقدم العمل.. ولم تحتج الموساد لوقت طويل ليعرفوا أفضل مرشح للمهمة.. كان "فولفجانج لوتز" ابن ممثل مسرحي في مانهايم في ألمانيا ووالدته ممثلة أيضا، وبعد وفاة والده هاجرت والدته إلى فلسطين عام 1933، وبدأ عمله السري في سن 16 في صفوف الهاجاناة لحماية القري اليهودية، وخدم في الجيش البريطاني خلال الحرب الثانية كضابط وشارك في عمليات الصحراء ضد قوات رومل، وتعلم الكثير عن المصريين أثناء تمركزه في منطقة السويس. ثم انضم للجيش الإسرائيلي الجديد، وتم ترقيته إلى رائد بعد أداء ممتاز في حرب 1948.

وفي معارك سيناء عام 1956 أثبت برود أعصابه وسيطرته على نفسه والجنود التابعين تحت ضغط المعارك، وكان يتكلم الإنجليزية والألمانية والعربية بطلاقة، وكان أشقر ألماني الشكل.. باختصار كان هو من يبحث عنه الموساد بالضبط.

ووافق لوتز على أن يلعب دور النازي السابق الذي يكره اليهود ويؤيد ناصر، وبعد أن تلقى تدريباً مكثفاً في فن الجاسوسية.. أُرسل إلى ألمانيا ليحضر لنفسه التغطية اللازمة، وأخذ يسافر من بلد إلى بلد، ويحفظ آخر الشائعات وأسماء أبطال الرياضة ومشاهير الفنانين ليستخدمها في حديثه فيما بعد.. ولما كان من مواليد ألمانيا فقد احتفظ باسمه الحقيقي وبشهادة ميلاده، ولم يكن صعباً عليه أن يدعي أنه حارب مع رومل في الصحراء الإفريقية، لأنه حارب فعلاً ولكن في الجانب الآخر، وللتغطية على مغادرته ألمانيا سنة 1933 أضاف إلى قصة حياته 11 سنة أخرى قضاها في أستراليا. وصل لوتز إلى مصر

كسائح في يناير 1961، وتظاهر بأنه يعمل مربياً للخيول الأصيلة من الدرجة الأولي، وسأل موظفي الفندق أين يمكنه أن يمارس هواية ركوب الخيل؟ فدلوه على النادي الفخم الذي يؤمه كبار رجال الشرطة والجيش، ومن أول زيارة له امتدح عميد الشرطة "يوسف غراب" على فروسيته، فسر الأخير ودعاه للعشاء في الليلة التالية، ثم قدمه إلى مجموعة من الرجال المهمين على أنه أفضل مرب للخيول الأصيلة في ألمانيا، وتحمس الجميع للفكرة التي طرحها بإنشاء مزرعة للخيل الأصيلة في مصر، وخلال أسابيع كانت الصداقة قد توطدت بينه وغراب والعقيد عبد الرحمن قائد المخابرات العسكرية المصرية والعميد فؤاد عثمان رئيس أمن مواقع الصواريخ المصرية، وكثير من الألمان العاملين في مشروع ناصر السري، وعاد إلى أوروبا ليبلغ رؤساءه في المخابرات الإسرائيلية بنجاحه في بداية مهمته.

وعاد إلى مصر في أواخر 1961 ومعه 17 حقيبة كبيرة وسيارة فولكس، ورافقه عقيد في الشرطة من السفينة التي رست في الإسكندرية إلى إحدى البوابات، حيث استقبله العميد غراب بالعناق، ومرت حقائبه بدون تفتيش في الجمرك، وختم جواز سفره بسرعة دون أن يقف في الانتظار.

وأحضر المهاجر الألماني الجديد هدايا ثمينة لأصدقائه من مسجلات استريو إلى آلات لصنع القهوة إلى خلاطات للمطبخ، وأحضر معه شيئاً لم يخبر أحداً عنه وهو راديو للبث اللاسلكي مخبأ في عقب أحد أحذية ركوب الخيل.

وأحضر معه أيضا "فالترود نيومان" وهي شقراء ألمانية نموذجية قدمها للمصريين على أنها زوجته، وكان لوتز متزوجاً من إسرائيلية أم لولدين، وقد واجهت المخابرات الإسرائيلية المصاعب لإقناعها بأن مراسم الزواج في ميونخ كانت إجراءات شكلية لتقوية تغطيته في مصر. وأثبتت "فالترود" أنها حليف قيم له فقد ساعدته بإقامة الحفلات الفخمة حيث تفك الشمبانيا عقدة الألسنة، وكانت تسأل الأسئلة التي لو سألها لوتز لأثار الشكوك.

وعاملهـا المصـريون كملكـة، وكـان الكثـيرون مسـتعدين لعمـل أي شـيء إكرامـاً لخاطرها.. وأسس آل لوتز مزرعة الخيل في إحدى ضواحي القاهرة، وأقاما في شقة قريبة ثم انتقلا إلى فيلا فخمة في الجيزة، وتسللا بسهولة إلى المجتمع الراقي فكانا يركبان الخيل في النادي صباحاً، ويستلقيان بكسل في بركة السباحة ويشربان الكوكتيل مع غروب الشمس ويقيمـان الحفـلات كل ليلة، وأحضر لـوتز بعض الخيـول إلى مدرسـة الركـوب في العباسـية، واكتسب عـادة الجلوس في برج قرب مضـمار المدرسة ليراقب تـدريب خيوله، ومن المكـان ذاته يراقب أكبر مخزن للدبابات المصرية في الحقل المجاور، فيعرف متى تتحرك الدبابات وفي أي اتجاه سارت، وكانت الصفقات التجارية عذراً ممتازاً، لكي يقوم لوتز برحلات إلى أوروبا فيجتمع مع رؤسائه في "الموساد" ليعطيهم ما عرفه من أصدقائه في المراكز المهمة في مصر.

بالإضافة إلى ذلك فإن الألمان العاملين في مصانع الصواريخ السرية انجذبوا بقصةلوتز عن إيمانه بالمبادئ النازية وشاركوه همومهم حول المصاعب التي يواجهونها تقنيا وعن مشاكل العمل مع العرب، وأصبح بإمكان لوتز أن يراقب تقدم العمل، وأن يحدد الخبراء الألمان ممن لهم دور مهم في مشروع التسلح المصري، هؤلاء أصبحوا فيما بعد هدفاً لحملة إرهاب إسرائيلية تضمنت رسائل متفجرة، والتهديد بمكالمات هاتفية، وكان لوتز قريباً من الألمان، وموثوقاً به من المصريين لدرجة أن العميد عثمان طلب رأيه في العلماء العاملين بالأسلحة، ولما ادعي أن أحد العلماء اللامعين غير متعاطف مع مصر وإنما يعمل من أجل المال فقط، أُنهي عقده وطرد من البلاد.

لكن فجأة تغيرت الحياة الحافلة لجاسوس الشمبانيا الإسرائيلي، فقد انسحب من حفلة غداء عندما قال ملحق في السفارة الألمانية الغربية إنه لا يستطيع تذكر لوتز بين ضباط رومل أثناء معارك الصحراء الإفريقية، وفي 22 فبراير 5691 كان رجال مكافحة الجاسوسية بانتظار لوتز وزوجته عندما عاد إلى الفيلا بعد أن قضيا عطلة نهاية الأسبوع مع العميد غراب، واكتشف المصريون جهاز الراديو الجديد المركب في الحمام، وهو كبير وذو طاقة قوية على البث، وكان هناك ملف كامل لرسائل الزوجين كلها إلى تل أبيب خلال السنوات الثلاث.

وقال المصريون فيما بعد إن لوتز كشف نفسه بسبب إهماله، وأن رجال الأمن كانوا يفتشون كل بيت في الشارع الذي يسكنه تحضيراً لمرور الزعيم الألماني الشرقي فالتر أولبريشت، وأدخلهم خادمه فوجدوا الراديو بكل سهولة، ولكن من وجهة نظر الإسرائيليين كان التفسير الأكثر احتمالاً هو أن الجاسوس كشفه أحد عملاء الروس المتسللين إلى المخابرات الألمانية الغربية في الستينيات، لأن الإسرائيليين استعانوا بالألمان الغربيين لتأمين التغطية المناسبة لماضي الجاسوس، كما تعاونوا معهم للضغط على العلماء الألمان حتى لا يعملوا في مصانع عبد الناصر وكان الروس يرغبون في توثيق العلاقات مع مصر في تلك الفترة.

ولما علم لوتز أن اللعبة انتهت ركز جهده على إنقاذ حياته وحماية فالترود، وشعر بأن الإعدام بانتظاره إذا علم المصريون بأنه إسرائيلي، كما حدث مع "إيلي كوهين" قبل أشهر في سوريا مما دفعه لأن يصر هو وزوجته أثناء التحقيقات على أنهما ألمانيان. وقبل محاكمته بقليل استغل فرصة ظهوره على التليفزيون ليعلن "لو أراد الإسرائيليون أن يتجسسوا على مصر لأرسلوا مواطنيهم ليقوموا بالمهمة"، وأفاده ذلك في تأكيده للعرب عدم انتمائه اليهودي وفي الوقت نفسه أعلم الإسرائيليين بأن تغطيته لم تفشل.

وبالرغم من ذلك فقد نجا لوتز من الموت وحكم عليه بالسجن 54 عاماً مع الأشغال الشاقة في سجن طرة بالقرب من القاهرة، وحكم على "فالترود" بالسجن ثلاث سنوات بتهمة التستر، وزارهما موظفون من ألمانيا الغربية فساعدوا على التأكيد على هويتهما، وساهمت بون في المفاوضات الدقيقة التي انتهت بخروج لوتز من السجن في 3 فبراير 1968 ، حيث تمت المقايضة عليه وعلى تسعة جواسيس إسرائيليين آخرين مقابل 500 من أصل 4400 أسير حرب مصري في إسرائيل، وصحبت السلطات الطائرة المسافرة إلى فرانكفورت، ولكن عندما توقفت طائرة اللوفتهانزا في أثينا غادرها مع فالترود

وعادا إلى تل أبيب سراً كأبطال ساعدت معلوماتهما إسرائيل على الانتصار في حرب الأيام الستة الصاعقة قبل ثمانية أشهر.

والنجاح السريع والسهل الذي حققه الجاسوس الألماني "لوتز" الملقب باسم "جاسوس الشمبانيا" كان لأنه استطاع بمهارة أن يفهم طباع وعادات المصريين المتمثلة في سماحة الأخلاق وإكرام الضيف والاحتفاء به، ويزداد هذا الاحتفاء حرارة ومودة كلما كان الضيف غريباً أو بعيداً ولكن يشاركهم أفكارهم وهمومهم، وكان هذا هو الترتيب الذي صنعه لوتز في كيفية التسلل إلى قلوب المصريين الذين يحبون العشرة، فكانت الحفلات والولائم والزيارات مجالاً مناسباً لتصيد المعلومات الثمينة.. والعامل الثاني هو القصة التي صنعها "لوتز" كنازي يكره اليهود، لأنه شاركهم كراهية إسرائيل.

وإذا كان الكرم العربي صفة أصيلة، إلا أنه عندما يتجاوز حده يكون خطراً ليس بالهين.. أما كيف تجاوز حده فهو اعتبار أنه من لزوم الكرم أن تمر حقائب الضيف خارج الدائرة الجمركية والتفتيش الأمني، فذلك سهل للجاسوس التحرك داخل مصر وخارجها وجلب أدوات التجسس وإرسال الرسائل التي ألحقت أشد الأضرار بالجيش المصري في حرب يونيه 1967.

ونجحت خدعة الجاسوس – المدرب عليها – بأن ادعى أنه ألماني واقتنعت النيابة والمحكمة والرأي العام بهذه الكذبة التي لم تكتشف إلا بعد هزيمة 1967 وعند تسليمه لإسرائيل، وهو ما يلزم بضرورة إنشاء قاعدة بيانات عربية للبحث إزاء كل الأشخاص الغرباء وغير الغرباء الذين يقتربون بدرجة أو بأخري من المواقع الاستراتيجية العسكرية والاقتصادية والأمنية سواءكانت أبنية أو منشآت أو أفراد.

الفصل الثامن

تهريب "الفلاشا"

– الإسرائيليون يشرعون في بناء منتجع سياحي على البحر الأحمر بمساعدة السودانيين!

– مسؤول إفريقي كبير يطلب دراجة ذات عشر سرعات مقابل مساعدته على تهريب الفلاشا!

– طائرة الشحن الإسرائيلية تهبط بأمان داخل أراضي السودان.

عملية تهجير يهود الفلاشا "الإثيوبيين" من السودان كانت إحدى العمليات البارزة لجهاز المخابرات الإسرائيلي، فقد لا يكون لليهودي الإثيوبي أهمية تذكر في مجتمع عنصري كإسرائيلي، ويثبت ذلك المكانة الحقيرة التي أصبح فيها الفلاشا الآن، لكن عملية كهذه كانت أهدافها موجهة لصدور العرب أساساً والعالم كله بعد ذلك، للدلالة على إمكانية وقدرات الموساد غير المحدودة.

وكانت جزءاً من معارك إسرائيل لإثبات الذات في الداخل والخارج وتأكيد صورتها الأسطورية التي تريد صناعتها لإقناع الشتات اليهودي بالأمان وإرهاب المعارضين بذراع إسرائيل الطويلة، وكانت هذه العملية إيذاناً بانهيار نظام جعفر نميري في السودان بعد أن نخره سوس الفساد والرشوة والمحسوبية.. ولم تكن إسرائيل تهتم بذلك مادام رجلها الذي ساندها في هذه العملية قد أصبح مستشاراً أمنياً لنظام الترابي الذي يحكم السودان من عام 1989.

وعملية نقل اليهود "الفلاشا"، الإثيوبيين إلى إسرائيل تمت من خلال وسيلتين: الأولي: معرفة وموافقة الرئيس السوداني آنذاك الرئيس جعفر نميري، والثانية: سرية وتنظيم من الموساد، ومن وراء ظهر "النميري" وإن كانت مشاركة حفنة من كبار المسئولين السودانيين لقاء الرشاوى الضخمة التي حصلوا عليها من الموساد.. وربما كانت العملية الأولى مقصوداً بها التغطية على الأخرى والخلط بين الاثنين لصالح التعتيم على العملية السرية ولعدم التحقيق مع المجرمين الذين سهلوا هذه العملية مقابل المال والمتعة.

في يناير 1985 قام جورج بوش "الأب"، وكان حينها نائب رئيس الجمهورية الأمريكي، بعدما تسلم موافقة النميري، بإصدار الأمر لإرسال طائرات أمريكية من نوع هيركيلوس إلى الخرطوم، حيث نقلت خمسمائة فلاشا وطارت بهم مباشرة إلى إسرائيل، هذا الجزء من العملية كتب عنه الكثير في الكتب وروت الصحف عنه الكثير، مما سمع به الناس

من الأمريكيين والبريطانيين والمصريين والسودانيين والإثيوبيين، لكنهم حفظوه سراً حتى قام "يهودا ومينيتز" "مسؤول كبير في الوكالة اليهودية المتحدة" بإخبار أحد صحفيي "النيكودا" – وهي صحيفة صغيرة للمستوطنين اليهود في الضفة الغربية – بأن العملية قائمة وهذا لم ينه فقط العملية التي كان يتكلم عنها بل أيضا العملية السرية التي أعدها الموساد على شواطئ البحر الأحمر، وكالعادة في مثل هذه الأمور، عرف الصحفيون في إسرائيل عن العملية منذ البدء، لكنهم وافقوا على كتمان القصة حتى يعطي لهم الإذن بنشرها، فهناك لجنة ناشرين تدعي "فادات أورخيم"، تضم كل وسائل الإعلام الرئيسية في إسرائيل، وتجتمع بانتظام مع المسئولين الحكوميين لإطلاعهم على الأحداث الجارية، فالتليفزيون الإسرائيلي مراقب من قبل الحكومة شأن محطة الإذاعة الوحيدة حتى لا تقوم أية مشكلة في مراقبة البث.. يتم تلقين الصحفيين بهذه الأخبار بعد أن يدقق فيها المسئولون الحكوميون ويشعر هؤلاء بأنهم جزء منها، قد يتم أيضا اصطحابهم في المهمات، والسبب دائما هو أنه عندما تكون من مصلحة إسرائيل نشر القصة، تكون لديهم كل المعلومات الضرورية، ويعتقد البعض أن هذه الطريقة أفضل من الرقابة "رغم أن إسرائيل تفعل ذلك، أيضا".

عندما شاع خبر العملية السرية، كانت ردة فعل العرب، سريعة ومتوقعة، طلبت ليبيا عقد جلسة للجامعة العربية، والصحف في معظم الدول العربية أدانت السودان لتعاملها مع إسرائيل، من جهتها أنكرت الحكومة السودانية أي دور في العملية، ودعا وزيرخارجيتها في ذلك الوقت هاشم عثمان الدبلوماسيين العرب والأفارقة والآسيويين إلى اتهام إثيوبيا، بغض النظر عن خروج الفلاشا مقابل المال والأسلحة، وزير الخارجية الإثيوبي "جوشو ولد" رد بأن السودان كان يقوم برشوة عدد كبير من اليهود الحبشيين للهرب من إثيوبيا ، صحيفة "الرأي العام" الكويتية قالت في افتتاحية شديدة اللهجة: "إن تهريب اليهود الاثيوبيين عبر السودان، لا يمكن اعتباره حدثاً عابراً، بل هزيمة جديدة لحقت بالأمة العربية".

في وقت العملية، قال رئيس الوزراء شيمون بيريز علناً: "لن نرتاح حتى يعود إخوتنا وأخواتنا إلى الوطن بسلام"، وفي ربيع عام 4891، انطلق بيريز لتحقيق حلمه، وبينما كانت المحادثات تجرى مع الحكومات الأخرى لأجل تأمين نقل جوي خلال بروكسل،

استدعي بيريز "ناحوم أدموني"، وكان حينها رئيس جهاز الموساد واسمه الحركي "روم" ليرى إن كان بإمكانه التفكير بخطة لإنقاذ مزيد من الفلاشا.

وبعد هذا الاجتماع، استدعى "أدموني" "دايفيد آربل" وكان رئيس الـ"تسافريم" وتعني "نسيم الصباح". وهو قسم مهمته الوحيدة مساعدة اليهود أينما كانوا مهددين.

كان قسم أربل مسئولاً عن تكوين مجموعات يهودية دفاعية اسمها "أطر" أو "ميسرجوت" في كل أنحاء العالم، والآن تشمل بعض أنحاء الولايات المتحدة. غالبا ما يكون أصحاب المهارات الخاصة كالأطباء كقوات احتياطية، ويتم استدعاؤهم لفترات قصيرة وعادة يكونون رؤساء مراكز"الأطر" في مختلف البلدان عملاء موساد متقاعدين، فالوظيفة تعتبر نوعاً من المكافأة، والفكرة أنهم ماداموا يملكون الخبرة لم لا يتم استخدامها؟

الغرض الرئيسي هو مساعدة زعماء المجموعات اليهودية خارج إسرائيل بالتخطيط لسلامتهم الخاصة. يرى معظم هذا من خلال القوس والسهم وهي فرق الشباب الإسرائيلي، صبياناً وبنات، ينتمون إلى كتيبة "الشباب العبري" وغالباً ما يتم إحضار شباب من دول أخرى لتمضية الصيف في تعلم أساليب الأمن، واكتساب المهارات، ونصب الخيم وتعلم استعمال بندقية القنص الهجومية.

وآخرون يتعلمون مهارات أمنية بدرجة أعلى، ككيفية بناء مخابئ للأسلحة والوثائق وكيفية القيام بتفتيشات أمنية، بالإضافة إلى أسس الاستجواب وجمع المعلومات.. إن أي استعمال "للأطر" خارج على الدفاع عن النفس، لم توافق عليه أية حكومة رسمية، رغم أن كل مسؤولي الموساد يعرفون عن تلك الاستعمالات، إسحق شامير كان يعرف، أما بيريز فلم يكن رجل موساد وبذلك لم يكن يعرف، رغم أنه كان رئيس وزراء.. إن إسرائيل لا تقوم ببيع الأسلحة مباشرة لتلك "الأطر"، لكنها تزودهم بالأسلحة بطريقة غير مباشرة بالترتيب مع بعض تجار الأسلحة المعروفين.. لا ينظر الموساد إلى هذه الأطر على أنها تقوم بجمع المعلومات، رغم أن رؤساء المركز يعرفون من خلال الخبرة أن أقرب طريق للمديح هو

تقديم المعلومات المفيدة.. كثير من الشبان الذين تدربوا في المخيمات الصيفية في إسرائيل أصبحوا لاحقاً من "السايان".. إن المجموعات اليهودية خارج إسرائيل لها الأطر المدربة والمسلحة والقادرة على الدفاع عن نفسها عند الحاجة، إلا أنه في هذه العملية بالذات، سيضطر الموساد إلى تجنيد مساعدين.

بعد لقائه أدموني طلب آربل نقل كبار المسئولين إلى قسم تسافرتم قال لمسؤوليه إنه يريد أكبر عدد ممكن من الفلاشا خارج السودان، ثم طلب منهم التفكير بكيفية تنفيذ ذلك، عادة ما لا يجد قسم آربل الميزانية الكافية، لكن في هذا الوقت كان من الواضح أن بإمكانهم الحصول على كل ما يحتاجون إليه، حاييم اليازي الذي كان يرأس الفرع المتخصص بالعمليات السرية لإنقاذ اليهود من وراء خطوط الأعداء، كلف بالإشراف على المشروع الذي أطلق عليه اسم مشروع "موسي السري" ووضع خطة للقيام بالعملية بأسرع وقت ممكن.

الستار نادي للغوص

خلال ثلاثة أيام جمع اليازي لجلسة مطولة ومفاجئة في مكاتب خارج مبنى القيادة الرئيسية للموساد في مبنى "جادة ابن جيفيرول" في الطابق الذي يعلو سفارة جنوب إفريقيا في تل أبيب، حيث كانت الخرائط الفاخرة على الجدران، إضافة إلى المعلومات التي جمعوها عن السودان أمامهم.. كل منهم قدم رأيه حول أفضل الطرق للقيام بالعملية. معظم الوقت كانت الفلاشا متمركزين في مخيمات بمناطق كسلا والأطرش، غرب الخرطوم قرب الحدود الإثيوبية.

المتمردون في الجنوب الذين كانوا يحاربون الحكومة السودانية لسنوات عدة، ما كان بالإمكان الاعتماد عليهم لمساعدة من أي نوع.. وكما يحدث عادة في هذه الجلسات، قال أحدهم: "مهلاً، لدينا ممر بمحاذاة شواطئ السودان، يمكننا الاقتراب من الشاطئ بواسطة

مراكبنا المعدة لإطلاق القذائف، لم لا تخرج الفلاشا بواسطة هذه المراكب؟ تم بحث الفكرة لبعض الوقت لكنها رفضت لعدة أسباب، إن تحميل الناس في السفن أمر يستغرق وقتاً طويلاً ولن ينجز دون ملاحظة أحد "يمكننا على الأقل إقامة مركز ما هناك" قال: "ماذا سنفعل؟" نعلق إشارة تقول: "قاعدة عمليات الموساد، الرجاء عدم الدخول؟" أحدهم قال هازئاً: "لا، لننشئ نادياً للغطس، البحر الأحمر مرتع للغطاسين"، قال: في البدء رفضت الفكرة لكن مع مرور الوقت بدأت فكرة المدرسة ونادي الغطس تطفو إلى السطح مرة أخرى هم يعرفون رجلاً عند ذلك الشاطئ يدير ما يسمى بالنادي، رغم أنه يمضي معظم وقته في الغطس والتكاسل على الشاطئ أكثر من التعليم أو تأجير عدته، لكنه على الأقل موجود هناك، بالتخطيط الصحيح والأذونات المناسبة من الخرطوم يمكن تحويله إلى منتجع كامل.

"يهودا جيل" الذي يتكلم العربية وهو واحد من أكثر الكاتسا خبرة، تم إرساله إلى الخرطوم ليقوم بدور ممثل لشركة سياحية بلجيكية تنوي تطوير الغطس في البحر الأحمر والرحلات في صحراء السودان، عادة لا يرسل ضابط الكاتسا إلى دول عربية بسبب حجم المعلومات التي بحوزته، والخطر فيما لو أجبر على أن يبوح بها للعدو إذا قبض عليه، ولكن بسبب الوضع العاجل، تقرر المخاطرة هذه المرة.

كانت مهمة "جيل" الحصول على الأذون الرئيسية، التي استلزمت رشوة عدد من المسؤولين لتعجيل خطط شركته السياحية. استأجر بيتاً في القسم الشمإلى من الخرطوم وبدأ العمل.. في الوقت نفسه طار رجل آخر من التسافريم إلى الخرطوم ثم إلى بورسودان، ومن هناك اتجه إلى الشاطئ يبحث عن صاحب النادي الصغير. بدأ رجال الموساد يرون العملية "كبساط سحري"، لقد قرروا أن يستعملوا الهليوكوبتر لنقل الفلاشا خارجاً، لكن ينبغي التوسع في منتجع السائحين كتغطية للعملية. في تلك الأثناء، كان "جيل" قد قام بتسجيل الشركة الجديدة، وبدأ تنظيم رحلات من أوروبا، لاحقاً، اكتشفوا باخرة غارقة على بعد حوإلى مائة متر بعيداً عن الشاطئ وعلى عمق عشرين متراً، "إنه موقع ممتاز للغطس الضحل، ومركز لاستقطاب السياح".

في الموقع، بدأوا تدريب العمال من السكان المحليين للعمل في المنتجع. في الوقت نفسه كان مسؤولو التسافريم في تل أبيب يدربون الطهاة، وأساتذة الغطس وآخرين للعمل في المنتجع. أرادوا أشخاصاً يتكلمون الفرنسية أوالإنجليزية. معرفة العربية تعتبر أفضلية، لأنها تمكن من التحدث مع الدبلوماسيين والمسئولين العرب الذين قد يكونون ضيوفاً في المنتجع، تم اختيار المجندين من أصحاب الخبرة السابقة في العمليات، ومن خلال المخابرات البحرية تم اختيار الغطاسين، ليقوموا بتدريب السياح على الغطس.. ووضع فريق من حوالى خمسة وثلاثين إسرائيلياً لتجهيز المنتجع، كل كان لديه الأوراق الخاصة، ولكن نظراً لضيق الوقت رتبوا عملية النقل في شكل فرق، بالنسبة لعمال البناء المحليين كان لديهم أربعة فرق، وكل فريق يعمل في اليوم الرابع، في تلك الأثناء كان فريق من الإسرائيليين يأتي ليلاً لتعجيل البناء. وبسبب الدورات المستمرة في العمل، لم يشك أحد عندما تم إنجاز جزء كبير من العمل.

بالنسبة للعمال الإسرائيليين، هم أيضا يتم تغييرهم بانتظام، وبدلا من الدخول في إجراء أوراق الاعتماد لكل منهم، قاموا بتحضير وثائق بأسماء خاصة لكل واحد منهم، الفريق الجديد يظهر أوراق الاعتماد التي تبرهن على أنهم الأشخاص الذين يحملون تلك الأسماء.. تمكنوا من الحصول على إذن لإدخال ثلاث آليات – لاند روفر وشاحنتي بيك آب – إنما بالحقيقة كانت لديهم تسع شاحنات.. بكل بساطة قاموا بإصدار لوحات مزدوجة وأيضا أوراق التسجيل وخبأوا الآليات الإضافية.. لكن العملية كادت تنهار بسبب خطأ سخيف. عندما قرر أحدهم إحضار حمولة من العشب الأخضر على متن رحلة ليلية، وعندما حضر فريق من العمال المحليين صباح اليوم التالي، كان هناك فجأة مرج أخضر، بعد أن كانت رمالاً لقرون خلت.. كيف ينمو العشب بين ليلة وضحاها؟

في الخرطوم، قام "جيل" بطباعة نشرات دعائية للنادي، وبدأ توزيعها في وكالات السفر عبر أوروبا، وبأسعار خاصة للأفراد. لم يستهدف المنتجع المجموعات، لأن المجموعات

عادة يعرف أحدهما الآخر لذا فإن لديهم فضولاً لمعرفة ما يجري حولهم.. وتم إنشاء المنتجع في حوالى شهر بخلاف المباني الرئيسية للسياح، المطبخ، غرف النوم، وغيرها، كان هناك عدة مخازن لمعدات الاتصال والأسلحة.. فلن يذهب الموساد إلى مكان كهذا، أعزل من السلاح كما قاموا بتهريب كل المعدات الضرورية لإنارة مدرجات للطائرات في الصحراء، منارات، أضواء جانبية، أجهزة رقابة، أجهزة تلسكوب لاكتشاف اتجاه الريح وتحديد المسافات، الطعام والحاجات الضرورية الأخرى تم إحضارها على متن مراكب معدة، توقفت على بعد نصف ميل من الشاطئ، ولأن ستة رجال محليين كانوا يعملون في المكان، فكان من الضروري معرفة مواقعهم قبل وصول أية شحنة كي لا يصادفوا – ولو صدفة – عملية تفريغ أية سفينة إسرائيلية.. وبينما كل هذا كان يجري، كانت عملية الموساد الأخرى المتعلقة بطائرة الشارتر البلجيكية تجري أيضا، ومسؤولو الموساد يدفعون مبالغ طائلة كرشوة للمسؤولين السودانيين.. واحد منهم هو الجنرال عمر محمد الطيب، نائب سابق لرئيس الجمهورية الذي أصبح رئيس الأمن في السودان خلال حكم الرئيس النميري، أنزلت به عقوبتان بالسجن المؤبد وغرامة بدفع أربعة وعشرين مليون جنيه سوداني في شهر إبريل 1986، وذلك لاشتراكه في المساعدة على هروب الفلاشا.

خلال هذه الفترة، وصل خبر إلى قيادة الموساد، أن أحد المسؤولين السودانيين الكبار يريد دراجة ذات عشر سرعات للتعجيل في نقل الوثائق إلى الفلاشا، ولأن حقيقة الأمور عادة ليست كما تبدو في أعمال المخابرات، فإن مسؤولي الموساد احتاروا لهذا الطلب، وأرسلوا رسالة إلى مصدرها يطلبون فيها توضيحاً، مرة أخرى، جاءت الرسالة أن المسؤول يريد دراجة ذات عشر سرعات، حاول مسؤولو الموساد إيجاد تفسير للأمر، هل يريد وزن دراجة ذهبا؟ هل هي شفرة لم يفهموا معناها؟ أرسلوا طلباً آخر للاستيضاح وكان الرد مرة أخري أنه يريد دراجة ذات عشر سرعات، انتهي.. أخيراً، فهموا بأنه حقا يريد دراجة، فأرسلوا له دراجة من نوع رالي، أقل ما يمكن القيام به.

في المنتجع، كان الإسرائيليون يدرسون التجسس على جهاز الرادار السوداني، بعد فترة وجدوا ثغرة صغيرة في ذاك الجهاز، يغطيها جزئياً الراداران المصري والسعودي، في منطقة تسمى "روز المدرية" الواقعة قرب الحدود بين مصر والسودان، وهكذا تقرر إرسال طائرة استطلاع من قاعدة أوفدا العسكرية إلى إيلات، لتطير فوق خليج العقبة والبحر الأحمر حتى هذه الفجوة، ثم العودة إلى المهابط التي تم إنشاؤها في الصحراء، ولتعيين مواقع هبوط جيدة تم إحضار أربعة طيارين إلى المنتجع ليقوموا بدور دليلين سياحيين، وهكذا يمكنهم التجول في الصحراء شرعياً، ووضع علامات لمواقع الهبوط على إحدى الخرائط، كما فسروا لموظفين آخرين في المنتجع كيفية إقامة المهابط وتعليمات عن المقاييس والإضاءة والاتصالات.

حتى الجواسيس يملكون روح دعابة من وقت لآخر، ففي إحدى المرات صحب واحد من رجال التسافريم طياراً إسرائيلياً معه إلى الخرطوم في رحلة عمل، ووصلا إلى فيلا يملكها أحد رجال الأعمال المحليين.

"جيل" كان هناك أيضا. وبينما هو ورجل التسافريم كانا يعرفان حقيقة عملهما، فإن الطيار ظن "جيل" رجل أعمال حقيقياً. وعندما انصرف المضيف، سأل رجل التسافريم جيل عن نوع عمله، ثم سأله جيل: "ماذا تعمل أنت؟". أجاب: "أنا جاسوس إسرائيلي".. شحب وجه الطيار، لكن الرجلين الآخرين ضحكا ولم يتفوه الطيار بكلمة حتى كانا في طريق عودتهما، بعد عدة أميال من الخرطوم، صرخ فجأة بوجه رفيقه: "أيها الأحمق! لا تفعل مثل هذه الأمور حتى لو كنت تمزح". استغرق رجل التسافريم خمس عشرة دقيقة ليهدئ الطيار ويريح باله.

في هذه الفترة كان هناك مئات الآلاف من الإثيوبيين السود ممن هربوا من الحرب والمجاعة في بلادهم وتدفقوا على مخيمات اللاجئين في السودان، المشكلة أيضا هي كيفية تمييز اليهود عن الآخرين.. للقيام بذلك، اتفق بعض الشجعان من الفلاشا ممن كانوا آمنين في إسرائيل – ويمكن أن يتعرضوا للقتل إن قُبض عليهم – على الذهاب إلى المخيمات

لجمع الناس في مجموعات. بسرعة انتشر خبر المشروع بين الفلاشا، لكن معرفته ظلت محصورة بهم كلية، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت مرحلة التنفيذ جاهزة.

في مارس 1984، وصلت أول دفعة من السياح الأوروبيين، وورد إلى الدوائر الحكومية والدبلوماسية في الخرطوم خبر هذا المنتجع السياحي الرائع، من يوم افتتاحه حتى ليلة مغادرته كان محجوزاً بأكمله، كان نجاحاً تجارياً كبيراً.

الطائر المرعب

إنهم الآن مستعدون للمرحلة النهائية.. تم إنشاء المهبط وحدد موقع الاجتماع في الصحراء، حيث ستلاقي الشاحنات اللاجئين، لتنقلهم مسافة ست ساعات إلى طائرة الهيركيلوس. كان المفروض أن ينقل مائة شخص كل مرة، لكن أحياناً ضعف هذا العدد من الناس كانوا يزدحمون، تحت قماش مشمع كثيف في رحلة طويلة وقاسية.

مئات من الفلاشا، أجسامهم ترتجف من الجوع والمرض كانوا يموتون عبر هذا الجزء من الرحلة، ومئات غيرهم في الطريق إلى إسرائيل على متن الهيركيلوس المزدحمة، ولكن بما أنه تم التعرف عليهم كيهود، تم نقلهم إلى إسرائيل.

قبل كل رحلة، كانت طائرات الاستطلاع الإسرائيلية التي تطير على ارتفاعات عالية، تقوم بتحديد مواقع الحواجز السودانية وإعلام مركز الاتصالات بها في الليلة الأولى، بدا أن كل شيء يسير على ما يرام، لقد التقوا في البقعة المحددة في الصحراء وتجنبوا كل الحواجز ثم وصلوا إلى المدرج قبل أن تنحط الهيركيلوس بمساعدة ضوئين مثبين في رمال الصحراء. الفلاشا الذين لم يروا شيئاً كهذا من مسافة قريبة، راحوا يراقبون هذا الطائر العملاق وهو يحط مصارعاً الريح، ثم ينعطف ليتجه نحوهم، ومحركاته تزمجر وتثير الرمال والغبار.

وإذا تغلب عليهم الذعر، فر مئتان من الفلاشا في حدة الليل، واختبأوا في أية بقعة وجدوها هاربين من هذه الآلة المخيفة. تمكن الإسرائيليون من جمع عشرين شخصاً منهم في الحال. وبعد التفتيش مدة أطول. تقر إرسال الهيركيلوس وسيضطرون إلى إرسال الفلاشا الباقين في الليلة المقبلة.

قرر الإسرائيليون أن يدعوا الفلاشا في الشاحنات إلى أن تصل الهيركيلوس وتقف وتفتح أبوابها الخلفية، ثم يتجهون بالشاحنة إلى قرب الطائرة ويحملون الناس رأساً إليها، إلى أن أصبحت أخبار العملية "موسي" الأخرى علنية، لم تواجه عملية النقل الجوي السرية أية مشاكل، كانوا يطيرون في معظم الليالي، وأحيانا طائرتان أو ثلاث تعمل في الوقت نفسه، لإخراج أكبر عدد ممكن من الفلاشا في أقصر وقت ممكن.. غير أن خللاً قد حصل في إحدى المرات، كانت شاحنة فارغة في طريق عودتها عندما صادفت أحد الحواجز، وبما أن السائق والراكب لم يملكا بطاقة تعريف، تم اعتقالهما على يد الجنود السودانيين، اللذين ربطاهما ووضعاهما في خيمة قريبة. كانت مهمة هذه الحواجز الرئيسية مراقبة عمليات الثوار الجنوبيين، وكانت تتألف من جنديين فقط دون أية أجهزة اتصال.. كانوا في مواقعهم لبضعة أيام على التوالي.

بعد أن فشل الرجلان في العودة إلى المنتجع، تم إرسال فريق للبحث عنهما. عندما أبصر الفريق شاحنتهما، تم الإعداد فوراً لخطة إنقاذ. اقتربت شاحنة الإنقاذ بسرعة من الحاجز حيث صرخ السائق منادياً السجينين في الخيمة بالانبطاح أرضاً. كان الجنديان السودانيان يقتربان من الشاحنة عندما فُتحت مؤخرتها وانطلق الرصاص من الرشاشات، ثم أشعل الإسرائيليون الخيمة بعد ذلك، وثبتوا صخرة على دواسة البنزين في الشاحنة الأخرى وأطلقوها في الصحراء – ليبدو كأنه هجوم من إحدى العصابات.. وقد مرت الحادثة وصارت في النسيان.

الإصابة الإسرائيلية الوحيدة في هذه العملية كانت لراكب في إحدى الشاحنات المتوجهة إلى الخرطوم. مرة أخرى صادفوا حاجزاً، لكن عندما لم تتوقف الشاحنة، قام الجنود بإطلاق النار حيث قتل الراكب بينما تابع السائق السير. الجنديان السودانيان بدون أية أجهزة اتصال أو نقل، لم يتمكنا من القيام بأكثر من إطلاق النار إلى أن ابتعدت الشاحنة عن المدى.. لكن في تلك الليلة من يناير 1985، جاء الأمر من إسرائيل بأوامر"طي" الموضوع فوراً. في الخرطوم، قام "يهودا جيل" بإعداد بعض حاجياته الخاصة بالإضافة إلى وثائقه كلها واستقل الرحلة التالية إلى أوروبا ومنها إلى إسرائيل.

وبينما كان السائحون نائمين في منتجع البحر الأحمر، قام الإسرائيليون بتحميل معداتهم كلها في السفن، وحملوا اللاند روفر والشاحنتين على متن طائرة هيركيلوس وانسحبوا من البلاد بكل هدوء دون ملاحظة أحد.. "حاييم اليازه" الذي كان مسؤولاً عن المنتجع، انزلق من على شاحنته عندما كانت تُحمل في الطائرة وكسرت ساقه.. مع ذلك، بعد ساعتين ونصف الساعة كان "اليازه" في إسرائيل، يتمتع بإعجاب أصدقائه، لكنه يأسف، لأن مسؤولا ثرثاراً وصحفياً قد وضعا حداً للنجاح الذي تحقق، الذي لربما يعد من أنجح عمليات الإنقاذ السرية، مما نتج عنه أن أصبح بضعة آلاف من الفلاشا، بعيدين الآن في إسرائيل "باروك تانجا" ناشط من الفلاشا قال منتقداً الصحافة الإسرائيلية: "كل تلك السنوات كان الرحيل صعباً.. الآن ونصف عائلاتنا لاتزال هناك قاموا بنشر كل شيء.. كيف يمكنهم أن يفعلوا شيئا كهذا؟".

وعلى الجهة الأخرى تلقى العرب المفاجأة التي كانت قاسية، فبعد 36 عاماً من إنشاء دولة إسرائيل ومعرفة كل طرق وأساليب المخابرات الإسرائيلية في تهجير اليهود العرب من اليمن والمغرب وتونس ومصر فإن السودان الذي يمكن أن يكون خاليا من اليهود يتم نقل اليهود عبر أراضيه وموانيه بسهولة ويسر، ودون أن يدري أحد من السودانيين أو العرب أن شيئا كهذا.. يحدث!!

الفصل التاسع

تــجـــســـس على أمــريكا

– "العال" منظمة خاصة للتجسس على أمريكا في عقر دارها.

– القبض على بولارد لم يكن الحلقة الأخيرة في أعمال التجسس.

– العال تجبر مساعد كارتر على الاستقالة لأنه أجرى اتصالات بمنظمة التحرير الفلسطينية.

رغم التعاون الإستراتيجي العسكري والأمني بين إسرائيل وأمريكا وبين الموساد والـ cia فإن الموساد كان ومازال يعتبر نفسه الأفضل، وما حدث في لبنان من تدمير للقوات الأمريكية والفرنسية بعلم مسبق للموساد كان دليلا دامغاً على أنانية ووحشية سلوك الموساد.

كما أن هذا التعاون لم يمنع الموساد من ممارسة أعماله التجسسية في داخل الولايات المتحدة الأمريكية، فقد أنشأ منظمة في غاية السرية تسمى العال تقوم بالتجسس على الأمريكيين وتهديدهم وابتزازهم بمعاونة من يهود الولايات المتحدة، وكان القبض على الجاسوس اليهودي "بولارد" وزوجته في سنة 1986 هو أول إعلان رسمي لنشاط تجسسي إسرائيلي داخل أمريكا، كما كان لهذا النشاط التجسسي دوره في توجيه السياسة الأمريكية لصالح إسرائيل وضد مصالح العرب، مهما كانت الوسائل المستخدمة لذلك.

عندما اعتقل جوناثان بولارد، واحد وثلاثون عاماً، مع زوجته آن هندرسون- بولارد، خمسة وعشرون عاماً، في أواخر نوفمبر 1985 بعد محاولة فاشلة لطلب اللجوء إلى السفارة الإسرائيلية في واشنطن، ركزت النتائج السياسية المتوقعة على سؤال محرج: هل يعمل الموساد حقاً في الولايات المتحدة؟

رسمياً، يقول الموساد: لا.. لا.. وألف مرة.. لا. لا على الإطلاق فعلاً، فرجال الكاتسا ممنوعون من حمل جوازات سفر أمريكية مزيفة، أو حتى استعمال تغطيات أمريكية في عملهم. لهذه الدرجة كانت العلاقة حساسة بين دولة إسرائيل وأكبر وأقوى حلفائها.

كيف يمكن تفسير قضية جوناثان بولارد إذا كانت العلاقة بين cia والموساد على هذا النحو؟ الرواية الإسرائيلية في هذا الشأن تقول إن بولارد لم يكن من الموساد، بل كان يتلقى شهرياً ألفين وخمسمائة دولار أمريكي من منظمة تدعى "لاكام lakam"، وهي اصطلاح باللغة العبرية لمكتب اتصال الشؤون العلمية لوزارة الدفاع الإسرائيلية، وكان يقوم بنقل الوثائق السرية إلى بيت "إيريت إيرب irit erb " سكرتير في السفارة الإسرائيلية.

كان على رأس "لاكام" حينها، رافائيل إيتان الذي أنكر علانية أية علاقة، لكنه كان ضابط كاتسا سابقاً شارك عام 1960 في خطف أدولف إيخمان من الأرجنتين.

بولارد، يهودي، كان يعمل في مركز دعم التجسس في سوتلاند بولاية ميريلاند قرب واشنطن، والمركز جزء من جهاز الاستقصاء البحري، وفي عام 1984 تم نقله إلى مركز إنذار مكافحة الإرهاب في قسم تحليل التهديدات. انتقال غريب نظراً إلى أنه تم تحذيره سابقاً من المسؤولين الأمنيين حول تسريب بعض المعلومات إلى الملحق العسكري لدولة جنوب إفريقيا، ووظيفته الجديدة منحته حرية الوصول إلى كثير من المعلومات المحظورة.. لم يطل الوقت لاكتشاف أن بولارد كان يمد الإسرائيليين بهذه المعلومات. وعندما واجهه مكتب التحقيقات الفيدرالية الـ "إف. بي. آي" وافق على التعاون معهم للتوصل إلى مصادره الإسرائيلية. وضعته شرطة الـ"إف . بي .آي" تحت المراقبة أربعاً وعشرين ساعة، لكنه أصيب بالهلع وطلب حق اللجوء، وأوقف مع زوجته التي اتهمت بالاشتراك معه عندما كانا يغادران السفارة الإسرائيلية.

بعد اتصال هاتفي أجراه وزير الخارجية الأمريكي جورج شولتز من كاليفورنيا، برئيس الوزراء الإسرائيلي شيمون بيريز الساعة الثالثة والنصف صباحاً بتوقيت القدس في الأول من ديسمبر عام 1984، اعتذر بيريز رسمياً وقال: "التجسس على الولايات المتحدة أمر مناف تماماً لسياستنا. إن نشاطاً كهذا إن كان قد نُفِّذ حقاً، فهو خاطئ، وإن الحكومة الإسرائيلية تقدم اعتذارها".

وأضاف بيريز أنه إذا كان رسميون حكوميون متورطون: "فإن المسؤولين منهم سيستدعون للتفسير، والوحدة المسؤولين سيتم تسريحها كلياً وإلى الأبد، وستتخذ الإجراءات التنظيمية اللازمة للتأكد من عدم تكرار هذا النوع من النشاطات". (كل ما فعلوه أنهم غيروا العنوان البريدي، وضموا الـ"لاكام" إلى قسم الشؤون الخارجية).

بيريز الذي أنشأ الـ (لاكام) عندما كان نائباً لوزير الدفاع في الستينيات.. حتى لو لم يكن بيريز يقصد ذلك — الاعتذار – لكن يبدو أن تصريحه أرضي الإدارة الأمريكية. مدير الـ: "سي. آي. إيه" السابق، ريتشارد هيلمز قال: "إنه ليس أمراً غير عادي للدول الصديقة أن تتجسس على بعضها البعض".

وبينما أودع بولارد وزوجته السجن بتهمة التجسس، اعتبر الموساد الـ"لاكام" هواة في هذه الصنعة – قال شولتز للصحفيين: "إننا راضون عن الاعتذار والتفسير الإسرائيلي"، وبعد فترة قصيرة من الدعاية النفسية لإسرائيل دفنت القضية.. الشكوك استمرت، طبعاً، حول وضع بولارد الصحيح، ولكن يبدو أنه حتى الـ"سي. آي. إيه" لم تصدق أنه بخلاف عمل الارتباط، لا يعمل الموساد فعلياً في الولايات المتحدة نفسها.

"العال" الأكثر سرية

بولارد لم يكن من الموساد، لكن كثيرين غيره ممن كانوا يقومون بأعمال التجسس والتجنيد وتنفيذ نشاطات سرية، خاصة في نيويورك وواشنطن اللتين كان يشار إليهما "بالملعب"، كانوا ينتمون لقسم خاص سري يسمونه ببساطة بالعبرية "عال" ومعناه "فوق" أو "القمة"، وهي وحدة سرية ومنفصلة عن المنظمة الرئيسية، لدرجة أن معظم موظفي الموساد لا يعرفون طبيعة عملها ولا يملكون صلاحية الدخول إلى ملفاتها في الكمبيوتر، لكن الوحدة موجودة، وهي تقوم بتوظيف ما بين أربعة وعشرين وسبعة وعشرين شخصاً محنكاً كل في مجاله، ثلاثة منهم من الكاتسا الفاعلين، معظم نشاطاتهم، لا كلها، ضمن الحدود الأمريكية. مهمتهم الرئيسية جمع المعلومات عن العالم العربي ومنظمة التحرير الفلسطينية. ولكن كما سنرى، فغالباً ما يكون الخط الفاصل غير واضح، وعند الشك، لا تتردد "العال" في تخطيه.. القول بأنها لا تجمع المعلومات عن الأمريكيين، كأن يقال لك الخردل ليس وجبة الطعام الرئيسية، ولكن هل تريد القليل منه؟ لنقل مثلاً إن هناك سيناتور

في لجنة الأسلحة يهم الموساد، نادراً ما تستخدم "العال" السايان، لكن أوراق هذا السيناتور، وما يجري في مكتبه، يعتبر من المعلومات المهمة، لذا يصبح أحد الأهداف الحصول على شخص مساعد، وإذا كان هذا الشخص يهودياً، يقوم بالاقتراب منه أو منها كشخص من "السايان"، وإذا لم يكن ممكناً يتم تجنيده كعميل أو حتى كمجرد صديق، لمعاشرته والاستماع إليه.

إن حلقة واشنطن الرسمية مهمة جداً لهذا الغرض، بعض الملحقين يتتبعونها باستمرار لم تكن مشكلة إضافة شخص ما إلى تلك الحلقة وإعطاءها طابعاً قانونياً.. واحد من نشاطات "العال" المعروفة، هو قيامهم بسرقة مواد بحثية من بعض مصانع الطائرات الأمريكية الكبرى لأجل مساعدة إسرائيل في الحصول على عقد لمدة خمس سنوات بقيمة خمسة وعشرين مليوناً وثمانمائة ألف دولار أمريكي.

"العال" مؤسسة استخباراتية مسؤولة مباشرة أمام رئيس الموساد على عكس غيرها من مراكز الموساد، فهي لا تعمل داخل السفارة الإسرائيلية. مراكزها موجودة في بيوت آمنة أو في شقق وهم يتصلون مباشرة بالقيادة في تل أبيب، إما بالهاتف أو بالتلكس، أو بالكمبيوتر عبر خط هاتفي. وهم لا يستعملون أجهزة اتصال أخرى، لأنه حتى لو لم يستطع الأمريكيون تفكيك الرسائل، فإنهم سيعرفون حتماً أن عملية سرية ما تجري في الجوار وهذا ما يريد الموساد تجنبه. "الكاتسا" في "العال" هم الأشخاص الوحيدون في المنظمة بأسرها، الذين يستعملون جوازات سفر أمريكية، وهم يخالفون قاعدتين أساسيتين: فهم يعملون في دولة هدف ويستعملون غطاء الدولة الموجودين فيها. القاعدة هي: "لا تلعب دور رجل إنجليزي في إنجلترا أو فرنسي في فرنسا". من السهل جداً أن يتحقق المواطنون من أوراقك. مثلاً إذا أعطيت شرطياً باريسياً رخصة قيادتك المحلية، فهو يستطيع فوراً أن يتحقق من صلاحيتها.. "العال" ينجحون في تصرفهم، لأن نوعية مستنداتهم ممتازة.

"يوري دينور" الذي كان في إحدي المراحل مسؤولاً عن مركز "العال" في نيويورك، كان متورطاً بعملية أثرت في السياسة الدولية الأمريكية، وخلقت مشكلة محلية خطيرة للرئيس جيمي كارتر. لو عرف الأمريكيون مدى وطبيعة تورط الموساد، لكانت تعرضت للخطر أو تعثرت العلاقات التاريخية الجيدة التي تربط بين الدولتين.

كانت "العال" تعمل في نيويورك منذ 1978 في محاولة لقطع النشاطات العربية بشأن محادثات السلام التي يقوم كارتر بالضغط من خلالها. في سبتمبر 1975 تعهد وزير الخارجية هنري كيسنجر بأن الولايات المتحدة لن تعترف أو تتفاوض مع منظمة التحرير حتى تعترف بحق إسرائيل بالوجود. أولاً، الرئيس السابق جيرالد فورد ثم كارتر أعلنا أنهما سيدعمان هذا التعهد لكن الإسرائيليين لم يصدقوا الأمر كلياً.

في نوفمبر 1978 بعد محادثات كامب ديفيد، قام عضو الكونجرس الجمهوري بول فيندلي من مقاطعة إلينوي، وعضو في لجنة شئون المجلس الخارجية بحمل رسالة من كارتر إلى اجتماع مع عرفات في دمشق، حيث قال عرفات إن منظمة التحرير ستتخلي عن العنف إذا تم إنشاء دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة بممر يصلهما ببعض.. كارتر كان قد نادى بإنشاء "وطن" للفلسطينيين منذ عام 1977، وفي ربيع1979 التقى سفير الولايات المتحدة في النمسا "ميلتون ولف" وهو زعيم يهودي بارز بممثل منظمة التحرير هناك، عصام السرطاوي.. المرة الأولى في حفل استقبال دعت إليه الحكومة النمساوية، ثم في حفل كوكتيل في سفارة عربية، بناء على تعليمات من واشنطن كان "ولف" يجتمع بالسرطاوي ولكن ليس للبحث في أمور مهمة، عندما ذهب عرفات إلى فيينا للقاء المستشار النمساوي برونو كرايسكي والمستشار الألماني الغربي السابق ويلي برانت، عقد ولف والسرطاوي اجتماعاً للبحث في المفاوضات. عندما تسربت أخبار هذا الاجتماع، قالت الخارجية إنه قد تم "تذكير" ولف رسمياً بشأن السياسة الأمريكية

المعارضة للتفاوض مع منظمة التحرير، لكن الموساد كانوا يعرفون أن "ولف" كان يتصرف بناء على تعليمات مباشرة من واشنطن.. كانت التحركات في أمريكا تزداد للتوصل إلى اتفاقية سلمية ما حتى العرب بدأوا يرون حسناتها. والموساد من خلال شبكاتهم الإلكترونية المدسوسة في بيوت ومكاتب السفراء والزعماء العرب في نيويورك وواشنطن، علموا أن منظمة التحرير كانت تميل نحو الموافقة على موقف كيسنجر عام 1975 والاعتراف بحق إسرائيل في الوجود.. في هذا الوقت، كان سفير الولايات المتحدة إلى الأمم المتحدة أندرو يونج، ليبرالي أسود من الجنوب وصديق حميم لكارتر، من أوائل من دعم الرئيس واعتبر القناة الرئيسية بين البيت الأبيض والمجموعة السوداء. وأندرو يونج، سفير صريح ومولع بالجدل، لأنه جاء نتيجة الحركة الأمريكية للحقوق المدنية وكانت لديه نقطة ضعف تجاه الخاسرين.. فإن إسرائيل تراه معادياً لها أكثر منه مؤيداً للفلسطينيين. اعتقد يونج أن كارتر يريد حلاً، تسوية تريح الفلسطينيين من وضعهم العالقين فيه، وتخلق سلاماً في المنطقة. وعارض يونج إقامة مستوطنات جديدة في الضفة الغربية، لكنه أراد أن يؤجل عرض العرب لقرار يهدف إلى الاعتراف بمنظمة التحرير من قبل الأمم المتحدة، وحجة يونج أن هذا لن يؤدي إلى مكان. الأفضل البحث عن قرار أخف يؤدي إلى الهدف ويتمتع بفرصة أكبر لتتم الموافقة عليه.

عزل الأمريكي الأسود

ولأن "العال" كانت قد استأجرت شققاً في أنحاء نيويورك وواشنطن ودست فيها أجهزة تنصت فقد سمعوا محادثة الأمن حول القرار، بل يقترحون أن يبحث فيه يونج مع أحد من منظمة التحرير.

وفي الخامس والعشرين من يوليو 1979، وصلت برقية من نيويورك إلى مركز قيادة الموساد في تل أبيب تقول: "سفير الولايات المتحدة إلى الأمم المتحدة سيجتمع بممثل منظمة التحرير في الأمم المتحدة" كانت علامات البرقية "عاجل. نمر. أسود" الشفرة إلى رئيس المكتب إسحق هوفي الذي حمل الرسالة شخصياً إلى بيجين بعد فك رموزها.

وأصاب الذعر كبار الإسرائيليين لمعرفة أن يونج سيلتقي بالطرزي، كما ذكرت الرسالة. مصدر المعلومات، تسجيلات من خط بشارة الخاص في مكتبه في الأمم المتحدة، تكشف أن يونج قبل دعوة بشارة إلى منزله.

السؤال: هل يتم منع حدوث اللقاء أم لا؟ القرار بجعله يحدث سيبرهن أن المخاوف الإسرائيلية في محلها، وأن هناك تحولاً في الموقف الأمريكي تجاه إسرائيل. وهذا سيساعد على التأكيد لأصدقاء البلاد الأمريكيين أصحاب النفوذ العالي، أن هذا الخطر ناتج عن هذه الإدارة بالذات، وبذلك سيخلقون تغيراً لصالح إسرائيل، وبذلك تظهر العملية بأنها تعرض أمن إسرائيل للخطر، بالإضافة إلى ذلك فإن هذا القرار سيساعد على التخلص من "يونج" الذي أصبح يشكل تهديداً كبيراً، بسبب طريقته الانفتاحية وموقفه الإيجابي تجاه منظمة التحرير الفلسطينية إن لم يف بحاجات إسرائيل.

وفي السادس والعشرين من يوليو دخل يونج بصحبة ابنه أندرو والبالغ ست سنوات من العمر، إلى بيت بشارة. كانت ميكروفونات "العال" تلتقط كل كلمة، حين استقبل يونج بشارة والسفير السوري. بعد خمس دقائق وصل الطرزي، وبينما كان الولد يلعب بمفرده لربع ساعة، كان الدبلوماسيون الثلاثة يتحدثون ويتفقون على أن اجتماع مجلس الأمن يجب أن يؤجل من السابع والعشرين من يوليو إلى الثالث والعشرين من أغسطس (وقد تأجل).

بعد ذلك غادر يونج وولده خلال ساعة كان كاتسا "العال" قد أحضر نسخة طبق الأصل من الاجتماع، ورئيس المركز يوري دينور استقل رحلة العال من نيويورك إلى تل أبيب، واستقبله في المطار "إسحق هوفي" رداً على البرقية التي سبقت وصوله: "العنكبوت بلع الذبابة". ثم حمل الرجلان التقرير رأساً إلى بيجن. في طريقهما قام هوفي بقراءة التقرير، كان "دينور" في إسرائيل لست ساعات فقط قبل العودة بنسخة من التقرير ليسلمه إلى سفير إسرائيل في الأمم المتحدة "يهودا بلوم" وهو تشيكو سلوفاكي المولد، خبير في القانون الدولي.. لم يرد "هوفي" أن تتسرب أية معلومات عن الاجتماع إلى وسائل الإعلام. فهو لم

يرد أن يحرق العملية في نيويورك. قال إن بيجن يمكنه التوصل أكثر إذا ما ذهب إلى الإدارة وتكلم معهم، الأسلوب ذاته الذي اتخذوه هم بعد لقاء "ميلتون ولف" بمنظمة التحرير في فيينا، وأضاف هوفي بأنها لن تكون سياسة جيدة في الولايات المتحدة أن يؤذي يونج وهو المحبوب عند السود، وبأي حال، يمكنهم الحصول على تنازلات أكثر من الأمريكيين بتنفيذ الأمر وراء الكواليس.. لكن بيجن لم يكن مهتماً بالدبلوماسية، أراد الدماء. "أريدها في العلن" قال: "وافقوا على عدم نشر كل المعلومات كي لا يفقد المصدر"، وهكذا أخبرت مجلة نيوزويك ببساطة أن يونج وطرزي قد التقيا. هذا رسم علامة استفهام في وزارة الخارجية وطُلب من يونج التفسير. تفسيره الأول، أنه خرج في نزهة مع ابنه وقرر أن يعرج لزيارة بشارة وبالصدفة التقى الطرزي. وقال إن الرجلين أمضيا "خمس عشرة أو عشرين دقيقة من اللياقات الاجتماعية" لا أكثر.

وزير الخارجية فانس، أثناء عودته من الأكوادور، أبرق له تفسير يونج، وبعد ارتياحه إلى كون اللقاء صدفة، سمح فانس للناطق بلسان الخارجية "توم ريستون" بنشر تفسير يونج في الثالث عشر من أغسطس.. وبعدما بدا أن الوضع سيتفجر أطلق الموساد شائعات إلى يونج مفادها أنه إذا اعتقد أن إسرائيل ستسكت على الأمر، فهو مخطئ جداً.. قلقاً.. طلب يونج اللقاء بيهودا بلوم واجتمع به لمدة ساعتين. لم يكن يعرف أن بلوم يملك نسخة من اجتماعه ببشارة والطرزي. لهذا السبب، تمكن من جعل يونج يعترف بأكثر مما قاله للخارجية.. ولم يكن "بلوم" مولعاً بيونج منذ البدء، وفي معظم تقاريره، لم يحصل يونج على ثناء كبير، لكن بلوم كان دبلوماسيا متمرساً، لأنه يملك التقارير، عرف تماماً ما حصل وكان قادراً على استخراج القصة، وهذا يعني أنهم سيستعملون يونج كمصدر، كي لا يضطروا إلى الكشف عن حقيقة معرفتهم السابقة بكل شيء.. "يونج" الذي مازال يعتقد أن اهتمام إسرائيل الرئيسي هو استئناف المفاوضات. لم يدرك أنه موضع مكيدة. بعد اللقاء ببلوم واعترافات يونج، استدعى بيجن السفير الأمريكي في إسرائيل وتقدم إليه بشكوي رسمية. تلك الشكوى أعطيت للسفير ولوسائل الإعلام بنفس الوقت حتى لا يتم إنكارها.

المبعوث الأمريكي السابق للسلام "شتراوس" وهو على متن الطائرة التي تقله إلى الشرق الأوسط، قال: "قضية يونج.. تؤكد الشكوك التي لا أساس لها بأن الولايات المتحدة تتعامل سراً مع منظمة التحرير الفلسطينية".. في وقت لاحق حاول يونج تبرير أعماله قائلا: "لم أكذب ولم أخبر كل الحقيقة، قدمت ملاحظتي (إلى وزارة الخارجية).. قائلاً: "سأعطيكم رواية رسمية، ولقد أعطيت رواية رسمية، لم أكذب بأية طريقة".. لكن الضرر قد حصل وأوقف يونج، وسيمضي وقت طويل قبل أن يحاول الأمريكيون التعامل مع منظمة التحرير ثانية.. وهكذا تمكنت "العال" عبر شبكة نشاطاتها السرية الكثيفة من إنهاء وظيفة واحد من أقرب أصدقاء كارتر، لكنه رجل اعتبر أنه ليس صديقاً لإسرائيل.

العال في مجلس الشيوخ

كانت "العال" تقوم بجمع التسجيلات من مختلف البيوت، وتجمع المعلومات من مجلس الشيوخ والكونجرس، الاقتراب، الاختلاط، التجنيد، الحصول على نسخ للوثائق، فتح الحقائب الدبلوماسية وكل العمليات العامة في المركز. كان ضباط الكاتسا يحضرون الحفلات في نيويورك وواشنطن، كانوا جميعاً يديرون أشغالهم الخاصة.

حتى الآن لا يعترف الموساد بوجود "العال" في داخل المعهد ويقال: "إنهم لا يعملون في الولايات المتحدة، لكن معظم رجالهم يعرفون أن "العال" موجودة رغم أنهم لا يعرفون طبيعة عملها، الطريف أنه عندما برز الـ"لاكام" بقضية بولارد، قال الموساد: "أمر واحد أكيد هو أننا لا نعمل في الولايات المتحدة" هذا ما يبرهن أنك لا تستطيع أن تأخذ كلام جاسوس بجد.. ورغم ذلك فإن للقوة حدودا فهي ليست مطلقة. وعندما هب أطفال الحجارة في الضفة الغربية وغزة وفشلت الموساد أو غيرها من أجهزة المخابرات في التنبؤ بها، وعندما أعلنت أنها ستنتهي خلال أيام أو أسابيع قليلة ثم استمرت الانتفاضة في صعودها ونموها، تأكد بشكل لا يرقى إلى الشك أن الانتفاضة وما نتج عنها من انهيار للأخلاق والإنسانية، هي نتائج مباشرة لجنون العظمة الذي يميز عمل الموساد. شعور بأنك تستطيع

عمل أي شيء تريد لمن تشاء وللمدة التي تريدها، لأنك تملك القوة.. إن إسرائيل تواجه أكبر تهديد لها لأول مرة هذا الأمر خارج عن نطاق السيطرة، في إسرائيل مازالوا يضربون الفلسطينيين وشامير كان يقول: "إنهم يجعلوننا قساة. إنهم يدفعوننا لضرب الأولاد. أليسوا مذنبين؟" هذا ما حدث بعد سنوات وسنوات من السرية: "نحن على صواب، لنكن على صواب مهما يكن"؛ بإبقاء المسؤولين الرسميين، عمداً، بعيداً عن الحقيقة، بتبرير العنف واللا إنسانية بالخداع أو كما يقول شعار الموساد "عن طريق الخداع".

إنه مرض بدأ مع الموساد وانتشر في الحكومة، وفي القسم الأكبر من المجتمع الإسرائيلي، اللغة الأقوى داخل المخابرات الإسرائيلية هي السرية المطلقة التي تحيط بكل الأعمال التي تقوم بها.

المراجع

أولاً: الكتب والأبحاث:

ـ **إبراهيم العابد**: العنف والسلام: دراسة الاستراتيجية الصهيونية، مركز الأبحاث، سلسلة دراسات فلسطينية (رقم "10")،بيروت، مارس 1971.

ـ **مجموعة باحثين**: سياسة إسرائيل الخارجية: أهدافها ووسائلها وأدواتها، منشورات منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، د.ت.

ـ **أحمد بهاء شعبان**: حاخامات وجنرالات الدين والدولة في إسرائيل، الوادي الجديد، القاهرة، 1996.

ـ **أسعد عبد الرحمن**: المنظمة الصهيونية العالمية: تنظيمها وأعمالها، منشورات منظمة التحرير الفلسطينية، فلسطين، 1973.

ـ **العقيد أبو الطيب**: الاستخبارات الصهيونية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1993.

ـ **أوستروفسكي، فيكتور وهوي**: عميل سابق للموساد يكشف النقاب عن أساليب المخابرات الإسرائيلية، هوفمان وشركاه، كلير، هامبورج، 1991.

– **ايفجيني يفسييف**: لفاشية في ظل النجمة السداسية، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، د.ت.

ـ **أيمن العلوي**: الجاسوسية الإسرائيلية تحت المجهر، دار الوفد للطباعة والنشر، لندن، 1993.

– **بيلدوفسكا وبلوخ**: الجاسوسية والجاسوسية المضادة، منشورات البحر المتوسط، بيروت ـ باريس، 1991 .

ـ **جمال الدين حسين**: سري للغاية: أسرار اتصالات القادة العرب مع إسرائيل، ستار برس، القاهرة، 1991.

ـ **جمال حمدان (الدكتور)**: اليهود، كتاب الهلال، القاهرة، 1996.

ـ **حسن شريف (الدكتور)**: المفهوم السياسي، والاجتماعي لليهود عبر التاريخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995.

ـ **ديفيد لاندوا**: الأصول اليهودية: العقيدة والقوة، ترجمة: مجدي عبد الكريم، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1994.

. **دويسون كريسوفر**: منظمة سبتمبر (أيلول الأسود): تاريخها القصير العنيف، روبرت هال وشركاه، لندن، 1994.

ـ **راسم محمد الجمال (الدكتور) وخيرت معوض عياد (الدكتور)**: التسويق السياسي والإعلام، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2005.

. **راسم محمد الجمال (الدكتور)**: نظام الاتصال والإعلام الدولي.. الضبط والسيطرة، الدار المصرية اللبنانية القاهرة، 2005.

ـ **رجاء جارودي**: الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ترجمة: قسم الترجمة، دار الغد العربي ، القاهرة، 1966.

ـ **روجر بور، نيجل بلونديل**: جواسيس العالم، ترجمة: دار الكتاب العربي، دمشق، 1993.

ـ **صباح ياسين (الدكتور)**: الإعلام.. النسق القيمي وهيمنة القوة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2006.

ـ **صلاح أحمد زكي**: نظرية الأمن الإسرائيلي، دار الوسام، دار ابن زيدون، بيروت، 1986.

. **د. عبد الوهاب المسيري (الدكتور)**: الجمعيات السرية في العالم، كتاب الهلال، القاهرة، نوفمبر، 3991.

– **عبدالوهاب المسيري (الدكتور)**: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار شروق، القاهرة، 2000.

ـ **عمر هارون خليفة (الدكتور)**: علم النفس والمخابرات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، 2000.

. **فؤاد الميداني (تعريب)**: الاستخبارات والجاسوسية في لبنان وسورية خلال الحرب العالمية الثانية، د.ت.

. **في أحاديث مع موشى بيرلمان**: بن جوريون يستعيد الماضي، القاهرة، 1966.

ـ **فيصل أبو خضرا**: تاريخ النفوذ اليهودي في أمريكا، العلاقة الأمريكية الصهيونية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، الرياض، 1992.

. **فيكتور أوستروفسكي**: طريق الخداع، سيدرز إنترناشيونال، بيروت، 1990.

. **مجدي نصيف**: الصهيونية في الولايات المتحدة، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 1987.

. **مجموعة جريدة الرواد اللبنانية**: نشاط الغستابو في البلاد العربية، لبنان، د.ت.

ـ **مجموعة من المتخصصين**: سيدة الموساد: ويلهلم ديتل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1993.

. **محاضرة محاكمات المتهمين بالتجسس في مصر**، مستقاة من الوثائق التي نشرتها الصحف المصرية: "الأهرام – أخبار اليوم – الجمهورية – المصور – روزاليوسف".

. **محسن الخضيري (الدكتور)**: الجاسوسية ورجال الأعمال، دار العقاد، مصر، 1992.

. **مجدي الشافعي**: التجسس في عصر الرسول، الطبع الأولي، القاهرة، 1996.

. **محمد حسين شعبان**: شقراوات الجواسيس، دار الشايب، القاهرة، 1994.

. **محمود نعناعة**: الصهيونية في الستينيات: الفاتيكان واليهود، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1994.

. **د. منذر عنبتاوي (الدكتور)**: أضواء على الإعلام الإسرائيلي.. سياسة كسب الأنصار، منشورات منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، د.ت.

ـ **هولت ورينهات ونستون**: إسرائيل: سنوات التحدي.. ديفيد بن جوريون، نيويورك، 1913.

. **وديع سعيد (ترجمة)**: الأخطبوط، قصة الجاسوسية في العالم، د. ت.

ـ **ويلون ريتشارد**: القوات العسكرية الإسرائيلية السرية، شركة تابلنجر للنشر، نيويورك، 1977.

ثانياً: الدوريات "العربية والأجنبية"

- **جريـــدة الاتحـــاد**: الإماراتيـــة، 4/14 ، 12 / 10 /2001 - 6/16، 7/12/ 2002.
- **جريدة الاتحاد الاشتراكي**: المغربية، 2003/12/25 .
- **جريدة الأحرار**: المصرية، 2007/5/16 .
- **جريدة الأسبوع**: المصرية، 2001/4/16- 5 / 3 ، 12 / 4 ، 9 / 2007/6.
- **جريـــدة الأهـــرام**: المصـــرية، 1999/6/7- 2003/8/2- 2007/5/19- 2008/7/2.
- **جريدة الأيام**: الأرض المحتلة، 1999/3/18- 13، 2002/1/23.
- **جريدة أخبار اليوم**: المصرية، 1999/5/8.
- **جريدة البيان**: الإماراتية، 6، 2002/12/17، 9/16، 2004/9/18.
- **جريدة الجمهورية**: المصرية، 2007/3/1.
- **جريـــــدة الحيـــــاة**: اللندنيـــــة، 1996/1/28- 2001/1/28- 2/24، 2002/8/12.
- **جريدة الخليج**: الإماراتية، 2002/8/5- 5،9/9/ 2004.
- **جريدة الدستور**: الأردنية، 1،2،9 / 9/1997.
- **جريدة الرأي**: الأردنية، 27،30 / 9/1997.
- **جريدة الزمان**: اللندنية، 10، 16 / 6 / 1999- 8، 9 / 7 / 1999.
- **جريدة السفير**: اللبنانية، عام 1983، 15/11/1999.
- **جريدة الشبيبة**: سلطنة عمان، 7 ، 13 / 7 / 2004- 4/8/2004.
- **جريدة الشرق الأوسط**: اللندنية، 19 ، 20 / 5 / 2001- 2002/5/15.
- **جريدة اللواء الإسلامي**: المصرية، 2007/6/21.
- **جريدة المصري اليوم**: المصرية، 5/2، 1/3/2007، 2007/5/20.

- **جريدة الميدان**: المصرية، 1998/3/3- 2007/8/3.
- **جريدة الوفد**: المصرية، 2007/6/267.
- **جريدة بلقيس**: اليمنية، 2004/4/27.
- **جريدة جيروزاليم بوست**: الإسرائيلية، 20 ، 26 / 11 / 1982.
- **جريدة صوت الأزهر**: المصرية، 199/6/8.
- **جريدة صوت الأمة**: المصرية، 2005/10/31، 2007/2/12.
- **جريدة عكاظ**: السعودية، 29/4 - 10، 24 / 9 / 2004.
- **جريدة عمان**: سلطنة عمان، 2002/3/3.
- **جريدة معاريف**: الإسرائيلية، أعوام 2000- 2001- 2005.
- **جريدة نداء الوطن**: اللبنانية، أعوام 1994- 1995- 1996.
- **جريدة نهضة مصر**: المصرية، 2007/2/16- 2010/4/22.
- **جريدة نيويورك تايمز** : الأمريكية، عاما 1988، 1989.
- **جريدة هاآرتس** : الإسرائيلية، أعوام 1980، 1981، 2004.
- **مجلة أكتوبر** : المصرية، أعوام 1981، 1986، 1988، 2000.

فهرس